

الْعَرَلُ شَرُّ الْقَلْبِ سَيِّئَةٍ المُقْصِيحَةِ عَنِ الدَّسَائِسِ النَّفْسِيَّةِ

للأستاذ القطب العارف بالله

مصطفى بن كمال البكري الصديقي

ت ١١٦٢ هـ

تحقيق

ناصر صابر الزيات

أحمد فريد المزيدي

د. محمد عبد القادر نصار

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الْعَرَّاسُ الْقَلْبِيَّةُ

المُصْحَاحَةُ عَنِ الدَّيَّاسِ النَّفْسِيَّةِ

للأستاذ العارف

مصطفى بن كمال البكري الصديقي

ت ١١٦٢ هـ

تحقيق

أحمد فريد المزيدي ناصر صابر الزيات

د. محمد عبد القادر نصار





**دارة الكرز
للنشر والتوزيع**

Copyright

All rights reserved ©

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه أو
تسجيله بأي وسيلة أو تصويره دون موافقة كتابية
من الناشر.

Exclusive rights
No part of this publication
reproduced, distributed in any
form or by any means or stored
in a data base or retrieval
system, without the prior written
permission of the publisher.

**دارة الكرز
للنشر والتوزيع**

١٧ ش منشية البكري - مصر الجديدة

Darat al-Karaz,
17 Manshiyyat Al-Bakri St, Cairo

تليفون: ٠٢/٢٤٥٥١٣٠٤

Email: darkaraz@yahoo.com

الكتاب: العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية

المؤلف: مصطفى البكري الصديقي

الناشر: دارة الكرز

سنة الطباعة: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

بلد الطباعة: القاهرة، مصر

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ١٦٧٣/٢٠٠٦

الترقيم الدولي: 6-43-6156-977

العَلَمُ الْقَائِمِيَّةُ
المُفَصِّلَةُ عَنِ الدَّسَائِسِ النَّفْسِيَّةِ

حمداً لك يا ذا الآلاء السابعة والحجة البالغة على رحمتك الواسعة ومغفرتك المتسارعة، حمدك الذي حمدت به نفسك في الأزل، إذ الحمد من الفاني على الباقي تعالى مع عدم شهود تفردك بحقيق الوجود عند الصادقين زلل أي زلل. وكيف لا وقد سبق بها سيد العالمين المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك». ولسان العجز أقول منشداً:

ولسان العاجز يتحرك بمحامد لا تحصي قدرك
فكن الحماد المحمودا فثناء بك لك قد يدرك
يارب العاجز والفاني أصلحني أصلح لي شاني
ليكون ثناءك عنواني ولأفنى بك عن أكواني

وصل اللهم وسلم وبارك يا مطلق النفوس من قيد الجبوس على إمام كل إمام ورئيس كل مرؤوس سيد الأنبياء الفخام وولي الأولياء الكرام، صاحب الحوض والمقام، ومن به كل شيء قام، عبدك ورسولك سيدنا ومولانا محمد، المخصوص من خلقك برؤيتك في الدارين، وعلى آله وصحبه هداة الثقلين، صلاة وسلاماً دائماً دائمين متلازمين، ما تقلبت في النفوس الأنفاس.

وبعد:

فمن الشرف العظيم لهذا العبد العديم أن يقدم لهذا الكتاب الفريد، غير المسبوق في نطاق معالجته لموضوع النفس ومفهومها عند السادة الصوفية المتحققين بذروة سنام العبودية، لاسيما وصاحبه أستاذ عصره وفرد زمانه سيدي مصطفى البكري الذي انتشرت عنه الطريقة الخلوتية انتشاراً غير مسبوق خاصة بعد وفوده إلى مصر مهاجراً ومسارعة العلماء للأخذ عنه، حتى لكانها صارت الخلوتية والأزهر الشريف صنوين أو بتعبيرنا اليوم: وجهين لعملة واحدة.

وقد أوضح ربنا تعالى في كتابه أن منشأ الضلال في الأمم وسبب الإعراض عن الإيمان بها جاء به أنبياء الله تعالى ليس خلو هذه الدعوى عن دلائل الصدق والثبوت ولا إتيان الأنبياء بها تعيا العقول بقبوله من حديث عن وحدانية الخالق جل وعلا، بل الأمر مداره على الجهل تارة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس: ٣٩) وعلى الكبر والجحود تارات: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِقَايَةِ اللَّهِ يَتَحَدَّوْنَ﴾ (الأنعام آية: ٣٣) ﴿فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل: ٢٩) وما ينتج عن ذلك من معاندة الجاحد وتعالى نفسه على الخضوع للحق: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا﴾ (المدثر: ١٦).

وهذا الجحود قد تجلى بأشكال مختلفة باختلاف الأعصر، فقول بعضهم ﴿هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧)، ومطالبة الجاحدين سيدنا شعيباً قبل ذلك أن لا يمس أمره لهم بالصلاة عوائدهم المألوفة بقولهم: ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾ (هود: ٨٧) ورفض قوم سيدنا صالح عليه السلام الانصياع لأمر الناقة، كلها أشكال من أدواء النفوس متبوعة في عصرنا هذا بالنزعة إلى إعلاء العالم الذي هو الدنيا على الآخرة، مما اشتق له تسمية العلمانية، وإعلاء الإنسان - في جزء منه وهو بشريته المحدودة - على أمر الله تعالى مما اصطلاح على تسميته في الغرب بالنزعة الإنسانية، إذ الروح المتعالية والمتسامية على دركات الأهواء لا تعرف لها فضاءً إلا فضاء الرحمة الإلهية ولا مجالاً كي تزدهر إلا مجال ذكر الله الناتج عن خضوع العبودية للإلهية.

فالإنسان في مفهوم العلمانية وما يعرف بالنزعة الإنسانية الغربية نصف إنسان إذا نظر إلى تركبه من ملكات روحانية وجبلية بشرية أو هو أقل من ذلك بكثير إذا نظر إلى خطورة أمر الروح وما يستدعيه أمرها في عاجله وآجله من تحصيل رضا الرب الرحمن.

وكما ذكرنا في بعض حواشي كنا علقنا بها على مختصر القزويني على شعب الإيمان للإمام البيهقي، فالعلمانية مجموعة مبادئ تُنظَرُ تنظيراً للنفس الأمارة بالسوء، وترى في أحكام الشريعة قيوداً على إطلاق الإنسان أزمّة هواه والتقلب في دركات مشتهاه من شهرة

وحب رياسة وجاه ثم في شهوات الجثمان وفي إطلاق اللسان في المحارم والسباب وذكر الناس بالغيبة والبهتان.

العلمانية تقول بحرية الإنسان في فعل ما يشاء وقول ما يشاء شرط ألا يمنع ذلك غيره من فعل ما يشاء وقول ما يشاء!! والإسلام يقول: الإنسان ركب من لطائف تنزل به وتصعد بحسب ما يستعمله لكل لطيفة من أحوال، فالنفس إناء الرغبات، وما لم ترشد سيكون الاعتداء على حق باقي ملكات الإنسان من روح وقلب وسر وغير ذلك. فالعلمانية تنصر النفس على الروح وتهبط بمستقبل المرء من الذرى إلى السفوح إذا إنها ما رأت منه إلا إنيته الترابية ولم تتعرف إلى ما فيه من اللطائف الملكوتية ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ (يونس: ٣٩).

والروح التي ترعرعت ونمت قد أبصرت كلا الأمرين وبان لها سبب البين فصاحبها ينظر أسير النفس كالماء في الإناء ولا يخفى عليه ما في الماء من كدر الغوغاء، فهم عنده هُزئاتٌ وأضحيك لأنه يدري منهم ما لم يدروه من أنفسهم.

والكل في قدر الله وقضائه ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤) فلا يكون لأهل النفوس الدولة - ظاهراً - على أهل العقول والأرواح إلا بمشيئة الكريم الفتح. والعجب كل العجب ممن يزعم تحدي الأقدار وهو في حبسها بالليل والنهار، لا يخرج مراد الحق قيد أنملة وهو تعالى أحاط بعبده، بينا العباد، الضال منهم وذوو الرشاد، كلهم بأمر الله وقضائه.

فالمسلم المسلّم لله وأحكامه في عين السعادة ولو كان في سجن الكدح في الدنيا، والمتمرد على حكم الله في عين الشقاء ولو كان له من ظاهر الدنيا غاية السيادة.

ومن هنا تكمن أهمية هذا السفر الجليل، إذ هو مكتوب بلسان الناظر في الماء يرى ما فيه من الأكدار، وهو أوسع كتاب في هذا المضمار فهو بحق الجامع لأحوال النفوس، والسائر بها في ميدان الهدى والرشاد.

وقد حُقَّ لهذا الكتاب الذي هو من أهم ما صنفه العارف بالله سيدي مصطفى البكري أن ييسر للقراء وأن تستضيء بأنواره الأمة بين يدي الفتن والبلاء. وأخبرني محققه الأستاذ أحمد المزيدي بأن شيخه العارف بالله سيدي مصطفى عبد السلام الأحدي رحمه الله المتوفى سنة ١٤٢٦ هـ كان يتعجل إخراج هذا الكتاب للنور ويتكلم بكلام عال في ضرورة الإسراع في نشره. وقد كنا نود لو استطعنا فعل هذا في حياته الأولى ولكن حالت ظروف مختلفة دون ذلك، فمعذرة إليه رضي الله عنه. وعزائنا أن الكتاب وإن تأخر صدوره نحو العامين فهو يخرج بصورة نرتضيها ويعظم الانتفاع بها إن شاء الله تعالى.

وكان الأخ الشيخ أحمد فريد المزيدي ذو الباع الطويل في تحقيق كتب الصوفية قد حققه على نسخة مصورة من نسخة محفوظة بالمكتبة الأزهرية، وخرج ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية. ولكن أسلوب الأستاذ مصطفى البكري قدس الله سره في الكتاب يتسم بالتوسع في الكلام وبالتعويل على السجع تعويلاً كبيراً، مما يخرج به إلى استعمال بعض الكلمات بالقاموسية بمعنى ندرة استخدامها في الأحوال العادية للكتابة والتأليف، فضلاً عن اضطرار من يلزم السجع إلى ضروب من التقديم والتأخير وألوان من التراكيب الخارجة على المألوف تحصيلاً لالتزامه بإيراد اللفظة المسجوعة في نهاية كل عبارة.

فكان ضرورياً والأمر هكذا أن يحقق النص على مخطوط آخر كي يخرج على أفضل نحو، وهو التزام التزامته دارة الكرز للنشر منذ مطبوعاتها الأولى. فدفعنا بالكتاب مع المخطوط الجديد لمثقف مسلم ذي ذائقة أدبية ولغوية متميزة وهو الأستاذ ناصر الزيات الذي عمل من قبل مع فضيلة المحقق الشيخ عبد الرحمن حسن محمود في تحقيق الطبقات الكبرى للإمام الشعراني الصادر عن مكتبة الآداب بالقاهرة.

وقد أبلى الأستاذ الزيات في عمله في الكتاب بلاء حسناً وبث فيه من تعليقاته المنيرة الكثير تظهر خاصة في الناحية الأدبية، إلا أنه صار على طريقة إثبات الاختلافات بين النسختين في الهامش بغض النظر عن أصوبهما. بينما طريقتنا إثبات نص صحيح في المتن

والإشارة في الهامش إلى الاختلاف بين النسختين حيث يكون الاختلاف ذا فائدة تضيف إلى ما في المتن، مع التنويه ببعض الاختلافات التي تظهر جهدنا التحقيقي، فكان أن أعدنا رفع معظم الحواشي في النص وأنزلنا ما في النص المأخوذ من المخطوط الأول خاصة مع وجود الكثير مما يستحق الضبط والتعليق.

كما ساعدنا في تصحيحه الأستاذ سامي سعفران المصحح بالدار وبذل في ذلك جهداً كبيراً مشكوراً.

وعلى الجملة فقد استلزم الكتاب منا عملاً شاقاً لتصحيحه وتقريبه للقارئ ولكنه التعب الذي تفوق قيمته الذهب. وكيف لا والعبد إذا خدم كتب القوم حَبَّوْهُ من فضلهم بما يليق بأقدارهم.

وها هو الكتاب، واحد من عيون مؤلفات إمام صوفي فريد بارع يخرج أخيراً للنور بعد أن ألفى ما يستحقه من العناية والمثابرة.

أهمية الكتاب

يمثل هذا الكتاب جهداً رائداً في تناول موضوع النفس ومفهومها في التصور الإسلامي، وهو يجمع بين الجانبين العلمي والسلوكي، فيذكر التحقيقات العلمية ثم ينتقل منها للتطبيقات السلوكية. ومن مثال ذلك صرف المصنف قدراً من الجهد لتعريف النفس وبيان الفرق بينها وبين الروح ثم شحذ همة السالكين للوصول إلى تصفية أنفسهم وتخليتها كي يفتح الباب أما تخليتها بالصفات الشريفة والنعوت المنيعة.

كما أن الكتاب يعطي معلومات عن كثرة تفتقد في كتب التراجم عن علاقة المصنف بشيوخه لا سيما الشيخ عبد اللطيف الحلبي الخلوتي والإمام عبد الغني النابلسي، وتصف في بعض الأحيان وقائع ومباحثات وقعت له مع بعض مشايخه خاصة الإمام النابلسي.

كما يذكر المصنف في ثنايا هذا الكتاب أسماء مؤلفات أخرى كثيرة مما يساعد في معرفة تاريخ تأليفها والأسباب التي أدت إلى ذلك والظروف المحيطة بهذا التأليف. فهو

بهذين الاعتبارين الأخيرين ضروري للمهتمين بحياة العارف البكري وتراثه خاصة وللمهتمين بموضوع النفس في الإسلام عامة.

وصف النسختين

أما الأولى فهي نسخة المكتبة الأزهرية وهي نسخة جيدة الخط كثيرة الخطأ والسقط كان البدء في العمل بالكتاب بها من قبل الأستاذ المزيدي، وتاريخ نسخها سنة ١٢٩٦ بيد أحمد حسن البنهاوي رحمه الله وتقع في صفحة ومسطرتها وقد رمزنا لها في نهاية الأمر بالرمز (ب) لأن اعتمادنا تحول عنها إلى النسخة التالية.

والثانية هي مخطوطة دار الكتب المصرية وقد جاء العنوان فيها كما يلي: محفوظة تحت رقم ١٠٥ تصوف حليم. وكتب على غلافها بجوار العنوان: في ملك الفقير أحمد السلاموني. وأسفل عنوانه قصيدة لمحمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح المنوفي الشافعي في مدح عالم من علماء الشافعية يكنى أبا العباس ولم نتيين من هو تحديداً.

وتاريخ نسخها سنة ١٢٦٣، أي بعد وفاة مصنفها بسنة واحدة. ومما يزيد هذه النسخة قيمة أن ناسخها أحد تلاميذ شيخ الإسلام محمد بن سالم الحفني، وقد ذكر هذا التلميذ نفسه باسم محمد فقط. ولهذا الناسخ اجتماع كذلك بسيدي مصطفى البكري كما لا يخفى إذ وفاة الأستاذ البكري سنة ١١٦٢.

وعليه فقد استقررنا على أن تكون هذه النسخة هي أصل هذا الكتاب لدقتها ووزنها العلمي والتاريخي، فرمزنا لها بالحرف (أ).

ترجمة المصنف^(١)

هو سيدي مصطفى البكري بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين الصديقي الحفني الدمشقي البكري، الأستاذ الكبير والعارف الرباني الشهير

(١) اختصرنا ما كتبه المرادي في «سلك الدرر» في ترجمة المصنف، وأثبتناه بتمامه في «المطلب التام السوي شرح ورد الإمام النووي» فلينظر هناك لتفاصيل أخرى عن حياة صاحب الكتاب قدس الله سره.

صاحب الكشف والواحد المحدود بألف، صاحب التأليف والتحريرات والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً أحد أفراد الزمان وصناديد الأجلاء من العلماء الأعلام والأولياء العظام العالم العلامة الأوحد أبو المعارف قطب الدين.

ولد بدمشق في ذي القعدة سنة ١٠٩٩، وتوفي والده الشيخ كمال الدين وعمره ستة أشهر فنشأ يتيماً موفقاً في حجر ابن عمه المولى أحمد بن كمال الدين بن عبد القادر الصديقي وبقي عنده في دارهم الكائنة قرب البيارستان النوري، واشتغل بطلب العلم بدمشق فقرأ على الشيخ عبد الرحمن السليمي، ومحمد أبي المواهب الحنبلي. وكان يطالع له الدروس الشيخ محمد بن إبراهيم الدكدكجي، ومع ذلك قرأ عليه متن الاستعارات وشرحها للعصام. وحضر على الشيخ أبي المواهب المذكور فتح الباري للحافظ ابن حجر. وأخذ أيضاً عن الملا إلياس بن إبراهيم الكوراني والمحب محمد بن محمود الحبال وأبي النور عثمان بن الشمعة والشيخ عبد الرحيم الطواقي وإسماعيل بن محمد العجلوني وملا عبد الرحيم بن محمد الكابلي. وأجاز له الشيخ محمد بن محمد البديري الدمياطي الشهير بابن الميت وأخذ عنه المسلسل بالأولية.

ولازم الأستاذ الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي وقرأ عليه «التدبيرات الإلهية» و«الفصوص» و«عنقاء مغرب» ثلاثها للشيخ الأكبر قدس سره، وقرأ عليه مواضع متفرقة من «الفتوحات المكية» وطرفاً من الفقه. وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلوتي ولقنه الأسماء وعرفه حقيقة الفرق بين الاسم والمسمى.

وفي سنة ١١١٩ سكن إيوان المدرسة الباذرائية ونزل في حجرة بها بقصد الانفراد والاشتغال بالأذكار والأوراد، وأذن له شيخه المرقوم بالمبايعة والتخليف سنة عشرين إذناً عاماً فباع في حياته، وكانت تلك أزهر أوقاته، وسمعه مرة يقول: الجنيد لم يظفر طول عمره إلا بصاحب ونصف. فقال له: وكم ظفرتم أنتم بمن يوصف بالتمام؟ فقال له: أنت إن شاء الله.

ثم وافت شيخه المنية فتوجه تلامذته إلى صاحب الترجمة واجتمعوا عليه وجددوا أخذ البيعة عنه فشاع خبره وذاع أمره وكثر جمع جماعته إلى سنة ١١٢٢. وفي ناسع عشر محرم توجه من دمشق الشام إلى زيارة بيت المقدس، وهناك أخذ عنه جماعة الطريق ونشر ألوية الأوراد والأذكار. وتوجه إلى زيارة الإمام العارف سيدي علي بن عليل العمري فاجتمع بالشيخ الإمام نجم الدين بن خير الدين الرملي وكان أيضاً قادماً بقصد الزيارة فسمع عليه صاحب الترجمة أول «الموطأ» للإمام مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني بروايته له عن والده الخير الرملي بسنده المعلوم وأجازه بباقيه وبجميع ما يجوز له روايته. ثم عاد صاحب الترجمة بعد استيفاء غالب الزيارات إلى زيارة نبي الله السيد موسى الكليم صلى الله على نبيينا وعليه وسلم.

وبعد حضوره للقدس شرع في تصنيف ورد السحر وهو ورد يقرؤه آخر الليل كلُّ مرید لطريقته وأمر جماعته بقراءته. وقد اعترض عليه بعض المخذولين بأن ذلك بدعة في الطريق فعرضه على الشيخ حسن بن الشيخ علي قره باش في أدرنة فأجاب بأنه حيث إنكم رأيتموه مناسباً فهو المناسب.

ثم عاد إلى دمشق في شعبان من السنة المرقومة وانتشرت طريقته وخفقت في الإقليم الشامي ألويته وهو فيما بين ذلك مشغول بالتأليف والزيارات نازلاً في المدرسة الباذرائية كما تقدم، واستقام على ذلك إلى سنة ١١٢٦. ثم قصد بيت المقدس للزيارة، فتوجه إليها ونزل خلوة في المسجد الأقصى وأقام هناك في إقامة الطريق والأذكار ونشر العلم إلى شعبان، فعاد إلى دمشق وأقام بها كذلك ثم توجه منها إلى حلب ومنها ذهب إلى بغداد إلى زيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره وأقام بها نحو شهرين ثم رجع وتوجه إلى زيارة سيدي إبراهيم بن أدهم.

ثم حج بيت الله الحرام مع عمه محمد أفندي البكري. وبعد العودة رحل إلى القدس الشريف فتزوج وأقام هناك إلى أن قدم والي مصر من جهة دمشق لزيارة بيت المقدس وهو الوزير رجب باشا فزار صاحب الترجمة وصار له فيه مزيد الاعتقاد، ثم اصطحبه معه

عائداً، فدخل مصر وأقام بها مدة وأخذ عنه بها خلق كثيرون أجلهم النجم محمد بن سالم الحفني.

ثم توجه لزيارة القطب العارف سيدي السيد أحمد البدوي قدس الله سره ومن هناك سار إلى دمياط وأقام هناك في جامع البحر وأخذ بها عن علامتها ابن الميت البديري وقرأ عليه الكتب الستة والمسلسل بالأولية وبالمصافحة وبلغنا أنا أحبك وأجازه إجازة عامة بمروياته وتأليفاته.

وفي سنة ١١٣٧ أخذ العهد على جميع طوائف الجان أن لا يؤذوا أحداً من مريديه، الآخذين عنه أو عن ذريته، بمشهد كان فيه صاحبه وتلميذه السيد محمد المغربي التافلاقي وغيره.

وفي شوال سنة ١١٤٠ توجه منها إلى دمشق فوصلها ونزل في دار الشيخ إسماعيل العجلوني، وبعد مدة أيام الضيافة نزل حجرته في المدرسة الباذرائية، وبعد برهة زار الأستاذ الشيخ عبد الغني فرآه يقرأ في «التدبيرات الإلهية» ولم تطل إقامته بها بل شمر عن ساعد الهمة إلى الأراضي المقدسة فرحل متوجهاً إلى بلاد صفد وفي أوائل ذي الحجة سنة ١١٤٠ وُلِدَ له السيد محمد كمال الدين.

وأقام في القدس وهو في تأليف وتصنيف وإرشاد إلى رب العباد إلى أن دخل شوال سنة ١١٤٥ فعزم على الحج وتوجه مع رفقائه ومنها إلى مدينة الرسول فنال أسنى مراد ومأمول ثم إلى مكة المشرفة وقضى مناسك الحج وعاد في صحبة الحج الشامي، وصحبه إلى القدس الفاضل العالم الشيخ محمد بن أحمد الحلبي المكتبي ومكث عنده نحو أربعين يوماً وأدخله إلى الخلوات وأفاض عليه كامل الثبات وكان لقنه بعض أسماء الطريق ثم أتمها هناك وأجاز له بالبيعة للغير وأقامه خليفة يدعو إلى الله.

إلى أن دخلت سنة تسع وأربعين فعزم على الحج وفي أثناءها توجه إلى مصر وصحبه جمع كثير وظهرت كلمته فيها، ولما بلغت تلامذته مائة ألف أمر بعدم كتابة أسمائهم وقال هذا شيء لا يدخل تحت عدد.

وفي سنة ١١٥٢ توجه إلى الديار القدسية ولم يزل بها إلى سنة ١١٦٠ ثم توجه إلى مصر فاستأجر له الأستاذ الحفناوي داراً قرب الجامع الأزهر بأمره، وعندما وصل مصر تلقاه الأستاذ الحفني ومعه خلائق كثيرون من علماء مصر وأعيانها، وأقام هناك مقبلاً على الإرشاد والناس مزدحمون على بابه حتى ليندر أن يتخلف عن تقبيل يده جليل أو حقير، ثم عزم على الحج سنة ١١٦١.

وفي ربيع الثاني سنة ١١٦٢ توقع مزاجه بحمى مطبقة وتمرض إلى ليلة الاثنين ثامن عشر الشهر المرقوم فتوفي بعد العشاء الآخرة ودفن بعد طول منازعة في تربة المجاورين وقبره مشهور يزار ويتبرك به.

وقد أخذ الأستاذ المترجم عن محمد بن أحمد عقيلة المكي وأحمد بن محمد النخلي المكي وعبد الله بن سالم البصري المكي وأجازوا له. وأخذ الطريقة النقشبندية عن القطب السيد مراد الأزبكي البخاري ولقنه الذكر على منهج السادة النقشبندية. وأخذ عن الأستاذ الأستاذ محمد بن إبراهيم الدكدكجي وبه تخرج وعلى يديه سلك. وأخذ أيضاً عن الأستاذ العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي وكان الأستاذ يثنى عليه كثيراً، وعن أحمد بن عبد الكريم الغزي العامري وعن أبي المواهب الحنبلي وعن مصطفى بن عمر وعن غيرهم.

وأخذ عنه خلائق كثيرون منهم سبعة ملوك من طوائف الجان وأسماؤهم محررة في بعض مؤلفاته وأخذ عليهم عهداً عامة وخاصة نفعها خاص وعام، وألف مؤلفات نافعة منها «الكشف الأنسي والفتح القدسي» وشرحه بثلاثة شروح، ومنها شرحه على الهمزية، وشرحه على ورد الوسائل، وشرحه على حزب الإمام الشعراني وشرحه على صلاة العارف الشيخ محيي الدين الأكبر قدس سره، وشرحه على قصيدة المنفرجة لأبي عبد الله النحوي، وشرحه على قصيدة الإمام أبي حامد الغزالي التي أولها:

السَّـدَّةُ أودت بـالمهـج يارب فعجل بالفرج

وله اثنتا عشرة مقامة واثنتا عشرة رحلة وسبعة دواوين شعرية وألفية في التصوف وتسعة أراجيز في علوم الطريقة ورسالة سماها «تبريد وقيد الجمر في ترجمة الشيخ مصطفى

بن عمرو» و«مرهم الفؤاد الشجي في ذكر سير من مآثر شيخنا الدكدكجي» و«المنهل العذب السائغ لوراده في ذكر صلوات الطريق وأوراده» و«الروضات العرشية على الصلوات المشيشية» و«كروم عريش التهاني في الكلام على صلوات ابن مشيش الداني» و«فيض القدوس السلام على صلوات سيدي عبد السلام» و«اللمحات الرافعات غواشي التدهيش عن معاني صلوات ابن مشيش» و«الورد السَّحَرِي» الذي عمت بركاته البقاع، وشرحه ثلاثة شروح أحدها سماه «الضياء الشمسي على الفتح القدسي» في مجلدين ضخمين والثاني «اللمح الندسي على الفتح القدسي» والثالث الذي لكشف أسرارهِ باعث «المنح الأنسي على الفتح القدسي».

ومن مؤلفاته «السيوف الحداد في الرد على أهل الزندقة والإلحاد» و«الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب»، و«الوصية الجنية للسالكين في طريق الخلوتية» و«النصيحة الجنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية» و«الحواشي السنية على الوصية الحلبية» و«بلوغ المرام في خلوتية الشام» و«نظم القلادة في معرفة كيفية إجلاس المريد على السجادة» وبلغت مؤلفاته مائتين واثنين وعشرين مؤلفاً ما بين مجلد وكراسين، وله نظم كثير يقارب اثني عشر ألف بيت.

وله كذلك ألفية في التصوف و«تشيد المكانة لمن حفظ الأمانة» و«تسليية الأحزان وتصلية الأشجان» و«رشف قناني الصفا في الكشف عن معاني التصوف والمتصوف والصفاء»، و«المدام البكر في بعض أقسام الذكر» و«الثغر البسام فيمن يجهل من نفسه المقام» و«الكأس الراقق في سبب اختلاف الطرائق» و«التواصي بالصبر والحق امتثالاً لأمر الحق» و«الوارد الطارق واللمح الفارق» و«الهدية الندية للأمة المحمدية» و«الموارد البهية في الحكم الإلهية على الحروف المعجمة الشهية» و«جمع الموارد من كل شارد» و«الكلمات الخواطر على الضمير والخاطر» و«الجواب الشافي واللباب الكافي» و«جريدة المآرب وخريدة كل سارب شارب» و«هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب» و«الكوكب المحمي من اللمس بشرح سلاف تريك الشمس» للجيلي، وشرح على بيت

من تائية ابن الفارض و«رسالة الصحبة التي أنتجتها الخدمة والمحبة» ورسالة في «روضة الوجود ورفع الستر والردا عن قول العارف أروم وقد طال المدى» و«أرجورة الأمثال الميدانية في الرتبة الكيانية» و«المطلب الروي على حزب الإمام النووي»^(١) وله شرح على ورد الشيخ أحمد العسال وشرح على رسالة سيدي الشيخ أرسلان و«البسط التام في نظم رسالة السيوطي المقدام» وله «الدر الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق» و«الفروض البكرية على الصلوات البكرية» و«الصلاة الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة» و«نيل نبل وفا على صلوات سيدي على وفا» و«المدد البكري على صلوات البكري» و«الهبات الأنورية على الصلوات الأكبرية» و«اللمح الندية في الصلوات المهدية» و«النوافح القريية الكاشفة عن خصائص الذات المهدية» و«الهدية الندية للأمة المحمدية فيما جاء في فضل الذات المهدية».

وله رحمته «بهجة الأذكياء في التوسل بالمشهور من الأنبياء» و«الابتهالات السامية والدعوات النامية» والورد المسمى بـ«التوجه الوافي والمنهل الصافي» و«التوسلات المعظمة بالحروف المعجمة» و«الفيض الوافر والمدد السافر» في ورود المسافر و«الورد الأسنى في التوسل بأسمائه الحسنى» و«سبيل النجاء والالتجاء في التوسل بحروف الهجاء» وأوراد الأيام السبعة ولياليها.

وقد ترجم رحمته كثيراً من مشايخه، ومن ذلك «الكوكب الثاقب فيما لشيخنا من المناقب» و«الثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم» و«الفتح الطري الجني في بعض مآثر شيخنا الشيخ عبد الغني» و«الصراط القويم في ترجمة الشيخ عبد الكريم» و«الدر المنتثرات في الحضرات العندية في الغرر المبشرات بالذات العبدية المحمدية». وله ديوان «الروح والأرواح»، وله «عوارف الجواد»، أبدع فيه وأغرب وجعله مبنياً على ذكر وقائعه من ابتدائه إلى انتهائه على الإجمال.

(١) وهو كتابنا هذا.

وكان ﷺ من أكابر العارفين وأجل الواصلين وقد وقفت له على قصيدة تنبئ عن بعض أحواله وسنى أقواله وقد ضمن فيها البيت المشهور:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه لآتِ بما لم تسطعهُ الأوائِلُ
وبالجملَة فقد كان المترجم ﷺ من أفراد العالم علماً وعملاً وزهداً وورعاً وولاية
قدس الله روحه ونورَ مرقدِه وضريحه وتتابعَت له الصلاة الغيبية في البلدان إلى تمام عامه
برحمة المنان ورثاه كل شعراء عصره، فرحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

وقد أفرد ولده السيد محمد كمال الدين البكري ترجمته بكتاب سماه «التلخيصات
البكرية في ترجمة خلاصة البكرية» بث فيه بعض مزاياه وما كان عليه من الأحوال
الجليلة. وعلى كل فاستيفاء أحواله يكاد يعد من المحال لأن أولياء الله تعالى لا يمكن حصر
أوصافهم لما وهبهم الله تعالى من فضله.

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ

الحمد لله العليُّ القدُّوس، الوليُّ المطلق من قيد الحبوس، الذي جعل النفس منشئة كل عيب، منسية كل غيب، ذات وجه عبوسٍ ورأيٍ معكوسٍ، فكم نازعت الربوبية حتى أُلقيت في بحر الجوع، وجعل الرُّوح موطن الرُّوح والصفاء، والقلب مهبط الأنوار ومسقط نجوم الوفاء، والسرُّ يُنبوع كلِّ سرٍّ مسرٍّ حكمه الخفاء، شمسُه لا يُؤذَن لها في الطلوع، وصيِّر الخفى مأوى كلِّ كيل ميلٍ وفيٍّ، والأخفى جامعاً هامعاً بالمدد الأصفى لمن اصطفى لامعاً برق ظهوره نحوره لدى من بالحضور جيء؛ لأنه الخفاء الفائز من المعارف بجموع الكثرة، فأنعم بها من جموع.

فالسعيد ابن السعيد من خلص من آفات نفسه وسقي كؤوس التهاني [عن] (١) التذاني في حظائر قدسه، وأخلص السر في السير، وحلَّ وثاقه من الوقوف مع حدسه، وركب سفينة النجاة، وامتألت برياح النجاح منها القلوع، دخل أودية القواد؛ فإنها كما قيل ألف وادٍ، وتحقق بمواقع نجوم علومه حتى بلغ المرام والمراد، وأسرى بسرّه السماوات الأسرار، فأدرك سهاماً منذ عانق الشُّهاد، وبدت له الطوالع، فأخفى مكنون سرّها بين الضلوع، فحصل لذاته بعد تحصيل غرائب لذاته المعراج القلبي والسراج الوهاج الباطن اللَّبِّي الكاشف الراشف صاحبه عن المنزل الإلهامي؛ فلذا يقول: حدثني قلبي عن ربي، حتى صار ذا أمرٍ مطاعٍ وقولٍ مسموعٍ.

كل ذلك بعد التحرر عن رِقِّ النفوس والذوق من شراب الإخلاص الذي يقال فيه لا عطر بعد عروس، وامتألت الأواني بعجائب المعاني للمعاني، وتكفُّ الأقداح والطرسوس، فهناك يُهنئ السالك ويُمْنى لوقوفه على الأصول والفروع.

(١) كذا ورد بالمخطوطة.. ولعل لفظ «بعد» أقرب للمعنى.

لكن يجب على طالب هذه المطالب الراجي أن يكون لنفسه وهواه قاهراً غالباً لهما في الغالب وأن يلتحق نسباً وحسباً بنبي غالب، وينقطع موصول بعاده، ويتصل من تقريبه حبله المقطوع [و] أن يدأب على اقتفاء أثر السيد المقتضى والسند المجتبي المصطفى والرسول المرتضى الذي حبه طفاً، ومحبه هو الهائم الواله وسواه غير ولوع، فإن من حاد عن شريعته ومنهاجه ضلّ وزلّ قدم سيره، وطفئ نور سراجيه، وانمحى رسمه واسمه من درجه وكمّة كامل ابتهاجه؛ فإنه الباب الأعظم الذي لا يدخل من غير بابه المرفوع، وليس لنا على التوفيق علامة ودليل إلا الاتّباع من الأتباع لأكمل داع، وأجمل دليل، وأشرف من أشرف^(١) على كل مشرف مشرف، واشتفى به غليل كل عليل، ورقي لسبع حية المحبة، ولديغ عقرب القرب؛ فهو في الملدوغ والمسلوع صلى الله عليه وسلم^(٢) وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره وأحبابه وأحزابه، الذين تخلصوا مذأخلصوا من أسر الشهوات والسهوات؛ لشربهم من أكوابه، وقربهم من عتبات اقترابه، متدرّعين من الصدق والأدب أحسن دروع، وعلى التابعين لهم بإحسان من كل محسان سلّم من شرّ نفسه المنازعة، وجاهد فيها حقّ الجهاد بعزيمة شديدة سديدة منها الحظوظ نازعة، وأقبل بهمم عالية غالية من الأهوال غير جازعة، فحظي بدوق لذة الخضوع وهزة الخشوع، وسلّم تسليماً وعظم تعظيماً وكرّم تكريماً، ما تجافت عن المضاجع جنوب أهل الهجوع.

وبعد...

فيقول: أتأء^(٣) الذنوب وإناء العيوب مصطفى المعترف بتقصيره المغترف من بحر تفريطه وتبذيره، المقرّ قبل الوصول إلى المقرّ، يوم يُقال: أين المقرّ بموافقة نفسه ومحافتها دون مخالفتها، الجانحة لمحاربتها، والجانح بها هو لمساالتها، المذعن أن سلطانها هو الغالب

(١) يميل الإمام المؤلف رحمه الله إلى محسنات بديعية قد تغرب المعنى بيد أنها ترين العبارة. ومن هنا كان لفظ أشرف الأولى من أفعال التفضيل والثانية بمعنى ما بين أو اطلع وكذا الحال في مشرف.

(٢) هو ﷺ في كل نفس بشرية بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٧).

(٣) صيغة مبالغة من «أتى».

عليه، وأمرها هو النافذ إذا وُجِّهَتْ به إليه: طالما غَرَّتني النفس الخنيسة، وعرتني عن الملابس النفيسة، وأوهمتني أني في الحاصل، ودهمتني بخيلها الدُّهم^(١) المملوءة الخواصل^(٢)، وأفهممتني أن المفصول واصلٌ، وأسهممتني بسهم خضاب خَطَلها النَّاصل، فإذا كل ما ذَكَرْتَه سرابٌ وبرقٌ خَلَب، ليس معه إلا شبيهه من السحاب، وأن كل ما سَوَّلته محالٌ يهبط الحال بأشرف المحال إلى أنزل حالٍ، أصدُّها فلا تصدُّ، وأردُّها فلا تردُّ، أذكرها فلا تتذكر، وأُعرِّفها فتتجاهل وتتكر وتعلل بالأمانى الكاذبة المشبهة لعاب الشمس، وتتسلى بلعلَّ وعسى وسوف، فبعدت عن مطالبها بعد أمس . لها عند ظهور الحق رَوَّغان الثعلب، وتلون الحِرَب^(٣)، شأنها الأغلب؛ فهي أسحر للعقول من سحرة الهند، تقول: معي وعندى، وليس لها معية ولا عند^(٤)، لها من التيه مِشية السَّرطان، تحب كالبوم الخراب لا العمران، تكلفني بشهواتها بيض الأنوق^(٥) ومياط^(٦) المعيق^(٧)، فأبذل جهدي في تحصيل مرادها لتساعدني إذا سعيت في إسعادها، فأراها تتعاقس عن إسعافي، وتنشط عند ما فيه تِلافي دون تِلافي^(٨)؛ لتحقيقها أن موقعها لدى سالم كموقع سالم من سالم^(٩)، وهي عند حظوظها أفرغ من حجام ساباط، وأبلغ في اقتحام الآثام ممن اعتراه الحِباط.

(١) الدهم: جمع أدهم وهو الأسود من الخيل.

(٢) امتلاء الخواصل صفة للطير لا الخيل ولعل الكاتب رحمه الله أثر ذلك اتساقاً للسجع أو على سبيل الاستعارة.

(٣) جمع حريابة

(٤) كذا ورد في المخطوطة ولعل «عندي» تتسق مع ما ينحو إليه المؤلف من توخي السجع.

(٥) الأنوق: طائر أبيض يبيض في قنن الجبال، فيبضه في حرز إلا أنه يطعم فيها.

(٦) مياط: عدول.

(٧) المعيق: هو الذي تعاقه الأمور عن حاجته.

(٨) حق الباء أن تحذف لكون «تلافي» مضاف مجرور، ولكن المصنف قدس سره أثبتها مراعاة للسجع.

(٩) جاء في الحاشية بالمخطوط: قوله: من سالم هو بن عبد الله بن عمر كان لموقعه من قلبه يقبله ويقول شيخ تقبل

شيخاً سالم الأول مولى هشام الغول فيه يردوني عن سالم وأرده وجد... بين العين والأثنى سالم. اهـ

فنبهتها من سِنَّة الغفلة، فتمادت؛ وقلت لها: هُيِّي^(١) من نومك، فعادت وعادت، فجزّدت لها سيف الخلاف، وقلت: وجب الجهاد فيك من غير خلاف، فإذا أنا أرخص عندها من قاضي منى، وأجهل بدسائسها من قاضي جبل فطال العنا، وصار الحرب سجال، واتسع المجال، وقلت لها: ستندمي ندامة الكسْفَى غداً، وتشتم بك لصفقة أبي غيشان العدا، فقهقته من جهلها ساخرة، وقالت: أملي في الرحمة الواسعة في الآخرة، فحاجبتها فلم تصغ للحجج، وخضت معها اللُّجج، فما شبهتها إلا براحة الصباع في القبح أو الكلاب الجرب في النُّبح لا تهوى إلا الهوان، فما أشبهها بينات وردان (هبنقة)^(٢) بها يقتدي، وأشعب بها يهتدي، فما هي إلا بيت إسكاف ومجمع الاختلاق والاختلاف.

ولم أزل معها ما بين كر وفر في حَرٍّ إلى أن جاوزتُ نصف أعمار هذه الأمة^(٣)، وهي تتماهى في الغفلة المدلّمة، وقاربتُ الأربعين التي من لم يغلب بعدها خيرُهُ على شرِّه أمرُهُ الصادِقُ أن يتبوأ مقعده من النار، فويلٌ للمستقر^(٤) من مستقره.

فقلت كما قال النبيه الجدير بالتنبيه: كنت في رقدة الشباب فما استيقظت لها، ولمتي شططاً، وكان نذير الحق قد جاءني من الصُّبا حتى اشتعل الرأس مني لما اشتعل القلب شيئاً، فلم أوقره^(٥) ولم أنتبه من رقادي إلى أن بدا وَهْنُ العظم وأنا في التماهي، فبعد مضي

(١) في (ب): هُيِّي.

(٢) ربما يكون المقصود ب هبنقة هبنكة وذلك بتفخيم الكاف في النطق ومعناها الحمق والضعف والكسل والسعي بالنميمة (المعجم الوسيط).

(٣) المقصود أن المصنف قدس الله سره كان تجاوز الثلاثين أو الخامسة والثلاثين لقوله ﷺ: «أعمار أمتي بين الستين والسبعين».

(٤) أي النازل في سقر، دركة من دركات النار.

(٥) إشارة إلى قول سيدي الإمام البوصيري في بردة المديح المباركة:

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت	من جهلها بنذير الشيب والهزم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	ضيف ألم برأسي غير محتشم
لو كان يعلم أي ما أوقره	كنمتُ سرّاً بدا لي منه بالكتم

هذه المدة المديدة ودنو الأجل المحتوم ساقطني الأقدام إلى نحو بلاد الروم لازالت محميةً مرعيةً برعاية الحي القيوم مصانةً من الأعداء، ما رُجِمَت الشياطينُ بالنجوم عام ألف ومائة وخمسة وثلاثين لسرّ مكتوم، وقد ذكرت سبب التوجه لها في الرحلة المسماة «بتفريق الهموم وتفريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم»، فورد عليّ وارد غيبٍ من الحق أيقظني من غفلتي حتى كدت بمن مات فانتبهَ الحَقُّ، فرأيت كأني كنت في تيه بني إسرائيل^(١) وقد قاربت مدة إقامتي فيه مدة إقامتهم إلا قليلاً، ونظرت بعين البصيرة لا العين البصرية، فإذا النفوس قادت أصحابها بسلاسل خفية تجرهم بها للمقامات القصية، وأكثر أهل الدعاوى الكاذبة الذين لهم نفوس جاذبة في مَهْمِهِ انقيادهم لها يسرحون وبذلك الوادي المهول يمرحون، لا يجدون بل يَمَزْحُون. فهالني هذا المنظر الخطير العسير، وأمالي للإجابة هذا الاشتراف اليسير، ولما شاهدت بعض دسائس النفس الأمارة ورفع الحق جلّ جلاله عن عين الفؤاد كثيف الستارة، فتحققت أن الخلاص منها أمرٌ يندر على الكمال وجوده، ويقلّ في أبناء هذا الزمان شهوده، ولو أن أحدهم جاهد السنين الكثيرة فلا بد من بقايا ترجعه إلى تطلب الرّاحات، ويُصيره هواه أسيره.

فعندما لاح لعياني ما استيقنته جناني أردت أن أجمع وريقات فيما قيل في معناها، وكيف يطلق معناها من حبس مغناها، وأذكر بعض تعاريف العرفاء لها من كل مخلص مخلص منها ما لها، ليتنبّه السّيار لدسائسها، ويعرف ما عليها وما لها، ويقف على ثمرة مجاهدتها ومآلها، ولينتفع بها من أراد الله نفعه من أحيائي وإخواني، ويتنبه لمعاداتها من والاه، وظن أنه بمجاهدته فيها عانى.

وأن أسمى هذه الرسالة المورثة لمأسور نفسه البسالة «العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية».

ومن الله أطلب الإعانة وأستمد منه الإبانة إنه القادر المالك المنجي من جميع المهالك.

(١) أقام بنو إسرائيل في التيه أربعين عاماً يقول تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٦).

تعريفات النفس

اعلم أن النفس قد اختلف فيها، هل هي الروح أو غيره؟ فأهل اللغة لم تفرق؛ فقالوا ، النفس : الروح، وفرق غيرهم، قال في المختار^(١): النفس الروح، يقال: خرجت نفسه، والنفس الدم، يقال سالت نفسه، وفي الحديث: «ما ليس له نفسٌ سائلةٌ فإنه لا ينجس الماء ما دامت فيه»^(٢)، والنفس الجسد، ويقولون ثلاثة أنفس، فيذكرونه لأنهم يريدون به الإنسان ونفس الشيء عنه يؤكد به، يقال: رأيت فلاناً نفسه وجاءني بنفسه اهـ.

وقال شيخنا الشيخ عبد الغني النابلسي - فَسَحَ اللهُ في أجله^(٣) - في شرحه على رسالة ابن كمال باشا الذي سماها «مفتاح الفتوح في مشكاة الجسم وزجاجة النفس ومصباح الروح» بعد سرد عبارات كثيرة: «وقال ابن القيم في كتاب الروح: قال النظام: الروح جسم، وهي النفس، وزعم أن الروح حيٌ بنفسه، وأنكر أن الحياة والقوة معنى غير الحي القيوم».

وقال آخرون: الروح عَرَضٌ^(٤).

وقال قائلون منهم جعفر بن حرب: لا ندري الروح جوهرٌ أو عَرَضٌ، واعتلوا^(٥) في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥)، ولم يخبر عنها ما هي لا أنها جوهرٌ ولا عرضٌ، وكان الجبائي يذهب إلى أن الروح جسمٌ، وأنها غير الحياة، والحياة عرضٌ، وزعم أن الروح لا يجوز عليها الأعراض.

(١) انظر: مختار الصحاح (ص ٨٠٤)، والصحاح (٣/ ٩٨٤).

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٣٣٨).

(٣) انتقل سيدي عبد الغني النابلسي إلى جوار ربه سنة ١١٤٣ هـ بعد الفراغ من تأليف هذه الرسالة بست سنوات، وشهرته تغني عن تعريفه رضي الله عنه ونفعنا به.

(٤) العرض ما قام بغيره، ضد الجوهر وهو ما قام بنفسه، فالعرض كالسخونة يقوم بالجوهر وهو الجسم.

(٥) في مخطوطة (ب) واعتصموا وكلاهما يؤدي المعنى بيد أن واعتلوا بمعنى تعالوا بالآية الكريمة أو برروا رأيهم بها بينما اعتصموا تفيد أنهم تقووا بالآية المباركة فضلاً عن كونها اقتباس من القرآن العظيم. (المحقق)

وقال قائلون: ليس الروح شيئاً^(١) أكثر من اعتدال الطبائع الأربعة، ولم يرجعوا من قولهم إلى المعدل، ولم يثبتوا في الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع، التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

وقال قائلون: إن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربعة، وأنه ليس في الدنيا إلا الطبائع الأربعة والروح، واختلفوا في الروح، فثبتها بعضهم طباعاً، ويثبتها بعضهم اختياريّاً^(٢).

وقال قائلون: الروح: الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات، وكذلك قالوا في القوة.

وقال قائلون: الروح: الحياة، به الحرارة الغريزية.

وكل هؤلاء الذين حكينا قولهم في الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هي الروح، وكان الأصمُّ لا يثبت الحياة والروح شيئاً غير الجسد، ويقول: ليس العقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذي أراه وأشاهده.

وكان يقول: النفس هي البدن بعينه لا غير، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا أنها معنى غير البدن.

وذُكِرَ عن أرسططاليس أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت [الشف^(٣)] والكون، وأنها بسيط^(٤) منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير، وأنه لا يجوز عليه صفة قلة ولا كثرة، وقال: وهي على ما وصفت في انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية، وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير.

(١) في (ب): حيّاً .

(٢) لعل الأولى أن تكون العبارة: ويثبت بعضهم لها اختياريّاً.

(٣) الشف: بالكسر هو النقص، وهو من أساء الأضداد، وبالفتح هو الستر الرقيق، وهو أظهر في معنى الجملة.

(٤) أي شيء غير مركب.

وقال آخرون: بل النفس معنى موجود ذات^(١) حدودٍ وأركانٍ وطولٍ وعرضٍ وعمقٍ،
وأنها غير مقارنة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليها حكم الطول والعرض والعمق، وكل
واحدٍ منها يجمعه صفة الحدّ والنهاية.

وحكى الحريري عن جعفر بن مبشر: أن النفس جوهرٌ ليس هو هذا الجسم وليس
بجسم، ولكنه معنى باين الجواهر والجسم.

وقال آخرون: النفس معنى غير الروح، والروح عين الحياة، والحياة عنده عرضٌ،
[وهو أبو الهذيل].

وقال جعفر بن حرب: النفس عرضٌ من الأعراض يوجد في هذا الجسم، وهي أحد
الآلات التي يستعين الإنسان بها على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبههما، وأنها غير
موصوفة بشيءٍ من صفات الجواهر والأجسام، هذا ما حكاه الأشعري.

وقالت طائفة: النفس هي النسيم الداخل والخارج بالنفس.

قالوا: والروح عرضٌ، وهو الحياة فقط، وهو غير النفس، وهذا قول القاضي أبو
بكر الباقلاني ومن تبعه من الأشعرية.

وقالت طائفة: ليست النفس جسمًا ولا عرضًا، وليست في مكانٍ، ولا لها طولٌ^(٢) ولا
عرضٌ ولا عمقٌ ولا لونٌ ولا بعضٌ ولا كلٌّ ولا هي في العالم ولا خارج العالم، ولا مجانبة
له ولا مباينة، وهكذا قول المشائين الذي حكاه الأشعري عن أرسططاليس: وزعموا أن
تعلقها بالبدن لا بالحلول منه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالاتصال ولا بالمقابلة، وإنما
هو بالتدبير له فقط، واختار هذا المذهب البوشنجي ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد

(١) ذات بالتأنيث لعودها على النفس. وإن كان الأدق عودها على المعنى لأنها أقرب اسم ظاهر وحينذاك نقول
[ذو] حدود...

(٢) في (ب): طور.

ومعمر بن عباد والغزالي^(١) وهو قول ابن سينا وأتباعه، والكلام مبسوط في هذا المبحث غاية البحث والبسط اهـ.

وقال السهيلي^(٢) في الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام:

فمن قال إن النفس هي الروح على الإطلاق من غير تقييد لم يحسن العبارة، وإنما فيها من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفحة^(٣) الملك . والملك موصوفٌ بكل خلق كريم، ولذلك قال في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَجَعَلَ فِيهِ نَفْسًا وَرُوحًا، فَمِنَ الرُّوحِ عَفَافُهُ وَعِلْمُهُ وَوَفَاؤُهُ وَفَهْمُهُ، وَمِنَ النَّفْسِ شَهْوَتُهُ وَغَضَبُهُ وَطِيشُهُ»^(٤)، وذلك أن الروح مازج الجسد الذي فيه الدم، وسمي الدم نفسًا، وهو مجرى الشيطان، وقد حكمت الشريعة بنجاسة دمه لسر يعلمه^(٥) أن يفهم مما نحن بسبيله، فمن يعرف جوهر الكلام وينزل الألفاظ منازلها لا يسمي روحًا إلا ما وقع فرقًا بين الجهاد والحَيِّ، والذي كان سببًا للحياة، كما قال في الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفة ونفخ الروح فيها، ولا يقال نفخ النفس إلا عند الاتساع في الكلام، وتسمية الشيء بها يؤول إليه . ومن هنا سمي جبرائيل عليه السلام روحًا، والوحي روحًا، لأنه به تكون حياة القلوب.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وقال في الكفار: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ (النحل: ٢١)، وقال في النفس: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٣)، ولم يقل: إن الروح لأمارَةٌ؛ لأن الروح [هو]^(٦) سبب الحياة،

(١) ذكره في الأجوبة الغزالية.

(٢) في (أ): السبكي.

(٣) في (أ): نفحة وكلاهما يؤدي المعنى.

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٤٢٣).

(٥) في (أ): «ليس لعلمه» وكلاهما لا يسوق معنى مستقيماً ولعل ثم ألفاظ ساقطة نحو «لسر يعلمه» تعالى وعليها فهم ما نحن بسبيله.

(٦) كذا في المخطوطة ولعل الروح يشار إليها بالضمير هي أو هو فهي تقبل التذكير والتأنيث والآخر أدق يقول

العارف:

لا يأمر بسوء، ولا يسمّى أيضاً نفساً كما قدمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة وما كان نحوها.

والماء النازل من السماء جنسٌ واحدٌ، فإذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفرسك^(١) والحنظل والعُنُقُزُ^(٢) وغير ذلك اختلفت أنواعه، كذلك الروح الباطنة التي عند الله هي جنسٌ واحدٌ وقد أضافها إلى نفسه تشریفاً لها، حين قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر: ٢٩)، ثم تخالط الأجساد التي خلقت من طين، وقد كان في ذلك الطين طيبٌ وخبيثٌ فينزع كل فرع إلى أصله، وينزع ذلك الأصل إلى ما سبق في أم الكتاب، وإلى ما دبره وأحكمه الحكيم الخبير، فعند ذلك تتنافر النفوس أو تتعاضد أو تتحابب أو تتباغض على حسب التشاكل في أصل الخلقة، وهو معنى قول النبي ﷺ: «فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٣).

وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له: إن النفس غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام؛ فإنها صادفت عندك بعض جوهرها، والشيء يتبع بعضه بعضاً اهـ.

وقال السيد الشريف في التعريفات^(٤): النفس هو الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وسماها الحكيم الروح الحيوانية، فهي جوهرٌ مشرقٌ على البدن، فعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه. فثبت أن الموت والنوم من

روحى لقد سكرت لما لها ظهرت	شمس الحقيقة بالأنوار واتضحت
هامت فقيدها ناسوتها ففدت	نومي إلى أصلها حتى به لحقت

(١) هو الخوخ أو ضرب فيه، قلت لعله المعروف اليوم بالنكتار.

(٢) هو نبات المرزنجوش، وقضيب الحمار (الصحيح ٨٨٨).

(٣) رواه البخاري (١٢١٣/٣)، ومسلم (٢٠٣١/٤)، والترمذي (١٧٥/٤)، وأحمد (٢٩٥/٢)، والطبراني في الكبير (٣٦٣/٦)، وفي الأوسط (١٦١/٢)، وابن حبان (٤٢/١٤).

(٤) في الأصل: التعاريف. قلت: وهو مشهور بما أثبتناه. وانظر: التعاريف للمناوي (٧٠٥/١).

جنسٍ واحدٍ؛ لأن الموت هو الانقطاع الكلي والنوم الانقطاع الناقص، فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب^(١):

الأول: إن بلغ ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة، وإن انقطع ضوءها عن ظاهره دون باطنه فهو النوم، وبالكلية فهو الموت.

وقال سيدي أبو القاسم القشيري رحمه الله في الرسالة: النفس نفس الشيء في اللغة وجوده، وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القلب الموضوع، وإنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً^(٢) من أوصاف العبد ومذموماً من أفعاله وأخلاقه، ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين:

أحدهما: يكون كسباً له، كمعاصيه ومخالفته.

والثاني: أخلاقه الدنية؛ فهي في أنفسها مذمومة، فإذا عاجلها العبد ونازلها تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمر العادة.

فالقسم الثاني من أحكام النفس ما نُهي عنه نهى تحريمٍ أو نهى تنزيهٍ.

وأما القسم الثاني في قسمي النفس: فسفساف الأخلاق والدنيء منها، هذا حده على الجملة ثم تفصيلها، فالكبر والغضب والحسد والحقد وسوء الخلق وقلة الاحتمال وغير ذلك من الأخلاق الذميمة المذمومة.

وأشد أحكام النفس وأصعبها توهماً أن شيئاً منها حسن، وأن لها استحقاقاً وقدرًا ولهذا عُدَّ ذلك من الشرك الخفي، ومعالجة الأخلاق في ترك النفس وكسرها أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر والسفر، إلى غير ذلك من المجاهدات التي تتضمن سقوط

(١) أضرب وضروب جمع ضرب وهو الوجه.

(٢) هكذا في الأصل، والذي في الرسالة القشيرية (معلومًا - المعلومات)، وانظر: الرسالة (ص ٧٥) طبعة صبيح.

القوة، وإن كان ذلك أيضًا من جملة ترك النفس، ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودوعه في هذا القالب فهي محل الأخلاق المحمودة^(١)، وتكون الجملة مسخرًا بعضها لبعض؛ فالجميع إنسان واحد، وكون النفس والروح في الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق، والسمع والبصير والشم والذائق إنما هي الجملة [التي هي الإنسان]، فكذلك محل الأوصاف الحميدة القلب والروح، ومحل الأوصاف المذمومة النفس، والنفس جزء من هذه الجملة، والقلب جزء من هذه الجملة، والحكم والاسم راجع إلى الجملة^(٢) اهـ.

وقال سيدي تاج الدين ابن عطاء الله أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني في كتابه: «مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح بفضل ذكر الله الكريم الفتاح»: تنمة النفس هو الجوهر البخاري اللطيف الحامل القوة والحياة والحس والحركة الإرادية. وسماها الحكيم الروح الحيوانية، وهي الواسطة بين القلب الذي هو النفس الناطقة وبين البدن، وقيل: هي المشار إليها في القرآن العزيز بالزيتونة الموصوفة بأنها مباركة لا شرقية ولا غربية^(٣)؛ لازدياد رتبة الإنسان وتزكيته بها، ولكونها ليست من مشرق عالم الأرواح المجردة ولا من مغرب الأجساد الكثيفة، وهي أمارة ولوامة ومطمئنة.

(١) هكذا في الأصل، وفي الرسالة (المعلومة).

(٢) هنا يفرق المصنف رحمه الله بين القلب والروح من ناحية وبين النفس من ناحية أخرى فيجعل الأول محلاً للأوصاف الحميدة، والآخر محلاً للأوصاف الذميمة. والإنسان جماع القلب والروح والنفس ولذا تباين أوصافه. والله أعلم.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢٥).

اقسام النفس:

فالنفس الأمارة بالسوء، هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمّر بالذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية؛ فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة، وهي النفس العامة، وهي مظلمة، والذكر لها كالسراج في البيت المظلم.

والنفس اللوامة هي التي تنوّرت بنور القلب تنويراً على قدر ما تنبّهت به عن سنة الغفلة، فتيقظت وبدت بإصلاح حالها، مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية، وكلما صدر منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية وحظّها، تداركها نور التنبيه الإلهي، فأخذت تلوم نفسها وتتوب منها مستغفرة راجعة إلى باب الغفار الرحيم، فلذلك نوّه الله بذكرها وبالأقسام بها في قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١-٢): أي لأن «لا» صلة، والمعنى: أقسمُ فكانت تبصر كأنها في بيت ملآن من كل مذموم: كنجاسة وكلب وخنزير وفهد ونمر وفيل، فتجتهد في إخراجها من بعد أن تلطخت بأنواع النجاسات، وتجرحت بأنواع السباع، فتلازم الذكر والإنابة حتى يظهر سلطان الذكر عليهم، فيخرجهم، ثم تقرب من المطمئنة، فلا تزال تجتهد في جمع أثاث البيت حتى تزين البيت بأنواع المحمودات، فيتحلّى بها، ويصلح البيت لنزول السلطان فيه.

النفس المطمئنة وهي منزل نزل فيه السلطان وتجلّى الحق لأهله، وهي التي يتمّ بنورها نور القلب، حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتحلّقت بالأخلاق الحميدة، وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية، ساعية في الترقى إلى جناب القدس، منزهة عن جانب الرجس، مواظبة على الطاعات، ساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات، حتى خاطبها ربها بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (آزجى إلى ربك راضيةً مرضيةً) (الفجر: ٢٧، ٢٨) إلى آخر الآية اهـ.

في مجاهدة النفس وكونها أعدى عدو للمرء

واعلم أن النفس مشتقة من المنافسة^(١) وهي المنازعة؛ لأن التنافس تفاعل، فلا بد لها من رؤية وجود ودعوى مع موجدتها، فتحتاج إلى علاج ودواء.

(١) لعل الأظهر أن تكون المنافسة مشتقة من النفس لا العكس، لنزوع النفس للدعوى وطلب الحظ.

فقد جاء في بعض الأخبار ، وإن كان ليس بالقوي عند الأخيار ، أن الله تعالى خلق الدنيا وأوجد لها ، وقال لها : من أنا؟ قالت له مجيبة: أنت الله الأحد. وخلق النفس فقال لها : من أنا؟ فقالت له : من أنا؟ فنوع لها العذاب ، فلم تدعن حتى ألقاها في بحر الجوع كذا كذا سنة ، فأقرت له بالوحدانية ، واعترفت بالعبودية ، فمن هنا وجب الجهاد فيها ليردها صاحبها إلى الإقرار بظواهرها وخوافيها ، قال الله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الحج: ٧٨).

قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى ، وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر: أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١).

وقال الحسن قدس الله سره في قوله: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١): هي والله عقبة شديدة ، مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان^(٢).

وعن سهل بن عبد الله عليه السلام: يقول الله تعالى: «ما خلقت خلقاً يناديني في ملكي غير النفس ، فإذا أردت رضائي فخالفها».

وفي الحديث: «أعدى أعدائك^(٣) إليك نفسك التي بين جنبيك»^(٤) رواه البيهقي.

وقال أبو عثمان المغربي عليه السلام: ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاج كل واحد يطلب ضد ما يطلب الآخر: ثلاث مفتنات ، وثلاث كافرات ، وثلاث مؤمنات ، فالثلاثة المفتنات: السمع

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٥١١ ، ٥١٢) ، والمناوي في فيض القدير (٣/ ١٠٩) ، والسيوطي في شرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٢) ، والزرقاني في شرحه (١/ ٤٦٣).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٩/ ١٣٤) ، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٤٤).

(٣) في (أ) «أعدي عدوك».

(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٠٨) ، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٧) ، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٣٨٥) ، والعجلوني في كشف الخفا (١/ ١٤٨).

والبصر واللسان، والثلاث الكافرات: النفس والهوى والشيطان، والثلاث المؤمنات: الروح والعقل والملك اهـ.

وإذا ثبت كفرها وجب الجهاد فيها؛ قال الله تعالى: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (التوبة: ١٢٣).

وقال سيدي محي الدين قدس الله سره في كتابه «روح القدس في مناصحة النفس» بعدما ذكر الآية: وأقرب عدو لك وأعداه عليك نفسك التي بين جنبيك، فيها شغل شاغل للعاقل اهـ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١).

قال القشيري قدس الله سره في باب مخالفة النفس: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان قال: أنبأني أحمد بن عبيد، قال: أخبرنا تمام قال: أخبرنا محمد بن معاوية النيسابوري قال: أخبرنا علي بن عتبة بن أبي لهب عن محمد بن المنكدر عن جابر عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي أتباع الهوى وطول الأمل؛ فأما أتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»^(١).

واعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة، وقد سُئل المشايخ عن مجاهدة النفس^(٢)، فقالوا ذبح النفس بسيف المخالفة.

واعلم أن من نجمت طوارق نفسه أفلت شوارق أنسه^(٣).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٩/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧٦/١١)، وابن عدي في الكامل (١٨٥/٥)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٦/١١).

(٢) هكذا في الأصل، والذي في الرسالة (الإسلام).

(٣) المعنى والله أعلم أن من سطعت نوازع نفسه غابت شمس أنسه. فالأنس في مخالفة النفس يقول صاحب البردة رحمته الله:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإنهما محضاك النصيح فنامهم

قلت: وفي الحديث عن صاحب القدر المنيف: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»^(١) رواه الترمذي، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن حبان، والعسكري في الأمثال عن فضالة بن عبيد.

وعن الصديق الأكبر عليه السلام: «مَنْ مَقَّتْ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَمَّنَهُ اللَّهُ مِنْ مَقْتِهِ»^(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس عن قول أبي بكر؛ ذكره في الجامع الكبير.

وقال ذو النون المصري: مفتاح العبادة الفكرة، وعلامة الإصابة مخالفة الهوى والنفس، ومخالفتها، ترك شهواتها.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمورٌ بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردّها بجهدّه عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمته الله يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا عمر الأنطاقي يقول: سمعت الجنيد رحمه الله تعالى يقول: النفس الأمانة بالسوء هي الداعية إلى المهالك المعينة للأعداء، المتبعة للهوى، المتضمنة لأصناف السوء.

وقال أبو حفص: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات^(٣) ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجبرها إلى مكروهاها في سائر أيامه كان مغروراً، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقلي الرضا عن نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم^(٤) يقول: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: ٥٣).

ولا نطع منها خصماً ولا حكماً فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

(١) رواه الترمذي (٤/١٦٥)، وأحمد (٦/٢٠، ٢٢)، والطبراني في الكبير (١٨/٣٠٩)، والدليمي في الفردوس (٤/٢٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١/٣٦)، والبيهقي في الزهد (٢/١٦٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٥٠)، (٨/١٠٤).

(٣) انظر: الرسالة القشيرية (ص ١٢٣).

(٤) هو سيدنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم على نبينا وعليهم جميعاً الصلاة والسلام.

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت إبراهيم بن مقسم ببغداد يقول: سمعت بن عطاء يقول: إن الجنيد رحمته الله يقول: أرقت ذات ليلة، فقممت إلى وردي، فلم أجد ما كنت أجاهه من الحلاوة، فأردت أن أنام، فلم أقدر عليه، فقعدت فلم أطق القعود، ففتحت الباب، وخرجت، فإذا رجلٌ ملتفتٌ بعباءة مطروحة على الطريق، فلما أحسَّ بي رفع رأسه، وقال: يا أبا القاسم إليَّ الساعة، فقلت: يا سيدي من غير وعدٍ. فقال: بلى، إني سألت محرك القلوب أن يحرك قلبك، فقلت: قد فعل، فما حاجتك؟ فقال: متى يصير داء النفس دواءها، فقلت: إذا خالفت النفس هواها صار دأؤها دواءها، فأقبل على نفسه وقال: اسمعي قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد، فقد سمعت، وانصرف عني، ولم أعرفه، ولم أقف عليه [بعد]^(١).

وقال أبو بكر الطمستاني رحمته الله: النعمة العظمى الخروج عن النفس؛ لأن النفس [أعظم]^(٢) حجابٌ بينك وبين الله تعالى.

وقال سهل بن عبد الله رحمته الله: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى.

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا عمر الأنماطي يقول: سمعت ابن عطاء وقد سُئل عن أقرب شيء إلى مقت الله؟ فقال: أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس وأحوالها، وأشد من ذلك مطالعة الأغراض على أفعالها.

وسمعه يقول: سمعت الحسين بن يحيى يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت إبراهيم الخواص يقول: كنت في جبل اللكام^(٣) فرأيت رماناً، فاشتيتها، فدنوت فأخذت منه واحدة، فشققتها فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرمان، فوجدت رجلاً مطروحاً قد اجتمعت عليه الزنابير، فقلت: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا

(١) انظر: الرسالة القشيرية (١/ ٣٥٠)، وإحياء علوم الدين (٣/ ٦٦)، والحلية (١٠/ ٢٧٤)، وطبقات السبكي (٢/ ٢٦٢).

(٢) أعظم الواردة بين القوسين ليست في النسخة المخطوطة.

(٣) هو جبل بالشام.

إبراهيم. فقلت: كيف عرفتنى؟ فقال: من عرف الله لا يخفى عليه شيء. فقلت: أرى لك حالاً مع الله، فلو سألته أن يحميك ويقيك من الأذى من هذه الزنابير. فقال: وأنا أرى لك حالاً مع الله، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان؛ فإن لذع الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا. فتركته، ومضيت.

وحكى إبراهيم بن شيان: أنه قال: ما بُتُّ تحت سقفٍ ولا في موضعٍ عليه غلقٌ أربعين سنة، وكنت أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة من عدسٍ، فلم يتفق لي، فكنت وقتاً بالشام ومُحَلٍّ إلَيَّ غضارة فيها عدسٌ، فتناولت منه، وخرجت، فرأيت قوارير معلقة فيها شيء يشبه أنموذجات، فظننته خلاً، فقال لي بعض الناس: إيش تنظر، هذه أنموذجات الخمر، وهذه الدنان خمر. فقلت: لزمني فرض، فدخلت حانوت الخمار، ولم أزل أصب تلك الدنان، وهو يتوهم أني أصبها بأمر السلطان، فلما علم حملني إلى ابن طولون وزير مصر^(١) فأمر بضربي مائتي خشبة، وطرحني في السجن، وبقيت مدة حتى دخل أبو عبد الله المغربي استاذي ذلك البلد فشفع لي، فلما وقع بصره عليّ قال: إيش فعلت. فقلت: شبعة عدسٍ ومائتي خشبة. فقال: نجوت مجاناً: أي بلا بدل.

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت الجنيد رحمته الله يقول: سمعت السري يقول: إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس، فما أطعتها. وسمعته يقول: سمعت جدي يقول: آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه.

وسمعته يقول: سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول: سمعت الحسين بن علي القرمسيني يقول: وجّه عصام بن يوسف البلخي شواءً إلى حاتم الأصم، فقبله، فقيل له في ذلك: لم قبلته؟ فقال: وجدت في أخذي له ذليّ وعزّه، وفي رده عزّي وذله، فاخترت عزه على عزّي وذليّ على ذله.

(١) لعل ثم خلط بين أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر وكان حاكماً آنذاك وبين وزير لحاكم آخر ربما تسمى بنفس الاسم.

وقيل لبعضهم: إني أريد أن أحجّ على التجريد. فقال: جرد قلبك أولاً عن السهو
ولسانك عن اللغو، ثم اسلك حيث شئت.

وقال أبو سليمان الداران رحمه الله: من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في
ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة كفي مؤنتها، والله أكرم من أن يعذب قلباً
ترك شهوة لأجله.

وأوحى الله إلى داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات؛ فإن القلوب
المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة»^(١).

وروي رجلٌ جالساً في الهواء. فقيل له: لم نلت هذه؟ فقال: تركت الهوى، فسخر لي
الهوا.

وقيل: لو عرض على المؤمن ألف شهوة لأخرجها بالخوف، ولو عرض للفاجر شهوة
واحدة لأخرجته من الخوف.

وقيل: لا تضع زمامك في يد الهوى؛ فإنه يقودك إلى الظلمة.

وقال يوسف بن أسباط: لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوفٌ مزعجٌ أو شوقٌ
مقلقٌ.

وقال الخواص: من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها.

وقال جعفر بن نصير: دفع إليّ الجنيد درهماً، وقال: اشتر به التين الوزيري. فاشتريته،
فلما أفطر أخذ واحدةً، ووضعها في فيه، ثم ألقاها، وبكى، وقال: احمله. فقلت له في ذلك،
فقال: هتف في قلبي هاتفٌ: أما تستحي شهوةً تركتها من أجلي تعودُ إليها، وأنشدوا في
المعنى:

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقةٌ وصريعُ كلِّ هوى صريعُ هوانٍ

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٠/٩)، وذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٩/٣).

واعلم أن للنفس أخلاقاً ذميمةً، فمن ذلك الحسد، وقد قيل: ما على جسد من جسد فساد، بل لا بد أن يتلف ويدركه فسادٌ.

وفي كتاب منازل القاصدين للحكيم الترمذي رحمته الله: قال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل أجمعوا أنفسكم وأخملوها وعروها؛ لعل قلوبكم ترى الله تعالى، وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «ما تقولون في صاحبٍ إن أنتم أكرمتموه وأسقيتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرٍّ غاية، وإن أنتم أهنتموه وأجعتموه وأظمتموه أفضى بكم إلى خيرٍ غاية؟ قالوا: يا رسول الله، هذا شرٌّ صاحبٍ في الأرض. قال: فوالذي نفسي بيده إنها لأنفسكم التي بين جنوبكم»^(١)، حدثنا بذلك محمد بن سهل: حدثنا عمر بن منصور القيسي: حدثنا عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أنواع من موت النفوس:

اعلم أن الموتات أربعة:

موت أحمر: وهو مخالفة النفس.

وأبيض: وهو الجوع؛ لأنه يتورّ الباطن، ويبيض وجه القلب، فمن ماتت بطنته حيث فطنته^(٢).

والأصفر: وهو لبس المرقعات من الخرق التي ليس لها قيمة لاصفرار عيش لابسها بالقناعة.

والأسود: وهو احتمال الأذى وكفه.

وهذه الموتات تنشأ عن فناء النفس: أي محو صفاتها الذميمة وبقاء الصفات الحميدة، وهل تموت النفس بالمجاهدة والمكابدة فيها، أو تضعف، أو تُمَلِّك، فتكون مقهورةً مأسورة

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٩/ ٢١٠).

(٢) المراد والله أعلم أن من أمارت شهوة بطنه أحيا الله تعالى الفطنة في فؤاده، ومن هذا القبيل المقول المأثور [إذا امتلأت المعدة نامت الفطنة وغرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة، هذا حال الشيع؛ وأما حال القلال من الطعام فالعزيمة تنقد والقلب يصفو والنفس تقهر وأحاديث سيد الخلق صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة.

تحت حكم صاحبها، بعدما كانت حاكمةً، وذليلةً بعدما كانت عزيزة وخادمة للروح بعد استخدامها لها، ويكون التعبير بالموت: أي موتها عن مراداتها، وكذلك الضعف: أي قلة شهواتها، وملكها: أي الحكم فيها، وانقيادها وطاعتها بعد نفورها وتجافيها، هذا ما عوّل عليه الأكابر.

وأما انسلاخها عمّا كان جبليّاً في نشأتها بالرياضة فغير ممكن، لكنها متى ضعفت وانقادت واستسلمت وملك عنانها صاحبها قادها إلى المراضى قهراً، ولكن يلزمه المجاهدة فيها دهرًا؛ فإنه متى غفل عنها وطلب الراحة عادت على ما كانت عليه، وفلتت منه بعد دخولها في الراحة. فأطفئ سراج آمالها العرضي الأرضي، وأوقد لها سراج مطلوبها الأصلي السماوي المرضي، وأنشد سيدي محي الدين في باب الزهد:

العيْبُ فيكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي	فَالزَّهْدُ مِثْلُ صَلَاتِكَ الْوَتْرِ
وَسَرَّاجُ نَفْسِكَ نُورُهُ مُتَعَلِّقٌ	بِجَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ أَمْرِ
فَاطْفِ السَّرَّاجِ يَزُولُ كُلُّ تَعَلِّقٍ	فَالزَّهْدُ فِيهِ كَلِيلَةُ الْقَدْرِ
هِيَ فِي غُرُوبِ الشَّمْسِ حَتَّى يَنْتَهِي	بِالْحُكْمِ فِيكَ مَطْلَعُ الْفَجْرِ

انتهى.

واحذر أن تكون ممن أمن نفسه فطاب له في سجنها حبسه، وممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فتكون من الفاسقين: أي الحائدين عن دائرة الحق إلى دائرة الباطل؛ فإن أصل الفسق الخروج عن القصد. قال رؤبة: فواسق عن قصدها جوائر، ويقال: فسقت البيضة إذا مذرت، والرطبة إذا خرجت من قشرها.

واجهد ألا توافقها في شهوة تطلبها منك، فجاهد فيها كما قيل:

إِذَا طَلَبْتَكَ النَّفْسُ يَوْمًا بِشَهْوَةٍ	وَكَانَ عَلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ
فَخَالَفَ هَوَاهَا مَا اسْتَطَعَتْ فَإِنَّهَا	هَوَاهَا عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ

من جوامع الكلم حول النفس:

وقد كان سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب عليه السلام وكرم وجهه يقول: من لم يُسَخِّطْ نفسه في شهواتها لم يرضِ ربّه في طاعته.

وقال بعضهم: مادامت النفس حية تسعى فهي حية^(١) تسعى: أي مادامت ساعية في مقاصدها فهي داعية إلى الهلاك راصدها.

ونقل الشيخ تقي الدين الحصني الكبير رحمته الله في بعض مؤلفاته فقال: قد رأيت منقولاً أن في الآدمي ثلاثين وصفاً دنيّةً، والنفس الأمارة بالسوء تدعو إلى الوقوع في جميعها. قال: وسمعت من بعض المشايخ يقول: إنها خمسون ألف وصفٍ دنيء، ولا تحلّص منها إلا كما قال الله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣)، ومعنى الآية: إلا من عصمه ربه.

وقد قيل: لا يدرك الشخص حقيقة الإيمان إلا بذبح النفس بسيوف المخالفة؛ وذلك لأن النفس بطبعها ميّالة إلى الممالك والمعاطب. والأمر الفصل في حقها أن الشخص لا يتخلص من شؤمها إلا بطعنها بأسنة المخالفة، حتى يشحنها جراحاً، ولا يفترّ عن ذلك؛ فإنه مهما كان لك حركة لا يؤمن عليك منها؛ فديسة واحدة تقتلك وأنت لا تشعر.

وروى ضمرة بن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الْكَيْسُ من دان نفسه وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»^(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله: «ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاعٌ، وهوى متَّبِعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ»^(٣).

(١) التعبير تشبيه بليغ وفيه تورية فالنفس مادامت حية بالروح فهي كالأنفى تهلك من ترك لها العنان.

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٣٨)، وأحمد (٤/١٢٤)، وابن ماجه (٢/١٤٢٣)، والطبراني في الكبير (٧/٢٨١)، وفي الصغير (٢/١٠٧)، والحاكم في المستدرک (١/١٢٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧/٣٥٠)، وابن عدي في الكامل (٢/٣٩)، والديلمي في الفردوس (٣/٣١٠).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥/٣٢٨)، والبيهقي في الشعب (١/٤٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٢/١٦٠)، وابن عدي في الكامل (٥/٢٤١)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٣٨٦).

وقال مطر القاري رحمه الله: لنحت الجبال بالأظافر حتى تنقطع الأوصال أهون من مخالفة الهوى إذا تمكن في النفس.

وفي كلام عبد الله بن المبارك على ما أنشده الضرير النيسابوري في تفسيره بسنده إليه:

وَمِنْ الْبَلَاءِ وَلِلْبَلَاءِ عِلَامَةٌ أَلَا يُرَى لَكَ مِنْ هَوَاكَ نَزْوَعُ
وَالْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهْوَاتِهَا وَالْحَرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجْوَعُ
وَالْمَرْءُ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ فَيَكْتَفِي وَمَعَ الْحَرِيسِ مَذَلَّةٌ وَخُضُوعُ
وقال فيه^(١): قال ابن حبيب: وأنشدني أبو عبد الله الطوسي المذكور:

وَالنَّفْسُ إِنْ أُعْطِيَتْهَا مُنَاهَا فَاغْرَ نَحْوُهَا هَوَاهَا
وروي أن موسى عليه السلام قال: يا ربّ متى تكون لي؟ قال: إذا لم تكن لنفسك. قال: متى لا أكون لنفسي؟ قال: إذا نسيتها كلّها.

قال بعض العارفين: معنى قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف: ٢٤): أي إذا نسيت نفسك اهـ. أي من حيث منافستك ورؤيتك لها واحتجابك بها، فإذا غبت عنها ولم ترها بالكلية واستغرقك الشهود عن كل مشهود هناك يقال لك: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥): أي شاهد أنها أثّر من آثار قدرته، وإذا عرفت نفسك ألا وجود لها من نفسها عرفت ربك أنه هو المفيض عليها الجود، فتنبّهت من دعوى الوجود، ووثبت في هذه الرتب إلى يوم الورد المورود، وأنشدوا:

وإن قلت ما ذنبي إليك أجبتني وجودك ذنب لا يقاس به ذنب
وقال سيدي عبد القادر قدس الله سرّه: متى ذكرته فأنت محبّ، ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوبّ، والخلق حجابك عن نفسك ونفسك حجابك عن ربك، ومادمت ترى الخلق لا ترى نفسك، ومادمت ترى نفسك لا ترى ربك.

(١) أي في تفسير النيسابوري المذكور.

وعن أبي يزيد البسطامي قدس الله سره أنه قال: رأيت ربّ العزة في المنام جلّ جلاله، فقلت: يا بار خدا^(١)، كيف الطريق إليك؟ قال: أترك نفسك ثم تعال^(٢).

وأنشدوا:

تَوْقُ نَفْسِكَ لَا تَأْمَنُ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ خَبَتْ فِي سَبْعِينَ شَيْطَانًا

وأنشد بعضهم، وقال:

غَدًا تَوْقُ النَفُوسِ مَا كَسَبَتْ وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا

إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لَأَنْفُسِهِمْ وَإِنْ أَسَاءُوا فَبُئْسَ مَا صَنَعُوا

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ (العنكبوت: ٦)، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (الحج: ٧٨)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (نصرت: ٤٦).

فالمجاهدة في النفس أنفس عبادة ورأس إفادة، وهي عين السعادة وزين السيادة، ومع بذله مجهوده في مجاهدتها ومصارعتها ومغالبتها لا يمكن أن يتخلص منها بالكلية مادام في حكم البشرية، فإذا انعدمت منه الذات وارتحل إلى عالم اللذات هناك يخلص من شرها وينجو من حلوها ومرّها.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره في كتابه «كشف الرّان عن أسئلة الجان»: وسألوني عن صفات النفس الرديئة هل يمكن لأحد زوالها بالرياضة؟ فأجبته: لا يصح زوال ما كان جلياً في النشأة، وإنما العبد يُوقى العمل بالصفات الرديئة بمعونة الله ﷻ، ولذلك قال الله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ (الحشر: ٩)، وما قال: «ومن يزل شح نفسه»؛ ولهذا عيّن الشارع ﷻ لمسمى الصفات الرديئة مصارقاً، فقال: «لا حسد إلا في

(١) كذا في المخطوطة وهي من اللغة الفارسية ومعناها يا الهى.

(٢) انظر: النور (ص ٥٠) بتحقيقنا.

اثنين»^(١) الحديث، فحثَّ على الحسد الذي هو الغبطة لأجل الخبرة، لا على تمنّي زوال النعمة عن الناس، ونهى عن التبخر في المشي، وأباح ذلك في الحرب؛ ليقهر به العدو، وقس على ذلك. فإن ما كان في أصل النشأة فمحال أن يزول إلا بانعدام الذات، وأنشدوا في ذلك:

إذا هذَّب الإنسان أخلاقَ نفسه وأخرجها عن طبعها ومرادها
فذاك محالٌ عندنا كونه فما نرى إرضاءها من راضها بعنادها
فإن كنت ذا علم فأتِ مصادفًا لما عينت بالشرع عند فسادها

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣)، سواء قلنا: إنه من كلام يوسف عليه السلام أو من كلام زليخا المراد أن ذلك عرض لها بإلحاح القرين، لا أنه من أصل نشأتها؛ فإنها من عالم القدس والطهارة، فافهموا ذلك أيها الجان، والله يتولى هداكم اهـ.

في مسميات النفس وأحوال اكتسابها تلك المسميات:

فإن النفس الناطقة جوهرٌ مجردٌ عن المادة في ذاتها طاهرة مقدسة في صفاتها، لكنها لما أذعنت للنفس الشهوانية الحيوانية وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت أمّارة، ولما دافعتها ولمتها على تقصيرها في عبادة مولايها سُمّيت لَوّامة. ولما زاد ميلها إلى عالم القدس وتلقت الإلهامات الربانية سُمّيت ملهّمة. وعندما سكنت تحت مجاري الأقدار وزوال طربها ولم يبق للنفس الشهوانية حكم سُمّيت مطمئنة. فإذا ترقّت وبرقت لها بوارق القرب وفنيت عن مراداتها وطاب لها الشرب وكُسيَت بعد البقاء ثوب الرضا فأشرق وجه

(١) رواه الخطيب في التاريخ (٤٣٢/٣)، والحميدي في مسنده (٢٧٨/٢)، وذكره القرطبي في تفسيره (٧١/٢).
والحسد كما في الحديث الشريف المنيف نوعان:

- حسد مندوب: وهو الغبطة وتمني المثلية وأباحه الشارع في اثنين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلم الناس.
- حسد مذموم: وهو تمنّي زوال نعمة الغير. وهو محظور في كل حال.

توجهاتها وأضاء سُمِّيت راضيةً. ثم إذا قبلت جميع الأسرار وأقبلت في سائر الأطوار ورضيها الحق ولها يخلص المخلصون الحق سميت مرضية. وإذا أمرت بالرجوع إلى العباد للتكميل والإرشاد والنيابة والخلافة والتلقي والإلقاء بما لا يسع الطلاب خلافه وظهرت عليها علامات القبول وأمارات التقريب الخصوصي والوصول سميت كاملة، وغدت محمولةً حاملةً. وهناك يحق لها أن تصدر للإفادة، وتجلس على سجادة السيادة، وإلا فقليل: السلوك في هذه المسالك والنجاة من هذه المعاطب والمهالك، فكيف يليق التقديم والإقدام على مزاحمة الرؤساء من كان حقه الوقوف في مواضع الأقدام.

بين السالك والمتمكن:

واعلم أنه لا يتم للسائر السير في معارج هذا الخير إلا باتباعه لشيخ مرشدٍ سلم من الضير، وشهدت له الأكابر أنه قد خلص من الغير، ويحقُّ له أن يجاب إذا دعا ببلى ونعم وجير^(١)؛ ليخلصك من النفس المكلفة بلبن الطير^(٢) كلَّ من كلفها حسن السير، المشاهدة فعل محبوبها، المحجوبة عن شهود سر: ﴿سَوَّطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣)، مع أنه عين الرحمة بها بدون ارتياب، الطالبة صعودًا إلى جوزاء الغُرف بدون ارتقاء سلم الشُرف، المقاسية غُصَص الموت فيما حصل لها من الفوت، ومع ذلك فلا تنتبه من رقادها ولا تتزود التقوى لتقوى في يوم معادها. تَرى في الطاعات كُربَ الدواء، وتتجرع في ساعات القرب مرارات النوى، تَلْزُمُ حظوظها لزومَ الرِّيق^(٣)، وتودُّ أن لو أطلقت من الرِّيق فما هي إلا مطية جهل ومظنة أن تكون أبا جهل^(٤).

(١) من قولهم جير لا آتيك، بكسر الراء، يمين للعرب، ومعناها حقًا، الصحاح (٦١٩).

(٢) أي تكلف السائر أن يأتي لها بها ينذر وجوده أو ينعدم.

(٣) الريق: بكسر الراء وتشديدها الحلقة.

(٤) المراد أن هذه النفس رعاء لم تتخلص من الران واللقس ولذا فهي شبيهة أبي جهل «عمرو بن هشام» الذي أعرض عن دعوة الحق.

فإذا ظفرت بمن يخلصك من قبائحها ويسدّ أذنك عن سماع نصائحها ويدلي^(١) على عينيك سترًا، فلا تشهد لوائحها، وينشقك عرفًا من معارفه فلا تنشق روائحها، ويظهر لك معاييها، ويريك عجائبها وغرائبها، فقد ظفرت بكنز يندر وجدانه ويقلّ لَقَبُه، ويجب قربانه، فإذا أدركته وما وفقت لموافقته حتى فاتك وضيعت أوقاتك وأقواتك حتى عانيت، وفاتك فستندم ندم الكهسي لما استبان النهار، والفرزدق لما أبان النوار^(٢)، فَهَنَهُ أجفان غفلتك من كراها، وقل: يا ضيعة الأعمار، ويا حسرتي، وواها وواها.

ومن كلمات خطباء منابر التحقيق ونجباء أئمة محارِبِ التصديق المؤذنين فوق منابر التدقيق والمرقّين من أتا هم على أعلى نجائب التوفيق: لا يُكْتَسَبُ خُلُقًا إِلَّا مِنْ أَرْبَابِهِ، وَلَا يَرْتَقِي إِلَى مَقَامٍ إِلَّا بِرُؤْيَا أَصْحَابِهِ، فَمَنْ وَافَقَ الْكِرْمَاءَ تَكَرَّمَ، وَمَنْ عَاشَرَ الْحُلَمَاءَ تَحَلَّمَ، أَوْ الْعِبَادَ تَعَبَّدَ، أَوْ الزَّهَادَ تَزَهَّدَ، وَإِلَى هَذَا أَشَارَ سَيِّدُ الْآخِرِ وَالْأَوَّلِ: «المرءُ على دينِ خليله؛ فليَنظُرْ أَحَدُكُمْ مِنْ مَخَالِلِ»^(٣)، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ مِنْ تَمَعْنَى:

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

وكم رأينا من عاشر الأخيار فما انتفع لما ترفع بنفسه كالمدخان، فما ارتفع بل اتضع؛ فما كل مصاحب ينتفع بصحبته الأصحاب الأنجاب إلا إن رآهم أنجما سماوية ونفسه صيرها لهم ترابًا، ولما دعوه أجاب: فهذا الذي يروى له بقرهم الشراب ويخلص من أوهامه المقصية المشبهة بالسراب قال سيدي محي الدين قدس الله سرّه في كتابه «مواقع النجوم ومطالع أهل الأسرار والعلوم»: واعلم أن الله تعالى إذا أيدك بالتوفيق للعلم والعمل على الإخلاص فتح لك بابًا إلى ملكوته يمنحك مشاهدة ما تجلّى لك وراء ذلك الباب من

(١) يدلّ يعني يسدل أو يستر.

(٢) من أمثال العرب الدارجة وخلف كل منها قصة.

(٣) رواه أحمد (٣٠٣/٢)، والبيهقي في الشعب (٥٥/٧)، والدارقطني في العلل (٣٢٤/٨)، وأبو نعيم في الحلية

(١٦٥/٣)، وابن عدي في الكامل (٢١٨/٣)، والحاكم في المستدرک (١٨٨/٤)، وذكره العجلوني في كشف

الخفا (١٢٢/١).

طوارق الغفلات والرجوع إلى عالم الشهوات، واشتغلت بموارد الحق عليك من لطائفه وأسراره وكشف حقائقه، وذلك هو العلم اللدني وعلم التلقي، فاسع في تحصيله بمداومة الذكر والخلوة وطيب الأطعمة وقلة الأكل والورع في النطق وتصرف القلب في فضول الخواطر، واسجن نفسك تحت أمر يأمرك وينهاك، وتعلمذ له، واتخذ شيخاً مرشداً؛ فإنه إن لم تجر أفعالك على مراد غيرك لم يصح لك الانتقال عن هواك، ولو جاهدت نفسك عمرك بما ترتبه عليها، وإن صعب لم تزل عن رعونتها ورياستها التي لا يمكن خروجها منها إلا بالانقياد إلى طاعة نفس أخرى مثلها، وتصرفها تحت أمره ونهيه؛ وذلك لكثافة وعظم إشراكها، حتى ترتقي إلى الأمر على الإطلاق، ويكون ذلك سُلماً لها إليه. ولذلك قال المحققون: كل عمل لا يكون عن أمر فهو هوى النفس، وآخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة.

وقيل لأبي يزيد البسطامي قدس الله سره في بعض مشاهدته معه: تقرب إليّ بما ليس لي: الذلة والافتقار؛ فهذه إشارة إلى إزالة الرياسة. فاسع يا بني في طلب شيخ يرشدك، ويعصم خواطرك، ويكمل ذاتك بالوجود الإلهي، فحينئذ تدبر نفسك بالوجود الكشفية الاعتصامي اهـ.

فانظر قوله: وإن فتح لها في لطائف المشاهدة.. إلخ.

ولا تغترّ بنتائج الأعمال وصفو الأحوال؛ فكم صفت ثم تكدرت، وكم علت وغلبت ثم تحددت لسرّ الخلق الجديد كل آن، وهو كل يوم في شأن، وما لم تعزل النفس لمن يطيبك بملء فيك، فأنت غربالها غير ناصح لها، ما الذي يروم إطلاقك من حبسك؟ يقول: لأن تكون تحت حكم هرة خير لك من أن تكون تحت حكم نفسك.

وكان سيدي عبد القادر قدس الله سره يقول: اخرج عن نفسك، وتنح عنها، وانعزل عن ملكك، وسلم الكل إلى مولاك، وكن بوابه على باب قلبك، فأدخل ما يأمرك بإدخاله، وأخرج ما يأمرك بإخراجه، فلا تدخل الهوى قلبك فتهلك اهـ.

واجتهد في أن تتحرر من رفقها ولو بسحقها في مقام المجاهدة ومحققها.

قال سيدي أبو مدين قدّس الله سرّه: ما وصل إلى صريح الحرية من بقي عليه من نفسه بقية اهـ.

ضرورة الشيخ المربي لتعذيب نفس السالك

ولا يمكن التخلص من مهامها إلا بالدليل العارف والمسلك الذي من بحور العلوم غارف.

قال سعد الدين الفرغاني رحمه الله أحد تلامذة سيدي محمد القونوي ربيب سيدي محي الدين وتلميذه قدّس الله سرهما في مقدمات شرح التائية الفارضية^(١): من أهمّ المهمات للسالك الطالب إعلام الطالب، وأولى الأسباب والشرائط في مسلكه حصول شيخ مرشد واصل عالم بالعلوم الثلاثة: الشريعة، والطريقة، والحقيقة، يصير عارفاً بحقائق الأمراض النفسانية، والأدوية المزيلة لها، ودقائق شهوات النفوس، وشركها الخفي في كل مندوب أو مباح. فإن السالك بنفسه الواقع في مرض جهله وغفلته وأنواع الأمراض المذكورة أنفأ هو بمثابة مريض غير خبير بحقيقة مرضه وعلاجه، فيعالج مرضه بهواه وشهوته عن جهل به وبسببه وبما يضاد من الأدوية، فلربما توهم شيئاً أنه دواء، وفيه يكون حتفه، والذي نشاهده من بعض من ظنّ أنه من السالكين العارفين معجباً بنفسه مدعيّاً بوهمه أنه ذاق وشرب شراباً من الشهود، ولم يشم رائحة ولا خطرة منه، ويظهر عرفاناً كسبياً ظنه كسبياً شهودياً وتوحيداً ناقصاً يخال الإباحة توحيداً والزندقة معرفة حقيقية، حتى ظن بعضهم وادّعى أنه مهديّ أو عيسى أو قطب أو بدّل أو نحو ذلك، جميع ذلك من نتائج السلوك بنفسه من غير شيخ مرشد، والظن بأن الخلوة والرياضة والاشتغال بالذكر شهوة النفس وإرادتها واختيارها نافع أو موصول إلى حضرة من حضرات الحق تعالى جلّ جلاله، «وجلّ جناب الحق أن يكون مورداً لكل وارِد أو يطلع عليه إلا واحد

(١) تحت قيد الطبع بتحقيقنا - بيروت.

بعد واحدٍ»: يعني واحد في نفسه أو إضافة عنه، بعد واحدٍ: يعني على متابعة واحدٍ لا يضع قدمًا في سيره إلا بعده ومتابعة قدمه، فكان داء السالك بنفسه من حيث دوائه، وحتفه في عين علاجه، أعاذنا الله وسائر الصادقين من شرور أنفسنا وظنونها المردية وأوهامها المطفية اهـ.

من هو المرشد المتمكن؟

ومما يتأكد عليك إذا عزمتم على طلب إمام سالك يقيك في سيرك من المهالك، وينجيك من ظلام أوهامك الحالك، ويدلك على ما فيه نجاتك يوم تقف بين يدي المالك ألا تتهافت على من لقيته يدعى الإرشاد، ويتصدى لنصح العباد، ويريك بعض شقائق لسانه، ويشير إليك ببوارق حنانه حتى تصحبه، وترى كيف أتباعه للسنة المحمدية، وتسأل عنه العارفين به من أهل المراتب السنية، ثم بعد أن يشهد له أهل الصدق والأمانة وترى أثر الهداية لائحًا عليه والتقوى لباسها زائفه. فهناك فاستخر الله سبحانه، فإن وقع لك إذن فأقبل بنفسٍ لهفانةٍ ظمآنٍ فارغةٍ من السوى فاعرةٍ فاها لنيل الدواء بالجوى، ملائمةٍ منقادٍ مدعنةٍ لينيةٍ كالخيزرانة. واصدق في المحبة والإقبال عليه، وألق نفسك سلماً بين يديه يفتح الله إن شاء لك الأبواب، وتصعد درج الاقتراب. وما جعلني أنبهك على هذا الأمر إلا فساد الزمان وكثرة الدعاوى التي لا تدخل تحت ميزان؛ فكم من مدحٍ مثلي لم يذق من مطاعم أهل الطريق خردلةً أصبح يدعي الإرشاد! وما ذاك له^(١).

فإن قلت: إنى أخذت الطريق عن بعض رجاله من أهل التحقيق، فهل لي أن آخذ عن غيرهم وأسلك سبيله وأنبذ حسن سيرهم؟

قلنا: إن حصل لك المرام من منهج أولئك الأقوام وخلصت من عقبات نفسك وسلمت من حبال وهمك وحدسك وعرفت نفسك المعرفة الخاصة التي لأجنحة الغيبة قاصة، وكشف لك عن عوالم القلب وأسراره وعلومه وأنواره وعن السرِّ وسرِّه وسرِّ السرِّ

(١) يقول ذلك المؤلف رحمه الله وهو من هو فكيف بأدعياء الارشاد في وقتنا هذا فالله المستعان.

ومكنون دره، واكتفيت بها لاح لك من البرّ الرحيم، فما عليك إذا ثبت على طريقك من جناح؛ لأنك سلكت به المنهج القويم، وإن قصرت عن بلوغ مشاهد هذه المفاسخ فما عليك إن أتبت الأول بالآخر، وأتبت الثاني؛ لتكون بهواك كالساخر، وتكرع من بحر العلوم الزاخر.

فإن قلت: أليس نقض العهد مذموماً؟!

من عارف لعارف

قلنا: نعم، لكن طلب معرفة النفس أمرٌ محتومٌ معلومٌ، والرضا عنها بما هي فيه جهلٌ يبقى صاحبه محرومٌ، وإذا شاهدت أن سائر الدعاة نواب السيد المعصوم وأن مقصودك الجهاد في نفسك لا الحظ النفساني المسموم، وقد وجب عليك التداوي من الكُلوم وبدون طبيبٍ حاذقٍ لا يبرئ السموم، فلم يعد إذن أخذك لهذا المقصد المفهوم نقضاً ولا نقصاً، بل تمييزاً للأول عند الغواص في العلوم، سيما إذا كان بعد الاستخارة، وأذن في ذلك الحَيُّ القيوم.

واعلم رحمك الله أن داء النفس داءٌ عسيرٌ، ودواؤها خطرٌ غير يسيرٍ، فلا بد لك إذا سمعت طبيبك قد وصف لك الدواء من العمل به والمبادرة إليه بلا تكاسل والتواء.

ومن الشروط اللازمة أيضاً دوام صحبته سفرًا وحضرًا؛ لأن العليل متى فارق الأسى فقد أبى، وربما لم يبرأ، بل له الداء برءًا، فإن للرفيق رفقاءً، وللصحبة أثرًا في المحبة، وللمواعظ تأثيرًا، وللملاحظ تعميرًا، وللخدمة فوائد، وللحضور عوائد.

قيل لأبي العباس بن مهدي عليه السلام: بما يروّض المرید نفسه؟ فقال: بالصبر على الأوامر، واجتناب المناهى، وصحبة الصالحين، وخدمة الرفقاء، ومجالسة الرفقاء، والمرء حيث وضع نفسه اهـ.

آداب الطريق ومعاملة الشيخ

ومن جملة فوائد الصحبة، دوام التناصح، والتقريع، والزجر، والنهي، والأمر، فلا تحكم عليه نفسه، ولا تتأمر، فينجو من أسرها، ويحتاج إلى مطالعة كتب الآداب أو

سماعها، والعمل بما يلزمه من الآداب مع شيخه ومع إخوانه، وما يلزمه من الآداب في نفسه؛ لأن الطريق كله أدبٌ، فمن لا أدب عنده لا ترقى له.

ومن أعظم الآداب احترام الإمام وتوقيره مع الخضوع التام.

وقد عقد القشيري قدس الله سرّه لحفظ قلوب الأشياخ باباً يمنح مطالعة اللباب، قال فيه: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول: خرجت إلى مرو في حياة الأستاذ أبي سهل الصعلوكي.

وكان له قبل خروجي أيام الجمعة بالنجدوات مجلس دور القرآن والختم، فوجدته عند رجوعي قد رفع ذلك المجلس، وعقد لابن العقابي في ذلك الوقت مجلس القول^(١)، فداخلني فيه من ذلك شيءٌ، وكنت أقول في نفسي: قد استبدل مجلس القرآن بمجلس القول، فقال يوماً: يا أبا عبد الرحمن، إيش يقول الناس فيّ؟ فقلت: يقولون رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول. فقال: من قال لأستاذه: لا، لم يفلح أبداً.

ثم قال: سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق رحمه الله يقول: وصف سهل بن عبد الله رجلاً بالولاية خبازاً بالبصرة، فسمع رجلاً من أصحاب سهل، فاشتاق إليه، فخرج إلى البصرة، فأتى حانوت الخبّاز، فرآه يخبز، وقد تنقّب لمحاسنه على عادة الخبّازين، فقال في نفسه: لو كان هذا وليّاً لم يحترق شعره بغير نقاب، ثم أنه سلّم عليه، وسأله شيئاً، فقال الرجل: إنك استصغرتني؛ فلا تنتفع بكلامي، وأبى أن يكلمه انتهى.

وقال سيدي محي الدين في مواقع النجوم: فإذا كنت بين يدي شيخٍ محفوظٍ في عموم أحواله، وقد شهد بفضله، وقيل به، وحاله يطابق ما يشهد فيه، وتجد في نفسك الاحترام له والتعظيم لحقه الذي هو أصل منفعتك ونجاتك على يديه، فإن حرمت احترامه فاطلب غيره؛ فإنك لا تنتفع به أصلاً ما لم تصحبه بالحرمة، ولو كان أفضل الناس وأعلم الناس،

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥١).

وتسيء الظن به، فإنك لا تتنفع به أبداً، فإذا وجدت من تحصل في نفسك حرمة فاحدمه، وكن ميتاً بين يديه يصرفك كيف يشاء، لا تدبير لك في نفسك، معه تعيش سعيداً مبادراً لامثال ما يأمرك به وينهاك عنه. فإذا أمرك بالحرقة فاحترف عن أمره لا عن هواك، وإن أمرك بالقعود فاقعد عن أمره لا عن هواك؛ فهو أعرف بمصالحك منك وأرغب الناس في صلاحك إلى الله على يديه منك، فإنك تكون من أنواره التي تسعى بين يديه، ومن حيث الأخوة الإيمانية بالنصح المندوب إليه شرعاً الذي هو الدين، وكذلك أيضاً من حيث إنه في ميزانه ترحج ما خفّ فيه، ومن حيث أنه مكاثراً بك تلامذة الشيوخ، ويكثر بك أتباعه؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، وقد قال ﷺ: «إني مكاثراً بكم الأمم يوم القيامة»^(١).

فإذا رغب هذا الشيخ في اصلاحك وإصلاح غيرك حتى يودّ أن الناس كلهم صلحوا على يديه فإنما يرغب في ذلك لتكثير أتباع أمة محمد ﷺ؛ لما سمعه يقول: «إني مكاثراً بكم الأمم يوم القيامة»، وهذا مقام رفيع؛ لفنائته عن حظه في إرشاده، وإنما غرضه إقامة جاه محمد ﷺ وتعظيمه. وإذا تعلق نية الشيخ بهذا يجازيه الله على ذلك من حيث المقام فكيف يتهم شيخ في قلة نصح لطالبٍ مع هذه الوجوه التي ذكرناها، وما ذكر من المنافع له على حسب قصده ونيته، وبحسب الذي يتهم به من أجله الشيخ إما في قلة نصحه، وإما في تقصير مقامه أن يشاهد الفتح لتلميذه قد تباعد، وهو قد خدمه سنين، وإنما ذلك لعل يعرفها الشيخ من جانب الطالب، أو من جانب المقام الذي يريد الشيخ أن يرقيه إليه، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١).

فالتطالب يبطئ، ويجب الإسراع إليه، هيهات هيهات^(٢)، وأين هو من قول الجنيد حيث قيل له: بِمَ نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنةً، وأشار إلى درجة في داره.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٨).

(٢) في المخطوطة (أ) هيهات بلا تأكيد لفظي.

وكذا^(١) أبي يزيد البسطامي قدّس الله سرّه: كان حداد نفسه اثنتي عشرة سنة، ثم كان قصارها خمس سنين، ثم عمل في قطع زناره الظاهر ثماني سنين، ثم عمل في زناره الباطن كذا سنة، ثم بعد هذا كله بقيت له عقبات جاوزها.

فما لك أيها الطالب لا تنظر أين حالك من أحوال هؤلاء السادة؟! وأين اجتهدك من اجتهدهم؟! فتنظر نفسك بالتقصير، وأنك لست أهلاً للفتح، وترجع على نفسك بالمذمة، وتقول لها: لو أردت مقاماتهم لنهجت منهاجهم، وتنظر شيخك بعين التعظيم وغاية الجد والنصح، تقول لها: لو علم فيك خيراً لأسمعك، ولو أسمعك وأنت على هذه الحالة السيئة لتوليت وأنت معرضة، ولكن ينبغي لك أن تفرحي بإقباله عليك وجريه معك.

وهذه بشرى من الله إليك، فإن رأى شيخك منك عملاً غير صالح ما قربك ولا أدناك، ولكن قد رجا فيك الخير، وتوسّم فيك البرّ؛ فجدي، واجتهدي، وأعيني عليك؛ عسى الله أن يأتي بالفتح، فتكوني من المفلحين، وازجرها بمثل هذا الزجر، ولا تقطع يأساً؛ ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

فإذا رأيت الله تعالى قد أهلك هذا الزجر والتعنيف لنفسك؛ فاعلم أنك مراد، وأن الله سبحانه وتعالى ما أهلك بهذا الزجر إلا وقدّر أن يأخذ بيدك، وإذا رأيت أن الله تعالى لم يوفقك لهذا السير ولا جرت أفعالك عليه؛ فلا تلومنّ إلا نفسك، ولا تقع في شيخك؛ فيجتمع عليك خزي الدنيا والآخرة.

نصائح للمريد

فتحقّق يا بني فيما نبّهتك عليه، واشتغل بها حرّضتك عليه، وما ألقيت لك من النصيحة، فانتظر أيّها الطالب فتح الله ولو عمرك كله، ولا تيأس من روح الله انتهى.

واعلم أن كل من طلب السير إلى الله في طريق يحتاج إلى ما يحتاج إليه الحاجّ إلى بيت الله الحرام؛ فكما أن هذا لا بد له أن يفارق مألوفاته فكذلك ذاك، وكما يحتاج هذا إلى زادٍ

(١) في المخطوطة (أ) وكذلك وكلاهما سيان.

وراحلة فكذلك طالب الآخرة لابد له من زادٍ وهو التقوى، وراحلة وهي الهمة، ولا بد له من سلاحٍ يرهب به العدو ويقا تل به وهو هنا الذكر، ولا بد له من دليلٍ وهو له الأستاذ، ولا بد له من رفقةٍ وهم إخوانه وأعوانه. ولا بد له ألا يلتفت إلى العوارض التي تعرض كالكرامات والأحوال التي تعرض للسالك، فإن وقف عندها كان أسيرها، وانقطع عن ركب الجماعة، وتاه في بر القطيعة إن لم تدركه العناية إلى الساعة. وإذا وصل إلى ميقات التجريد لزمه الإحرام؛ ليقف على سرِّ التفريد، ويدخل أول ميادين السير، ويتجرد عن شهود الغير، ويلبِّي الداعي سعيًا على أسود العين دون الرأس بلا مين، ويطوف بيت التقريب، ويسعى بين صفا الشرب ومروة الترغيب والترهيب، ثم يسير إلى عرفات المعرفة، ويفوز بالوقوف على المعاني المشرفة؛ لينال من الأسرار الإلهية ما لا يعبر عنه لسانٌ ولا شفة. ويعد من عُرفاء الذات وخطباء الصفة^(١)، ثم يأتي إلى المزدلفة المختصة بالزلفى، ويبيت بها، فيدرك بالزلفات ما لا يُنشر بل يُطوى ويُخفى، ويرجع إلى منى وقد بلغ المنى، ثم يذبح هناك قربان نفسه حيث حظي بالحظ الأكبر من قدسه، ويرمي جمار النفس في عقباتها الثلاث بعدما يطهر القلب من الأحداث ويتم ما عليه من المناسك الجمّة، وقد بزغت شمس عيانه في جنانه، والخير عمّه. ويختم حجّه المبرور بزيارة سيد الأنام؛ ليفوز بمسك الختام وحسن الختام، وهناك تُخلع عليه خُلْعُ الرضوان، ويُسقى الشراب الزنجبيلي^(٢) بكؤوس الإحسان، ويكسى تاج القبول، وينادي عليه منادي الأمان: يا سكان الأكوان، إن فلانًا من عبيد الاختصاص أهل الشأن والعرفان، أمرتم بحبّه فأحبّوه، فيحبّه كل جمادٍ وحيوانٍ وإنسانٍ، وهناك يجوز عقبات سدل الستور، ويجوز على الحج المبرور والسعي المشكور، وينحر النفس بعد الذبح بالسيف المشهور، ويخلص من آفاتِها ومألوفاتها، فتحظى بكمال الأجر.

(١) في المخطوطة (أ) [ويعد من عرف الذات وخطبات الصفة].

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (الإنسان: ١٧)

قال سيدي أبو بكر الكتاني قدس الله سرّه المعمور: رأيت في المنام حوراء، فقلت: من أنت؟ فقالت: من حور الجنة. فقلت: زوجيني نفسك. فقالت: اخطبني من سيدي. فقلت لها: فما مهرك؟ فقالت: حبس نفسك عن مآلوفاتها انتهى.

فكيف يروم ارتقاء على هذه المنازل والقصور من أتشح بوشاح النور، وارتدى برداء القصور، وما خالف نفسه يومًا، ولا ترك - مجاهدةً فيها - أكلاً وشراباً ونومًا؟! بل أجابها في جميع الأغراض، وعامل وصف الجهاد فيها بالإعراض، ودللها وذلل لها، وما ذللها، وجللها وقارًا، وأبرم عقد مقاصدها فما حللها، فهذا يعزّ عليه العروج والولوج والاستواء فوق متن خيول الهمم ذات السروج.

أمثلة النفس

واعلم أيها الأخ، منحك الله وإياي سلوك طريق المقربين الذين سيثابهم حسنات الأبرار^(١) ورزقني وإياك العثور على السر الذي فاز به الأخيار، أن النفس قد شبّهت بشجرة عظيمة ذات أغصان وفروع خبيثة غير كريمة، كل غصن منها يثمر بنوع من أنواع السموم القتّالة، فمن تناول منها شيئاً كان حتفه لا محالة، فعندما تحققت الطلاب ذلك وأن مهلكاتها تردي السالك، عمد بعض الأبرار إلى قطع بعض الفروع، فلم ينج من شرّها الذي به مقطوع؛ لأنه كلما قطع غصناً من صفاتها الذميمة أثبتت غيره، وهكذا أصولها محكمة قويمّة، وقصد الأخيار من المقربين إلى أصلها الأصيل، فقطعوا عنه الماء، فضعفت في أقلّ من القليل، وسقط ورقها، وذبلت أغصانها، وانقطع ثمرها، وجفت قضبانها، وتعهدوا مجاري الماء إليها، فأحكموا سدّها، وعلّقوا بها أحبال العزائم والهمم، وأحكموا شدّها، ثم استعانوا على قلعها بشروشها ومحو آثار فروشها وعروشها، فتبدلت صفاتها الخسيسة بالسّمات النفيسة، فسُمّوا أصحابها أبدالاً بعدما كانوا لها أنزالاً، ونقبوا على خفيات دسائسها الهبائية؛ فسُمّوا نقباء، وأنجبت فراستهم بكلّ سرّ نجيب؛ فلقّبوا

(١) إشارة إلى القول الماثور «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

نجباء^(١)، وحكموا بأركان أرضها في طولها وعرضها؛ فدعوا أوتادًا، وبلغوا مرأما ومرادًا، ولم يعثر على ما تقدم إلا بالدليل المقدم الذي أفسد قربه النفس لما حلّ بها، وكان فسادها لما أصلحته بدعواها عين صلاحها ورشادها.

وإلى هذه الإشارة على ما ذكرته أهل الإشارة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ﴾: أي بلفيس النفس: ﴿إِنَّ أَلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤)، ولما عزّت عند صاحبها وكرّمت سميت عزيزة؛ لأن محبتها طبعٌ لديه وغريزة، ولقد عاتبت بعض الإخوان على هفوة صدرت منه، موجبها النفس، وأينا ما هف^(٢)، والقصد تنبيهه، فإن من رافقها كان على شفا مكان ثم قصيدة مطلعها:

وما كان ظنّي أنَّ عهدي يُنتسى	ويبدّل إحسان المودة بالأسا
وتصبح أرض الحبِّ مقفّرة الرُّبى	وصبحُ التداني يُمسي بالهجر كالسّا
ولكنَّ حظَّ النفس يُردّي ضجيرةً	لهذا الحشا من بعدما كان (قد) قسا
وقد ظهرت تلك الدعاوى بأنّها	على جُرفٍ هارٍ يئاهّا تأسّسا ^(٣)
وليتك إذ قامت عليك عزيزة	ذكرت موثيقًا جماها تقدّسا
وليتك إذا وافقتها أبّت مسرعًا	وليتك إذ ما أبّت لم تطلق اللّسا ^(٤)
ولستُ على ما قد فعلتُ بأسفٍ	ولكنّني أخشى عليك لدى الحسا ^(٥)
سأبدي لك الأعذار في كلّ محفلٍ	وإن كنت من حبّي لقد صرت مُفلسًا
ولم أقطع الآمال من قبله الرجا	عسى ولعلّ الله يُصلحنا عسا
سأكتّم ما قد لاح لي من جفاكم	وأضرب صفحًا عندما الكأس يحتسي

(١) في (أ) بالنجباء وهما سيان.

(٢) والمقصود (من منا لا يهفو).

(٣) يريد أن أعاني النفس وصفت أساساتها على حافة هادية تنذر بالسقوط.

(٤) اللسا: اللسان.

(٥) الحسا: الحساب.

ولست أحب الجهر بالسوء إذ نهي حبيب فؤادي عنه في سورة النساء^(١)
انتهى.

عز الدين بذل النفوس

فكل من يذل نفسه في طاعة الله ويهزها في مرضاته ما أعزها بل أذلها، ومن أذلها أعزها وما عزها، فإن في ذلها عز الدين وفي عزها ذل، فاحذروا من لها يدين؛ جاء في الحديث الشريف عنه عليه السلام أنه قال: «من ذل نفسه أعز دينه، ومن أعز نفسه ذل دينه، والدين لا بد منه، ومن سمن نفسه هزل دينه، ومن سمن له دنياه سمنت له نفسه»^(٢)، رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة، ولا يحمدوها ولو على صالح العمل؛ خوفاً أن تجره إلى العجب، فيقع صاحبها في الزلل؛ ففي الحديث الشريف: «من حمّد نفسه على عملٍ صالحٍ فقد ضلّ بشكره وحبط عمله»^(٣)، رواه أبو نعيم عن عبد الغفور الأنصاري، عن عبد العزيز، عن أبيه، وكان له صحبة، وليحذر تسويلها واستيلائها عليه فإن من استولت عليه نفسه هلك، ولو كان ممن بأنفاسه يدور الفلك، وصُرف عن التلذذ بكلام الله والتدبر في آيات الله.

قال سيدي أبو محمد أحمد الجريري: من استولت عليه نفسه صار أسيراً في حكم الشهوات، محصوراً في سجن الهوى، وحرّم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذّ بكلام الله، ولا يستحليه، وإن قرأ كل يومٍ ختماً؛ لأنه تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦). يعني أحجبهم عن فهمها والتلذذ بها؛ وذلك لأنهم تكبروا بأحوال النفس والخلق والدنيا، فصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته، وسدّ عليهم طريق فهم كتابه بمواعظه، وحبسهم في سجن عقولهم وآرائهم، فلا يعرفونه، بل ينكرون على أهل الحق، ويحرفون كلامهم إلى معانٍ لم يقصدوها. وغاب عنهم أن الله ما أعطاهم العلم إلا ليحتقروا نفوسهم، ويدلوا للعباد؛ إجلالاً لمن هم عبيدٌ له سبحانه وتعالى.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ (النساء: ١٤٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٥/٦).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٢٧/٥).

وإِيَّاكَ أَنْ تَشِيرَ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّ الْمَدَّعِيَّ مِنْ أَشَارٍ إِلَيْهَا أَوْ تَعَوَّلَ عَلَى أَوْامِرِهَا وَلَوْ طَاعَةً؛ فَإِنَّ الْمَغْرُورَ مِنْ عَوَّلَ عَلَيْهَا أَوْ سَاحَمَهَا فِي ارْتِكَابِ الرِّخْصِ وَقَبُولِ التَّأْوِيلَاتِ، فَإِنَّ هَذَا آخِرُ شَيْءٍ عَلَى الْمَرِيدِ؛ إِذْ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ التَّسْوِيلَاتِ. وَإِذَا وَقَعْتَ مِنْكَ هَفْوَةٌ أَوْ غَفْوَةٌ فَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِنْ كُنْتَ تَوَّمَلُ مِنَ الْعَيْشِ صَفْوَهُ، وَاعْتَرَفْ بِذَنْبِكَ، وَاعْتَرَفْ بِكِلْتَا يَدَيْكَ مِنْ مَاءٍ [عِبْرَةٌ^(١)]؛ فَقَدْ قِيلَ: يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوُ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفَ، ثُمَّ انْتَهَى عَمَّا جَنَاهُ وَاقْتَرَفَ، وَلَا تَغْفَلَ عَنْ إِشْغَالِ قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ بِالْحَقِّ، وَلَهَا لَا تَمَاطِلُ؛ فَإِنْ مِنْ لَمْ يَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ شَغَلَتْهُ بِالْبَاطِلِ، وَالْوَقْتُ سَيْفٌ، إِنْ لَمْ تَقْطَعْهُ قَطْعَكَ، وَالْعَمْرُ ضَيْفٌ، إِنْ لَمْ تَعْمُرْهُ بِالتَّقْوَى وَتَغْمِرْهُ بِهَا وَضَعَكَ، وَالْأَوْقَاتُ تَعْتَبُ عَلَى مَنْ أَضَاعَهَا عَبَثًا، وَالْأَنْفَاسُ كَذَلِكَ تَلُومُهُ إِذَا صَاحَبَهَا بِالْغَفْلَةِ.

وَيُرْوَى أَنَّ الْوَقْتَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: اغْتَنِمُوا عَمَلَ الْخَيْرِ فِيَّ، أَمَا أَنِي إِذَا فَارَقْتَكُمْ لَا أَعُودُ لَكُمْ أَبَدًا، وَالْأَنْفَاسُ تَمُرُّ عَلَى صَاحِبِهَا مَطِيبَةً أَوْ مُخْبِثَةً، فَتَعَاتِبُهُ، فَيُورِثُهُ الْعِتَابَ نَكْدًا. .

فَتَنَّبَهُ أَيُّهَا الْأَخُ لِرُوحِكَ إِنْ رَمَتْ أَنْ تَكُونَ صَاحِلًا، وَجَرَّدَ سَيْفَ جِهَادِكَ فِي النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ؛ فَمُوافَقُهَا لِلسَّيْفِ صَالِحٌ؛ فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَجَارِبْهَا وَيُرْدِعْهَا مَعَ الْأَنْفَاسِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْكُمَ مِنْ بِنَاءِ عِمَارَةِ قَلْبِهِ الْأَسَاسَ.

التنبيه لمخالفة النفس ومكرها

وكان أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي يقول: محاربة الصديقين لنفوسهم مع الخطرات، ومحاربة الأبدال مع الأفكار، ومحاربة الزهاد مع السهوات، ومحاربة التابعين^(٢) مع الزلات، وأنشد البوصيري قدس الله سره وأدام الله فتوحه:

وخالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهَا وَإِنْ هَمَّ مُحَضَّاكَ النَّصْحَ فَاتِّمِمْ
وَلَا تَطْغُ مِنْهُمَا خِصْمًا وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخِصْمِ وَالْحَكَمِ

(١) هكذا بالأصل، ولعلها (عبرة) وفي (ب) «عبرة قلبك» وبذلك يستقيم المعنى بإذن الله تعالى.

(٢) في (أ) التابعين ولعلها أدق.

يُحكي أن بعض الصالحين زينت له نفسه الجهاد في سبيل الله، وحسنت له نصرة دين الله، فقال: إن النفس لا تأمر إلا بالشرِّ، ولا بدَّ من دسيمة في هذا الأمر، فنبهه الحق سبحانه وتعالى وأراه أنها إنما طلبت ذلك لتستريح من المجاهدة والمخالفة لها؛ فإنها في كل يوم تموت ألف موتة، وكأنها قالت: أموت مرة وأستريح، يُقال: رضي الله عن فلان، لقد سمح بنفسه نصرةً للدين وإعانةً وتكثيراً لسواد المسلمين، وربما يبني عليّ مزاراً وأُقصدُ بالزيارة من الأقطار، فحمدًا لله تعالى الذي أيقظه وبعنايته لحظه.

واتفق لبعض الأعلام أنه مكث نحو خمسين سنة لم يفته في الصف الأول تكبيرة الإحرام مع الإمام إلا يومًا من الأيام، فقالت له: أيُّ شيء تقول للملازمين للصف الأول حيث لم يَرَوْك وأظهرت الاستحياء من أولئك الأقوام؟ فقال لها: كل هذه المدة أنت تحذعيني بأفضلية الصف الأول ولزوم الجماعة وأخفيتي الرياء عنيّ وحبّ الشهوة والسمعة حتى الساعة، فتاب واستغفر، وقضي تلك الصلاة لعدم الإخلاص. وكم خدعتُ من مقدم، وقطعت عن الإقدام من إمام، نعوذ بالله من شرّها، ونلجأ إليه من مكرها وغدرها، كلُّ هذا من عدم المجاهدة فيها والرضا عنها والاستبصار إليها، وقد قيل:

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ كما أنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساوئاً^(١)

فلو خرق المريد حجاب نفسه بقوة المجاهدة والأذكار وهدم جدارها الذي لا يشبه في غلظه جدار وخرق سفيتها ليفرق أهلها الفجّار وقتلَ غلامَ حظّها ليسلم من الأعداء لضعفت عن مقاومة صاحبها، وربما رجعت عن الأحرار عندما تسطع عليها

لوامع بوارق الأنوار وهوامع سواطع جوامع الأسرار، ولو أنها أنصفت وأنصفت بالإنابة لساعدت صاحبها واقتفت الآثار، ولو عرفت أصلها لما قرّ لها قرأ؛ فإنها من عالم

(١) قرئ البيت هكذا:

عين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السوء تبدي المساويا

الأنوار المجردة لا النار، وهي المشار إليها بقول الرئيس صاحب الشفا الرفيع المنار الأيب^(١) - كما حققه القونوي قدس الله سرّه في شرح الفاتحة - إلى معتقد أهل السنة الأظهار فيما يرجع إلى الحق جلّ جلاله: أي آخر أمره خلافاً لمن عده من زمرة الواقفين مع الأفكار:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع^(٢)
إلى آخر القصيدة الفريدة.

ولكن لما أخلدت إلى أرض الجسم واتبعت الهوى وحكم عليها الطبع، فكان لها منه أوفر قسم، ثم سؤل الشيطان لها فاتبعت مقالته وجعلها لصيد ريم الروح حُباله. غلب عليها الجهل بأصلها الرفيع ومحلها المنيع، فإذا همّ صاحبها بإنقاذها من أيدي حظوظها المتلفة ظنّت أنه يريد أن يُنزلها المنازل المخوّفة تقاعست وأحجمت عن الإقبال، ولو علمت لمن تسعى لقطعت السلاسل والأحبال، واستهونت الصعاب وقطع الجبال، وخافت العقاب والنكال والوبال والحبال، وأنشدوا:

والله لو علمت نفسي بمن كلّفت . سعت على العين دون الرجل والقدم

في كون حب الرياسة أشد ما قابى النفس تركه

وأكثر خوفها زوال ما هي فيه من الرياسة سيما بعد استحكام حبّها منها المورث الحساسة.

(١) من آب يثوب إذا رجع إلى طريق الصواب والمقصود الشيخ ابن سينا.

(٢) القصيدة العينية للشيخ الرئيس ابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع	ورقاء ذات تدلّل وتمنّع
فلأني شيء هبطت من شامخ	سام إلى قعر الخضيب الأوضّع؟
إن كان أرسلها إليه لحكمة	طويت على الفطن اللبيب الألمعي
فهبوطها إن كان ضربة لازب	لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعمود عالمة بكل خفية	في العالمين فخرتها لم ترفع

وللعلامة عبد الرؤف المناوي شرح عليها طبع قديماً.

وكان سيدي أبو المحاجر بن عمر القيسي رحمه الله يقول: إن إزالة الجبال الرواسي من موضعها أهون من إزالة الرياسة إذا استحكمت في النفس انتهى.

وكان سيدي إبراهيم بن إسماعيل الخواص يقول: آفة المريد ثلاثة: حبُّ الدراهم، وحبُّ النساء، وحبُّ الرياسة. فيُدفع حبُّ الدراهم باستعمال الورع، وحبُّ النساء بترك الشهوات وترك الشبع، ويُدفع حبُّ الرياسة بحب الخمول، وكان رحمه الله يقول: من شرب من كأس الرياسة فقد خرج من إخلاص العبودية اهـ.

ولا تفتر النفس تطلب شرب كأس الرياسة؛ لما عندها من الجهل والحماسة التي تطغى بها من العقل المنير نبراسه، وتحرمه ظهور النور الإلهي الموجب للقلب الفراسة، وتوهمه أنها تريد بهذا ستر الحال أو الظاهر أو غير ذلك، فتهدم أساسه، وتُدس عليه الباطل في لباس الحق، فتغرّه، فليحذرهما؛ فإنها دساسةٌ تترفع على الناس، وتبدي العزة وهي أخسُّ من الكناسة، ولم تدرِ بجهلها أن هذه الرئاسة عين الخساسة، وأن تواضعها وتذلّلها بحر النفاسة، فلو ارتفع نقابها وزال حجابها وشاهدت ما لصفة التواضع من النور وما للتكبر من الحُجُب الكثيفة والستور لودت أنها تُنشر بالمناشر ولم تتكبر، ويُقرض جسمها بالمقاريض ولم تتجبر.

وقد قال بعض السادة الأفاضل: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنسوا بأرواحهم المزابل.

وقال آخر: إن مقرّ نفوس العارفين تحت تخوم الأرضين السفلى.

واعلم أن الأكابر من خطباء هذه المنابر قد طوّعوا نفوسهم حتى دخلت تحت حكمهم وطاعتهم؛ فهي ككلبٍ مُوثقٍ متى أرادوا إطلاقه أطلقوه على من يستحق ذلك، فيرى بعض من لا معرفة له بأحوال أهل الطريق نفساً عند العارف الذي بالتخليّة عنها حقيقٌ؛ فيظن أن ذلك من غلبة لها عليه أو استيلاء وصل منها إليه، والأمر ليس كذلك، وإنما لما رأى الكامل نفساً قابلته وأظهرت ثوب كبرها وعجبها لديه قابلها بنفسٍ أعظم

منها؛ لتذلّ وتخضع بين يديه، وهذا من باب إعطاء كل ذي حقّ حقه، فيعطي نفسه في هذا المقام حقّها، ويمنعها في مواطن منه؛ لانسحاقها تحت أمره ومحققها، فما فعل إلا ما هو أليق بالمقام، مع أن باطنه بريء مما برز من نفسه من الغضب التّام، وبعضهم يقصد ستر الحال وإخفاء ما عنده بين الأنذال، فإن الكامل جامعٌ للقبح والزّين، فمن حيث صفات نفسه شَيْنٌ، ومن حيث صفات روحه الكريمة زَيْنٌ، فإن قابل الإنسان الكامل أحدًا بمرآة نفسه رأى ذلك الأحد قبحًا لا يتناهى، ومتى قابل أحدًا بروحه شاهد نورًا ساطعًا وبوارق لامعة وبواتر قاطعة، وانجذب إليه انجذابًا كليًا، وانعطف عليه انعطافًا سويًا، ومتى قابل أحدًا بسرّه هلك إن لم يكن سلك فيها هلك. [ومن هذا المقام موت مرید أبي يزيد لما قابله من بعيد]^(١)، ومتى قابل أحدًا بسرّ سرّه ذاب وعاد ماءً أو نارًا أو هواءً أو ترابًا، كما في حكاية ذلك التلميذ الذي ذاب لما تكلم معه شيخه في المحبة، وصار ماءً، وجمعه في جرة ودفنه، فیرجع المقابل للعنصر الذي يغلب عليه قبل التمكن من النظر إليه، ومن قابله بسرّ سرّ فهذا لا توصف حقيقة أمره؛ لانسحاقه في محقه وانمحاقه في سحقه، وفي هذا المقام وما بعده تكلّ العبارة وتقصر الإشارة^(٢)، وهذا حال من قابل الإنسان الكامل، فكيف بمن قابل إنسان عين كل إنسانٍ جامعٍ شاملٍ^(٣)؟! فتدبر ترشد، والله يتولى هداك.

وليس العجب يا أخي من نفسٍ تدعو لما جُبِلت عليه، وإنما العجب من صاحبها كيف يوافقها وهو يعلم أنها أمّارة بالسوء في كل ما تدعو إليه؟! منع علمه بقول الأديب الذي للغرض مصيبٌ:

النفسُ راغبةٌ إذا رغبتْها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

ولا تدخل الراحة إلا إذا أتعبها صاحبها جدًّا، وصير الصفة المُرّاحة مُرّاحة، وقد صاح النّصاح الذي عرف ودلّ من ذلّ لها، ومن بحر اجتهداها ما عرف راحة النفس

(١) ما بين المعقوفتين ليس بالمخطوطة (ب).

(٢) في (ب) بالجمع «تكلّ العبارات وتقصر الإشارات» وكلاهما صحيح.

(٣) وهو حضرة سيد العالمين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين.

ذميمة، وهي عادات البهيمة، لن تنال العلم حتى تُتَعَبُ النفس الكريمة. فإذا أُتِيتَ تطهرت، وإذا تطهرت تحررت، وبتحررها تتأيد، وبه تتقيد، فتصلح أن تكون عروساً للعقل، وأن يكون لها خير بعل، وبذا يحصل لها النسب الأخص الذي عليه أكمل العرفاء نص، وفيه يقول المقتفي صحيح القول:

نَسَبُ النَفُوسِ أَخْصُ مِنْ نَسَبِ تَوَلَّفِهِ الْجَسُومِ
هَذَا يَدُومُ لِأَنَّهُ طَبْعٌ وَهَذَا لَا يَدُومُ

وما هي إلا طفل أغراضٍ وطفلُ أغراضٍ، فافطمها؛ لتحسم منها مواد النزاع، ولا تركز إليها ولو رأيتها في النزاع، وقد أنشد البوصيري قدس الله سره:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطَمَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِزْ أَنْ تَوَلَّيَهُ إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِ أَوْ يَصِمِ
وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ^(١)
كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

بين الأقدار والأعمال

فالذي ينبغي لكل من يريد الخلاص منها أن يتنبه لخفايا خبايا زواياها، ويتشبه بالذين أظهروا مخفى طواياها؛ ليكون ممن بمخالفته ذكاها وزكاها وما دساها، وممن له بصفاء السريرة على نفسه بصيرة.

وهل الأعمال لها تأثير أم ليس إلا الأقدار. ويشهد للأول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ و﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

(١) في (أ) بيت آخر من أبيات بردة المديح المباركة للبوصيري ؒ وهو قوله:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب خمسة شر من التخم

(العنكبوت: ٦٩)، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ (الحج: ٧٨)، وللثاني: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦)، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر: ٢١).

وقد جمع الإمام الأكبر بين القولين في فتوحاته فقال: إن الأقدار حاكمةٌ على الأعمال، والأعمال من جملة الأقدار، وهي مؤثرةٌ في بابها ظاهرة التأثير؛ بحيث لا يندفع ذلك بشبهة، ولا مدخلٌ للأعمال بالتأثير في غير بابها، وإنما الأثر للقدر المحض كالزلازل والصواعق ونزول القطر من غير استسقاء وما يشبه ذلك؛ فهذه الأعمال تنشر مطوى الأسرار.

وهل الجدُّ والاجتهاد سببٌ للفتح والإمداد؟ أم هو بمجرد الوهب والإسعاف؟ فقال الشبلي قدس الله سره: إن المواهب لا تُنال باجتهدٍ، ولكن الاجتهاد سببٌ في نيلها اهـ.

هذا بمعناه، وقد أمرنا بالتعرض بالنفحات الربانية والتهيؤ للرشحات الإحسانية وتفريغ المحل لأجل قبول الفيوضات الفرقانية وتلقي الموارد العرفانية بقلوبٍ متعطشةٍ إلى إذلال الغيوب، هائمةٍ إلى استخلاص النفس مما بطن فيها من العيوب.

قال سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري قدس الله سره في حكمه: تشوّفك إلى ما بطن فيك من العيوب خيرٌ من تشوّفك إلى ما حُجب عنك من الغيوب اهـ.

والواجب على كل من رام محو كلِّ حاجٍ أن يبدأ أولاً بنفسه؛ عملاً بحديث: «ابدأ بنفسك»^(١)، و«عليك بخصوصية نفسك»^(٢)، فإذا أدبها وهذبها وسأيسها فأحسن سياستها وطيبها لزمه أن يسوس من يعول من الجوارح، ثم الأهل والمال والولد الذين هم للقلب

(١) رواه مسلم (٦٩٢/٢) وابن حبان (١٢٨/٨).

(٢) لم أقف له على تخريج في الكتب التي بين يدي.

المعلق بهم جوارح^(١)، وأما من غَشَّته نفسه فكيف يجوز له أن ينصح غيره؟! قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤).

وقيل: إذا جلس الرجل يعظ الخلق ناداه ملك: عَظْ نفسك بما تعظ به أخاك، وإلا فاستح من الله؛ فإنه يراك، وفي الحديث: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢)، والله در القائل حيث قال في الأوائل:

يا أيُّها الرجلُ المَعلَمُ غيرَه	هلاّ لِنفْسِكَ كانا ذا التعلِيمِ
تصفُ الدِواءَ لذي السَّقامِ وذِي الضَّنَى	كيما يطيبُ به وأنْتَ سَقِيمُ
وأراك تُلقِّحُ بالرشادِ عقولَنا	تُهدي وأنْتَ مِنَ الرِّشادِ عَدِيمُ
لا تنهَ عن خَلْقٍ وتَأَيُّ مثله	عارٌ عليك إذا فعلتَ عَظِيمُ
ابدأ بنفسك وانتهها عن غيِّها	فإذا انتهتُ عنه فأنْتَ حَكِيمُ
فهنالك يُقبل ما تقول ويُشتفى	بالقول منك وينفعُ التعلِيمُ

وقول الآخر:

وكم من غلامٍ يامر الناس بالهدى طبيبٌ يداوي الناس وهو مريضُ

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي قدس الله سرّه يقول: من لم يكن مجتهداً في بدايته لا يفلح له مريدٌ؛ فإنّه إن نام نام مريده، وإن قام قام مريده، وإن أمره بالعبادة وهو بطال أو توبته^(٣) عن الباطل وهو يفعل ضحك عليه ولم يسمع منه، وكان ينشد كثيراً إذا قيل له: انصحنّا وأرشدنا قول بعضهم:

لا تعدلين الحرائر حتى تكوني مثلهنَّ يُقبِحُ على معلولة تصفُ الدوا للناسِ

(١) في (أ) المال بعد الولد ولا يوجد وصف للقلب بأنه المعلق.

(٢) رواه البخاري (٢٧/١)، ومسلم (٣٧/١)، وأبو داود (٢٢٣/٤)، وأحمد (٢٧/١).

(٣) في المخطوط «تولهم» ولعل المقصود «نهاء». وفي (ب) توبهم والضمير للجمع «ضحكوا» «يسمعوا».

وفي الحديث: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

وأقرب رعاياك إليك نفسك التي بين جنبيك، وكان ﷺ يقول: «من أحبَّ أن يكون ولدي فليحبس نفسه في قمقم الشريعة، وليختم عليها بخاتم الحقيقة، وليقتلها بسيف المجاهدة وتجرع المرات، ومن رأى له عملاً سقط من عين الله، وحرّم من ملاحظته»^(٢).

ومن كلام ابن أبي العشائر قدس الله سرّه: عليك بالإحسان إلى رعيتك، والرعية خصوصٌ وعمومٌ؛ فالعموم: العبد والأمة والولد والخصوص: ما وراء ذلك، فعليك بروحك، ثم بـسرك، ثم بـقلبك، ثم بعقلك، ثم بجسدك، ثم بنفسك؛ فالروح تطالبك بالشوق وسرعة السير إليه من غير فتور، والسر يطالبك بأن تخفي سرك، والقلب يطالبك بالذكر له والمراقبة، وأن تنسى نفسك وسواه في ذكرك، والعقل يطالبك بالتسليم إليه والموافقة له، وأن تكون مع مولاك على نفسك وهواك، والجسد يطالبك بالخدمة له وخلوص الطاعة، والنفس تطالبك بكفها وحجرها عن كل ما تميل إليه، وحبسها وتقييدها، وألا تصحبها ولا تصطحبها. وكان يقول: لا ينضحك من لا ينصح نفسه، ولا تأمن الغشّ ممن غشّ نفسه: أي فإن من غش نفسه فهو لغيره أغشّ، ومن رضي عن أمارته وبشّ في وجهها فهو في وجه أعدائه أبشّ، وكيف يركن إليها وقد علم أنها مدّلسة دجالة تقبل من الشيطان غشّه بدون رُشيد ولا جعالة؟! وقد أمرنا بالاستعاذة من الدجال إما لثلاث نصدقه في دعواه ونُحفظ من فتنته، أو لثلاث يقوم بنا من الدعوى باطنًا ما قام به؛ فإن الإنسان مستعدٌّ لكل خيرٍ وشرٍّ من حيث إنسانيته. وحيث علمنا أن النفس دجالة لزمنا أن نستعيز بالله تعالى منها. ومن حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف حُفِظَ من فتنته؛

(١) رواه البخاري في الصحيح (٣٠٤/١)، وفي التاريخ الصغير (٩٠/٢)، وفي الأدب المفرد (٨٣/١)، ومسلم (١٤٥٩/٣)، والترمذي (٢٠٨/٤)، وأبو داود (١٣٠/٣)، وأحمد (١١١/٢)، والبيهقي في الشعب (٣٨٢/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٠/٥)، وابن عدي في الكامل (٣١٢/١).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٣٧٦/٢) بنحوه. وفي (ب) وكان «ﷺ» يقصد سيدي إبراهيم الدسوقي ونسبة هذا القول للعارف الدسوقي أوقع. فلم أقع على حديث بهذا المتن والمعنى. والله أعلم.

فاحفظها؛ لتُحفظ منها ومنه، وابحث عن سرِّ الكهف وحكمته؛ إذ كلُّ من دخل كهف الاستعاذة بالله حفظه الله من أعدائه، وبالرعاية تولاّه.

وكان سيدي أحمد الرفاعي قدّس الله سرّه يقول: إذا أراد الله أن يرقى العبد إلى مقامات الرجال يكلفه بأمر نفسه أولاً. فإن أدّب نفسه واستقامت معه كلفه بأهله، فإن أحسن إليهم وأحسن عشرتهم، كلفه جيرانه وأهل محلته، فإن هو أحسن إليهم ودارهم كلفه ببلده، فإن هو أحسن إليهم وداراهم كلفه جهة البلاد، فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم وأصلح سريرته مع الله كلفه ما بين السماء والأرض، فإن بينهن خلقاً لا يعلمهنّ إلا الله. ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث، ثم ترتفع صفته إلى أن يصير صفةً من صفات الحق، فيطلعه على غيبه حتى لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره، وهناك يتكلم عن الله بكلام لا تسعه عقول الخلائق؛ لأنه بحرٌ عميقٌ غرق في ساحله خلقٌ كثيرٌ، وذهب به إيمان جماعية من العلماء، فضلاً عن غيرهم.

وكان يقول: إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله، وصارت همته خادمة السبع سماوات، وصارت الأرضون كالخلخال في رجله، وصار صفةً من صفات الحق لا يعجزهم شيء، وصار الحق يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، وقال: ويدل على ما قلناه ما ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله ﷻ: «يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختاروني أختركم، وارضوا عني أرض عنكم، وأحبوني أحبكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء: كُنْ فيكون، يا بني آدم من حصلت له حصل له كل شيء، ومن فُتته فاتته كل شيء»^(١).

(١) رواه الترمذي في النوادر (١/ ٢٦٥)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١٤٠).

(٢) في مثل هذا المعنى كلمات مباركة منسوبة للحارث المحاسبي رحمه الله يقول:

«كل ما فاتك من الله - سوى الله - يسير، وكل حظ لك - عداه - هين وحقير» فماذا وجد من فقد ربه؟ وماذا فقد من وجد ربه؟ الجواب في الحاليتين - والله أعلم - لا شيء

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره في طبقاته: قلت: وقوله: «صار صفة من صفات الله» لعله يريد التخلّق والاتّصاف بصفاته من الحلم والصفح والكرم؛ لأنه لا يصح لأحد أن يكون عينَ صفات الحق، فهو كقوله تعالى: «فَبِئْسَ يَرَى، وَبِئْسَ يَسْمَعُ، وَبِئْسَ يَنْطَقُ^(١)»، وما أشبه ذلك اهـ.

فإذا دانت له نفسه ولانت واستسلمت وانقادت وله أعانت فليحذر منها غاية الحذر؛ فإنها خداعة مكّارة محشوة بالقدر، تبطن الحرب في السلم، وتريك ما هو الجهل المحض في صورة العلم، ولكن ينبغي إذا أيقظك الحق لخفي شركها أن تتعامى وتتجاهل عنها، وتتبه لخفيها وشركها. وانصرع لها في بعض الكرات؛ فإن من لم ينصرع لها مرة صرعه مرات، مثال ذلك: إذا طلبت منك شهوة لا ضرر فيها ولا ضرار فوافقها حيناً واستخدمها فيما تحب وتختار، وقل لها: ألم أوافقك في مطلبك؟! فوافقتني إذن في مطلبي بما يقربك من ربك، فإنها لا تجد بداً من الموافقة، وتقوّم حجتك عليها عند المخالفة.

النفس خد بين الشيطان

واعلم أن الشيطان ليس له من يأخذ عنه منك غيرها؛ لأنها صاحبتة؛ فالشيطان للنفس بمنزلة الملك للروح، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ؛ فَسُدُّوا مَجَارِيَهُ بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ»^(٣)؛ فهي الواسطة في جريانه، فإذا أجاج البطن عميت العين، وخرس اللسان، وكلت بقية الأعضاء، وخمدت نيران النفس، وفنيت خواطرها، وانعدمت شهوة الفرج، فتتحرك الجوارح تحت حقائقها.

بين الجوع والصوم:

سمعت شيخنا رحمته الله يقول: السبب الذي به تذلل النفس في حالة الصوم تذكرها بحر الجوع الذي ألقى فيه حين ادعت ما ليس لها، أو ما معناها، وقد جاء في الحديث الشريف:

(١) رواه الترمذی فی النوادر (١ / ٢٦٥).

(٢) رواه البخاري (٧١٧/٢)، ومسلم (١٧١٢/٤)، والترمذي (٤٧٥/٣)، وأبو داود (٣٣/٢)، والنسائي في الكبرى (٢٦٣/٢)، وأحمد (١٥٦/٣)، وابن ماجه (٦٥٥/١)، وابن حبان (٤١١/٢).

«الصَوْمُ جُنَّةٌ»^(١)، وما دامت النفس تطالب بالأجرة على أعمالها فالجوع في حق صاحبها أبلغ في نكايتها من الصوم؛ لأن لها فيه حظاً، هذا إذا كان مجاهدًا لها بدون مرشدٍ، وأما إذا كان تحت أمره فلا اختيار له إذن؛ وإنما هو تابعٌ لمراده.

وقد أنشد سيدي محي الدين قدّس الله سرّه في ذلك:

أَجْوَعُ وَلَا أَصُومُ فَإِنَّ نَفْسِي تَنَازَعُنِي عَلَى أَجْرِ الصَّيَامِ
فَلَوْ فَنَيْتُ أُجْرَتُهَا لَقَلْنَا بِإِيحَابِ الصَّيَامِ وَبِالْقِيَامِ
فَإِنَّ الْعَبْدَ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ هَدَفٌ لِرَامِ

وليس للشيخ أن يجوع تلميذه بغير صومٍ، ولا أن يأمره بالفطر عند الغروب إلا لعذرٍ شرعيٍّ، يعلم الشيخ به نجاته بين يدي ربه إذا سُئِلَ لم أفطرت عبدي؟ فإنه لا بد من السؤال والجواب.

قال سيدي محي الدين قدّس الله سرّه في الباب السادس والمائة في فتوحاته المعقود في معرفة الجوع: ولا تجع من غير صومٍ؛ فإنه غير طريقة مشروعة، ولا تجعل سبب ذلك حديث أجر الصوم؛ فذلك ليس لك، إنما هو للعمل، ودع النفس ترغب في الأجرة التي لها على ذلك، فإن منها من يطلب ذلك وأنت بالسر الإلهي والروح؛ الأمر بمعزلٍ عن هذا الطلب الذي تطلب النفس الحيوانية، فإنك بمجموع، ولا تلحق بأهل الغلط من أهل الطريق الذين يجوعون تلامذتهم من غير صومٍ، أو يصومونهم ثم يطعمونهم قبل غروب الشمس؛ هذا غلطٌ منهم وجهلٌ بطريق الله، وإن كانوا يقصدون بذلك مخالفة النفوس، فما هذا موضعه، وإنما تنبغي أن يخالفوها في تعيين المأكول على حدٍّ مخصوصٍ من وجهٍ معيّنٍ وميزانٍ مستقيمٍ يعرفه أهل الله، فإذا مال إلى طعامٍ خاصٍّ معيّنٍ عندها فأطعمها ما تكره من الأطعمة حتى لا تكره شيئاً من نعم الله، وقد عملت على هذا زماناً حتى طاب لي كلُّ

(١) رواه الترمذي (٣/ ١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٩٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤)، والحاكم في المستدرک (١/ ١٥٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ٤٥)، وفي الأوسط (١/ ٢١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٨٠).

شيء كنت لا أقدر على أكله وتمجّه نفسي، وكذلك في التقليل منه، وهو أشدّ ما على النفس أن تشرع في الشيء ثم يحال بينها وبين التملّي منه، والله الموفق لا رب غيره انتهى.

جملة صالحة من النقول في جهاد النفس

واعلم أن أصل النفوس السبعة المتقدم ذكرها واحدٌ، وهو النفس الناطقة، وإنما اختلفت أسماؤها باعتبار صفاتها، وهي أيضًا عبارة عن القلب الذي هو اللطيفة الربانية المودعة في النشأة الإنسانية، لكنها لما تدنست بالشهوات واتّحدت مع النفس الحيوانية، فانخرطت في سلك الحيوانات، وتبدّلت أوصافها الحميدة بالذميمة، ودخلت تحت حوزة الشيطان، وعادت من جملة أعوانه، فأخسرت الميزان، فاستحقت في هذه المرتبة الدّنية والمنزلة السجنيّة أن تُسمّى بالأثمارة، حيث ارتضت ظلمة الطبيعة وطناً، وحنّدت^(١) القطيعة سكناً. وإذا تحققت أنها بدون التصفية والتسخير لا يزول منها وصف التبديل والتغيير، فشمر ذيل مجاهدتك فيها: أي تشمير، ولا ترصّ بنعت الفشل والتقصير، واحجر عليها؛ فإن المبذر يستحق التحجير، والخارج عن سياج الشريعة يحق له الرجم والتحجير، وأكثر من الذكر المأذون لك به من مريبك إن كنت أسيراً لأمرٍ، وإلا فبكل ما أمرك به الشرع من تمجيدٍ وتحميدٍ وتهليلٍ وتكبيرٍ، وليكن دعاؤك في هذا المقام الخطير: «اللهم خلّصني من ضيق النفس، وأخرجني إلى فضاء الروح المريح المزيج المنير، وأجهد عليّ لباس ثياب الخمول والقنع بالسير»، وتطهر من نجاسات الذنوب بالتوبة؛ ليرتاح القلب الكسير؛ فبذل الروح على ذرة من هذا الفتوح غير كثير، فإن الأمر عسيرٌ، والناقد بصيرٌ، وقلّ من يسقط على العارف الخبير، فإن ظفرت به فقد أثريت أيها الفقير؛ فاشرب إذن قديم خموره، وجانب جانب التقصير لا مثال أمره؛ ليحميك ويهديك، فإنه الخبير، وينبّهك على الفتيل والقطمير^(٢)، ويُعرفك كيف طريق النجاة من عدوّ مضاجع لك على السرير، والفرق بين نسج العنكبوت ودود قزّ الحرير، فيحيك أثواب عملك حائك

(١) الحنّدت: الظلمة.

(٢) القطمير: القشر الذي يكون فوق النواة.

التصوير بمدد العناية الأزليّة وسابق التقدير. فإن أحسنت فلباسك الحرير، وإلا فالكتان أو الخيش المبيد، فلا تلو منّ إلا نفسك على التفريط في العمر القصير.

قال سيدي محي الدين في مواقع النجوم: واعلم يا بنيّ أن أصل النفوس واحد، فإذا ركبت في الجسوم على اختلاف أمزاجها من صاحبها صارت من طبع المزاج المجاور، حتى تُضرمَ عليها نار المجاهدة، ويلقيها في أبواب^(١) الرياضة، فإن كانت تلك الأرض معتدلة المزاج: أعني قريبة الاعتدال تخلصت في الحال، والتحقت بعالمها، ولم يحجبها تدبيرها بذلك الجسم. وإن بُعد الاعتدال كثر التعب في التخليص والمشقة وطالت الشقة. وهذا أيضًا راجعٌ للعارف بالتخليص فواصلٌ ومقاربٌ ومدلّسٌ، فالمدلس: المدّعي، والواصل: صاحب الحقيقة، والمقارب: المجتهد الذي قد لاحت له بارقةٌ من مطلوبه، عرفها وسكن إليها، فالرجال الأنجاد عليهم السلام ما اشتغلوا بتدبير جسمهم من حيث الشهوات، وإنما اشتغلوا بنفوسهم أن يخلصوها من رعونات الطبع؛ حتى يلحقوها بعالمها. ألا ترى سهلاً التستري وهو من رؤساء الطريق وسادته لما قيل له: ما القوت؟ قال: ذكر الحي الذي لا يموت. قيل له: هذا قوت الأرواح، فما قوت الأشباح؟ فقال عليه السلام: دع الديار إلى بانيها، فإن شاء عمرها، وإن شاء خرّ بها. فما أحرَمَ عبدًا لم يوفقه الله لتخليص جوهرته، نعوذ بالله من الحرمان.

ثم قال قريبًا من آخر الفلك اللساني^(٢): واعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الأفعال كلها، ثم قسّمها إلى محمودٍ ومذمومٍ، فانظر حيث يقيمك، فإن أقامك في مذمومٍ فاعلم أنك في الوقت ممقوتٌ. فاستدرك الإقالة والتضرّع والإنابة، وإن أقامك في محمودٍ فاعلم أنك في الوقت محمودٌ، فإن فعلت يا بني ما لا يرضي الحق منك فارجع على نفسك بالمذمة والتقصير؛ فإنك مأجورٌ في هذا الشرك، بل هو حقيقة التوحيد؛ فإن التوحيد بغير أدبٍ ليس بتوحيد، فإنك إن لم تر العيب من نفسك ولا رجعت عليها بالذم ولا ندمت على

(١) باطٌ بَوطًا: ذلٌ بعد عزٍّ، فالبوط هو الذل بعد العز والجمع أبواب.

(٢) المراد بالقائل سيدي محي الدين في مواقع النجوم «الفلك اللساني».

فعله لم تصح التوبة لك. فإذا لم تتب لم تكن محبوبًا، وإذا لم تكن محبوبًا كنت ممقوتًا محبوبًا،
فبنفس ما تدّعي في ذلك التوحيد أنك صاحب كشف جعلك بسوء الأدب في الحال
محبوبًا لا تنفعك تلك الحقيقة في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال في أول الفلك البطني: اعلم يا بني أن الله جلّ ثناؤه لما أراد أن يرقى عبده
الخصوصي إلى المقامات العلية قَرَّبَ منه أعداؤه؛ حتى يعظم جهاده لهم، ويشغل
بمحاربتهم أولاً قبل محاربة غيرهم من الأعداء الذين هم منه أبعد، قال الله تعالى:
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة: ١٢٣)، وحظُّ
الصوفي وكلِّ موفقٍ من هذه الآية أن ينظر فيها إلى نفسه الأمانة بالسوء التي تحمله على كل
مخطوئٍ ومكروه، وتعديل به عن كل واجبٍ ومندوبٍ للمخالفة التي جبلها الله عليها، وهي
أقرب الكفار والأعداء إليه، فإذا جاهدتها أو قتلها أو أسرها فحينئذٍ يصح له أن ينظر في
الأغيار على حسب ما يقتضيه مقامه وتُعْطيه منزلته، فالنفس أشدُّ الأعداء شكيمةً
وأقواهم عزيمةً؛ فجهادها هو الجهاد الأكبر. فمن ثبت قدمه في ذلك الزحف وتحقق
بمعنى ذلك الحرف انتهض بهمة في الملوك مليكًا، وكان له الملك جليسا، غير أن هذه
النفس العدوّة الكافرة الأمانة بالسوء لها على الإنسان قوةٌ كبيرةٌ وسلطانٌ عظيمٌ بسيفين
عظيمين تقطع بهما رقاب صناديد الرجال وعظمائهم، وهما: شهوة البطن والفرج، اللتان
قد تعبّدتا جميع الخلائق وأسرتاهم، ومن عظمهما وكبير فعلهما أفرد لهما الإمام حجةً
الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله كتابًا سماه «كسر الشهوتين» في إحياء علوم الدين له،
وكذلك اعتنى بها كبار العلماء رحمهم الله، ثم سرد من المقال ما يفوق السحر الحلال، وما أحق
حديثه بقول من قال:

وحديثها السحر الحلال لو أنّه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يمل وإن هي أوجزت ودّ المحدث أنّها لم تُوجز^(١)

(١) الأبيات لعلي بن عباس الرومي وتمام الأبيات:

الجهاد الأكبر

واعلم أن توبة بني إسرائيل كانت بقتل أنفسهم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤).

قال السلمي رحمه الله في تفسيره: قيل: عَجَلُ كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده وهواه فقد برئ من ظلمه في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٥٤). قيل: توبوا إلى باريكم، قال: ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالتبرؤ منها؛ فإنها لا تصلح لبساط الأنس.

وقال أبو منصور: ما شرع الحق إليه طريقاً إلا وأوائله التلف؛ قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فما دام يصحبك تمييز؛ فأنت في عين الجهل حتى يضلّ عقلك، ويذهب خاطرك، ويفقد تسبيك إذ ذاك وعسى ولعلّ.

وقال الواسطي: كانت توبة بني إسرائيل إفناء أنفسهم، وهذه الأمة أشد، وهو إفناء أنفسكم عن مرادها مع بقاء رسومهم في الهياكل.

وقال: عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مِلُوكًا﴾ (المائدة: ٢٠): قال القرشي: ملككم سياسة أنفسكم، وقال سهل: مالكين أنفسكم ولا تملككم أنفسكم، وأنشدت في معناه:

ملكْتُ نفسي وذاك ملكٌ ما مثله للأنام ملكٌ
فصرتُ حرّاً بملكي نفسي فما خلقي عليّ ملكٌ
قال بعضهم: جعلكم ملوكاً قانعين بما أعطيتهم، والقناعة هي الملك الأكبر.

وقال بعضهم: جعلكم ملوكاً وزراء أنبيائكم.

وقال الحسين: ملوكاً: أي أحراراً من رقّ الكون وما فيه.

شَرُّ العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلية المستوفز

والمستوفز هو المنتهي للقيام من قعوده.

وقال عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ (المائدة: ٢٥): قال سهل: في مخالفة هواها. وقال عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (النساء: ١٠٧): قال بعضهم: خيانة النفس أتباع هواها ومرادها وترك نصيحتها. وسمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت الحسن بن علي الدابغاني يقول: من خاف الله في السر هتك سره في العلانية.

وقال عند قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥): قال محمد بن علي: عليك نفسك، إن كفيت الناس شرّها فقد أدبت أكثر حقّها، ودخل خادم الحسين بن منصور^(١) عليه الليلة التي وعد من الغد قتله قال: أوصني. قال: عليك بنفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

وسئل أبو عثمان عن هذه الآية؟ فقال: عليك نفسك، إن اشتغلت بصلاح فسادها وستر عوراتها شغلك ذلك عن النظر إلى الخلق والاشتغال بهم.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ (يونس: ٢٣): قال الواسطي رحمته الله: البغي يحدث من ملاحظات النفس ورؤية ما خدع به، كما قيل لذي النون: ما أخفى ما يخدع به العبد؟ فقال: الألفاف والكرامات ورؤية الآيات.

وقال عند قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (يونس: ٤٩): قال بعضهم: نفى عن السيد الأخص أن يكون له من نفسه شيء أو يعتمد لها على حال، بل يظهر أن الكل لمن له الكل، ومن لا يملك الأصل كيف يملك ذلك لغيره؟! ومن صحت له هذه الحالة فقد سلم من مدح الخلق وذمهم والطمع فيهم والتوسل بهم.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأعلى: ٧) من ضرر أو نفع فإنه الضار النافع.

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِي^٢ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣): قال ابن عطاء: ما أبرئ نفسي بنفسي، إنما أبرئ نفسي بري.

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور المكنى بالحلاج رحمته الله.

وقال أبو حفص: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال ولم يجبرها إلى مخالفتها ومكروها في سائر الأيام كان مغروراً، ومتى نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقلي أن يرضى عن نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: ٥٣).

النفس الأماراة بالسوء

قال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمورٌ بملازمة الأدب؛ فالنفس تجري على طبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردّها بجهدٍ عن سوء المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية، فمهما أتى به فهو شريكها في مرادها؛ لذلك قال الجنيد رحمه الله: من أعان نفسه على هواها فقد اشترك في قتل نفسه؛ لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء أدب.

قال سهل: خلق الله النفس، وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء إليها، وفيها جعل الهوى الثاني الذي منه هلاك النفس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾. وقال أيضاً: النفس الأمارة^(١) إذا كان العبد مؤمناً فهي مؤمنة، وإذا كان العبد كافراً فهي كافرة، ولكن اسم نفس المؤمن (المطمئنة) والكافرة (الأمارة).

وقال أبو حفص: النفس كلها ظلمة، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه توفيق في سره من ربه كان كله ظلمة؛ سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا

(١) سياق الآية الكريمة أنها وردت على لسان زليخا امرأة العزيز، وإن حملها البعض على أنها لسيدنا يوسف عليه السلام أو أنها مقولة كل مجاهد لنفسه التي بين جنبيه، ومعلوم أن الكريم بن الكريم بن الكريم هو سيدنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم جميعاً أزكى السلام.

(٢) ورد في (أ) النفس الأمارة هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة، وقال أيضاً: النفس الأمارة..

عمر الأنطاقي يقول: سمعت الجنيد رحمه الله يقول: إن النفس الأمارة بالسوء هي الداعية إلى المهلك والمعينة للأعداء والمتبعة للأهواء والمغموسة في البلاء المتصفة بالتهمة بأصناف الأسواء.

وقال سهل: إن النفس الأمارة بالسوء موضع الطبع، إلا ما رحم ربي موضع العصمة.

وقال بعضهم: إن النفس الأمارة بالسوء هي النفس الغالبة على القلب إلا ما رحم ربي، فتصير النفس مغلوبة والقلب غالباً، وحيثُ تصير كلمة الله هي العليا.

وقال سهل: إن النفس الأمارة بالسوء ليس لها في الإخلاص نصيبٌ.

وقال عند قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤): قال سيدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزِنُوا لِلْعَرْضِ قَبْلَ أَنْ تُعْرَضُوا»^(١).

وقال يحيى بن معاذ: اقرأ كتابك؛ فإنك كنت المملي له^(٢).

وقال بعض السلف: أحسن إليك من جعلك حسيب نفسك.

وقال عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ﴾ (الفرقان: ٤٣): وقال أبو سليمان: من اتَّبَعَ نفسه هواها فقد اشترك في قتلها؛ لأن حياتها بالذكر، وموتها، وقتلها بالغفلة، وإذا غفل اتَّبَعَ الشهوات، وإذا اتَّبَعَ الشهوات صار في حكم الأموات.

وقال أيضاً: النفس حيَّةٌ ما دامت تحالف هواها، فإذا وافقت هواها ماتت، وموتها في انبهاكها في المعاصي وإعراضها عن الطاعات.

(١) رواه الترمذي (٦٣٨/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩٦/٧)، وابن المبارك في الزهد (١٠٣/١).

(٢) المعنى - والله أعلم - أن المرء هو المملي لكتابه بعمله وسلوكه إن خيراً فخير، وإن شراً - والعياذ بالله - فكذا.

إشارات في معنى الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات

وقال عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢).

قال الحسن البصري: السابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته، والظالم: الذي ترجح سيئاته على حسناته.

ثم قال بعد سرد مقولات الأشياخ: وقال الجنيد: الظالم لنفسه هو على وجهين: أحدهما يظلم نفسه فيحرمها حظها من الدنيا، وظالم لنفسه يحرمها حظها من الآخرة، والظالم لنفسه الذي حرمها حظها من الشهوات والإرادات من حظوظ النفس، وظالم لنفسه بأن حرمها شهوة الآخرة حتى لا تطلب الجنة والثواب لأجل نفسه؛ فإن كلاهما من حظوظ النفس، بل طلب ربه على غير حظ النفس فيه، فهذا الظالم على هذا المعنى مقدم على المقتصد والسابق؛ فإن المقتصد والسابق طالبان حظوظهما واقعان مع أنفسهما، إذ إذا واقف مع سبقه، وإذا واقف مع اقتصاده، وإذا ظلم نفسه، فأتاها ومنعها حظوظها؛ فهو فإن عن حظوظه؛ فلذلك يسبق السابقين.

قال بعد ذكر عبادات يطول إيرادها: سمعت منصور بن عبد الله يقول: السابق: العلماء، والمقتصد: المتعلمون، والظالم: الجهال.

وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاده ومعاشه، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده.

وقال ابن عطاء: الظالم: النفس، والمقتصد: القلب، والسابق: الروح.

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (فصلت: ٢٥): قال الجنيد: النفس لا تألف الحق أبداً.

وقال ابن عطاء: النفس قرين الشيطان وأليفه ومتبعه فيما يشير عليه، مفارقاً للحق، مخالفاً لا يألف الحق ولا يتبعه، قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (فصلت: ٢٥). من طول الأمل، وما خلفهم من نسيان الذنوب.

وقال عند قوله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣): قال سهل: هي الموت، والموت خاصٌ وعامٌ؛ فالعامُّ: موت الخلق والجبلية، والخاصُّ: موت الشهوات في نفوس الأولياء.

وقال القحطاني: لا يزال العبد يرتقي من حالٍ إلى حالٍ حتى يبلغ إلى الأحوال السنية الغالية، ويرى الله قائماً بالأشياء، ثم يرقى به عن ذاك الحال حتى يرى الأشياء فانيةً في رؤية الحق، ويتيقن أن القديم إذا قرن بالحادث لا يثبت له أثرٌ، وإن جَلَّ قدره وعَظُمَ خطره، وهو معنى قوله: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، وهو النظر إلى الكون يشاهد الحق، ثم النظر إلى الحق بالفناء عن الكون، وهو أن تصير النعوت نعتاً واحداً، ولا يشهد إلا حقاً صرفاً.

وسئل أبو عثمان عمن يقول بالشاهد؟ فقال: لا أنكر القول بالشاهد لمن يشهد الأشياء كلها شيئاً واحداً.

وقال الواسطي: ظهر في كل شيء بما ظهر منه، وإظهاره الأشياء ظهوره بها، فإذا فتشتها لا تجد غير الله، قال الله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، دون غير؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة تكلمت بها العربُ كلمةٌ ليبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ»^(١).

(١) رواه البخاري (٢٢٧٦/٥)، ومسلم (١٧٦٨/٤)، والترمذي (١٤٠/٥)، وأحمد (٤٧٠/٢)، وابن ماجه (١٤٣٦/٢)، والدارقطني في العلل (٣١٧/٩).

وهو ليبيد الشاعر المعروف ويعتبره البعض من بين شعراء المعلقات وتمة البيت الذي أطراه سيدنا رسول

وكذلك حُكي عن بعضهم أنه أنشد:

اسْمَعْ فَهَذَا كَلَامٌ وَالله مَا فِيهِ عِلْمٌ
أَقْلُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَنْ لَا يَرَى الْكُلَّ قَلَمٌ

وقال بعضهم: ﴿سُنِّيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْآفَاقِ﴾ (فصلت: ٥٣)، قال: يرى الأشياء وجودها
عدمها، وعدمها وجودها، كما أن كل قريب بعد، وكل بعيد قريب؛ لأن إحاطة القدرة
بالشيء وجود الشيء.

وقال عند قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠): قال سهل:
هو اتِّباع الشهوات، وقضاء الأوطار، ومتابعة النفس على ما تشتهيه، فمن ركب هذه
المراكب فقد ركب مركب الإعراض عن الله.

وقال عند قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَأَصْلَحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي﴾ (الأحقاف: ١٥): قلت:
وهذا مقول الصديق الأكبر على ما في البيضاوي وغيره قدس الله سرّه الأنور [الأزهر]^(١).

قال سهل: اجعلهم خلف صدق لي ولك عبيد حق.

قال ابن عطاء: وفقهم لصالح الأعمال ترضى بها عنهم.

قال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفس والهوى عليهم سبيلاً.

وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً: أي مطيعين لك.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾
(محمد: ٧): قال ابن عطاء: هو أن تكون عوناً لله على النفس؛ فإن الله ينصرك عليها حتى
تنقاد لك، ومن لا يكون عوناً على النفس فإن الله يصصره صرعة لا يقوم بعدها أبداً.

قال عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢): قال أبو عثمان: من علم من
أين هو وإلى أين هو وما هو بعد الوقت أيقن أنه ليس بمحلّ التزكية، ومع ذلك هو

وكل نعيم لا محالة زائل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

(١) ما بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (أ).

المخاطب بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم: ٣٢): وبماذا يزكي نفسه؟ بأخلاقه أم بأعماله أم بأقواله أم بأحواله؟! فذلك نفسه هي الأمانة بالسوء التي إلى أي جانب أبصر رأى خفض الرقّ وذلل العبودية.

وقال عند قوله: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (المتحنة: ١): روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله»^(١).

وقال أبو حفص: من أحب نفسه فقد اتخذ عدو الله وعدوه خليلاً وولياً؛ لأن النفس تخالف ما أمرت به وتعرض عن سبيل الرشd وتهلك متبعها ومحبا في أول قدم.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحریم: ٦): قال: بطاعة الله واتباع السنن.

قال ابن عطاء: بقبول نصيحة الناصحين.

قال أبو عثمان: في هذه الآية أمرنا بسباع المواعظ وقبولها والعمل بها.

ثم قال أبو القاسم: زينوا أنفسكم بالطاعات، واحملوا عليها أهاليكم يستتروا بها عن النار.

وقال عند قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (القيامة: ١-٢): قال سهل: اللوامة: هي النفس الأمانة بالسوء، وهي قرينة الحرص والأمل.

(١) رواه البخاري (١١/١)، وفي الكنى (٨٢/١)، وأبو داود (١٩٨/٤)، وأحمد (١٤٦/٥)، والطبراني في الكبير (٢١٥/١١)، وفي الصغير (٣٧٣/١)، والبيهقي في الشعب (٦٨/٧)، وابن أبي حاتم في العلل (١٦١/٢)، وابن عدي في الكامل (٣٤/٢)، والديلمي في الفردوس (٣٥٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٩٠/٥).

قال أبو بكر الرازي: النفس كافرة؛ لأنها لا تألف الحق أبداً، وهي منافقة؛ لأنها لا تفي بالوعد، وهي مرائية؛ لأنها لا تحب أن تعمل عملاً ولا تخطو خطوة إلا لرؤية الخلق، فمن كانت هذه صفاته فهي حقيقةً بدوام الملامة لها.

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (التازعات: ٤٠): وقال بعضهم: لما خلق الله الخلق لم يكن حركة، فلما أن ركب فيهم الهوى تحرّكوا، ولم يتم هواهم حتى ركب فيهم الشهوات، وهو مقام الهوى، وقال: الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان.

قال أبو بكر الورّاق: إن الله ﷻ لم يجعل في الدنيا والآخرة شيئاً أخبث من الهوى المخالف للحق.

قال الفضل: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

وقال أبو محمد الجريري: من أجاب الله في هذا الخطاب أقبل على المجاهدة والمكابرة وأفنى عمره في مخالفة نفسه.

وقال عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨): قال القاسم: ﴿يَتَأْتِيهَا﴾ الروح المتّصلة بالحق التي اطمأنت ورضيت بما قضي لها وعليها ﴿أَرْجِعِي﴾ إلى الذي زينك بهذه الزينة العظيمة التي أصلحك للرجوع منه إليه.

وقال الجنيد رحمه الله: النفس المطمئنة: هي النفس الواحدة، والنفس الشاكرة: هي النفس المرحومة، والنفس الخالصة: هي النفس العارفة، والنفس العاقلة: هي النفس الراضية، والنفس الأمارة: هي النفس الجاهلة.

ثم قال: وقال ابن عطاء: المطمئنة: هي العارفة بالله التي لا تصبر عن الله طرفة عينٍ

اهـ.

وما سردت عليك هذه العبارات إلا لتنتبه وتفهم هذه الإشارات، وتبادر للخروج عن الموطن النفساني، وتمثل أمر ربك في قوله: ﴿كُونُوا رِبَّنِيْنَ﴾ (آل عمران: ٧٩)، فتكون ربانياً.

وفي معنى هذه الآية قال أبو عباس الشكلي: كونوا كأبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ فإنه لما مات محمد صلى الله عليه وسلم اضطربت الأسرار كلها لموته، ولم يؤثر في سر أبي بكر، فقال: «من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(١).

وقيل: الرباني: من ارتفع عنه ظل نفسه وعاش بلا كون ظلة.

وقيل: الرباني: الذي لا تستغزه محنة ولا تهزه نعمة، فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق، كذا في عرائس البيان للشيخ روزبهان^(٢).

فعجل بالإنابة قبل أن عليك يُقضى، وقل مقتفياً: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (طه: ٨٤)، وسر إلى الحضرات السندسية والمقامات القدسية، وأنزل بفنائها، وتلق من علوم أسمائها، وادخل جنة النعيم المختصة بأهل العلوم، ولج جنة الفردوس المضافة لأهل الفهوم، واعبر جنة المأوى المنسوبة لأهل التقوى، وسر لجنة عدن الممنوحة للقائمين بالوزن، وحل جنة الخلد الموهوبة للمقيمين على الود، واسرح في جنة المقامة التي أكرم بها أهل الكرامة، وحل أيضاً في جنة الرؤية المنعم بها على أصحاب البُغية، وتخلص من عقاب عقلك لتبلغ سدرة المنتهى، فإليها الانتهاء، وهي المنتهى، وهناك تلقى عصي التسيار، ويقرأ بك القرار في دار القرار.

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٤١)، والبيهقي في السنن (٨/ ١٤٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٦٧)، والطبري في التاريخ (٢/ ٢٣٢)، وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٢/ ٣٨).

(٢) ورد في المخطوطة (أ) «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» وكلا النصين ورد عن صديق الأمة رضي الله عنه والثاني أشمل.

(٣) يسر الله لنا إتمام تحقيقه.

وأما ما دمت في هذه الدار موضع الغموم والهموم والأكدار فلا راحة للقلب من هول الجهاد في النفس وكربه؛ إذ قد ورد: «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه»^(١)؛ فعليك بحلية الأبدال، وهي الصمت والجوع والسهر والاعتزال تقف على جلية الحال عند تصاف حلبة السِّبَاق للقتال، فاقدم وكن من السباق للنزال، ومن صال وجال وما مال، وزاحم بالمناكب الأبطال، ولا ترافق البطل، وخذ ضالتك من كل مقال، ولا تنظر إلى من قال، ولا تنقع من نفسك بسفاسف المقال؛ فإن ذلك يخفف عنها الأثقال حتى تصيره لها من جملة الأنفال، فجرّد صارم عزمك، وشدّ إزار حزمك وجزمك، وسافر بدون انتقال، واقتدِ بسلطان العشاق الفارضي^(٢)، ودع المطال، واقف أثره؛ لتفوز بها فازت به الرجال من افتخر وطال وارتفع قدره واستطال، وتأمل قوله الذي بسحائب الغرائب هطال ولا تتبع من سوّلت نفسه له فصارت له أمّارة واستمرت، ودع ما عداها، وأعد نفسك؛ فهي من عداها، وعُدّ منها بأحصن جُنة:

فنفسي كانت قبل لوامة متى	أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي
فأوردتها ما الموت أيسر بعضه	وأتعبتها كيما تكون مريحتي
فعادت ومهما حملت فتحملت	مني وإن خففت عنها تأذت
وكلفتها لا بل كفلت قيامها	بتكليفها حتى كلفت بكلفتني
وأذهبت في تهذيبها كل لذة	بإبعادها عن عادتها فاطمأنت
ولم يبق هول دونها ما ركبته	وأشهد نفسي فيه غير زكية
وكل مقام عن سلوك قطعته	عبودية حققتها بعبودة
وكنت بها صبا فلما تركت ما	أردت أرادتنني لها وأجبت
فصرت حبيبا بل محبا لنفسه	وليس كقول مر نفسي حبيبي
خرجت بها عنّي إليها فلم أعذ	إلي ومثلي لا يقول برجعتني

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (١/١٥٦)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٢٥، ٤٨٧).

(٢) يريد سيدي عمر بن الفارض رحمه الله الملقب بسلطان العاشقين.

وأفردتُ نفسي عن خروجي تَكرَماً فلم أرَ صَها من بعد ذاك لصحبتِي
وُعِيْتُ عن إفرادِ نفسي بَحيثُ لا يُزاحمني إبداء وصفٍ بحضرتِي
وقد تكفلت شرح التائية بشرح معاني هذه الأبيات الأبية، كالفرغاني والجامي
والقاشاني والقيصري وابن علوان، وكشيخنا الشيخ عبد الغني في شرحه على الديوان
وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين^(١).

فأسرُعُ واطرع، رحمك الله، في إنقاذ مهجتك من التلف، وجاهد تشاهد الظرف،
وتهدى إليك التحف، وكن ممن برداء الخفاء بعد قطع موصل الجفاء التحف، فإن ما مضى
لا يُعاد؛ إذ الأيام ذاهبةٌ، فجذ بنفسك في نيل مطلبك يقال في حقك كان ذاهبةً^(٢)؛ فقد قال
العارف الغارف المهدي مُرافقه مُرافقه مَوَاهِبُهُ ومُسايرُهُ مَياسِرُهُ^(٣)، ومجلى غياهبه:

ومن لم يجد في حب «نعمي» بنفسه وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل^(٤)

واعلم أن القلب كما ورد في الخبر: «بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه وإن
شاء أزاغه»^(٥)، فإن أزاغه والعياذ بالله تعالى كان بيتاً للشيطان ومحلاً للخسران، وإن أقامه
فذلك قلب المؤمن التقيّ المشار إليه بحديث: «ما وسعني»^(٦)، فإذا رأى من يريد الحق

(١) قد حققنا بفضل الله شرح القيصري، والقاشاني، والفرغاني، وشرح الشيخ علوان قيد التحقيق. مزبدي

(٢) هكذا جاءت بالمخطوطتين ولعله خطأ من النقلة. والصواب أن تكون (ذاهمة) والله أعلم.

(٣) ميل المصنف ﷺ إلى المحسنات البديعية يجعل المعنى مغرباً بيداً أنه مفهوم فهذا العارف يهب مواهبه
لمرافقه، ويعطي مياسره لمسايره.

(٤) نعمي، سعدي، ليلي... إلخ رموز يكن بها السادة الصوفية عن الذات العلية وفي جبهها يهون الجود بالنفس.

(٥) رواه مسلم (٤/٢٠٤٥)، والترمذي (٤/٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٤/٤١٤)، وابن ماجه (٢/١٢٦٠).

وابن حبان في الصحيح (٣/١٨٤)، وابن أبي شيبه في المصنف (٦/١٦٨).

(٦) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/٣٦٥)، والمناوي في فيض القدير (٢/٤٩٦)، والعجلوني في

كشف الخفا (٢/١٢٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/٥٧). ما وسعني أرضي ولا سمانني ولكن وسعني

قلب عبدي المؤمن.

إيقاظه وانتباهه من غفلته وإطلاقه من قيد عقده، وعقلته استحكام الصفات الذميمة واستيلاء السمات السقيمة علم أن النفس الشهوانية غالبٌ عليه وموصلة قبائحها إليه، عند ذلك يلبس الأمة حربه ويتقلد بسيف اجتهاده ما بين حزبه، ويعتقل رمح الإقبال على الأقيال على عاتقه، ويقتفي في ميدان الجلال بأهل الخبرة من كل ساعٍ في خلاصه وعتاقه

فإن النفس لما نزلت لأرض الطبيعة وغلبت عليها الغفلة الفظيعة فأورثتها القطيعة، واتحدت بالهيكل الجسائي، وألقت مقتضيات البشرية فأنستها عالمها النوراني، فإذا أنست من جانب الطور الإنساني (نار الحب السبحاني) والقرب الإحسائي تذكرت عهدًا بالحما، فشاقها وساقها التذكار للمنزل الأسمى، وتستيقظ أحيانًا من رقدتها عندما تذكر فتكاد أن تذوب اشتياقًا، إذ في انحطاطها تتفكر، لكن حكم الطبيعة يردها للهوى، ويصدها للفتور والسهو. فلو استقامت بعد الانتباه لزال عنها الاشتباه، ولذا تراها إذا وعظت، وقرع سمعها رنة النصائح، تحن وتئن لتلك النسائم وهاتيك الروائح، فلا تجدد إلى شمهها دليلاً، ولا إلى الدخول في تلك الخطائر سبيلاً، فتلهف تلهف الصادي المفارق، وتتلقت إلى سنا ما يلوح من البوارق، وتصفو إلى سماع أحيان ذلك الحان^(١) فلا تسمع، وتؤمل التحاقاً وانمحاقاً، فلا يفيدها الأمل ولا الطمع؛ قد عطلت منها الحواس عن الإدراك والإحساس، فكأنها لما استولى عليها جانب الصفات الدنية وقوي جانب النفس الشهوانية الحيوانية وتمكنت منها الخواطر الشيطانية والعلل الهوائية والأمراض الدنيوية عاد أصلها لديها نسياً منسياً، وكان أمراً مفضيلاً للعناء، مقصياً عن الفناء وأمرًا مقصياً، فهناك تسلطت النفس الأمّارة على القلب، ونفذ حكمها على بقية الأعضاء، فلم يمكنها الميل عن أمرها ولا القلب، وصارت هي الأمرة الناهية المفتخرة الباهية، والروح بقيت أسيرتها محبوسة تحت طاعتها وهي أميرتها.

فإذا قيّض الله لك من ينقذك من أسر هذا العدو الماكر ويستخلصك من يد هذا الظالم الغاشم الحاوي على كل المناكر، أفلا يستحق منك أن تكون متبّعاً له، ولإحسانه وفضله

(١) بينها جناس فالأول جمع لحن والثاني موضع الشراب.

شاكراً، ولما يدللك عليه من الخير مبادراً، لمعروفه ناشراً وذاكراً؛ فإن وجود مثل هذا المرشد في هذا الزمان الأتَمُّ الأغبر كعنقاء مغرب، بل أغرب؛ إذ هو الكبريت الأحمر، فمتى الدهر رماك لديه فأقبل بكل كُلك وكُلك^(١) عليه، وانقذ له انقياد المملوك لمالكه، وأنفذ جميع أحكامه؛ ليسلك بك في مسالكه، وكنْ عنده كما قال العارف الجليل^(٢) "قدّس الله سرّه وأسرّه بوابل الأنعام:

وكن عنده كاليت عند مغسلٍ يقلبه ما شاء وهو مطاوعٌ
وإذا أدرجك في درج أنسابه وضمك إلى رفيع أجنابه فاحفظ عهوده، والحظ حدوده، واشتغل بما يلقنك به من الذكر، واستعمل عن إذنه أورد الطريق، والزم الفكر، واعمل كل ما به يوصيك، واجتنب كل ما عن فعله يُقصيك، ولا بدّ إذا رآك لإشارته مقتفياً وله دون غيره مصطفياً أن يُعرِّفك منهاج السلامة والسرعة التي ما على سالك بها من ملامة، وعندما تقوِّي جنود روحك بأنوار التحلي بالأخلاق المحمدية والتخلي عن الصفات الذميمة المردية، وتزدحم عساكر الذكر على فؤادك، وتتكاثر الوراد من حضرة الحق لإسعادك، وتردُّ عليك موارد الاصطفا؛ لاقتفائك أثر السيد السند المصطفى، فتطرد عن قلبك أنوارها ظلمات شبهات النفس وشهواتها، وتمحو منه رسم عاداتها وسهواتها، فيشتدّ إذن عزم الروح، ويقرب زمن النصر والفتوح، فيؤذن لها بالتوجه بجنود رهبها إلى فتح مدينة قلبها، وتلوح في هذا السفر له العلامات في الإلهامات والمقامات، فيقال لها: جُدِّي، ولا تقولي: أبي وجدي، ولا يغرُّك الإلهامات، فمن إلتهى بها في اللهومات^(٣) ولا المنامات فمن عوّل عليها بالمنى مات، ولا الكرامات؟! فمن ارتاح لها بالكرى مات^(٤)؟ فإذا التقى

(١) المراد أقبل بجميع جوارحك وكل همتك عليه.

(٢) المقصود سيدي عبد الكريم الجيلي.

(٣) يجوز أن تكون جمعاً من قولهم: أمّ اللهم وهي الداهية والحمى والمنية لالتهامها الخلق. ويجوز أن يكون صوابها باللهومات.

(٤) يسوق المصنف - رَحِمَهُ اللهُ - جملة نصائح للمريد السالك. ونحا في ذلك نحو البلاغيين في عصره من إشار السجع ولعله يقول لمريده:

الجمعان وتقابل الفريقان فَرَّتْ جنود الشيطان، وقرَّتْ عساكر الرحمن، فتراهم كحُمُرٍ مستنفرة فرت من قسورة، فيضربون وجوههم وأدبارهم، ويقطعون أصولهم وآثارهم، وتجلس الروح على كرسي القلب بإذن الرب، وتُقَعَّدُ النفس ويُلقِيها في سجن الهوى الهُمُّ والكربُّ، فيطيب منها العيش، ويزول عنها الطيش.

الحاجة إلى المرشد

ثم لا تزال الروح تتصَفَّى من الأكدار اللطيفة والبقايا الشريفة، وترقى في عوالم المعارف المنيفة بعدما تفنى لديها الأستار الكثيفة، وتنتفتح لها الأبواب إلى السرِّ وسرِّه وسرِّ سرِّه والخفي والأخفى، فتلج في تلك المعالم، وتسرح في هاتيك العوالم، وهذا الترقى لا يتيسر لها إلا بواسطة إمامٍ يذهب بها إلى منازل التقريب والإكرام، فإذا وصلت أيها الأخ إلى مقام القربة وصفت لك مشارب المحبة فهناك يتركك تتلقى عن ربك برفع الوسائط ما عدا وساطة من كمل به بناء الحائط^(١).

فإن الأمر كما قال سيدي محمد القطب البكري^(٢) في صلواته النبوية قدَّس الله أسرارَه الزكية: لا تُجَلَّى أشعة الله لقلبٍ إلا من مرآة سره، وهي النور المطلق، ولا تتلى مزاميره على لسانٍ إلا برنات ذكره^(٣)، وهو النور الشفيعي المحقق المحكوم بالجهل على كل من ادَّعى

-
- لا تغرك الالهامات القلبية، فمن تشاغل بها مات لهوًّا
 - لا تعول على الرؤى المنامية، فمن عول عليها مات بأمانيه.
 - لا تأبه كثيراً بالكرامات، فمن سكن إليها مات في نومه وقراه، وللسادة الصوفية حول الكرامات أقوال ماثورة منها «الاستقامة خير من ألف كرامة»، وإذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء ويخالف من سنة المصطفى ﷺ قيد أنملة فلا تصحبوه».

(١) أي سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) سيدي محمد بن أبي الحسن البكري الملقب بأبيض الوجه، نفعنا الله به وأمدنا بمدده. توفي سنة ٩٩٤ هـ ودفن بمدفن السادة البكرية خلف قبة الإمام الشافعي رحمه الله.

(٣) المزامير - الرنات - الراح - الكأس هذه من مصطلحات أهل الطريق ولها معان بذوقها أهل التحقيق. يقول العارف:

معرفة الله مجردة في نفس الأمر عن نفس المحمدي الفرع الحدثاني المترعرع في نمائه بما يمد به كل أصل أبدي، وإذا أردت جُلَّ هذه المعاني ودخول هذه المغاني فراجع شرحنا الفيوضات البكرية على الصلوات البكرية^(١).

فإن قلت: وهل يحتاج العالم العامل الفاضل الكامل إلى مرشدٍ في الطريق يخلصه من قيود التعويق؟؟

قلنا: نعم، ولو بلغ في العلم الغاية، ووصل فيه إلى درجة النهاية؛ فإن العلم بتدبير الإكسير الأكبر لا يكفي فيه العلم، بل لابد من العمل على العيان الأفخر، وكذلك علم القرآن لا يغني عن علم الآداب؛ فافهم الفرق، ولا تجعل القضاء كالأداء، وأكثر المحققين من أهل الظاهر انخرطوا في سلك هذه الطائفة بعد بلوغ العلم الباهر.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره في المنن: فأول ما جمعني الله على سيدي علي المرصفي شيخ الطريقة بالديار المصرية، فلقنني بالذكر وأخلاقه^(٢)، ثم جمعني الله على الشيخ محمد الشناوي، فلقنني الذكر وأشغلني بالله، ولم يكن طريقه الخلوة، ثم جمعني الله على سيدي عارف الزمان الشيخ الكامل الراسخ الأمر المحمدي سيدي علي الخوَّاص، فأطلعني على حقائق ودقائق وأسرار، ولم أفرقه عشر سنين حتى مات، فكان منه الذي كان، فعلمت وتحققت أن الإنسان ولو بلغ في العلم الغاية فلا بدَّ له من شيخٍ في طريق العمل به، كما وقع للإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام واليا فعي

سَقُونِي الرِّاحَ فِي لَيْلِ التَّنَادِي	بِكَأْسِ النُّورِ مِنْ بَحْرِ الْمَعَانِي
وَعَايَنْتِ الْمَشَاهِدَ وَهِيَ مُجَلِّي	بِرِنَاتِ الْمَثَالِثِ وَالْمَثَانِي

(١) تحت الطبع، بتحقيقنا. مزیدی

(٢) المراد بقوله «أخلاقه» أي أن الشيخ أدخله لينقطع للعبادة، وهذه طريقة للتصفية القلبية والتخلية الفؤادية. كي يستعد القلب بعد التخلي للتجلي وبعدئذ تأتي مرحلة التجلي. فهناك تخلية تليها تخلية ثم تجلية، والله أعلم. يقول العارف:

التخلي ————— بالتجلي بعد محمد محمدي لمحمدي

وغيرهم؛ فإن من فوائد الشيخ أن يختصر الطريق للمريد، وذلك أنه يوصل المريد إلى أن
تصير جميع أعماله كلها مقاصد؛ امتثالاً لأمر الله، بخلاف المريد وحده يتخذ أعماله كلها
وسائل، ثم يطلب الثمرة فلا يجد، فينحل عزمه في آخر أمره، فالحمد لله رب العالمين.

وقلنا في الألفية التي وضعناها في طريق الصوفية في فضل النسب الروحاني:

وإن تَرَمَّ ^(١) تُسقى الشرابَ القدسي	فكنْ مع الخلقِ بدونِ نفسٍ
ولُذْ بساقي الحيِّ حيِّ الرَّاحِ	وكأسه خذْ فرحة بالراح ^(٢)
فإنَّ مَنْ لم تُسْقِهِ الأبطالُ	من الرحيقِ ذلك البطلُ
ومَنْ سرى بنفسه لقيطُ	وفعله وقوله تخبيطُ
وكل من ليس له شيخٌ فذا	شيطانه عليه من جهلٍ هذا ^(٣)
وإن في التلقين والمبايعة	سراً تُسرُّ فيه نفسٌ طائفة
متى يُحرِّك المريدُ السلسلة ^(٤)	تأتي إليه من رجاها الصلة
ومن بدونِ وصلةٍ يُحرِّكُ	مانال شيئاً وعليه الدرك
وفيها سرُّ ارتباط القلبِ	بآخر والصدق عنه يُنبئ
وباتحاد كلِّ واحدٍ هنا	الثاني يدعوه بحقِّ يا أنا ^(٥)
ليس لنا بدٌّ من الوسائط	لولا هم كنا من البسائط ^(٦)

(١) يجوز أن تكون بالكسر مع تخفيف الميم بمعنى فساد الجسد بعد الموت فهو رميم، ويجوز أن تكون بالضم من رام يروم، مع حذف الواو للجزم بأن الشرطية ويتغير رسم «تسقى» تبعاً لنطق «ترم».

(٢) الراح الأولى هي خمرة الغرس، والثانية: باطن الكف وجمعه راحات.

(٣) الصواب هذى: ضل وتخبط ومصدره هذيان.

(٤) المراد بالسلسلة هي سلسلة شيوخ الطريق حتى ينتهي إلى صاحب الشريعة ومنيع الحقيقة ﷺ.

(٥) إشارة لقول سيدنا السري السقطي: لا تتم المحبة بين أخوين حتى يقول أحدهما لآخر يا أنا.

(٦) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) والبسائط هي الفرش التي تفرش بها الأرض، كناية عن اتضاع المقام.

طرق الهدى لا تسلكن فيها بلا دليل قد دري خافيهما
فربما تقع في المهالك إن لم تسر بسير سائر سالك
وإن تسر من غير ما دليل وقعت في التشبيه والتعطيل
لم تتخذ نهج النى سبيلاً فإنه قد أم جبرائيلاً^(١)
كذا الكلیم أم یا ذا الخضرا وهو أعز منزلاً وقدرًا^(٢)

سمات المرشد:

فإن قلت: حيثما كان طلب الدليل لابد منه لكل طالب ولو بلغ أسنى المقاصد وأرفع المطالب، فعرفه لنا: لنهتدي عليه بالعلامة ونقتفي أثره، فنذكر السلامة.

قلنا: نعم، قد ذكرنا في رسالة «نظم القلادة في كيفية إجلال المريد على السجادة» بعض صفاته وصفات المريد طالب الإفادة، ولنذكر هنا عبارة المحقق المدقق سيدي محي الدين منحه الله من فضله وزاده، وبلغه مراده في دار السعادة من الحسنی وزيادة في فتوحاته، قال عليه السلام في الباب المائة وإحدى وثلاثين، الذي عقده في معرفة مقام احترام الشيوخ:

ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله فقم بها أدباً بالله الله
هم الأدلاء والقربى تؤيدهم من الدلالة تأييداً على الله
الوارثون هم للرسول أجمعهم فما حديثهم إلا عن الله
كالأنبياء تراهم في محاربهم لا يسألون من الله سوى الله
فإن بدا منهم حال تولهم عن الشريعة فاتركهم مع الله
لا تتبعهم ولا تسلك لهم أنراً فإنهم طلقاء الله في الله

(١) إشارة إلى استفتاح جبرائيل أبواب السماء للحبيب المصطفى عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج.

(٢) إشارة إلى رحلة الكلیم موسى عليه السلام مع العبد الصالح المشهور بالخضر على النحو الذي سطرته آيات الذكر الحكيم: سورة الكهف.

لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

ولما رأينا في هذا الزمان جهل المريدين بمراتب شيوخهم قلنا في ذلك: جهلت مقادير الشيوخ أهل المشاهد والرسوخ، واستتلت ألفاظهم جهلاً، وكان لها الشموخ.

الشيوخ نواب الله في العالم كالرسل عليهم السلام في زمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام، غير أنهم لا يشرعون فلهم عليهم السلام حفظ الشريعة في العموم، ولهم حفظ القلوب ومراعاة الآداب في الخصوص. هم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب من العالم بعلم الطبيعة، يعرفها مطلقاً وإن لم يكن طبيباً، وقد يجمع الشيخ بين الأمرين، ولكن حظَّ الشيوخة من العلم بالله أن يعرف من الناس موارد حركاتهم ومصادرها، والعلم بالخواطر من مذمومها ومحمودها، وموضع اللبس الداخل فيها من ظهور الخاطر المذموم في صورة المحمود، ويعرف الأنفاس والنظرة، ويعرف ما لهما وما يحويان عليه من الخير الذي يرضي الله ومن الشر الذي يسخط الله، ويعرف العلل والأدوية، ويعرف الأزمنة والسن والأمكنة والأغذية، وما يصلح المزاج وما يفسده، والفرق بين الكشف الحقيقي والكشف الخيالي، ويعلم التجلي الإلهي، ويعرف التربية وانتقال المريد من الطفولة إلى الشباب إلى الكهولة، ويعرف متى يترك التحكم في طبيعة المريد ويحكم في عقله، ومتى يصدق المريد خواطره، ويعلم ما للنفس من الأحكام وما للشيطان من الأحكام، وما تحت قدرة الشيطان، ويعلم الحجب التي تعصم الإنسان من إلقاء الشيطان في قلبه، ويعلم ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد، ويعرف إذا فتح عليه في باطنه بين الفتح الروحاني، ويعلم بالشَّم أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون، ويعلم التحلية التي يحلّي بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق وهو لهم كالماشطة للعروس تزينها؛ فهم أدباء الله، عالمين بآداب الحضرة وما تستحقه من الحرمة، والجامع لمقام الشيوخة عبارة عمّن جمع جميع ما يحتاج إليه المريد السالك في حالة تربيته وسلوكه وكشفه وطريقه، إلى أن ينتهي إلى الأهلية للشيوخة، وجميع ما يحتاج إليه المريد إذا مرض خاطره وقلبه بشبهة وقعت له لا يعرف صحتها من سقمها، كما وقع لسهل في سجود القلب، وكما وقع لشيخنا حين قيل له: أنت عيسى بن مريم، فيداويه الشيخ بما

ينبغي، وكذلك إذا ابتلي من يسمع من الحق من خارج لا من نفسه بمحرم يؤمر بفعله أو ينهى عن واجب، فيكون الشيخ عارفاً بتخليصه من ذلك، حتى لا يجري عليه لسان ذنبٍ مع صحة المقام الذي هو فيه.

فهم أطباء دين الله فمهما نقصهم شيء مما يحتاجون إليه في التربية، فلا يحل له أن يقعد على منصة الشيخوخة، فإن ما يفسد أكثر مما يصلح ويفتن، كالمتطبب يعلل الصحيح ويقتل المريض، فإذا انتهى إلى هذا الحد فهو شيخٌ في طريق الله، يجب على كل مريد حرمة والقيام بخدمته والوقوف عند مراسمه، لا يكتم عنه شيئاً مما يعلم؛ إن الله يعلمه منه، يخدمه ما دامت له حرمة عنده، فإذا سقطت حرمة من قلبه فلا يقعد عنده ساعة واحدة؛ فإنه لا ينتفع به ويتضرر؛ فإن الصحبة إنما تقع المنفعة فيها بالحرمة، فمتى ما رجعت الحرمة في قلبه يخدمه وينتفع به؛ فإن الشيوخ على حالين:

أحوال الشيوخ

شيوخ عارفون بالكتاب والسنة، قائلون بهما في خواطرهم، متحققون بهما في سرائرهم، يراعون حدود الله، ويوفون بعهد الله، قائمون بمراسم الشريعة، لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجتنبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمتقون أحداً ولو كان من العصاة، يحبون من أحبَّ الله، ويبغضون من أبغض الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويفنون عن الناس، يوقرون الكبير، ويرحون الصغير، ويميطون الأذى عن طريق الله وعن طريق الناس، يدعون في الخير بالأوجب فالأوجب، يؤدون الحقوق إلى أهلها، يبرؤون إخوانهم بل الناس أجمعهم، لا يقتضرون بالجلود على معارفهم، فجلودهم مطلق، الكبير لهم أب، والمثل لهم أخ وكفو، والصغير لهم ابن^(١)، وجميع الخلق لهم عائلةٌ يتفقدون

(١) ورد في كتاب الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله وصف الإمام العادل بأن يكون لكبير الناس ابناً ولصغيرهم أباً، وللمثل منهم أخاً وكفواً. وعلى هذا تقع المشاكلة بين هذا الإمام وبين الشيخ العارف في رعاية الأول لرعيته. ورعاية الثاني لمريديه (المحقق).

حوادثهم، إن أطاعوا رأوا الحق يوفقهم في طاعتهم إياه، وإن عصوا سارعوا بالتوبة والحياء من الله ولا موارء أنفسم على ما صدر منهم، ولا يهربون من معاصيهم إلى القضاء والقدر؛ فإنه من سوء الأدب مع الله، هينون لينون، ذوو شدة^(١) رحاء بينهم، تراهم ركعاً سجدًا، في نظرهم رحمة لعباد الله، كأنهم ييكون، الهم أغلب إليهم من الفرح لما يعطيه موطن التكليف، فمثل هؤلاء الذين يقتدى بهم، ويحب احترامهم، وهم الذين إذا رأوا ذكر الله.

وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال، عندهم تذيير ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ، تسلم أحوالهم لهم ولا يضحبون، ولو ظهر لديهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعول عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع؛ فإنه لا طريق لنا إلى الله إلا ما شرعه، فمن قال بأن ثم طريقاً إلى الله خلاف ما شرع، فقله زور؛ فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقاً في حاله، ولكن يحترم^(٢).

واعلم أن حرمة الله^(٣) في حرمة الشيخ وعقوبه في عقوبهم، هم حجاب الحق، الحافظون أحوال القلوب على المريدين، فمن صحب شيخاً ممن يقتدى به ولم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه، وإنما يكون ذلك للأدباء، والباب دون غير الأدباء مغلق، ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيوخ.

(١) في المخطوطة (أ) ذوو مقه وكلا اللفظين لا يسوق لمعنى بين، ولعل ثم سقط حال الكتابة، يمكن تداركه بأنهم «ذو شدة على العاصين» وهذا لا يناقض قول المصنف أنفأ بأنهم «لا يمقتون أحداً ولو كان من العصاء» فشتان ما بين المقت والشدة. وفي هذه النعوت اقتباس مما ورد في ختام سورة الفتح من وصف رب العزة تعالى لأهل معية الحبيب المصطفى ﷺ أين كانوا وكيف كانوا. (المحقق)

(٢) مثل هؤلاء كأهل الشطح (مثلاً) فهم لا يعترض عليهم ولا يقلدون وسلفت الإشارة بأن الاستقامة خير من ألف كرامة. (المحقق)

(٣) ورد في المخطوطة (أ) حرمة «الحق» وكلاهما في أداء المعنى سواء.

قال بعض أهل الله في مجالس أهل الله: من قعد معهم في مجالسهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به في أحوالهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فالجلوس معهم خطرٌ، وجلسهم على خطرٍ.

واختلف أصحابنا في حق المريد مع شيخٍ آخر خلاف شيخه، هل حاله معه من جانب الحق مثل شيخه أم لا؟ فكلهم قالوا بوجوب حرمة عليه، ولا بد هذا موضع إجماعهم وما عدا هذا فمَنهم من قال: حاله معه على السواء في حاله مع شيخه، ومَنهم من فصل وقال: لا تكون الصورة واحدةً إلا بعد أن يعلم المريد أن ذلك الشيخ الآخر ممن يُقتدى به في الطريق، وأما إذا لم يعرف ذلك فلا، ولهذا وجهٌ وللآخر وجهٌ آخر، النبي ﷺ يقول للمرأة: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١)، وكانت قد جهلت أنه رسول الله ﷺ، والمريد لا يقصد إلا الحق، فإذا ظهر مقصوده حيث ظهر قال به وأخذه؛ فإن الرجال إنما يُعرفون بالحق، لا يُعرف الحق بهم، والأصل كما لم يكن وجود العالم بين إلهين ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع ولا امرأة بين زوجين كذلك لا يكون مريدٌ بين شيخين إذا كان مريد تربيةً، فإن كانت صحبته^(٢) بلا تربية فلا يبالي بصحبة الشيوخ كلهم؛ لأنه ليس تحت حكمهم، وهذه الصحبة تسمى صحبة البركة، غير أنه لا يحجب منه رجلٌ في طريق الله؛ فالحرمة أصل الفلاح اهـ.

فتأمل هذا الباب بعين الاعتراف، واشرب زلاله بأقداح الانقياد وكف الاغتراف تعلم أن هؤلاء الأشياخ المتصفين بهذه الأوصاف والمنعوتين بهذه السمات المختصة بالأشراف وبأهل الإشراف نور الوجود، كبوادر الشهود عند أهل الجحود والاقتراف، بل هم الكبريت الأحمر الذي يحق للأرواح في طلبه الإتلاف، فإذا شَمَّرت ذيل الطلب وشدت زنار والرغبة وجانبت الانحراف فابحث عمن اتصف بهذه الأوصاف من غير

(١) رواه البخاري (٤٣٨/١)، ومسلم (٦٣٧/٢)، والترمذي (٣١٤/٣)، وأبو داود (١٩٢/٣)، والنسائي (٦١٣/١)، وأحمد (٣٧٥/١)، وابن ماجه (٥٠٩/١).

(٢) في المخطوطة (أ): صحبة.

خلاف، والزم ركابه، واخدم بابه، واحذر الانصراف؛ فما كل وقت يساعد بالجمعية والاتلاف، ولا كل ساعة يُقام فيها السوق فتحوم^(١) على المرام وتحفُّك الألفاف، فمن سَوَّفَ، وتعلل؛ فقد تعرض لزوال زمان نعمة التخلق والاتصاف، خصوصًا في هذا الزمان الذي لم يبق فيه إلا الرسوم والأساء عند أهل الإنصاف، وقنعت الطلاب فيه بمجرد الانتساب والاندراج في الدروج دون سلوكٍ واتصافٍ وانكشافٍ^(٢).

شيخ ليسوا على العجادة

وقال الشيخ قدس الله سرّه في كتابه روح القدس: فالزمان اليوم يا وليّ شديّد، شيطانٌ مريدٌ، علماء سوء يطلبون ما يأكلون، وأمرء جورٍ يحكمون بما لا يعلمون، وصوفية أصواف بأغراض الدنيا موشحون، عظمت الدنيا في قلوبهم فلا يرون فوقها مطلبًا، وصغر الحق في أنفسهم فأعجلوا عنه هربًا، حافظوا على السجادات والمرقعات والمشهرات والعكاكيز والسبحات المزينة كالعجائز، أطفال طعام، صبيان أحلام، لا علم عن الحرام يرُدُّهم، ولا زهد عن الرغبة في الدنيا يصدُّهم، اتخذوا ظاهر الدين شركًا للحطام، ولازموا الخوانق والرباطات رغبة فيما يأتي من حلالٍ وحرامٍ، وسعوا إرادتهم، وسَمَّنُوا أبدانهم، فوالله ما أراهم إلا كما حدثني غير واحدٍ عن القاضي أبي بكر العربي المعافري قال: حدثنا المطهر سعد بن عبد الله قال: حدثنا حمد بن أحمد بن علي قال: حدثنا أحمد بن الهيثم قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال: حدثنا بشر بن مطر بن حكيم بن دينار القطيعي قال: سمعت عمر بن دينار قال: حدثني شيخٌ من الأنصار عن سالم مولى أبي حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليجاءَ بقومٍ يوم القيامة معهم من الحسنات مثل جبالِ تهامة، حتى إذا جيءَ بهم جعل الله أعمالهم هباءً، ثم قذفهم في النار. فقال سالم: يا رسول الله، صف لنا

(١) في المخطوطة (أ): فتحوق وكلاهما معنى غير طبع ولعله لفظ اشتبه على الكتبة عن المصنف - ﷺ - والمراد «فتحظى بالرام» والله اعلم.

(٢) هكذا يصف الإمام المؤلف العصر الذي عاشه في القرن الثاني عشر الهجري فكيف بأيامنا وقد زاد العناء وعز الغناء. وطاب لطلاب الدنيا البقاء فانه المستعان.

هؤلاء القوم حتى نعرفهم؛ فوالذي بعثك بالحق نبياً إنني أتخوف أن أكون منهم. قال: يا سالم أما أنهم كانوا يصومون ويصلون»^(١).

وفي حديث آخر: «كانوا يأخذون وهناً في الليل، ولكنهم إذا عرض لهم شيء من الحرام»^(٢).

وفي طريق آخر: «شيء من الدنيا وثبوا عليه فأدحض الله ﷻ أعمالهم»^(٣).

فقال مالك بن دينار: هذا والله النفاق، فأخذ أبو المعلى بن زياد بلحيته، وقال: صدقت يا أبا الخير، والله يا ولي لو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها، وفي صفوفهم لا يقيمونها، يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه في الصف قدر ما يدخل فيه ألف شيطان، ثم إن جئت أن تسد ذلك الخلل تراهم قد «قلصوا»^(٤) وجوههم، فإذا غفلت ووطئت سجادة أحدهم لكمك لكمة حيث جاءت منك، وقد يكون فيها حتفك، وهذه وأشباهها هي الطريقة التي أهل زمانك عليها.

ورحم الله أبا القاسم القشيري حيث أدرك من تحلى بحلية القوم في ظاهره وتعرى عنهم في باطنه، فأنشد فيه يقول:

أما الخيامُ فإنَّها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساءهم

هذا الذي قد اشترك معهم في الزيِّ الظاهر، وأما اليوم فلا خيام ولا نساء بإجماع من القوم؛ إن الموت الأخضر عندهم طرح الرِّقاع بعضها على بعض، وذلك شعارهم ﷻ، فقام هؤلاء وقالوا: إنما يسر لنا لبس مرقعة خاصة، ولم يلحظوا ما أريد بها، فتأنقوا في الثياب المطرحة والأعلام المشهورة، وخاطوها على وزن معلوم وترتيب منظوم تساوي

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١٣١/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٨/١)، وابن عدي في الكامل (٩٧/٣)، وذكره ابن حجر في الإصابة (١٤/٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٧٨/١)، وذكره ابن حجر في الإصابة (١٤/٣).

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين (٦٩/١)، والديلمي في الفردوس (٤٩٨/٥).

(٤) في المخطوطة (أ) قطبوا وجوههم وكلاهما يسوق المعنى.

مالاً، وأفسدوا عليها ثياباً، وسموها مرقعة، فرحم الله سيد هذه الطريقة أبا القاسم الجنيد حيث أنشد لما رأى فساد الحال، وقال:

أهلُ التصوفِ قد مضَوْا	صارَ التصوفُ مخرقةً
صارَ التصوفُ ركوةً	سجادةً ومزقنةً
صارَ التصوفُ هيجةً	وتواجداً ومنطقةً ^(١)
كذبتك نفسك ليس ذا	سننِ الطريقِ الملحقةً

من هم الأبدال؟

والله ما أعلم أهل الطريقة كذا، وما كان إلا بالقعود في مرايض الكلاب مجاهدةً، وتحمل الأذى وكفه رياضةً، والرحمة والشفقة والعطف على الفقراء والمساكين والمسلمين كافةً تحقيقاً ومعرفةً، أين هم من صفة الله^(٢)؟ كما نعتهم الطائفة العاكفة عليه السلام على ما حدثنا أبو محمد بن يحيى قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو الفضل أحمد قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن مقسم قال: حدثنا عباس بن يوسف قال: حدثنا محمد بن عبد الملك قال: حدثنا عبد الباري قال: قلت لذي النون المصري: صف لي الأبدال. قال: إنك سألتني عن دياجي الظلم، لأكشف لك عنها يا عبد الباري، هم قومٌ ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم بجلاله، فهم حجب الله على خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيب أهل معاملته، وكساهم حُللاً من نسيج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب؛ فهي معلقةٌ بمواصلته، فهممهم إليه سائرةٌ وأعينهم بالغيب إليه ناظرةٌ، قد أقامهم على باب النظر من قربهِ، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل

(١) في المخطوطة (أ): «وتواجداً ومطبعة» وكلاهما قريب من المعنى.

(٢) في المخطوطة (أ): «أين هم ممن صنعهم الله تعالى» وهذا أقرب من المعنى.

معرفة^(١)، ثم قال لهم ﷺ: «إذا آتاكم عليلٌ من فقري فداووه، أو مريضٌ من فرقي فعالجوه، أو خائفٌ مني فأمنوه، أو آمنٌ مني فحذروه، أو راغبٌ في مواصلي فهنّوه، أو راحلٌ نحوي فزودوه، أو جبانٌ في متاجري فشجّعوه، أو آيسٌ^(٢) من فضلي فعدوه، أو راجٍ لإحساني فبشّروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محبٌ فواظبوه، أو معظّمٌ لقدري فعظّموه، أو مسيءٌ بعد إحسانٍ فعاتبوه، أو مسترشدٌ نحوي فأرشدوه»^(٣). إلى آخر القصة على ما ذكرناه في باب البغية لنا مستوفياً.

فهذه أحوال العارفين يا ولي، وهكذا تكون عمارة القلوب، وأما أهل زمانك فوالله لو اطلعت عليهم لرأيت إن نظرت إلى وجوههم عيوناً جامدةً متحركةً غير هامدة، وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوساً سامدة، وإذا نظرت إلى قلوبهم رأيت قلوباً لاهيةً من العمارة العلوية والقدسية خاليةً، على عروشها خاويةً، آجاماً لأسودٍ ضارية، ومرابض لذئابٍ عاوية، نسأل الله عند رؤيتهم العافية.

أين هم يا ولي من قومٍ وصّفهم أبو الفيض^(٤) حيث قال: إن لله لصفوةً من خلقه، وإن لله لخيرةً^(٥).

قيل: يا أبا الفيض ما علامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة وأعطى المجهود في الطاعة وأحب سقوط المنزلة، ثم قال:

منع القرآن بوعده ووعيده مقلّ العيون بليها أن تهجع
فهموا عن الملك الكريم كلامه فهما تذلل له الرقاب وتخضع

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (١٢/١).

(٢) آيس: أصلها يائس، حدث فيها قلب مكاني.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢/١).

(٤) هو ذو النون رحمه الله، وأبو الفيض كنيته.

(٥) هكذا بالمخطوطة غير أن الكلام موصول فيكون المعنى وإن لله لخيرة من خلقه ويتسق الكلام.

فقال له بعض من كان في مجلسه: مَنْ هؤلاء القوم يا أبا الفضل رحمك الله؟ فقال: ويحك، هؤلاء القوم جعلوا الركب لجباههم وسادًا، والتراب لوجودهم مهادًا، هؤلاء قومٌ خلط القرآن لحومهم ودماءهم، فعزلهم عن الأزواج، وحركهم بالإدلاج، فوضعه على أفئدتهم فانسرجت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدعت همهم به فكدحت، فجعلوه لظلمتهم سراجًا، ولسبيلهم منهاجًا، ولمحجَّتهم إيلاجًا، يفرح الناس وهم يحزنون، وينام الناس وهم يسهرون، ويفطر الناس وهم يصومون، ويأمن الناس وهم يخافون؛ فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت، ويستعدون للموت إلى آخر القصة.

ثم قال: ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان، ولا يستحي في ذلك من الرحمن، لا يعرف شروط السنن والفرائض، ولا يصلح أن يكون في المراض، ومع هذا يا وليي فهم والله الصدف الذي يخفي الدر والسياح الذي^(١) على الروضة ذات الزهر يدخل بينهم الصادق والصديق فيجهل، والعارف المتمكن فيترك ويهمل؛ فإنه يحمل على ما هم عليه؛ لا شراكتهم في المسكن، وما بينهم وبينه معاملة في شيء، ولقد وقع بيدي منهم بمصر في الخانات بالقاهرة كهلٌ يعرف أن يكون رجلًا لا بأس به، ففرحنا^(٢) لما لم أجده غيره.

واجتمعت مع شيخ يُدعى شيخ الشيوخ بأزيل، هكذا قال لي بنفسه، ورأيتَه يعطي النصف من نفسه للمتكلم معه ﷺ، فزعم أن ليس الله تعالى في المغرب من يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه، فأراد وليك ألا يشافهه بخطاب، ولا يتكلم معه ولا يتعرض إليه، ثم رأيت ذلك^(٣) قاصمة الظهر وقارعة الدهر، فأبدينا له سيرًا مما وهبك الله من الأسرار، ثم أعقبناه بذكر بعض أحوال سيدي أبي مدين^(٤) خلاصة الأبرار، فبقي مبهورًا بما سمع.

(١) في (ب): السباخ.

(٢) في المخطوطة (أ): ففرحت.

(٣) في المخطوطة (أ): ثم رأيت ذلك.

(٤) في المخطوطة (أ): «سيدنا ابن مدين».

وقال: ما تخيلت أن يكون مثل هذا في بلاد المغرب، ثم ألقى عليه بعض أصحابنا مثله من الحقائق الإلهية المتوجهة على إيجاد جهنم^(١)، فوالله ما زاد أن قال: لا أدري شيئاً، وأنصف من نفسه، واعترف بنقصه، وهدأت شقاشقه، وانطفأت بوارقه، فقلت له: هذا حالك معي، وأنا أنقص حالاً، وأحقر قدرًا من أن أذكر فيهم أو أنسب إليهم، فكيف بك لو لاحظت الكبراء والسادات النبلاء الكائنين بالمغرب المغرب، فسلم واستسلم، وحمدت الله على ما ألهم وعلم اهـ.

هذا حال مشايخ أهل عصره الكائنين في ستمائة، فكيف بأهل أزماننا المتجاوزين حدود الألف والمائة؟^(٢) فنسأل الله أن يمن علينا بالدواء النافع من كل مرض، المخلص من كل داء أصليٍّ أو عَرَضٍ المثمر بمعرفة النفس التي به منبع كل عارض عرض، ومجمع على كل فسادٍ وغرض، وفعلٍ مستبجٍ معترض، وأن يجذبنا إليه لنقوم بحق ما علينا فرض، ونكون ممن أحسن وما أساء إذا قرض.

مآرب الإخوة في الله تعالى:

واعلم أيها الأخ أن وجود إخوان الصفا وخلان الوفا في هذا الزمان كبريتٌ أحر وعنقاء مغربٍ لا تشهد بل تُذكر، فإن ظفرت بواحد، فلنك الهناء أو أكثر، فعرض عليه بالنواجذ، واغمض الجفون عليه؛ كيما يُحفظ ويُستر.

وقد قيل: إن من اللذائد الجنانية اجتماع أخوين في الله بمحبة صافية جنانية ومسامرة روحانية ومنادمة عرفانية.

ومن فوائد الاجتماع الذي هو لكل خير جماع، إنه لقاح الأرواح ومفتاح لانتشاق الأرواح، وقوت الأسرار، وقوة الأشباح^(٣).

(١) في (ب): حبهـم.

(٢) يتحدث المصنف رحمه الله عن شيوخ عاشوا في غضون القرن السادس الهجري ويتحسر عليهم إذا قورن أهل عصره في حدود ١١٠٠ هـ فكيف بالشيوخ بل الرجال عامة في أيامنا هذه فالله المستعان ونسأله سبحانه السلامة.

(٣) في المخطوطة (أ): ورد «وقوة للأسرار وقوة للأشباح» ولعل اللفظ المثبت أكثر وقعاً إذ جعل للأسرار قوتاً وللأشباح قوة وهذا على سبيل الاستعارة.

ومن فوائد اجتماع الإخوان غير حُؤَانٍ على خِوان امتزاج الأسرار، كاشتباك الأشجار، وإمداد كل واحدٍ للآخر بما عنده، وإسعاف حاضريه وتنويلهم رفده، حتى يعود زادهم نورًا، ويشهدون أنه زادهم حضورًا.

ومن فوائد اجتماعهم في خلق الذكر والنصائح إثمارها بلواقح نوافح نشرها فائحٌ، وعطرها بائحٌ، جالبٌ للأفراح عبرها، وللأتراح زائحٌ، وهو مؤذنٌ بذهاب الجفاء والتهاب وحشة الخفاء، وهو النعمة المعجلة المنتجة للمنة، التي في العقبى مؤجلة، ولا ينالها على هذا الوجه المطلق أحدٌ من الطالبين إلا إن اتصف بسات إخوان الصدق، الذين هم لنفوسهم غالبون بيقينٍ، وصدق عليه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧). وفي هذا التقابل من الفوائد ما لا يدخل تحت قيد عبارة، ولا تحيط به قيد إشارة.

ومن تلك الفوائد العوائد حصول ما عند المقابل عند المقابل من العلم الزائد والسلم الذي هو الرائد. قال سيدي محي الدين قدس الله سرّه السيد والسائد: ما أخذنا العلم بكثرة القراءة، ولكن قابلت مرآتهم مرآتنا، فانتقش العلم فيها اهـ.

فإذا انجلت مرآة القلب بالمقابلة التامة من الصدا وأكسبه الانجلاء الرجوع لأصله كما تكسب شواهد الجبال إرجاع الصدا حصل الانعكاس، وزال الانتكاس، وذهب الإيحاء، وجاء الإيناس، ومن السادة من هو كالحجر المكرّم أو الكنز المطلسم، فإذا قابله شخصٌ نطق بما يقتضيه حقيقة المقابل: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٧٤).

فعجّل بشراء روحك ولا تكابر، فمن أنطق له هذا الإمام فقد أكرم بوافر الإكرام؛ إذ هو جاهدٌ لا يُحرّك إلا إذا حُرِّك، فله دُرُّك، إن التقطت حال دره^(١) ثمان درك، وانتفعت بصحبته، وارتفعت بمحبته؛ فإنه الشمس الذي غطّى عليها سحب الصون، والبدر الذي

(١) بالأصول: دره، بدال مهملة، وقد أثبتناها هكذا اجتهداً، وثمان، جمع ثمين، والمعنى التقطت من العارف الناطق بدرر الكلام الدر الثمين حال يذره أي يثره.

حجب بغيام ظلمة الكون فنهته أجفان فؤادك من كراها، وافتح عيونك في وجوه الرجال؛
فعسى تراها، وحرّك سلسلة المحبة فيها؛ فلعل يرشدك لها من براها، وتطلب بالجد والكد
الوصول لعتبات أهل الحصول، وإن لم تصل فأتبع هداها.

في ضرورة التثبت من المرشد

فإن قلت: قد فهم من جوهر الكلام الذي يشفي الأوام ويداوي الكلام أن وجود
الأستاذ المرشد في هذا الزمان أقل من القليل، وأخفى من الخفاء لدى ذي الطرف الكليل،
فلم لا أمرتنا بحسن الاعتقاد في كل من نراه قد تصدر للإرشاد والإقبال عليه بخالص
الطوية وإخلاص النية وعدم البحث عن أحواله مرضية كانت أو غير مرضية، والكون
تحت أوامره ونواهيهِ إلى أن يفتح الله بمواهبه السنية ومعلوم أن من اعتقد في مسلم نفعه
اعتقاده فيه، والمريد إذا وُجد عنده صدق الطلب بكيفية؟

قلنا: ما ذكرته صحيح، ولكن يحتاج إلى تنقيح؛ فإن النفس إذا أقبلت دون بحثٍ
وترجيح ولم يكن قام عندها يقينٌ للشك في داعيها مريح، ولا تحقيقٌ من دسائسها مريح،
قد تنفر بعد الإقبال لفعلٍ ظاهره قبيح، أو أمرٍ مخالفٍ للنص الصريح، وتعرض عن الميثاق
والعهد الوثيق، وتجنح للتسريح، فيكون قد ضاع عليها في العمر ما لم تستفد فيه غير
التجريح، بخلاف ما إذا قدمت بعد الفحص والتثبت الرجيح، ولم تقنع بالتلميح والتنقيح
والتلويح؛ فإنها تتناول كل ما تراه مخالفاً، وترده لوجه حسنٍ مليح، فلا تندم إذ تتقدم
وتسكن وتستريح ويتداوى طرف بصيرتها القريح وباطنها الجريح، وهذا منهجٌ تغلب فيه
السلامة على سالكيه دون غيره، وتفوز بالتوضيح، وهو طريق الجادة الواسع الفسيح،
الذي يسلم فيه السيار من التلف المبرح أي تبريح، وينجو السائح فيه بالذكر والتسبيح من
التدابير والتقاطع والتجهيل والتقييح.

فإن قلت: قد علمنا أنه لا بد من شخصٍ يرينا الشخص من أهل الرسوخ في
المقامات والخصوص ليريش منا الجناح المقصوص، وينقش فصوص خواتم أسرارنا

بحقائق النصوص، ويشد به ضعف ركننا الموهوص^(١)؛ فإن المؤمنين كالبنين المرصوص، لكن إذا أعيانا التطلاب لعزة وجود هذا الموهوب المخصوص فكيف نفعل قبل وجدانه بنفوسنا المشبهة للقاضي القاضي في الاسم والرسم، المنقوض المنقوص^(٢)؟!

قلنا في الجواب: قد عقد الهمام الأكبر^(٣) بابًا في فتوحاته حوى اللباب، فلنذكره بتمامه؛ لينشئ عرف^(٤) تمامه.

وقال ﷺ في الباب الرابع والخمسين في معرفة ما يلقي المريد على نفسه من الأعمال قبل وجود الشيخ

إذا لم تلتق أسأتًا	فكن في نعت من لاذا
وقطع نفسه والليل	أفلاذا ففلاذا
وتسبيحًا وقرأنا	فأشهد به من ماذا
وأضعفه وأحياه	فلما لم يقل ماذا
فكان له الذي يغيه	تلميذًا وأستاذًا
وجاءته معارفه	ذرافات وأفلاذا
فهذا قد أبنت	فلا ينفك عن هذا ^(٥)

واعلم أيديك - الله ونورك - أن أول ما يجب على الداخل في الطريقة الإلهية المشروعة طلب الأستاذ حتى يجده، وليعمل في هذه المدة التي يطلب فيها الأستاذ الأعمال التي أذكرها له، وهي أن يلزم نفسه تسعة أشياء؛ فإنها بسائط الأعداد، فيكون له في التوحيد إذا

(١) هكذا وردت بالمخطوطتين ولعل يقصد ركننا المهيض، وأثر الموهوص لينتظم له سجع الكلام.

(٢) المنقوض والمنقوص صفتان لكلمة القاضي وهو نقيض القاضي في هذه الجملة.

(٣) يقصد الفتوحات المكية لسبيدي محي الدين بن عربي ؑ.

(٤) انشئ عرف الشيء: انتشرت رائحته الذكية.

(٥) ورد بالمخطوطة ذات الكلام بيد أنه منظوم هكذا

عمل عليها قدمٌ راسخٌ، ولهذا جعل الله الأفلاك تسعة أفلاك، فانظر ما ظهر من الحكمة الإلهية في حركات هذه التسعة، فاجعل أربعةً منها في ظاهرك وخمسةً في باطنك، فالتى في ظاهرك الجوع والسهر والصمت والعزلة، فاثان فاعلان، وهما الجوع والعزلة. واثان منفعلان، وهما السهر والصمت، وأعني بالصمت ترك الكلام والاشتغال بذكر القلب ونطق النفس عن نطق اللسان، إلا فيما أوجب الله عليه مثل قراءة أم القرآن أو ما تيسر من القرآن في الصلاة والتكبير فيها، وما شرع من التسييح والأذكار والدعاء والتشهد والصلاة على رسول الله ﷺ إلى أن يسلم منها، فيتفرغ لذكر القلب بصمت اللسان؛ فالجوع يتضمن السهر والصمت، ويتضمن العزلة.

وأما الخمسة الباطنة فهي الصدق والتوكل والصبر والعزيمة واليقين: فهذه التسعة أمهات الخير تتضمن الخير كله، والطريقة مجموعةٌ فيها؛ فالزمها حتى تجد الشيخ، وأنا أذكر لك من شأن كل واحدة من هذه الخصال ما يحرضك على العمل بها، والدؤوب عليها، والله ينفعنا وإياك، ويجعلنا من أهل عنايته، ونبتدئ بالظاهر أولاً ولنقل.

فوائد العزلة

أما العزلة، وهي رأس الأربعة المعبرة التي ذكرناها عند الطائفة: أخبرني أخي في الله تعالى عبد المجيد بن سلمة خطيب مرشانة الزيتون من أعمال إشبيلية من بلاد الأندلس^(١)،

(١) هكذا كانت الأندلس - فردوس المسلمين المفقود - منبتاً للأولياء، ومنبعاً للعارفين. ولكن الفرقة بين حكامه والتنازع على العروش أضاع هذه الجنة الفيحاء. ورثاها الشعراء بما يقطع نياط القلوب يقول أحدهم:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغسر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءت له أزمان
تبكي الخنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
علي ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائساً	ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
حيث المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثى وهي عبران

وكان من أهل الجد والاجتهاد في العبادة فأخبرني سنة ست وثمانين وخمس مائة، قال: كنت بمنزلي بمرشانة ليلة من الليالي، فقممت في حزي، فبينما أنا واقفٌ في مصلاي وباب الدار وباب البيت عليّ مغلقٌ وإذا شخصٌ قد دخل عليّ وسلّم، وما أدري كيف دخل، فجذعت منه، وقد أوجزت في صلاتي، فلما سلمت قال لي: يا عبد المجيد، من يأنس بالله لم يجزع. ثم نقض الثوب الذي كان تحتي أصلي عليه، ورمى به، وبسط تحتي حصيرًا صغيرًا كان عنده، وقال: صلّ على هذا. قال: ثم أخذني، وخرج بي من الدار ثم من البلد، ومشى بي في أرضٍ لا أعرفها، وما كنت أدري أين أنا من أرض الله! ثم ذكرنا الله في تلك الأماكن، ثم ردّني إلى بيتي حيث كنت، قال: فقلت له: يا أخي، بماذا تكون الأبدال أبدالاً، فقال لي: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب المكّي في القوت، ثم سماها لي: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة، ثم قال عبد المجيد: هذا هو الحصر، فصليت عليه، وهذا الرجل كان من أكابرهم، يقال له معاذ بن أسوس^(١).

فأما العزلة: فهي أن يعتزل المرید كل صفة مذمومة وكل خلقٍ دنيّ، فهي عزلته في حاله. وأما في قلبه فهو أن يعتزل بقلبه عن التعلق بأحدٍ من خلق الله من أهلٍ ومالٍ ووليدٍ وصاحبٍ، وكل ما يكون بينه وبين ذكر ربه بقلبه عن خواطره، ولا يكون له همٌّ إلا واحدٌ، وهو تعلقه بالله تعالى، وأما في حسّه فعزلته في ابتداء حاله الانقطاع عن الناس وعن المألوفات إما في بيته وإما في السياحة في أرض الله، فإن كان في مدينة فبحيث لا يعرف، وإن لم يكن في مدينة فيلزم السواحل والجبال والأماكن البعيدة من الناس. فإن أنست به الوحوش وتألّفت به وأنطقها الله في حقّه فتكلّمه أو لم تكلّمه فلينعزل عن الوحوش والحيوانات، ويرغب إلى الله في ألا يشغله بسواه، وليثابر على الذكر الخفيّ، وإن كان من

يا غافلا وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

..... إلخ

(١) في (أ): أسوس، وبالفتوحات المطبوع: أشري، والله تعالى أعلم.

حَفَظَ الْقُرْآنَ فَيَكُونُ لَهُ مِنْهُ حِزْبٌ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَقُومُ بِهِ فِي صَلَاتِهِ؛ لَثَلَا يَنْسَاهُ وَلَا يَكْثُرُ^(١) الأوراد ولا الحركات، وليرد اشتغاله إلى قلبه دائماً، هكذا يكون دأبه وديدنه.

فوائد الصمت

وأما الصمت: فهو ألا يتكلم مع مخلوقٍ من الوحوش والحشرات التي لزمته في سياحته أو في موضع عزلته، وإن ظهر له أحدٌ من الجن أو من الملائكة الأعلى فيغمض عينه عنهم، ولا يشغل نفسه بالحديث معهم وإن كلموه؛ فإن يُفرض عليه الجواب أجاب بقدر أداء الغرض بغير مزيد، وإن لم يُفرض عليه سكت عنهم واشتغل بنفسه؛ فإنهم إذا رأوه على هذه الحالة اجتنبوه ولم يتعرضوا له واحتجبوا عنه؛ فإنهم قد علموا أنه من أشغل مشغولاً بالله عن شغله به عاقبه الله أشد عقوبة.

وأما صمته في نفسه عن حديث نفسه: فلا يحدث نفسه بشيء مما يرجو تحصيله من الله فيما انقطع إليه؛ فإنه تضييعٌ للوقت فيما ليس بحاصل؛ وإنه من الأمانى، وإذا عود نفسه بحديث نفسه حال بينه وبين ذكر الله في قلبه فإن القلب لا يتسع للحديث والذكر معاً، فيفوته السبب المطلوب منه في عزلته وصمته، وهو ذكر الله تعالى الذي تنجلي به مرآة قلبه فيحصل له تجلي ربه.

عوائد الجوع والسهر

وأما الجوع: فهو التقليل من الطعام؛ فلا يتناول إلا قدر ما يقيم صلبه لعبادة ربه في صلاة فريضة، فإن التنفّل في الصلاة قاعداً بما يجده من الضعف لقلة الغذاء أنفع وأفضل وأقوى في تحصيل مراده من الله من القوة التي تحصل له من الغذاء لأداء النوافل قائماً؛ فإن الشبع داعٍ إلى الفضول من الحركة والنظر والسعاع، وهذه كلها قواطعٌ له عن المقصود.

وأما السهر: فإن الجوع يولده؛ لقلة الرطوبة والأبخرة الجالبة للنوم ولا سيما شرب الماء؛ فإنه نومٌ كله وشهوته كاذبةٌ، وفائدة السهر اليقظة للاشتغال مع الله بما هو بصدده

(١) (ب): يذكر وهي كذا في (أ) وفي الفتوحات المطبوع.

دائماً، فإنه إذا نام انتقل إلى عالم البرزخ بحسب ما نام عليه لا يزيد، فيفوته خيرٌ كثيرٌ مما لا يعلمه إلا في حالة السهر، وإنه إذا التزم [ذلك سرى السهر إلى عين القلب وانجلى عين البصيرة]^(١) بملازمة الذكر فيرى من الخير ما شاء الله تعالى، [وفي حصول هذه الأربعة التي هي أساس المعرفة لأهل الله]^(٢)، وقد اعتنى بها الحارث بن أسد المحاسبي أكثر من غيره، وهي معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، ومعرفة الشيطان، وقد ذكر بعضهم معرفة الهوى بدلاً من معرفة الله سبحانه وتعالى، وأنشدوا في ذلك:

إني بُليت بأربع ترمينني بالنَّبل من^(٣) قوسٍ لها توتيرُ
إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ياربُّ أنتَ على الخلاص قديرُ

وقال الآخر^(٤):

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلُّهم أعدائي

الخمسة الباطنة (الصدق - التوكل - الصبر - العزيمة - اليقين)

وأما الخمسة الباطنة: فإنه حدثني المرأة الصالحة مريم بنت عبدون بن عبد الرحمن البخاري قالت: رأيت في المنام شخصاً كان يتعاهدني في وقائعي، وما رأيت له شخصاً قط في عالم الحس. قال لها: تقصدين الطريق. قالت: فقلت له: إني والله أقصد الطريق، ولكن لا أدري بهاذا. قالت: فقال لي: بخمسة، وهي التوكل، واليقين، والصبر، والعزيمة، والصدق. فعرضت رؤياها عليّ، فقلت لها: هذا مذهب القوم. وسيأتي الكلام إن شاء الله

(١) سقط من (ب)، وفي (أ): «السمر» بدلاً من «السهر» التي بين المعقوفتين.

(٢) هذه العبارة ناقصة وليست جملة تامة لأن الجار والمجرور خبر مقدم لم يذكر مبتدؤه، وهي هكذا في الأصلين والفتوحات المطبوع.

(٣) بالمخطوطتين: عن، وما أثبتناه أثبت وهو في الفتوحات المطبوع.

(٤) قيل: هو الإمام الشافعي رحمه الله ونسبة إليه:

إني بليت بأربع لم يوجدوا إلا لطلول شقاوتي وعنائتي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟

في داخل الكتاب؛ فإن لها أبوابًا تخصها، وكذلك الأربعة التي ذكرناها، لها أيضًا أبوابٌ تخصها في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب^(١).

تجارب الصالحين في طريق رب العالمين

١ - تجربة سيدي عبد الوهاب الشعراني

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره: وَمِمَّا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ إلهامي لمجاهدة نفسي بغير شيخ وبشيخ؛ فإن العالم إذا تجرّد من فصول الشريعة فقد فعل ما كُلف به، وما بقي عليه بعد ذلك إلا العمل بما علم، ويحتاج إلى من يعرفه طريق الوصول إلى العمل بما علم بإزالة الموانع في محبة الدنيا وشهواتها، ويجب على من وجد شيخًا ولو بالسفر أن يهاجر إليه، ومن لم يجد شيخًا وجب عليه مجاهدة نفسه؛ لتصير أعماله رابحةً من الإخلاص، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَأَبَلٌ فَطَلُّ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

وكانت صورة مجاهدتي لنفسي بغير شيخٍ أني كنت أطلع كتب القوم كرسالة القشيري وعوارف المعارف وكتاب الإحياء، وأعمل بما ينقله لي من طريق الفهم، ثم أنه يبدو لي خلاف ذلك، فأضرب عن الأول وأعمل بالثاني وهكذا، فكنت كالذي يدخل دربًا لا يدري هل ينفذ أم لا؟! فهو يسلك إلى آخره، فإن رآه مفتوحًا خرج منه ولا يرجع، ولو أنه صادف من يعرف الدرب لأراحه من التعب، فكان يعلمه أنه مسدودٌ؛ فهذا مثال من لا شيخ له، فالشيخ فائدته إنما هي اختصار الطريق للمريد لا غير، ومن لم يعرف الطريق لا بد أنه يتيه، فيقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده؛ فإن الشيخ كدليل الحاج إلى مكة.

ومن جملة ما جاهدت به نفسي أنني كنت جعلت حبلًا في سقف الخلوة محررًا في عنقي، إذا جلست، ولا يصل إلى الأرض لو اضطجعت، فكنت أجعله في عنقي من العشاء إلى الفجر، ومكثت على ذلك سنين، ولم يكن لي بحمد الله من حيث كنت صغيرًا شيءٌ يعوقني من أمور الدنيا سوى الحجاب وكثرة دخول العلل في أعالي، وإن كانت العلل لا تنقطع عن العبد إلا أنها تتنوع بحسب المقامات؛ فكل مقام له عللٌ تناسبه فافهم.

(١) الكلام لسيدي محمى الدين بن عربي والكتاب هو الفتوحات لا كتابنا هذا.

وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداي ولحمتي، فاغتيت بحمد الله عن الوقوع في الذل لأحد من أبناء الدنيا، ولم أباشر قطُ حرفةً ولا وظيفةً بفلوسٍ، وإنما الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحتسب إلى وقتي هذا، وعرضوا عليَّ الألف دينار وأكثر، فرددتها ولم أقبلها، وكان المباشرون والتجار يأتوني بالذهب والفضة فأرميها في صحن جامع الغمري، فيلتقطها الناس. وتركت أكل لذيذ الطعام والشراب، وقنعت بالخشن من المأكّل والملبس، ثم تركت لبس الثياب والطعام جملةً. وكنت ألبس الشراميط^(١) من الكيمان، وأكل التراب مدة لعدم الحلال الصافي على حسب مقامي إذ ذاك، وكنت لا أكل طعام أميرٍ ولا مباشرٍ ولا تاجرٍ ولا فقيهٍ لا يسدُّ في^(٢) وظائفه ولا غيرهم. وضاعت عليَّ الأرض كلها، فأقمت في المساجد المهجورة والخراب مدة سنة، وكنت أطوى ثلاثة أيامٍ وأكثر، وإذا أفطرت تناولت نحو أوقية من غير زيادة، حتى كنت أصعد بالهمة إلى الصاري المنسوب على سقف جامع الغمري من غير سُلمٍ والناس نائمون، ثم إذا نزلت في السلم أنزل بجهدٍ؛ لغلبة روحانيتي على جثمانيتي وطلبها محل استقرارها من السماوات، وهذا هو سبب تحريك الإنسان إذا قرأ القرآن، فكأن الروح تشتاق إلى لقاء ربها إذا سمعت كلامه، فتكاد تلحق بعالمها السماوي؛ فافهم.

وكان لي صاحبٌ من عباد الله الصالحين يقلي السمسّم في معصرة الشيرج^(٣)، فكان يأتيني بالقطعة الكسب فأحمّصها وأكل منها ثلاثة أيام نحو أوقية، وتنكرت قلوب أصحابي مني، حتى كأنهم لم يعرفوني قطُ من ضيق وقتي عن مباسطتهم بالكلام. وكنت كثيرًا ما أخرج إلى الموارد التي يغسل الناس فيها الجزر والخس والبقل فأكل مما أجده من الأوراق، وأشرب عليه من النهر، وأكتفي به ذلك اليوم، وكنت لا أكل طعامًا قطُ لفقرٍ لا كسب له من المتعبدین، وأقول: هذا رجلٌ يأكل بدنيته^(٤)، وكذلك كنت لا أكل طعام تاجرٍ

(١) يريد بالشراميط القصاصات من القماش أو الممزق منه.

(٢) يسدُّ أو يسدّد بمعنى يعدل ويلتزم الصواب.

(٣) هو زيت السمسّم.

(٤) يأكل بدنيته أي يقتصر ليأكل.

يبيع على القضاة والمكّاسين؛ خوفاً من دخول الرشوة والغش على القاضي والتاجر، ثم تركت طعام كل من يمسك الميزان. وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه حتى يقال لي: الفجر طلع، ثم أذكر من بعد الصبح إلى ضحوة النهار، ومن الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب وهكذا، فمكثت على ذلك سنين، وكنت أصلي بين المغرب والعشاء بربع القرآن، ثم أصلي بباقيه، فأختمه قبل الفجر، وربما ختمته كله في ركعة، وكنت كثيراً ما أضرب أفخاذي بالسوط إذا غلب النوم عليّ، وربما كنت أنزل بشيبي في الماء البارد في الشتاء حتى لا يأخذني النوم. وهذا من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان ارتكبنا الأخف منهما، ولا شك أن وقوف المحبين بين يدي الله في الظلام مع تألم جسمه من الضرب أحسن عنده من نوم عند حال التجلي مع صحة الجسم، ولكل مقام رجال. ومن طلب النفاس خاطر بالأنفاس^(١)، فعُلم أن المحب لله في وادٍ، والمنكر عليه في وادٍ، ومن طالع أحوال القوم في مجاهداته سهّل عليه العسير.

«وقد قال سيدي عبد القادر الجيلاني رحمته الله: مكثت في بدايتي سنة كاملة لا أكل ولا أشرب ولا أنام، قال: ودعوت نفسي إلى العبادة، فأبت، فمنعتها شرب الماء سنة، قال: قلت: وكانت عمامتي أيام مجاهدتي مجتمعة من حبال وجلود وشراميط؛ لقلّة الحلال، وبالغت في التدقيق في الورع بحماية الله، لا بحولي ولا بقوتي حتى كنت لا أمشي في ظل واحد من الظلّة ولا أعوانهم. ولما عمل السلطان قانصوه الغوري السباط الذي بين مدرسته وقبته الزرقاء تركت المرور من تحته إذا قصدت زيارة القرافة أو غيرها، فكنت أدخل من سوق الورّاقين، وأخرج من سوق الشرب، وأنا بحمد الله على قدم الورع؛ إذ نور المعرفة لا يطفئ نور الورع، كل ذلك بحماية من الله بعد قسمته لي، لا أنه قسمه لي،

(١) في المخطوطة (أ): «ومن طلب النفيس خاطر بالنفس» وهو في المعنى أدق. ولا شك أن تجارب الصالحين هؤلاء وغيرهم رحمهم الله إنها هي إمعان في مجاهدة النفس، ولا يطالب كل سالك بأن يجذو حذوهم وإنما ما لا يدرك كله لا يترك جله وصدق الله إذ يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) ويقول الناظم:

ونشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن النشبه بالرجال فلاح

فمنعت نفسي منه؛ فإن ذلك لا يصح؛ فجميع ما رذّه المتورع من الأمور ليس هو له بالأصالة، وإنما هو وهمٌ، وقد أمر العبد من طريق تكليفه أن يدافع الأقدار جهده، ويثاب على ذلك؛ فافهم. وإذا اعتنى الله بعبده المحبوب استخلص له الحلال من بين فرت الحرام ودم الشبهات، كما يُستخرج اللبن، والله على كل شيء قدير^(١).

وقال الإمام^(٢) الأكبر والهام الأفخر في تديراته الإلهية في آخر الأبواب منها: اعلم أيها المريد لنجاة نفسك أنه أول ما يجب عليك قبل كل شيء طلب شيخ يُبصّر بك بعيوب نفسك ويُخرجك عن طاعتها، ولو رحلت في طلبه إلى أقصى الأماكن، وأنا أوصيك بما تفعله مدة طلبك الشيخ حتى تجده، فإذا وجدته فال حاضر أبعد من الغائب.

ثم أنه سرد ﷺ جملة من آداب المريد مع شيخه، وقد ذكرنا في أرجوزة الآداب ما فيه مقنع للطلاب.

ثم قال: وأنا الآن أوصيك بما تفعله في المدة التي تطلب فيها الشيخ، أول ذلك التوبة، وإرضاء الخصوم، وردُّ المظالم التي تستطيع ردّها، والبكاء على ما فات من أوقاتك في المخالفات، ومصاحبتك للعلم بأنك من ذنوبك على يقين، ومن قبول توبتك على خطرٍ، ولا تقعد إلا على طهارة كاملة، ومتى ما أحدثت توضأت وصليت ركعتين، والمحافظة على الصلوات الخمس في الجماعات، والتنفل في بيتك.

ثم ذكر فصلاً^(٣) في الصلحة وآخر في السعي إلى المساجد، ثم قال في آخره: وإياك وحضور مجالس السماع، فإن اضطررت إلى الصلحة فصاحب الكبار والمجتهدين من أهل المقامات حتى تجد الشيخ، فإن لم تجدهم في المدن فاطلبهم في السواحل والمساجد الخربة؛ فإنهم يطرقونها وقلل الجبال وبطون الأودية، وإذا عزمت أن تكون منهم فيأياك أن يدخل

(١) هنا ينتهي كلام سيدي الشعراني.

(٢) في الأصل (الهام).

(٣) ورد في المخطوطة (أ): «ثم ذكر فصلاً في آداب الصلاة والطهارة، وآخر في آداب الأكل والشرب، وآخر في الكسب والتوكل وآخر في الصلحة...».

عليك وقت الصلاة إلا وأنت في المسجد، والمفرط من المريدين من يصل إلى المسجد والصلاة تُقام؛ فإنه فرط غاية التفريط وليس منهم. وأما أن تفوتك تكبيرة الإحرام أو ركعة مع الإمام فلا نتكلم عن هذا؛ فإن هذا من حكم العامة المظنون في إيمانهم؛ فتب إلى الله واستأنف، وإياك وملازمة مسجدٍ واحدٍ ولا صفٍّ واحدٍ ولا موضعٍ في المسجد.

ثم قال في فصل الخواطر: أربعة من أحكمها فقد فاز بجميع الخيرات كلها: خدمة الفقراء، وسلامة الصدر، والدعاء للمسلمين بظهر الغيب، وأن تكون معهم على نفسك. وقلماً يسلم مريدٌ في ابتداء حاله من الخواطر الردية في كل جنبٍ من جانب الخلق؛ فأكد على المريد السعي في أن يسلم الناس من سوء ظنه بهم وإن كنت صادقاً صحيح الخواطر والكشف بعادة والتجربة كذلك فيخطر لك خاطر السوء في واحدٍ، وهو كما^(١) خَطَرَ، فاعلم أنه من الشيطان، وتب إلى الله، واستغفر الله، واسأله أن يعمر باطنك به لا بالاشتغال بخلقه، وكيف وقد شغلك بمساوئهم، وإنما الشيطان يحب أن يستدرجك ويصدك ويمكر بك ليلهيك؛ فتحفظ، وإنما ينقطع هذا بالذكر، وينقطع ما كان في جانب الحق عليك اهـ.

فاطفئ المصباح؛ فقد طلع الصباح، وإذا أردت زيادةً البيان فعليك بكتب السلوك المدونة في هذا الشأن: كالإحياء والقوت^(٢)، وعوارف المعارف، ومنهاج العابدين، والرسالة والرعاية للمحاسبي، ومنح المنة في التلبس بالسنة لسيد محمد الغمري وهو ستة مجلدات، والأخلاق المتبولة، وكتب المنن الثلاثة؛ فإن كل ما فيها أخلاقٌ محمديةٌ، والعهود الصغرى والكبرى، والموازين الثلاث للشعراني.

وعليك من كتب الشيخ بمواقع النجوم، وروح القدس، والتدبيرات الإلهية، والحل المربوط، وشرح اليوسفية، ورسالة الكنه، وما لا يقول عليه، وغير ذلك من كتبه في

(١) هكذا ورد بالمخطوطتين ولعله يريد «كلما» خطر والله أعلم.

(٢) يريد المصنف رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رحمه الله وكذا قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله وهما عمالا يستغنى عنهما في الطريق سالك.

السلوك والآداب، إلى أن يأذن الله، ويفتح لك الباب، ويصفو منك العقل، وتخلص من العقل، وتصل إلى الذوق والشوق والوجدان دون التقنع بالمقال، وتُسقى من كثر المعرفة الذوقية العيانية، وترشف من سلسيل عين الحياة السرمديّة، وتشاهد سرّ السرّ المرسوم بالحضرة الخضرية؛ فعليك هناك بمطالعة كتب الحقائق الإحسانية؛ فإن طعام الرجال يضرُّ بالأطفال لا سيما قلب ضُربت عليه من الغفلة أقفالاً، فاحتجب عن شهود النور الباهر وجوهر الجواهر، وغارت عين معانياته الغيبية ومنازلاته العينية؛ لصرحه في ميادين نفسه وصرحه مواجيد حدسه.

ولنرجع إلى ما كنّا بصدد بيانه ممّا توعّر على السالك من المسالك في مهاوى النفس التي توقع في المهالك، وصفاتها الذميمة التي يشبه بها الظالم الخالك، المقصية المفضية المبعد عن المالك، المدعية للغرور التي هي فيها تسليم القياد والانقياد^(١)، المذعنة بالزور؛ إذ دون إذعانها خرط القتاد، العاقلة في أمور دنياها، الغافلة عن حضور أخراها، الداهية صاحبها بمعضلات الدواهي، الذاهبة به كل مذهب لجهلها وأدّعائها أن الدواء هي. ومن المعلوم أن أصل كل معصية الرضا عنها، وتلقي المقتفي لها موارده منها.

قال سيدي أحمد بن عطاء قدّس الله روحه في حكمه: أصل كل معصية وغفلة وشهوة، الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيراً من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، وأي علمٍ لعالم يرضى عن نفسه! وأي جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسه اهـ.

وقد أشفّت الشراخ الذين تجاوزوا الكثرة الغليل، وأبدوا في هذا المقام من المعاني المخجلة بنورها البدر التمام ما يشفي العليل.

سمعت بعض أشياخنا الكرام من أهل دمشق الشام يقول: سمعت شيخنا يحيى الشاوي المغربي^(٢) يقول وقد سُئل عن المناسبات التي كان يُوردها في درسه على الحكم

(١) النص في المخطوطتين غير بين، ولعل المصنف يريد القول «التي تورّد من انقاد لها في المهالك» والله اعلم.

(٢) له ترجمة حافلة في خلاصة الأثر للمعجبى ٤/٤٨٦، وفيه: وسافر في آخر أمره إلى الحج بحرأفبات وهو في السفينة في يوم الثلاثاء عشري شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وألف (١٠٩٦) وأراد الملاحون إلقاءه في البحر

والمعاني الغريبة من أين تنقلونها، فقال: إني طالعت عليها في المغرب ثلاثمائة شرح أو أكثر انتهى.

وكيف لا يكون كذلك؟ وقد رأيت شرحاً لسيدي أحمد زروق قدس الله سره، قال في أوله: وقد تم لي بهذا الشرح ثمانية عشر شرحاً، وهي جديرة بهذا الاحتفال؛ إذ هي أعظم الأنفال.

وكان سيدي أبو عثمان الحيري رحمه الله يقول: لا يستحسن أحدٌ عيب نفسه، وهو يستحسن من نفسه شيئاً، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال، وكان يقول: الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكبر والعُجب في نفسك يقطعك عن الله ﷻ، واحتقار الناس في نفسك مرضٌ عظيمٌ لا يُداوى.

ومن كلام سيدي أبي عبد الله القرشي رحمه الله: ما ابتلي الخلق بحجابٍ أعظم من رؤية النفوس. وكان يقول: هي أشبه شيءٍ بالمرأة في الأخلاق والمعاملة^(١).

وكان السري السقطي رحمه الله يقول: ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال ولا أفسد للعلاقات ولا أسرع في هلاك العبد ولا أدوم ولا أقرب للمقت ولا ألزم لمحجة^(٢) الرياء والعُجب والرئاسة من قلة معرفة العبد نفسه ونظره في عيوب الناس ولا سيما إذا كان معروفاً مشهوراً بالعبادة، وامتد له الصيت حتى بلغ من الثناء عليه ما لم يكن يؤمله وتريّض بنفسه

لبعد البر عنهم فقامت ريح شديدة قطعت شراع السفينة فقصدوا البر وأرسوا بمكان يقال له رأس أبي محمد فدفنوه به. ثم نقله ولده الشيخ عيسى بعد بلوغه خبره إلى مصر ودفنه بها بالقرافة الكبرى بترية السادة المالكية، ووصل إلى مصر ولم يتغير جسده، واتفق أنه لما أرسل ولده بعض العرب ليكشف له عنه القبر ويأتوا به إليه تاهوا عن قبره، فإذا هم برجل يقول لهم ما تريدون؟ فقالوا قبر الشيخ يحيى. فأراهم إياه فكشفوا عنه فوجدوه بحاله لم يتغير منه شيء، فوضعوه في تابوت وأتوا به إلى مصر فدفنوه بترية المالكية التي كان جددها ورمعها، ولم يلبث بعده ولده الشيخ عيسى إلا نحو ستة أشهر فمات فدفنوه على أبيه ووجدوه على حاله لم يتغير منه شيء رحمهما الله تعالى

(١) لا يعتبر هذا التشبيه قدحاً في مكانة المرأة «فالنساء شقائق الرجال» كما ورد. غير أن سيكولوجية المرأة عادة متقلبة الأطوار. والله أعلم.

(٢) في نسخة أخرى: لمحجة.

في الأماكن الخفية وسرايب الهوى وقيلَ تجريئُهُ في الناس ومدحُهُ فيهم. وقيل: إن العابد الفلاني يعظمُ فلانًا ويعتقده، والأمير الفلاني لا يقدم أحدًا من الفقراء عليه، وأطبقت أهل بلده على اعتقاده، فإنه يهلك مع الهالكين.

وعنه رحمه الله قال: «أيُّها الناس، كأن الموتُ على غيرنا كُتِبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا وجب، وكأنَّ ما نُشَيِّعُ من الموتى عن قليلٍ إلينا راجعون، نبوؤهم أجداثهم، ونأكل تراثهم كأنَّا مخلَّدون بعدهم، فطوبى لمن شغله عيُّه عن عيبٍ غيره، طوبى لمن ذلَّ نفسه من غير منفعة، وتواضع لله من غير مسكنة وأنفق ما جمعه من غير معصية، ورجم أهل الذلِّ والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن ذلَّ نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليفته، وكُرِّمت علانيته، وعزلَ عن الناس شرُّه، طوبى لمن عمِلَ بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله»^(١) رواه الحاكم عن أنس. وسيأتي نقله عن الوصايا الأكبرية مع بعض نقصٍ أو زيادةٍ غير خفية؛ فتأمل هذه الوصية النبوية؛ فإن فيها مقنعًا لمن صفتُ سيرته، وحسنتُ منه الطوية، ولكن أين النفوس الذكية التي تقنعها هذه الوصية؟!

وكان أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز قدس الله سرَّه يقول: مثل النفس في الصفات كمثِّلِ ماءٍ واقفٍ طاهرٍ صافٍ، فإذا حركته ظهر ما تحته من الحمأة، وكذلك النفس تظهر مرتبتها عند المحن والفاقة والمخالفة لأهوائها، ومن لم يُعرف ما طوى من الصفات في نفسه، كيف يدعي معرفة ربه!

وقيل لأبي يزيد البسطامي قدس الله سرَّه: متى يكون الرجل متواضعًا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا ولا يرى في الخلق من هو شرُّ منه^(٢).

(١) ذكره سبط ابن العجمي في الكشف الحثيث (١/ ١٨١). مزيدي. [رواه البيهقي في الشعب برقم ١٠١٦٧ عن سيدنا أنس، قال: خطبنا رسول الله ﷺ على ناقته الجداء فقال في خطبته.. الحديث. قال البيهقي: تفرد به أبان وقد روي بعض ألفاظه في آخر الحديث من حديث ركب المصري. اهـ وهو في مسند الشهاب برقم ٥٧٩ ولم أجده في المستدرک. محمد نصار].

(٢) الحال والمقام - مصطلحات الصوفية، ومعلوم أن المقام مكسوب والحال موهوب.

وكان الإمام محمد بن سفيان بن عيينة يقول: لا يكون طالب العلم عاقلاً حتى يرى نفسه دون كل المسلمين.

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: علامة من عرف نفسه أن يكون أذلاً من الكلب: أي لما يعلم ما انطوى عليه من القبايح التي لم تقم في الكلب.

وقد عدَّ بعضهم عشر خصال في الكلب لا توجد إلا في أفراد الرجال، وعدَّ فيه آخرون من الأوصاف المحمودة ألفاً، ولكن دُمَّ بالشعِّ والنبج على الغريب إذا لم يكن إلفاً^(١).

وكان يقول: كن محباً للخمول تاركاً للشهرة، ولا ترى من نفسك أنك تحب الخمول، فترفع نفسك: أي حيث شهدت لها وصفاً حميداً، وهو حبُّ الخمول.

وكان يقول: دعواك الزهد من نفسك يخرجك عن الزهد، فإن الزهد ترك الإمساك في الحاصل في الملك، فإذا شهد تركه فقد أمسك عند شهود تركه، فما زهد إذن، فأخرجه ادِّعاء الزهد من الزهد؛ لأنه رجع إلى رؤية ما خرج عنه ومن رآه فما خرج منه.

وكان أبو سعيد الحسن البصري رحمه الله يقول: دُمَّ الرجل نفسه في العلانية مدحاً لها: أي لأن الاعتراف بنقصها كمال، وقد يكون ذلك من دسائسها، فتقول: ذمَّني ونقَّصني. ومرادها أن يقال عنها عارفة بنقصها متواضعة، وهذا كثير مشهود فيمن يدَّعي كبير المشاهد، وأنه في حضرة الشهود جالس، والحال أنه عريٌّ عن المشاهد والمجالس من تلك الملابس، ومثله في دسائسها عدم التصدُّر والجلوس أخريات المجالس؛ فإنها إن لم ترفع إلى الصدر ضاق منها وسيع الصدر، وهذا على فساد قصدها دليل، فيا منقذ الغرقى كن لي في النجاة منها دليلاً.

وكان سعيد بن جبیر رحمه الله يقول: إني لأرى الرجل على المعصية، فأستحي أن أنهائه لحقارة نفسي عندي.

(١) لعله من اللطائف من وضع كتاباً تحت اسم «فضل الكلاب على كثير من لبس الثياب».

وكان سيدي عبد القادر قدّس الله سرّه العزيز يقول: كلّما جاهدت النفس وغلبتها وقتلتها بسيف المجاهدة أحيّاها الله ﷻ، ونازعتك، وطلبت منك الشهوات واللذات، الحرام منها والمباح؛ لتعود منها إلى المجاهدة والمقاتلة؛ ليُكتب لك نورًا وثوابًا دائميًا، وهو معنى قول النبي ﷺ: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»^(١).

ومن كلامه ﷺ: جلوسك بين يدي من لا ترضى نفسك الأخذ عنه ساعة خيرٌ لك من مجاهدة أربعين يومًا أو ما معناه.

وكان طلحة بن مصرف ﷺ إذا رفعوه على أحدٍ من أقرانه يذهب إليه ويقرأ عليه ويجلس بين يديه؛ ليدفع بذلك ما توهمه الناس فيه أنه أعلم منه، وهذا شأن العلماء العاملين، والحكماء العلماء الكاملين الراغبين أنف نفوسهم، الزاعمين ألا أحقر منهم في معقولهم ومحسوسهم. فإن مقرّ نفوس الكَمَلِ من العارفين^(٢) تحت تحوم الأرضين السفلى، بخلاف من هم في بحرهما غارقون ومنه غارفون.

واعلم أيها الرفيق في رضاة ثدي الإسلام والرفيق بمرافقته عن اقتحام دركات الآثام أن سبب شهود العارفين نفوسهم في ذلك المحل الموصوف بالمحل المخلّ بقدر صاحبه عن المقام المجلّ، وتنزلهم لذلك المقر تحقّقهم في يوم يقال: أين المفر، وأمور كثيرة نذكر بعضها.

منها: أن الأرض هي الأم، والتعالى عليها من حيث ذلك يغم، فينزل العارف ليستمد ما يعمّ.

ومنها: أن مقام العرفان يقتضي ذلك؛ لأن وصف الذلة للسالك ووصف العزة للعلي المالك. فعلى قدر صفاء المعرفة يكون التدليّ؛ لتتم الموازنة ويحصل التملي والتخلي والتحلي، فيقع التجلي؛ فكل من ذاق للرئاسة طعمًا فهو عن درك منهج العبوديّة أعمى يدّعي المعرفة

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في (ب): العاملين.

زعمًا فيصدها رغماً، ومنها تصاغره لعظمة الألوهية، فلا يستقر قدماءه إلا تحت تحنوم الأرضين السفلية. ومعلومٌ أن من تذلل بين يدي حبيبه رفع، ومن تذلل ولم يؤذن له فيه، اسمه من الديوان رُفِعَ، بدليل^(١): «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله وضعه الله»^(٢).

ومنها: أنه لا يرى الخلق أعلى منه، طائعهم وعاصيهم، فيتنزل لهم، وكل ما تنزل درجة رأى غيره تحته ثم وثم إلى أن يستقر تحت التحت بدون قرارٍ واستواءٍ؛ فإنه في تنزلٍ دائمٍ حتى ينزل تحت الثور والحوت بل والهوى^(٣).

ومنها: أن النفس لما كانت منافسةً في طلب العلو قابلها بضد مرامها؛ ليحصل لها فيه السلو ويعرفها بانحطاطها وقدرها، فتخضع وتذل، وتطمع في معاينة شمس شمسها وبدر بدرها.

ومنها: أن الكامل من العارفين يؤمر بحمل أعباء أثقال الأمة، فتكثر آلامه وأسقامه المدهمة، وينمو قلق نفسه وشكواها، فينزل لمواطن لا يسمع ما يديه لسان بلواها إلا لعالم بسرّها ونجواها.

ومنها: أن الكامل من الكاملين يؤمر بتحمّل أقدار ذنوب العصاة ووخامة شؤم هفوات القصاة، فيتحمل جبالاً رواسي من العثرات ناشئة وظلمات متراكمة وبحوراً متلاطمة غاشية، ويتراءى له في ذلك المقام أن جميع الآثام الصادرة من الأنعام بارزة منه وظاهرة عنه، فيكاد من الحياء يذوب، ويستغفر من تلك الذنوب ويتوب. ولولا أن الله

(١) والمعنى أن تذلل لربه تعالى رفع الله عز وجل قدره، ومن ظن المكانة في نفسه فهو مطرود واسمه من ديوان الأولياء مفقود.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢٢٢/٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٢٩/٧)، والقضاعي في الشهاب (٢١٩/١)، والخطيب في التاريخ (١١٠/٢)، والطبراني في الأوسط (١٧٢/٨)، والبيهقي في الشعب (٢٩٧/٦)، وابن أبي شيبه في المصنف (١٢٠/٧).

(٣) وقيل في هذا المعنى إن الثور والحوت والهوى أسماء للملائكة تحمل الأرض والماء والهواء ولا غرابة في ذلك فإن عرش الرحمن تحمله الملائكة

يُثَبِّتُهُ بالقول الثابت ويسعفه بربيع إمداده^(١) الثابت لطمس وانمحي وغاب فما صحى، ولو كان للذنوب رائحةٌ ما قدر أحدٌ على قربانه، ولفرت خلانه منه اقتداءً بجيرانه، وإلى هذا يشير الثابت الميال بقوله: لو كان للذنوب رائحةٌ لم يستطع أحد يقربني من أميالٍ.

فإذا عاين هذه المشاهد العظيمة المُشاهد ذلك غلب عليه وصف الحياء وغرق في عرقٍ كالحيا، وهناك ينزل لتخوم الأرضين السفلى، ويقول: يا ليتني كنت شجرةً تعضد كالدفل^(٢). وتراه إذا ألقى عليه تلك الأثقال وأحاطت به من كل ناحية يلتجئ لحرم الأسماء التي نفس المستغيث بها ناجيةً، وإذا أفرط سح سحابها المتوالي تراه كالسن المجوف الخالي أو الشَّن^(٣) البالي، فلو حرَّك لشهدته منجلاً واقعاً، وهذا أمرٌ يعاينه المكاشف واقعاً.

واعلم أن هذا الحال تعجز عنه أرباب الأحوال ممن يمشى على الماء، أو يطير في الهواء؛ لأنه حال رفيعٌ نَسْجُهُ رفيعٌ نهْجُهُ، ربما صاحبه ثوى وفي وادي الفناء هوى، والإشارة إلى أن هذا المقام من طريق الاقتباس آية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وهذا الإمام إذا أقسم وأغلظ الإقسام أنه من أعصى الأجناس والأشخاص والأقسام فقد صدق ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾؛ لأنه حمل تلك الأعباء التي تورث الإعياء والإغباء عِنْدَ صَبِّ به لا يعبأ. فالحمد لله الذي جعل فينا من يتحمَّل عن عاصينا ويتجمَّل بتجمُّله ويتكمَّل، ويكمِّل قاصينا.

وهذا الإسعاف والإسعاد والإتحاف والإرشاد إكراماً للسيد المعظم والسند الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف، وكرم، وعظم، كما أن في هذه الأمة من الأقوياء الأماجد الذين كلُّ منهم إلى الأبد قلبه لله ساجدٌ، لم يؤذن لهم أن يعملوا لأنفسهم نافلةً إلا بنيةً المَقْصُرِينَ^(٤) أرباب النفوس السافلة، وكم لله من مَلِكٍ وبَشِيرٍ وِجَنٍّ وأرواحٍ مجردةٍ

(٣) في (ب): ويسعفه بريعه بإمداد الثابت.

(٢) الدَّفْل شجر مر أخضر حسن المنظر يكون في الأدوية.

(٣) الشَّن: الحلقُ أي البالي من كل آنية صنعت من جلد.

(٤) ورد في المخطوطة (أ): «بنية المقصر من أرباب» وهذا لا يخالف المعنى.

وحقائق عوالم غير متعددة^(١) قيامٌ على قدم الالتجاء لله في السموات والأرض، يستغفرون
لمذنبى هذه الأمة إلى يوم العرض، ويتقربون لمليكهم بإهداء ثواب أعمالهم إليهم؛ لعلمهم
برأفته لهم ورحمته عليهم.

كل هذا الفضل والإنعام التام العام إعظامًا واحترامًا لسيد الأنام ومصباح الظلام؛
لتكون أمته أشرف الأمم قدرًا وأرفعها بدرًا وأنورها أعمالًا وأبهجها أحوالًا وأعظمها
سرورًا وأقلها شرورًا. فوجب علينا أن نشكر أياديه العظيمة، حيث تشرفنا بالانتماء إليه أن
نكثر في أغلب أحوالنا من الصلاة والتسليم عليه؛ فإن النعم التي أهداها إلينا وأغدقها
علينا لا تفي اليراعات بتفصيلها ولا الأفهام تقدر على تحصيلها، ووجب علينا أن نشكر
أياديه العظيمة وإحساناته^(٢) الجسيمة، ومن ذلك أتباع قدمه الشريف والاقتداء بهديه
المتيف ودوام المجاهدة في النفس مع التوبيخ والتعنيف والاشتغال بها دون المصاحب
والوصيف.

نُقل عن زيد بن مسرة رحمته الله أنه كان يقول: كانت العلماء إذا علموا عملوا، فإذا
عملوا اشتغلوا بنفوسهم، فإذا اشتغلوا بنفوسهم فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا، فإذا طلبوا
هربوا: أي خوفًا من آفات الشهرة والرئاسة، وفرقًا من دسائس النفس المخلية صاحبها
عن وصف الكياسة، المحلية له بنعت الخساسة الكاسية الكاسية له رداء الردى، والمضيعة
عليه أوقاته وأنفاسه، المذكرة بكل ما ليس فيه للروح قوة وقوت، بل ضعف وفوت،
والمنسية ذكر هازم اللذات: وهو الموت.

كتب سفيان بن عيينة رحمته الله إلى أخ له: أما آن لك يا أخي أن تستوحش من الناس؛ فلقد
أدركننا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جفا معارفه، وصار كأنه مختلط العقل من
شدة تأهبه للموت.

(١) أي تخرج من العدد والحصص.

(٢) بالخطوطة (أ): «وإحسانه» وما هو مثبت في المتن أدق.

ورأى الإمام حجة الإسلام بعض الأنام في بركة وعليه مرقعة ويده ركوة وعكاز بعد أن كان رآه يحاضر مجلسه ثلاثمائة مدرس ومائة من أمراء بغداد، فقال: يا إمام، أليس تدريس العلم أولى. فنظر إليه شذراً، وقال لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة، جنحت العقول إلى مغرب الأفول:

تركتُ هوى سُعدى ولىلى بمعزلي وعدتُ إلى مصحوبٍ أوّل منزل
وناديت بالأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

وربما يزيدهما بعضهما بيتاً ثالثاً يفوق سماعه نغمت المثنائي والمثالث:

غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

ومن كلامه (رحمه الله): من لم يكن له نصيبٌ من علم الباطن أخاف عليه من سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله، ومن كان فيه خصلتان لم يفتح عليه من هذا العلم بشيء: بدعة أو كبر.

وقال سيدي أبو الحجاج الأقصري (رحمه الله): كنت في بدايتي أذكر لا إله إلا الله لا أغفل، فقالت لي نفسي مرة: من ربك؟ فقلت: ربي الله. فقالت: لا، ليس لك ربٌ إلا أنا؛ فإن حقيقة الربوبية امتثال العبودية، فأنا أقول لك: أطعمني تطعمني، ثم قم تقم، امش تمشي، اسمع تسمع، ابطش تبطش؛ فأنت تمتثل أوامري كلها، فإذا أنا ربك وأنت عبدي. قال: فبقيت متفكراً في ذلك، فظهرت لي عينٌ من الشريعة، فقالت لي: جادلها بكتاب الله، فإذا قالت لك: نَمْ، فقل لها: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات: ١٧)، وإذا قالت لك: كُلْ. قل لها: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١)، وإذا قالت لك: امش. قل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ (الإسراء: ٣٧)، وإذا قالت لك: ابطش. قل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩)، فقلت لتلك الحقيقة: فما لي إذا فعلت ذلك؟ قالت: أخلع عليك خلع المتقين، وأتوَّجك بتاج العارفين وأمنطقك بمنطقه الصديقين، وأقلدك بقلائد المحققين، وأنادي عليك في سوق المحبين: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ﴾ (التوبة: ١١٢) الآية.

وكان الشيخ منصور البطائحي^(١) رحمه الله يقول: من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الله آثر رضاه، ومن لم يعرف نفسه فهو في أعظم الغرور.

وقال سيدي عقيل المنبجي^(٢) رحمه الله: من طلب لنفسه حالاً أو مقالاً أو مقاماً^(٣) فهو بعيد من طرقات المعارف.

وقال سيدي حماد الدباس^(٤) نفعنا الله به: أقرب شيء إلى الله حبه، ولا يصفو حبه حتى يبقى المحب روحاً بلا نفس، وما دام له نفس لا يذوق محبة الله أبداً قط^(٥).

وكان سيدي تاج العارفين أبو الوفا رّوح الله روحه وأنزله منازل الصفا يقول: التسليم إرسال النفس في ميادين الأحكام وترك الشفقة عليها من الطوارق.

وكان سيدي ممشاد الدينوري عفا الله وعناً به يقول: أحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق وراعى سرّه في الخلوات مع الله واعتمد عليه في جميع الأمور.

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد يقول: من قام إلى أوامر الله بنفسه كان بين قبول وردّ، ومن قام إليها بالله كان مقبولاً بلا شك.

وكان يقول: نفسك سائرة بك، وقلبك طائر بك؛ فكن مع أسرعهما وصولاً.

(١) شيخ شيوخ الشام في وقته وأول من دخل الشام بخرقه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التصوف وعن الشيخ عقيل أخذت. وهو واحد ممن يتصرفون في قبورهم تصرف الأحياء. توفي سنة نيف وأربعين وخمسمائة، وقبره ظاهر يزار.

(٢) قال فيه سيدي أحمد الرفاعي: كان من أكابر الأولياء وأرباب الأحوال اهـ. انتفع به كثيرون - ولما احتضر سأله زوجه أن يوصي بالمشيخة لابنه، فقال هي لأحمد ابن أختي - وهو سيدي أحمد الرفاعي. لم يذكر المناوي تاريخ وفاته.

(٣) في المخطوطة (أ): «حالاً أو مقاماً - فقط. وكلاهما سيلان.

(٤) أخذ عن سيدي عبد القادر الجيلاني وعنه كثيرون وانتهى إليه رئاسة الطريق في بغداد وما حولها. توفي سنة ٦٢٥ هجرية.

(٥) في المخطوطة (ب): «لا يذوق قط محبة الله أبداً» وهي أصوب في الأداء البلاغي.

وأنشدوا:

فسيرك يا هذا كسير سفينة بقوم جلوس والقلوع تطيرُ

وكان أبو الحسين أحمد بن سهل البوتيجي قدس الله سره يقول: من كان باطنه أفضل من ظاهره فهو الولي، ومن كان باطنه وظاهره سواءً فهو العالم، ومن كان ظاهره أفضل من باطنه فهو الجاهل؛ ولذلك لا ينصف من نفسه، ويطلب الإنصاف من غيره.

وكان أبو عمر إسماعيل بن محمد بن أحمد السلمي رحمه الله يقول: الملامتي لا يكون عنده دعوى قط لأنه لا يرى لنفسه شيئاً مما يدعي به.

وكان يقول: من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه.

قلت: وحيث وقع ذكر الملامتي في عبارته فلنذكر تعريف الشيخ له في فتوحاته أفاض الله علينا من إمداداته، وكنا أشرنا لهم في رسالة «الوارد الطارق واللمح الفارق».

فلنقل: قال الشيخ رحمه الله في الباب الثالث مائة وتسعة في معرفة منزل الملامتية من الحضرة المحمدية: وهذا مقام رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وعن تحقق به من المشيخة حمدون القصّار وأبو سعيد الخراز وأبو يزيد البسطامي، وهو حالنا، وكان في زماننا من سادات هذا المقام أبو السعود بن الشبل ببغداد، ورأينا من أربابه ابن جعدون الحناوي، وكان من الأوتاد الأربعة، ورأيت جماعة من أهله بحمد الله تعالى:

كل من أقسم بالخلق فما	يلزم الحنث له مهما حنثُ
فأنا أقسم بالله الذي	أسكن الأرواح أجداث الخبثُ
وبآيات الهدى من نوره	أنّه ما خلق الخلق عبثُ
وإذا لم يكن الأمر كما	قلته يا سيدي لا تكثرُ
حار عقل عاهد الشرع على	عقد ما قرره ثم نكثُ
أترى يحصد الشخصُ زرعاً من	بذر الحبّ ونقى وحرثُ

لا وحقَّ الحقُّ ما يملكه أخبر الروح بهذا حين نفث
أودع الأرواح روحًا واحدًا بين زوجين نكاحًا ثم بث^(١)
لم يُسَوِّ الله في أحكامه حكمه ما بين شيخ^(٢) وحدث
ثم أن جاء بحكم جامع لهما كان لأمرٍ قد حدث
فكان الطفل قد حلَّ به هرْمٌ والشيخ قد حلَّ الحدث
كان حيًّا ثم ميِّتًا ثم من بعد ميِّت^(٣) عاد حيًّا فبعث
كَتَمَ السرَّ الذي فيه له غيره منه زمانًا ثم بث

اعلم وفقنا الله وإياك أن رجال الله ثلاثة لا رابع لهم:

رجال الله تعالى

رجالٌ: غلب عليهم الزهد والتبُّل والأفعال الظاهرة المحمودة كلها، وطهروا أيضًا
بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمَّها الشرع غير أنهم لا يرون شيئًا فوق ما هم عليه من
هذه الأعمال، ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا
الأسرار ولا الكشوفات ولا شيئًا مما يجده غيرهم؛ فهؤلاء يقال لهم العُباد، وهؤلاء إذا جاء
إليهم أحدٌ يسألهم الدعاء ربما انتهره، أو يقول له: من أنا حتى أدعو لك! وما منزلي!
حذرًا أن يتطرق إليه العُجب، وخوفًا من غوائل إبليس؛ لئلا يدخله الرياء في ذلك، وإن
كان أحدٌ منهم ممن يشتغل بقراءة، فكتابه [مثل]^(٤) الرعاية للمحاسبي وما يجري مجراه.

(١) جاءت الأبيات في المخطوطة (أ) خالية من البيتين الثاني والثالث. كما ورد البيت الأخير بين السادس والثامن
وما أثبتناه من (ب) موافق لما في الفتوحات.

(٢) في (أ): نسخ والصواب ما أعلاه.

(٣) بمطبوع الفتوحات: موت.

(٤) ما بين المعقوفين من الفتوحات، وفي الأصلين المخطوطين: فكتاب، بدلاً من: فكتابه والمقصود أنهم لا
يطلعون من كتب التصوف إلا ما بحث على العمل لا كتب دقائق الحقائق.

والصنف الثاني: هؤلاء يرون الأفعال كلها لله وأنه لا فعل لهم أصلاً، فزال عنهم الرياء في ذلك جملةً واحدةً، وإذا سأهم أحدٌ في شيء مما يجده أهل الطريق يقولون: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأنعام: ٤٠)، ويقولون: ﴿قُلِ اللَّهُ تَزَرَّهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١)، وهم مثل العباد في الجهد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثَمَّ شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوفات والكرامات، فتعلق همهم بنيلها. فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهوراً به في العامة من الكرامات؛ لأنهم لا يرون غير الله، وهم أهل خلوة وفتوة. وهذا الصنف يسمّى الصوفية، وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعوناتٍ وأصحاب نفوسٍ، وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوى، يستهزئون على كل أحدٍ من خلق الله، ويظهرون الرئاسة على عباد الله.

والصنف الثالث: رجالٌ لا يزيدون على الخمس صلواتِ الرواتب، لا يتميزون على المؤمنين المؤدّين فرائض الله بحالة زائدة يُعرفون بها، يمشون في الأسواق، ويتكلمون مع الناس، لا يبصر أحدٌ من خلق الله واحداً يتميز عن العامة بشيء زائد من عملٍ مفروضٍ أو سيئةٍ معتادةٍ في العادة. قد انفردوا مع الحق راسخين، لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عينٍ، لا يعرفون للرئاسة طعماً؛ لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلم تحتها. قد أعلمهم الله بالمواطن وما تستحقه من الأعمال والأحوال. فهم يعاملون كل موطنٍ بما يستحقه، قد احتجّبوا عن الخلق، واستتروا عنهم بستر العوائد؛ فإنهم عبيدٌ خالصون مخلصون لسيدهم، مشاهدون له على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم وحديثهم معه. في الناس يضعون الأسباب مواضعها، ويعرفون حكمها، حتى تراهم كأنهم هم الذي خلق لهم كل شيء مما تراهم من إثباتهم للأسباب وحفظهم عليها، يفتقرون إلى كل شيء؛ لأن كل شيء عندهم هو مسمّى الله، ولا يفتقر إليهم شيء؛ لأنه ما ظهر عليهم من صفة الفناء بالله ولا العزة به ولا أنهم من خواص الحضرة الإلهية أمرٌ

يوجب افتقار الأشياء إليهم، وهم يرون [كون]^(١) الأشياء لا تفتقر إليهم وهم يفتقرون إليها، لأن الله تعالى قال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، وإن استغنوا بالله فلا يظهرون بصفة يمكن أن يُطلق عليهم منها الاسم الذي وصف الله به نفسه وهو الغني، وأبقوا لأنفسهم ظاهراً وباطناً الاسم الذي سَمَّاهم الله به وهو الفقر. وقد علموا من هذا أن الفقر لا يكون إلا إلى الله الغني. ورأوا الناس قد افتقروا إلى الأسباب الموضوعة كلها، وقد حجبهم في العامة عن الله، وهم على الحقيقة ما افتقروا في نفس الأمر إلا لمن بيده قضاء حوائجهم وهو الله ﷻ.

قالوا: فهنا قد تسمى الله بكل ما يُفتقر إليه في الحقيقة^(٢): [أي من حيث ظهوره به وقيوميته عليه]^(٣)، والله لا يفتقر إلى شيء، ويفتقر كل شيء إليه، فهو لاء هم الملامتية، وهم أرفع الرجال، وتلامذتهم أكبر الرجال، يتقلبون في أطوار الرجولية، وليس ثمَّ من جاوز مقام الفتوة والخلوة مع الله دون غيره سوى هؤلاء؛ فهم الذين حازوا جميع المنازل. ورأوا أن الله قد احتجب عن الخلق في الدنيا وهم الخواص له، فاحتجبوا عن الخلق بحجاب سيدهم. وكأنهم في الدنيا مجهولو العين، فهم من خلف الحجاب لا يشاهدون في الخلق سوى سيدهم: أي لغيبتهم به عن شهود ما عداه، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلَّى الحق ظهر هؤلاء هنالك؛ لظهور سيدهم، فمكانتهم في الدنيا مجهولة العين

فالعباد يميزون عن العامة بتقشفهم وتباعدهم عن الناس بالدعوى وخرق العوائد من الكلام على الخاطر وإجابة الدعوة والأكل من الكون وكل خرق عادة، لا يتحاشون من إظهار شيء يؤدي إلى معرفة الناس به: [أي بذلك الشيء]^(٤) قربهم من الله، فإنهم لا

(١) زيادة في الفتوحات.

(٢) يفتقر العباد إلى كل أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلا، فالله تعالى هو الغني وهو القوي، وهو العليم التقدير ونحن - كعبيد - نفتقر إلى الغنى والقوة والعلم والقدرة... وهكذا.

(٣) هذه العبارة ليست في نسخة الفتوحات التي بين أيدينا، فلعلها تدخل بالشرح من المصنف ﷻ.

(٤) هذه العبارة تدخل بالشرح من المصنف ﷻ وليست في الفتوحات.

يشاهدون في زعمهم إلا الله ﷻ، وغاب عنهم علمٌ كبيرٌ، وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج، والملامتية لا يتميزون على أحدٍ من خلق الله؛ فهم المجهولون، حالهم حال العوامِّ، واختصوا بهذا الاسم لأمرين:

الواحد: يطلق على تلامذتهم؛ لأنهم لا يزالون يلومون أنفسهم في جنب الله، [ولا يخلصون له عملاً تفرح به تربية لها]^(١)؛ لأن الفرح بالأعمال لا يكون إلا بعد القبول، وهذا غائبٌ عن التلامذة.

وأما الأكابر: فيطلق عليهم لستر أحوالهم ومكانتهم من الله تعالى حين رأوا الناس إنما وقعوا في ذمِّ الأفعال واللوم فيما بينهم فيها لكونهم لم يروا الأفعال من الله تعالى، وإنما يرونها ممن ظهرت على يده فمن ظهرت على يده فناطوا اللوم والذم بها، فلو كشف الغطاء ورأوا أن الأفعال لله لما تعلق الذم بمن ظهرت على يده، وصارت الأفعال عندهم كلها شريفةً حسنةً، فكَذلك هذه الطائفة لو ظهرت مكانتهم من الله تعالى للناس لاتخذوهم آلهةً. فأتينا احتجبوا عن العامة أطلق عليهم في العادة ما يطلق على العامة من الملامة فيما يظهر عنهم مما يوجب ذلك، وكأنَّ المكانة لم تلزمهم حيث لم يُظهروا عزَّتها وسلطانها، فهذا سبب إطلاق هذا اللفظ في الاصطلاح عليه، وهذه طريقةٌ مخصوصةٌ لا يعرفها كل أحدٍ، انفرد بها أهل الله تعالى، وليس لهم في العامة حالٌ يتميزون به.

ثم قال: فالملامتية هم أصحاب العلم الصحيح في ذلك، فيهم الطبقة العليا وأهل الطريقة المثلى والمكانة الزلّفى والعدوة الدنيا والعدوة القصوى. ولهم اليد البيضاء في علم المواطن وأهلها وما [تستحق أن تعامل به]^(٢)، ولهم علم الميزان وأداء الحقوق. وكان سلمان الفارسي من أجلِّهم قدرًا في هذا المقام، وهو المقام الإلهي في الدنيا. أهـ

(١) هذه العبارة ركنها من مجموع النسختين ومن الفتوحات.

(٢) في الأصلين: تستحقه، وما أثبتناه من الفتوحات المكية قدس الله أسرار صاحبها العلية.

وقد عرّف الشيخ الجليل سيدي عمر السهروردي قدّس الله روحه في عوارفه الصوفي بما عرّف الشيخ به الملامتي، وبالعكس، فيكون ذلك اصطلاحًا منه؛ فتأمل صفات هؤلاء السادة، وانهج مناهجهم إن وفقت وأحكمت عقد الإرادة.

ولقد اجتمعت برجلٍ من هذه الطائفة العلية في مدينة الخليل عليه الصلاة والسلام من الملك الجليل يقال له: أبو جاعد، واسمه الشيخ محمد، وهو أحد الرجال المعينين فيها. قد حبس نفسه ومنعها الكلام من نحو عشرة أعوام، وكنت رأيت على رأسه خرقة البكتاشية، فسألته بالإشارة عن طريقته، فأشار إنها مطلقةٌ غير مقيدة، ثم أشار بيده نحو مجموعٍ فيه بعض رسائل أجراها قلم التقدير على يد الفقير، فأشار أن: افتح، ففتحت على موضع اللسان، فإذا أوائل الصحيفة التكلم على الملامتية، والرسالة هي المسماة بـ «الوارد الطارق واللمح الفارق»، فقرأت له بيتًا من أول قصيدة قلتها فيهم، وهو:

إِنَّ الْمَلَامِيَّةَ أَعْلَامُ الْهَدَى وَمِنْهُمْ الْبَشِيرُ مَنْ قَدْ مُحَمَّدًا

فأشار لي أن أطبق الكتاب، فقلت له: إذن أنت من الملامتية، وعجبت من إشارته لذلك الكتاب دون غيره وكون اللسان على ذلك المحل بخصوصه. وقد اتفق لنا معه غير هذه الكرامة، وذكرت بعضها أوائل «النحلة النصرية في الرحلة المصرية»، نفعلنا الله به وبأمثاله، وعرفنا مواقع الأمر لنفوز بامتثاله.

ومما يدلّك على خبث النفس الأتّارة وأنها معدن كلّ لوم وخسارة ما قيل فيها من أنها لو قيل لها: اخرجي واقتلي أبغض الناس إليك لقتلت مُرشدّها. وهكذا شأن النفوس الخبيثة؛ إذ قد قيل فيها: إنها لا تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن إليها مع علمها وتحققها أنه باذلٌ جهده في نصحتها ودفع ما يؤذيها ظاهرًا وباطنًا أولاً وآخرًا دنياً وآخرة، وتحملها عنها ما يمكنها تحمله، وهي غافلةٌ في زهوها رافلةٌ، تظنُّ المجدَّ شهدًا والوجدَّ سهدًا يتودد لقلبها وهي معرضةٌ نافرةٌ، ويتلطف بها وهي منكرةٌ لإحسانه كافرة، تروم أن يتّصف لها بالكونية؛ لتقضي جميع أغراضها، وتعرض عليه إن لم يوافقها في مطالبه وتعامله بإعراضها، مع ادّعائها معرفة أن الفاعل المختار هو الواحد القهّار، وأن الخلق لا قدرة لهم

ولا إرادة، وأنهم عاجزون عن هداية أنفسهم؛ فكيف بمنح غيرهم السعادة؟! لكن إذا وَفَّقَ الحَقُّ صاحبَهَا وأُلْحَقَ بأهل اختصاصه فحاربها وخالفها، وأذعن، وانقاد، وسلَّم له القياد دون اعتراضٍ وانعقادٍ، فأفلح، ونجح، ولم يُخسر ميزانه، بل ربح ونال أجر الجهاد في العدو الأكبر ذو الوجه الأملح الأغبر^(١)، ولم يعرج على سفسافها، ولم يمنح لسلَمها، بل حاربها وخلافها؛ فإن من لم يضعفها كذاً ويوهنها جداً لا تصفو له المعاملة، ولا تطيب له المسامرة والمسايرة والمكاملة.

انظار دقيقة لسيدي أبي السعود بن أبي العشائر في فقه النفوس

قال سيدي أبو السعود بن أبي العشائر قدس الله سره: الأخلاق الشريفة كلها تنشأ من القلوب، والأخلاق الذميمة تنشأ من النفوس. فالصادق في الطلب يسرع في رياضة نفسه وطهارة قلبه، حتى تبدل أخلاقه، فيتبدل الشكُّ بالتصديق، والشرك بالتوحيد، والمنازعة بالتسليم، والسُّخْط والاعتراض بالرضا والتفويض، والغفلة بالمراقبة، والتفرقة بالجمعية، والغلظة باللين واللطف، ورؤية الناس بالغَضِّ عنها، ورؤية عيوب المحاسن والقسوة بالرحمة، والغُلُّ والحدُّ بالنصيحة، والإدلال بالخوف وخوف التحويل، ويرى أنه ما وَفَّى الله في ساعةٍ من الساعات، ولا قام بشكر ما أعطاه من فعل الخيرات. وحيثُ لا يتحقق عبوديته، ويصفو توحيده، ويطيب عيشه، ويعيش مع الله عيش أهل الجنان في الجنان، وهذه أخلاق الأنبياء الصديقين والأولياء الصالحين والعلماء العاملين.

وقال ﷺ: ما دامت النفس باقية بأخلاقها وصفاتها فحركات العبد كلها متابعةٌ لخواطرها وهي شيطان: إما للخلق، وذلك شركٌ، أو لراحة النفس، وذلك هوى؛ فالشرك لا يترك التوحيد يصفو، والهوى لا يترك العبودية تصفو، وما لم يشتغل هذا السالك بإضعاف هذا العدو الذي بين جنبيه لا يصح له قدم ولو أتى بأعمالٍ تسدُّ الخافقين،

(١) هذا من الجمع بين الضدين فلعل قصده أن النفس كالدنيا حلوة المظهر بتسويلها إتيان المعاصي على وجه حسن مع ما يؤدي به ذلك العبد إلى المهالك والخسران.

والرجل كل الرجل من داوى الأمراض من خارج، وشرع في قلع أصولها من الباطن، حتى يصفو وقته، ويطيب ذكره، ويدوم أنسه.

وكان رحمه الله يقول: يجب على السالك إذا رأى من نفسه خلقاً سيئاً من كبرٍ أو شركٍ أو بخلٍ أو سوء ظنٍّ بأحدٍ أن يدخل نفسه في ضد ما دعت إليه، ثم يُقبل على ذكر الله، ويستنجد بحوله وقوته ومجاهداته، فتضعف أخلاق نفسه، ويكثر نور قلبه؛ فيُنزل الحق ذرةً من محبته في قلبه، فتترك الأشياء بلا مكابدة، وتقطع كل مألوفٍ بلا مجاهدة.

وكان رحمه الله يقول: الأصول التي يبني المريد عليها أمره أربعة: اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكره، وجبر القلب على مراقبته، ومخالفة النفس والهوى من أجله، وتصفية اللقمة لعبوديته، وهي القطب. وبها تزكو الجوارح ويصفو القلب، فيعطي النفس حظّها، وهي مطيته التي يسير عليها، فظلمها كظلم الغير بل هو أشد؛ لما ورد في خلود قاتل نفسه دون قاتل غيره.

قلت: وما في الآية محمولٌ على مُستحلّ قتلته وقول الشيباني رحمه الله: ولم يبق في الجحيم موحدٌ، ولو قتل النفس الحرام تعمداً، محمولٌ على ما إذا كان معترفاً بجرمه وارتابه هذه الكبيرة.

ثم قال: والإكسير الذي يقلب الأعيان ذهباً خالصاً هو الإكثار من الذكر مع الإخلاص.

وكان رحمه الله يقول: يجب على كل عبد أن يدخل نفسه في كل شيء يغمّها ويسوؤها؛ حتى ترجع مطية^(١) له؛ فإنها هي العقبة التي تعبد الله الخلق باقتحامها. وهي حجاب العبد عن مولاه، وما دام لها حركة لا يصفو الوقت، وما دام لها خاطرٌ لا يصفو الذكر، وبقاء النفس هو الذي صعب على العلماء الإخلاص في تعليمهم؛ فإن النفس إذا استولت على القلوب أسرتها وصارت الولاية لها؛ فإن تحركت تحرك القلب، وإن سكنت سكن القلب من

(١) ورد بالمخطوطة (ب): «حتى ترجع مطية».

أجلها. وحبُّ الدنيا والرئاسة لا يخرج قطّ من قلب العبد مع وجودها، فكيف يدّعي العاقل حالاً بينه وبين الله ﷻ مع استيلائها؟! أم كيف يصحُّ لعابِد أن يخلص في عبادته وهو غير عالم بآفاتِها؟! فإن الهوى زوجها، والشيطان خادمها، والشرك مركزُها في طبعها، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبولٌ في خلقتها، وسوء الظن وما يقبح من الكبير والدعوى وقلة الاحترام شيمتها، ومحبة الصيت والاشتهار رحباتها. ويكثر تعداد آفاتِها، وهي التي تحب أن تُعبد كما يُعبد مولاها، وتُعظَّم كما يُعظَّم مولاها، فكيف يقترب عبدٌ من مولاها مع بقائِها ومصالحتها؟! ومن أشفق عليها لا يفلح أبداً؛ فيجب على الصالح وكل ما تمقته النفوس يعانقه، وكلما تميل إليه يفارقه، ويقبل من الدّامين ذمهم، ويقول للمادحين: ما مدحتموه من وراء حجابٍ، ويقول لنفسه في كل نفسٍ: لا قَرَبَ الله مرادك، وأبعد الله مرامك، فنعوذ بالله من أرضٍ تنبت فيها نزاهة النفوس؛ فإن من لمح نزاهتها أو رأى لها قدراً أو عرف أن في الوجود أحسّ من نفسه فما عرف نفسه، فكيف ينزهها أو يغضب لها أو يؤذي مسلماً لأجلها؟! فيجب اجتنابها كالسمِّ. وما دامت في وجه القلب لا يصل إلى القلب خيراً؛ لأنها تُرسٌ^(١) في وجهه. وكلما قويت على القلب زاد شره ونقص خيره، وما بقي منها بقية؛ فالشيطان لا ينعزل عنها، والخواطر المذمومة لا تنقطع.

وكان ﷻ يقول: يجب على السالك ألا يشتغل بالكلية بمقاومة نفسه؛ فإن من اشتغل بمقاومتها أوقفته، كما أن من أهملها ركبته، بل يخذعها بأن يعطيها راحةً دون راحةٍ، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك، ومن قاومها وصار خصمها شغلته، ومن أخذها بالخداع ولم يتابع هواه تبعته.

وكان ﷻ يقول: إذا ألبست النفس على مريد حالها وأدعت الترك للدنيا وأن علمها وعملها وتعليمها خالصاً لله فيجب عليه أن يزنها بالميزان التي لا تخرم والميعار الذي لا يظلم، وهو أن يصور ذمها بعد مدحها، وردّها بعد قبولها، والإعراض عنها بعد الإقبال

(١) الترس: ما يتوقى به في الحرب، والمعنى أن النفس تمنع وصول الخير للقلب، وفي قوله وجه القلب استعارة تشخيصية.

عليها، وذُها بعد عزّها، وإهانتها بعد إكرامها، فإن وجد عندها التغير والانقباض فقد بقي عليه من نفسه بقية يجب عليه مجاهدتها، ولا يجوز له الاسترسال معها، وليعلم حين التغير أنه واقفٌ مع نفسه، عابِدٌ لها، معينٌ على حصول آفاتِها، وصاحبٌ هذا الحال بعيدٌ من الله ﷻ.

وكان ﷺ يقول: إن المريد متى ترك مجاهدة نفسه ولم يحزنها توثبت أخلاقها، وعجز عن الخروج عنها، وكان في كل يومٍ يبني على ذلك الأساس، ويشيده في كل لحظة حتى يموت بدائه وحسرتة؛ فإنه قلٌّ من شَيْدٍ لنفسه الجاه والصيت فأمكنه الخروج عنه، فيجب عليه أن يستغيث بربه ﷻ، وينكس رأسه، ويعتذر إليه، ويسكت عن كل دعوى.

وكان ﷺ يقول: كل من بقي له عدوٌّ ويخاف أن يشمت به فإنها هو لبقاء نفسه ولبقاء حب الدنيا في قلبه.

فتأمل عبارات هذا الإمام؛ فإنها تشفي الأوام^(١) [وتمسك من طيها الفائح المنعش المشفي للمريض]^(٢) فإنها تعرفك أن أشكاكها وخيمة، وجميع أشكالها عقيمة، وتنسف رياحها جبال دعواها التي تشبه عندها جبال شريش، وهي لبطلانها أخفٌ من الريش، وأوهى من بيت العنكبوت في التعريش، وأخفى رموز أهل الصنعة المعمولة للتدهيش. فادخل روض هذه النصائح الأريض، واذبح نفسك، وقرّعها بالتصريح والتعريض، فإن موافقتها أشدُّ على العارف بها من القرض بالمقاريض؛ إذ هو يروم رفعها إلى السماء، وهي تهبط به إلى الحضيض، يدها على طريقة التسليم والتفويض فتشير له بالميل إلى الاعتراض والانقباض، وتدعوه إلى إثبات النقيض، يريها الأقوال المصححة المرجحة فتأتيه بصيغ التمريض، يطلب أن يجتمع معها على الصفاء الفضيض، وهي تتلون بألوان وجه البغيض، فداؤها الداء العضال الطويل العريض؛ ووافؤها أشبه شيء بلمع الوميض؛ فانفض

(١) الأوام: العطش، وتشوّه الخليفة والمعنيان - لاسيما الثاني - جائزان.

(٢) سقط من (أ).

لمخالفتها، فما العيش إلا النهيض^(١)، وإن أعياك حيناً طُبُّها فتوسَّلْ بصاحب الجاه العريض؛
فإن مدده بكل إسعافٍ على توالي المدد يفيض.

قال سيدي محي الدين قدس الله سرّه ما تناشد المحبوب القريض في فتوحاته في الباب
المائة واثنى عشر في مخالفة النفس:

خالِفْ هَواكَ فَإِنَّهُ مَحْمُودٌ وَاَعْلَمْ فَإِنَّكَ وَحَدَّكَ الْمَقْصُودُ
الْكُلُّ يَسْعُدُ غَيْرُ مَنْ هُوَ مَبْتَلًى فَلْتَلَقِ سَمْعَكَ لِي وَأَنْتَ شَهِيدُ
أَنْتَ الْعَزِيزُ فَذُقْ وَبِالْ صِفَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالْأَنَامِ شُهُودُ

[اعلم أيدك الله]^(٢) مخالفة النفس هي الموت الأحمر، وهي حالٌ تساق عليها، وهي
المخالفة نفسها؛ فالمخالِفُ عين المخالَف، وهذا من أعجب الأمور: أعني وجود المشقة،
نعم لو كان المخالِفُ نفساً أخرى لم يكن التعجب من حصول المشقة [في ذلك]^(٣)، ونحن
بحمد الله حيث قلنا بمخالفتها ولم نقل تخالف بالمقابل، فقد يكون الخلاف لما ليس
بمقابل، فيجمع بين وجود الخلاف وبين المساعدة، وسيأتي في الباب الذي بعد هذا الباب،
وفائدة المخالفة عظيمة.

متى تخالف النفس؟

واعلم أنه لا تخالف النفس إلا في ثلاثة مواطن: في المباح، والمحذور، والمكروه، لا
غير. وأما إذا وقعت لها لذة في طاعةٍ مخصوصةٍ وعملٍ مقربٍ فهناك علةٌ خفيةٌ يخالفها
بطاعةٍ أخرى وعملٍ مقربٍ. فإذا استوى عندها جميع التصرفات في فنون الطاعات سلَّمنا
لها تلك اللذة بتلك الطاعة الخاصة، وإن وجدت المشقة في العمل المقرب الآخر الذي هو

(١) ورد بالمخطوطة (أ): «في العيش» والمثبت بالمتن أوقع إذ يجري على غرار أسلوب القصر ويقصر العيش على
النهيض هو صيغة مبالغة من الناهض.

(٢) سقط من الأصلين، وأثبتناه من الفتوحات المكية.

(٣) سقط من الأصلين، وأثبتناه من الفتوحات.

خلاف هذا العمل فالعدول إلى المشاق واجب؛ لأنها إذا اتتلفت المساعدة بمثل هذا أثرت عليه في المساعدة في المحظور والمكروه والمباح.

وإنما صعب على النفس المخالفة لكريم أصلها وعلو منصبها؛ فإن النيابة الإلهية في هذا العالم لها، فتقول في نفسها: بيدي أزيمة الأمر ومُلْكُه ولا سِيَّما وقد خلقتني الله على الصورة، فمخالفتي مخالفة الحق. من هذا المقام، تكون المخالفة لها موتًا أحرر، وحجبت هذه النفس عن الاتساع الإلهي وعمَّا خُلقت له وعن العلم بأن الصورة ليست لكلِّ نفسٍ، وإنما هي للنفس الكاملة كنفس الأنبياء ومن كُمِّل من الناس، فلو كُمِّلَت النفس ما كانت المخالفة لها موتًا أحرر؛ فإن لذة العرفان تعطِيها الحياة التي لا موت فيها، فالوجود والفتح مقرونان بمخالفتها في كل شيء ينبغي أن تخالف فيه؛ فافهم، والله أعلم.

وقال ﷺ في الباب الذي يليه المعقود لمعرفة مساعدة النفس في أغراضها: فلا ينبغي للعاقل أن يساعد النفس فيما تتعلق به من الأمور التي تأمره بها مما وقع لها فيها غرضٌ: إما عرضيٌّ أو ذاتيٌّ إلا المؤمن والعارف. فالمؤمن يساعدها في الغرض الذاتي، وهو كل ما تأمره به من المباح خاصَّةً ومن ملذوذات الطاعة، وأما العارف الذي الحق سمعه وبصره وقواه فيساعدها في جميع أغراضها؛ فإنه نورٌ كله، والنور ما لا ظلمة فيه، ولذلك كان ﷺ يقول في دعائه: «واجعلني نورًا»؛ لأن النفس ما ينسب إليها ذمٌّ إلا بعد تصريف آلتها في المذموم، وهو الظلمة؛ فيقال: قد اغتاب الغيبة المحرمة عليه، وقد كَذَّب الكذب المحرم عليه، وقد نظر النظر المحرم عليه، وما لم يظهر الفعل على الآلات لم يتعلق بها ذمٌّ. والعارف قد وقع الإخبار الإلهي عنه بأن الحق جميع قواه، فذَكَرَ الآلات. فلذا أبحنا للعارف مساعدة النفس؛ لما هو عليه من العصمة في ظاهره الذي هو الحفظ.

وقال ﷺ في روح القدس: قالت لي النفس: ارفق ولا تعجل عليّ؛ فقد ظهر لي في مسألة أويس هذا أمرٌ خَرَجَ الحلاجُ فيه فوقه، وذلك أن الحلاج ﷺ قال: يخبر عن حالته إذا

(١) رواه مسلم (٥٢٨/١)، وأحمد في المسند (٢٨٤/١)، وأبو عوانة في مسنده (٣١٤/٢).

قعد الرجل عشرين يوماً دون غذاء، ثم جاءه طعام، فعرف أن في البلد من هو أحوج منه لذلك الطعام، فأكله، ولم يُؤثّر المحتاج فيه، فقد سقط، وهذا مقام عالٍ كما رأيته، وهذا أويس عليه السلام ما كان يتصدق إلا بفضل طعامه وثيابه، فيأخذ حاجته أولاً، ثم يعطي ما يفضل عليه كل ليلة من قوته، وهو يعلم أن ثَمَّ جائعاً ولم يعطه، وهذا كما رأيته قال: قلت لها: يا نفس ما أنت إلا اعترضت اعتراض من لا يعرف الحقائق، ولكنك جهلت المقام؛ فاسمعي الجواب، واعلمي أن أويساً هو الإمام المقدم الذي لا يُلحق، لتعلمي أيتها النفس أن العارف إذا كان صاحب حالٍ مثل الحلاج فرّق بين نفسه وبين غيره؛ فعامل نفسه بالشدة والقهر والعذاب، وعامل نفس غيره بالإيثار والرحمة والشفقة، وإذا كان العارف صاحب تمكين وقوة صارت نفسه عنه أجنبية، ويرتفع هو علوياً، وبقيت مع أبناء جنسها سفلية؛ فلزمه العطف عليها، كما لزمه العطف على غيرها.

فإن صاحب الصدقة العارف إذا خرج بصدقته ولقي أول مسكين يدفع إليه الصدقة، فإن تركه ومضى إلى مسكين آخر ولم يدفع له فقد انتقل من رضائه إلى هوى نفسه وخرج من ديوانهم؛ فإنه مثل الرسالة لا ينحصر بها شخصاً^(١) أول من يلقاه يقول له: قل: لا إله إلا الله، ولا شك أن هذا العارف إذا وهبه الباري رزقاً يعرف أنه مرسولٌ به إلى عالم النفوس؛ ليؤدي إليهم ذلك القدر؛ فأول نفسٍ يلقاه نفسه لا نفس غيره، وسبب ذلك أن نفوس الغير غير ملازمة له ولا متعلقة به؛ لأنها لا تعرفه، ونفسه متعلقة به، ملازمة لبابه، فلا يفتحه إلا عليها، فتطلب أماناتها منه، فيقدمها على غيرها؛ لأنها أول سائلٍ، وإلى هذا السرّ أشار الشارع عليه الصلاة والسلام بقوله: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»^(٢)، والأقربون أولى بالمعروف؛ لتعلقهم بك ولزومهم بابك. والغير لا يتعلق ولا يلزمك ملازمة نفسك وأهلك. فلما تأخروا أخرّوا كما هي الأسرار سواء، يخرج فيه الحق على باب الرحمة، فأبي

(١) كذا بالأصل.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢٤٦/١)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (٢١٠/١)، والمناوي في فيض القدير (٦٦/١)، والمباركفوري في تحفة الأحوذى (٣٦٥/٦).

قلبٍ وجده متعرّضاً سائلاً عند الباب دفع إليه حظه من الأسرار والحكم وحظه منها على قدر ما يرى فيه من التعطش والجوع والذلة والافتقار، وهم خاصّة الله، وإلى هذا المقام وعليه حرّضت الشريعة: «تعرضوا لنفحات الله»^(١)، ومن تأخّر أُخّر، ومن نسي نسي؛ فانظري كم بين المنزلتين: منزلة الحلاج، ومنزلة أويس، وانظري هذا المقام على علوه وسموه كيف اشترك في الظاهر صاحبه مع أحوال العامة؟! فإن العامة أول ما تجود على نفسها، وحينئذ يتعدى جودها إلى غيرها، وإنما يتصرفون تحت حكم هذه الحقيقة وهم لا يشعرون، ولما أعمّوا عن هذا السر وصاروا مثل البهائم لا يعرفون مواقع أسرار العالم مع الله تعالى حرّضوا على الإيثار، ومدحوا به، وهو مقام الحلاج الذي ذكرت عنه ورأيت أنه غاية، وهكذا فلتغزل الحقائق، وتحاك حلل الرقائق.

قالت النفس: هذا شيءٌ والله ما قرع سمعي من غيرك، وإنّ هذا هو الحق المين، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^(٢).

لقد شرحت صدرًا وعمرت بالمعارف قدرًا، ثم انساب نثر درر اللآلئ في العقود الغوالي نثرًا بفقرات تزدى إسكارًا بآنية الدوالي^(٣)، ويود النظم أن يكون نثرًا، ويتمنى سامعها أن لو عاد عقابًا كي ما يُتلى عليه، ونسرًا ليكشف له عنها سرًا فسرًا وسترًا فسترًا، فكم كشف في هذا الكتاب وغيره أسراراً تترى وبثّ علوم أنوار وأطوار بها السقيم يبرأ! فيالله العجب من منكر يرى حلاوة هذا الكلام^(٤)، ويصيره صبراً، ويروم أن يطاول ويحاول ردًّا! فهل سمعتم جز جز فتر يطاول شبرًا!

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢٩٦٦) بلفظ «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها، لعل أحدكم أن تصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً»، ورواه في الكبير بنحوه (٧١٩)، وكذا البيهقي (١١٣١).

(٢) هنا ينتهي كلام الشيخ الأكبر المقتبس من رسالة روح القدس.

(٣) أي اشد إسكاراً من الدوالي - جمع دلو - الممتلئة بالخمور.

(٤) جاء بالمخطوطة (أ): «فيالله العجب من منكر يرى حلاوة كلامه، ويسبره سبراً، يروم أن يطاول أو يحاول ردًا، فهل سمعتم «جز جز فتر» يطاول شبراً، وما أحق قول المنصف إن كان لكلامه صوله...» وأنت ترى أن هذا القول أكثر اتفاقاً مع المعنى. وقوله «جز جز فتر» كناية عن الشيء متناهي الصغر.

وما أحق قول المنصف: إن لكلامه صولة لا يستطيع أحد لها نكراً، فما أجراً من أجرى تنقيصه على لسانه، وما أخرى أن يعاقب دنيا وأخرى، ولا نعننى من أنكر من السادة الأعيان؛ فإن لهم نيةً صالحةً تكسبهم أجراً، ولأنهم حماة الدين ورعاة الحكم الظاهر المتين المبين، وبذا نالوا فخراً ومُنحوا فضلاً، وإنما نعننى خفافيش أبصار دون إبصار، ولم يشهدوا شمساً، ولم يعاينوا بدرًا، ولا شموا للعلوم رائحةً، ولا عرفوا خبرًا ولا فجرًا من كل متعسفٍ غير منصفٍ متصفٍ بسمه أهل الغرة لا العزة، ضيع عمراً فعاد غمرًا، ومن كان بهذه المثابة فلا أقل من أن يقيم لقدر ما أشكل عليه من المسائل عذرًا، وإلا فالتسليم أجدر، وقول لا أدري أو صاحب البيت أدري، وقد ذكرنا في السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد من ينه المنكر ويوسعه زجرًا.

رسالة اختصرها المصنف لأبي المعالي الهمداني في تشبيه جسم المؤمن بالمدينة الحصينة

واعلم أن العالم الداني أبو المعالي الهمداني جعله الله غريق المدد الرباني قد شبه الهيكل الجسماني من العبد المؤمن النوراني بمدينة حصينة، ووضع في هذا المعنى رسالة مبيّنة، فأحبينا إيرادها بعبارة أخرى يمكن اختصارها والاقتصار على بعض ما وجدوه نظماً ونثراً؛ فلعلها تُمسي مغتسلاً باردًا لمن ظل واردًا، أو عين حياة، فيصبح واردها خضرًا^(١)، ويمكنه ردّ كل شارد ضبطاً وحصرًا، وإن أضيف إليها بعض زوائد؛ فاستوجب بها من الواقف شكرًا.

فنقول: مثل العبد المؤمن النقي التقي كمثل مدينة ذات أبراج منيعة وأسوار حصينة، وروحه وجوارحه سورها المحيط، وسرّه وسرّ سرّه بحورها التي لا يسمع لها غطيظ والإيمان الملك المعظم، وسريره التوحيد، وتجريده من تفريد التفريد، وله وزير وهو العقل، وصاحب تدبير وهو علم الكشف والنقل، وصاحب سرّ وهو الذكر، ونديم وهو

(١) إشارة إلى بعض الروايات التي تذهب إلى أن سيدنا الخضر عليه السلام قد شرب من عين الحياة فمد الله تعالى أجله حتى نهاية العالم.

الزهد، وسفيرٌ وهو الفكر، وسراجٌ وهو الحلم، وسلمٌ ومعراجٌ وهما الأمن والسَّلم، وبوابٌ وهو المراقبة، ونوابٌ وهم نعوت المسامرة والمسايرة والمحاسبة، وصاحب سيفٍ وهو الحق، ومناذٍ وهو الإقرار الذي لأهل الغفلة بأهل اليقظة ألحق، وله جنودٌ وأعوانٌ وأمصارٌ وإخوانٌ غير خوانٍ يعينونه ويغيثونه؛ إذ العدو عليه طفق، فإن اليد الواحدة لا تصفّق، والسلطان بجنوده لا بألويته وبنوده. فبينما الملك آمنٌ في سربه متلذذٌ في شربه إذ أقبل عليه بعض العيون والرصد، وقال: أيها الملك، إن الشيطان الرجيم مقبلاً إليك قد قصد، فكن منه على حذرٍ، فإنه إن قدر غدر وما عذر، فلما تحقق ذلك وهاله ما هنالك التجأ إلى المالك، وسأله الخلاص من ضيق هذه المهالك وسلوك أحسن المسالك بكل مقتفٍ سالِكٍ، وخضع، وخشع، وظهرت عليه الذلة والإنابة، فعرف قبول الدعاء، وكرف عرف الإجابة^(١)، فقال له الوزير: أيها الملك الحظير والإمام الكبير الذي من سقط عليه فقط سقط على الخير الرأي، إن تأمر بحفر خندق الزهد حول مدينتك الساعة فإنه يصدُّ عدوك، ويرد كيده، ويقطع أطماعه، فندب عسكره، فشرعوا في العمل بلا مهلةٍ خوفاً من اقتحام العدو على غفلةٍ، واستعملوا على حفره معاول القلق، وأجروا فيه دموع الأرق، وأنشد لسان الحال بلطيف المقال:

ولما أحاطتُ بي جنودٌ وساسي حفرتُ بزهدي حول قلبي خندقاً
حفرناه في أرضِ التودُّدِ والصفاء وأرسلتُ دمعَ العينِ فيه تدفقاً
وأصفيتُ سرِّي واعتصمتُ بخالقي فأصبحتُ من أسِرِ المهالكِ مطلقاً

ثم علا الغبار وغلى حرُّ النقع وثار، وأقبل العدو بعدد ما بين فارسٍ وراجلٍ من كل صنديدٍ في البراز^(٢) معاجلاً، وباهتزاز مساجلٍ، ونزل الهوى عن أيمن المدينة، وضربت

(١) ثم نادى منادى سدته، عند بدء مبادئ شدته، في أهل مملكته وخواص مرتبته، وشاورهم في هذا الأمر، ممثلاً في ذلك واجب الأمر، والقلب منه متقلب على الحجر، حيث هنا لا نافع ولا دافع إلا الله تعالى، لا زيد ولا عمرو، فقال له الوزير... وهو مما يؤكد المعنى ويعززه.

(٢) بكسر الباء: المبارزة.

خيامه، ونشرت أعلامه، ومعه من الجنود عشرة، وهم: الحسد، والتجبر، والعُجب، والتكبر، والغُلّ، والمكر، والوسوسة، والمخالفة في الأمر، وسوء الظن، والجدال، فهذه عشرة خصالٍ ينبغي اجتنابها، بل يجب على طالب الوصال التحلي بأضدادها، وهي الجنود المصاحبة للعقل في القتال، فإن من لم يتخل لم يتحل ولو ضُرِبَتْ نفسه بحدّ النَّصال، وهكذا بقية الصفات الكائنة عند أهل الانفصال والاتصال.

ونزلت النفس عن يسارها ومعها من الجنود عشرة مؤذنة بإعسارها دون يسارها، وهم: الحرص، والشهوة، والشحّ، والرغبة، والزيغ، والقسوة، وسوء الخلق، والأمل، والطمع، والكسل. وهؤلاء الأصول والفروع لا تتناهى، فجد في قطعها ولا تتواني، فتبلغ منك مشتتها. ونزلت الدنيا عن أمامها؛ لتقتدي بها سكانها وترعاها كإمامها، وكانت جنودها عشرة، وهم: الرياء، والفواحش، والبطر، واللهو، واللعب، والزور، والبهتان، والغش، والبغض، والتخليط في حفظ الشريعة. ونزل إبليس لعنه الله وأخزاه وراء المدينة؛ ليسوق من اتبعه من أهلها إلى المهايوي اللعينة، وكانت جنوده عشرة، في طلب إضلال أهل المدينة منتشرة، وهم: الظلم، والخيانة، والكفر، وترك حفظ الأمانة، والنميمة، والنفاق، والخديعة، والشك في الواحد الخلاق، والمخالفة لما أمر به ذو الجلال والإكرام، والتغافل عن سنّة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام. فهؤلاء الأربعة المقابلين للخيرة البررة، وكذلك جنودهم هم الكفرة الفجرة، فلما أبصر الملك ما حلّ به نادى الفؤاد: أن انتبه، وأنشد بعدما تحير والجُدّ على الراحة تخير:

إني بليت بأربع ما سلطوا	إلا لطلول شقاوتي وعنائِي
إبليسُ والدُّنيا ونفسي والهوى	كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي
إبليسُ يسلكُ في طريقي مهالكِي	والنفسُ تأمرني بكلِّ بلائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري	في ظلمة الشبهات والآراءِ
وزخارفُ الدُّنيا تقولُ أما ترى	حسني وفخر ملابسي وبهائي
وجنودهم حاطوا بسورِ مدينتي	ما عدَّتْ في شدَّتِي ورخائي؟

فقال له الوزير مخاطبًا ومشجعًا لما رآه قد خاف على مدينته وجَزَعًا:

لا تَجْزَعَنَّ ولا تَحْزَفَنَّ ودعِ التَّفَكُّرَ والأسَفَ
الله عودك^(١) الجميل فقسْ على ذا ما سلفَ

ثم إن الملك طلب الإغاثة من مولاه والإعانة، فثَبَّتْ أقدامه، وعَمَّرَ بها غمر من بَره جنانه، وقَوَّى ظهره وأركانَه، وعلا شأنه، وأذهب عنه ما شأنه، فقال للوزير: كن أنت في مقابلة الهوى، وقابل كل واحدٍ من جنوده بواحدٍ من جنودك على السَّوَا، واسأل الله أن يقوِّي منك القوى، ويخصَّك بما فيه نجاتك من غلبة الاهوا فإن للهوى شوكة قوية وسلطنة غويَّة، فعسى أن تقهره، وتعرِّف، الداء والدواء. وضم إليه من جنوده عشرة، وجعلها تحت حكمه منحشرة، وهم: الإخلاص، والخشوع، واليقين، والخضوع، والمعرفة، والهداية، والورع، والتقى، والتسليم، والرضا.

ثم سلم الجانب الثاني للعلم وأمره أن يجنح للحرب حتى يجنحوا للسلام، فإذا أسلم من هو مقابلك ومقاتلك واستسلم فقيده بالسلاسل المصفحة بعدما تَفَقَّدَ ما معه من الأسلحة، وقل: الحمد لله الذي نَجَّانا من القوم الظالمين، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ لأكون من العاملين العاملين. وضمَّ له من الجنود عشرة، لهم خبرة في سفك دم هذه الأعداء مشتهرة، وهم: اليقظة، والحكمة، وغَضُّ الطرف، والقناعة، والشكر، والإجابة، والتعفف، والصبر، والنصيحة، واجتناب كل قبيح.

ثم سلَّم الجانب الثالث للذكر، وأمره بالنظر في أمره واستعمال الفكر، وقال له: احذر أن يُلقى عليك ما هو مضارِعك ومضارِعك بابًا من أبواب الغفلة عن الشكر، فتعرض للمهلكات المتلفات، وربما جرك لوادي السكر؛ فإن محاربَكَ لعينٌ ومجاريك شينٌ مُشينٌ؛ فاستعن عليه بالله المُعين، وأجرِ ماء العينِ المُعين، وابسط أكفَّ الطلب، وقل بلسان الرهبِ والرغب:

(١) (ب): عودني.

إني مددتُ يدي إليك فَرَدَّهَا بالفوز لا بشهامة الأعداء

ثم ضم إليه من الجنود عشرة كلهم أصحاب نجدةٍ بررةً، وهم: الحياء، والمحبة، والإيثار، وحسن الإنابة، والتوكل، وترك الجفاء، والتواضع، والوفاء، والذل، والجود.

ثم سلَّم الجانب الرابع للرابع في أرفع المراتع والمرايع، وهو نديمه الزهد، وقال له: وابذل الجهد وحضّ أتباعك على القتال، وخصّ كل واحدٍ بالوصية والإقبال؛ ليشدد منهم العزم، ويحتدّ سيفُ الجزم والحزم، وضُمَّ له من الجنود ما ضُمَّ لمن تقدّم.

وأوصاه أن يكون أول من يتقدم، وأن يتجلّد للشامتين في الجلال، وأن يشدّد على الساعين في الأرض الفساد، المضّرين بالعباد والبلاد، المصيرين على الفتنة ولو كانوا الأهل والأولاد، وأمره بالالتجاء لحرم الذلة والخضوع، وأن يسكب على ما فرط هطال الدموع، وأن يقول إذ يصول:

يا ربَّ هَيِّئْ لنا من أمرنا رشداً واجعلْ معونتك الحسنى لنا مدداً

ولا تكلِّنا إلى تدبيرِ أنفسِنا فالتَّفَسُّ تعجزُ عن إصلاحِ ما فسدنا

وجنوده المضمومة إليه المعوّلة في أمره عليه: طلب الحلال، والافتقار إلى الله ذي الجلال، واجتناب الحرام، وترك الزينة، والندم، والاستغفار، والتهجّد في الأسحار، والبيكاء من خشية الله الواحد القهار، وترك المعاصي، وحبُّ الفقراء.

ثم إن الملك وقف عند الباب بوصف الاكتتاب بعدما لبس لأمة حربه، وصار يحول ما بين حربه، وهو يحوط المدينة فيما يتلوّه من حربه، ويتنفس الصعداء؛ لتوالي همومه وكربه. «واقم وأدرع»^(١) وابتهل وتضرّع، ولما نصب العدو منجنيقات البغيّ والطغيان نصب هو منجنيقات الوقوف مع الحدود والإحسان، وصار الحرب يُعمل، والدم يهْمَلُ إلى أن هجم عسكر الليل فطرد جنود النهار، فهربوا يعثرون بالذيل، وزاد على الأعداء النكال والويل، حيث عاينوا شدة قتال تضعف منهم الحيل. وعندما فصل بينهم الظلام

(١) بالأصلين: أقم وأدرع، والمعنى لبس عمامته ودرعه.

فزع القوم من غدر العدو؛ فأشعلوا مشاعل الحرقه والغرام، وقدموا عليهم فائدة التوبة وحارس الأوبة، وجعلوا حراساً بالتوبة. فقام أهل الحوبة يطلبون المثوبة، وإذا شاهد أحدهم نقصه وعيوبه يبكي، فينكي عدوه، وربما يمزق ثوبه، وما زالوا يتدارسون في محاريبهم ويصيحون حتى يظن من يراهم أنهم يموتون وجداً.

فلا يصبحون إلى أن قارب الصباح، ونادى مناد: حيّ على الفلاح، واستبان صباح الهدى، وبان افتضاح العدى، فقال الملك لرعيته: إذا فتح الباب فلا يردكم رادُّ عن أن تدخلوا عليهم القباب، فإذا دخلتموها فإنكم غالبون، وأنت الأعلون الطالبون. وبالصدق في العزيمة مطالبون، ثم صاح: يا خيل الله اركبي. فما كان إلا ساعة حتى هجمت على الأعداء سوابق الخيل، فدهشوا؛ حتى قال كبيرهم: يا قوم هذا أمرٌ بُيت لبيل. وألقى الله في قلوب أعدائه الخوف والفرع، وظهر عليهم الأسف حين عاينوا التلف والجزع؛ ولولوا هارين، وهم في إثرهم، فمنهم من قتلوه ومنهم من جرحوه، ومنهم الداخل تحت أسرهم. ثم إن النفس التجأت إلى حصن الفتنة، فحاصروها حتى أذعنت وانقادت ودخلت تحت الطاعة والحكم بعدما عن الجادة حادت، وما لم يجاهد فيها صاحبها بمثل هذه المجاهدة وأكثر، ويذيقها مرارة المكابدة مما هو أعظم وأكبر، حسبته في الأموات، وكبرت عليه أربع تكبيرات، ويقول لها بعلها الهوى الذي اصطفته وقدمته على الروح فأذاقها النوى^(١)، قد خلى لك الجوى واستقام النوى، وقد غدا حرف الروح لو، وحرفك في الأمر والنهي أو^(٢).

ولنذكر لك الباب الثالث من التدبيرات الإلهية؛ فإن فيه من الفوائد ما يعرفك بأصل الرسالة المحكية، فانظره نظرة مستفيد يقطر؛ فإن السعيد من بغيره وعظ. وكن إذا نبهت

(١) أي الفراق والويل.

(٢) قوله «صار حرف الروح لو» أي صارت الروح يتحسر عليها بقول «لو» لغلبة النفس الأماره عليها. وقوله «وصار حرفك في الأمر والنهي»: أو، والمعنى أن النفس صارت لها الغلبة على الروح فهي تأمر أو تنهى كما تشاء. والله الحمد والفضل والمنة، محمد نصار.

شاكراً ذاكراً لله، إبراهيمي الإرث عارفاً أن إبراهيماً حليماً أوّاه. وحرر ميزان الدسائس النفسية، وبمعيار الشرع زنها، وضيق على النفس ما وسعته لها آمالها وابنها للروح ثم ابنها^(١)؛ فقد ثبت جهلها؛ لانتفاء وصف العلم بالمقصود منها، وتوعد سهلها لما فاتها نيل معرفة المقصود وتباعد عنها، وإذا نصحت من يصحب ذاتك ليجني لذاتك فاعتبر إذا عبرت. ولا تنس نفسك فتكون غيرت إذا عبرت؛ فإن النفس تغيب عن قبورها فتعيب، وتشح بذكر مساوئها لشهودها فقد مساوئها، فتسح بالتنقيب، وإذا جلت معها في ميدان اللهو خلت أن ثوراً يغيض أو يزيد، وتسمح بإتلاف عمرها بالضياع، وتتكرم به تكرم أكرم آل برمك جعفر وخالد ويزيد^(٢)، وهذه وإن كانت جملة معترضة فقد يكون استعمالها على ما هو مثلي مخلطاً فريضة مفترضة.

في إقامة الجسم وتفصيله من جهة كونه مسلماً للروح

قال ﷺ في الباب الثالث في إقامة الجسم وتفصيله من جهة كونه ملكاً لهذا الخليفة الذي هو الروح: اعلم أن الله لما أوجد هذا الخليفة الذي ذكرناه آنفاً بنى له سبحانه مدينة؛ ليسكنها رعيته وأرباب دولته تسمى «حضرة الجسم أو البدن»، وعين للخليفة منها موضعاً يستقر فيه على قول من قال أنه متحيز، ويحل فيه على قول من قال أنه قائم بمتحيز. وإما أن يكون ذلك الموضع المعين له موضع أمره وخطابه ونفوذ أحكامه وقضاياه على قول من يثبته غير متحيز ولا قائم بمتحيز، فأقام له سبحانه مدينة الجسم على أربعة أعمدة، وسمى سبحانه الموضع المعين للخليفة منه القلب، وجعله مسكن للخليفة أو موضع أمره، على ما ذكرنا من الخلاف، وقال قوم: إن موضعه الدماغ، والأظهر عندي من

(١) بينهما جناس تام الأول بمعنى شيد والثاني بمعنى باعد أي شيد النفس لتكون في خدمة الروح وباعد بينها وبين الغائب.

(٢) هم البراءة مكة الذين خدموا في كنف دولة بني العباس وكان جعفر وخالد مضرب المثل في الجود، وهكذا النفس تجود بعمرها في مهالكها، ويصف المصنف رحمه الله نفسه بأنه مخلط ومن ثم يفترض على نفسه تذكيرها بمواطن الهلكة. فنسأل الله تعالى العفو لنا وله.

طريق السنة والقرآن لا من جهة البرهان أنه القلب شرعاً؛ لقوله ﷺ مخبراً عن ربّه: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن»^(١)، وقال: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى صوركم ولا أعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم»^(٢)، وذلك أن المستخلف إنما ينظر أبدأً في خليفته ما يفعله فيما قلد، والله سبحانه وتعالى قد استخلف الأرواح على الأجسام، ومما يؤكد ويؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى آلُ قُلُوبٍ آتَتْ فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، وليست الإشارة للقلوب النباتية؛ فإن الأنعام يشاركونا في ذلك، لكن للسر المودع فيه وهو الخليفة والقلب النباتي مقره، وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٣)، فإن القلب لا فائدة له إلا من حيث هو مكانٌ لهذا السرِّ المطلوب، المتوجه إليه الخطاب، والمجيب إذا ورد عليه السؤال، والباقي إذا فني الجسم والقلب النباتي، فنقول كذلك: إذا صلح الإمام صلحت رعيته، وإذا فسد فسدت؛ بهذا جرت العادة وارتبطت الحكمة الإلهية، فسُرُّ صلاحه وفساده مرتبطٌ بصلاح الرعية وفسادها، قيل:

إذا رأيتَ أميرًا والظلم يصدر عنه
فاعلم بأنَّ الرعيّة لا شكَّ أظلم منه

وسبب ذلك أن الله تعالى إذا ولى خليفته قومًا فإنه يعطيهم أسرارهم وعقولهم، فيكون إذ ذاك مجموع رعيته، فمتى خانهم في أسرارهم وعقولهم ظهر ذلك فيهم. وإن اتقى الله في ذلك ظهر ذلك عليهم، وقد تكون أسرار رعيته حين إعطاه رذلة ناقصة، وهذه الإشارة

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٤٩٦)، والقاري في المصنوع (١/ ١٦٤).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٧)، والحكيم الترمذي في النوادر (٤/ ٩٥)، وأحمد (٢/ ٢٨٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٨)، وابن حبان في الصحيح (٢/ ١١٩)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٣٥)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٥٤٠)، وهناد في الزهد (٢/ ٤١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٢٤)، والديلمي في الفردوس (١/ ١٦٦).

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩)، والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٥٠)، والديلمي في الفردوس (١/ ٢١٨).

قال: مثلما تكونوا يوليَّ عليكم؛ فإن غلب عليها صلاح الإمام صلَّحت وظهر آثار ذلك في الرعية وأرباب الدولة بمشيئة غيبية إلهية، يجدها الإنسان في نفسه بعد أن لم تكن، ولا يدري من أين وردت عليه، ولا كيف حصلت له. فهذا سرُّ قوله ﷺ: «إذا صلَّحت صلح سائر الجسد» الحديث.

ثم بنى له سبحانه منزهاً عجيلاً مشرفاً في أرفع مكانٍ في هذه المدينة، سمَّاه «الدماغ»، وفتح له فيه طاقاتٍ وخوخاتٍ يشرف منها على ملكه، وهم: الأذنان، والعينان، والأنف، والضم، ثم بنى له في مقدم ذلك المنتزه خزانةً سماها «خزانة الخيال»، وجعلها مستقر خباياه، وموضع رفع ولادة الحسِّ، فيها تخزن خباياها: المبصرات، والمسموعات، والمشمومات، والمطعومات، والملموسات، وما يتعلق بها. ومن تلك الخزانة تكون المرائي والأحلام التي يراها النائم، وكما أن في الخبايا حلالاً وحراماً كذلك في المرائي مبشرات وأصغاث أحلام. وهي في وسط هذا المنتزه خزانة الفكر الذي ترتفع إليه المتخيلات، فيقبل منها الصحيح، ويرد الفاسد. وبنى له في هذا المنتزه خزانة الحفظ وجعلها مسكن الوزير الذي هو العقل، وله بابٌ في داخل الكتاب لخصته، فأضربنا هنا عن ذكره. ثم أوجد له النفس، وهي محل التغير والتطهير ومقر الأمر والنهي. وهي الليلة المباركة التي فيها يفرق كل أمرٍ حكيم وحظها من العالم العلوي الكرسي، كما أن الروح محلها العرش من ذلك العالم، والنفس هي كريمة هذا الخليفة وحرته.

وقد أشار إلى ذلك الإمام أبو حامد الغزالي في قوله: إن الروح نكح النفس فتولد ما بينهما الجسد.

ونفس وما سواها

وقال مشيراً إلى ذلك في خطبة الكتاب: الحكمة له ربُّنا وربُّ آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات، لكن المتصوفة اصطَلَحوا على كل فعلٍ فيه حظٌ لكونٍ من الأكوان أنه نفسٌ بمعنى أنه عن أمرٍ نفسٍ، سواء كان الفعل محموداً أو مذموماً، وكل ما ليس فيه حظٌ لغير الله فهو روح. وإن الإنسان له ثلاث أنفسٍ: نفسٌ نباتيةٌ، وبها يشترك مع الجمادات، ونفسٌ

حيوانيةً، وبها يشترك مع البهائم، ونفسٌ ناطقةٌ، وبها ينفصل عن هذين الموجودين. ويصحُّ له اسم الإنسانية، وبها يتميز في الملكوت، وهي الكريمة التي ذكرناها تحت هذا الخليفة.

ثم إن الله تعالى من إتمام النعمة على الإنسان وإكمال النسخة على الاستيفاء أوجد في هذه المملكة أميرًا قويًا مطاعًا كثير الرجل والخول يعني العدد والعدد منازعًا لهذا الخليفة سماه الهوى، وله وزيرٌ سماه «شهوة». فبرز يومًا في أجناده وخيوله يتنزه في بعض بساطينه، فأشرفت النفس التي هي حرة الخليفة عليه، فترأى ونظر كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، فعشقها الهوى، فأعمل الخيلة في الاجتماع بها، فما زال يستنزلها ويسقطها ويبسط لها حضرته، ويهاديها بأحسن ما عنده، ولم تزل رسل الأماني وسفر الغرور تمشي بينهما حتى مالت إليه، وانقادت له، وملكها بالإحسان، والخليفة غافلٌ عن هذا، والعقل الذي هو وزيره قد شعر بذلك، وهو يلبس الأمر ويخفيه، عسى أن لا يشعر بذلك الخليفة، وترجع عمًا هي عليه، فصارت النفس بين أمرين قويين مطاعين، هذا يفاديها، وهذا يناديها، والكل بإذن الله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٨)، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُولًا وَهَتُولًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ (الإسراء: ٢٠)، ﴿فَأَهْلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨)، في إثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: ٧)، ولهذا جعلناها محل التغير

والتطهير. فإذا أجابت الهوى كان التغير وجعل لها اسم «الأماراة بالسوء»، وإن أجابت العقل كان التطهير وصحَّ لها اسم «المطمئنة» شرعًا لا توحيدًا؛ إذ وقوع هذا الأمر بحكمةٍ لطيفةٍ عجيبةٍ، وهو أن الله تعالى لما أوجد هذا الخليفة على ما وصفناه من الكمال إلا وأراد أن يعرفه سبحانه أنه فقيرٌ، لا حول ولا قوة له إلا بسيده الرب تعالى، فلهذا أوجد له منازعًا ينازعه فيما قلده. فلما رأى الروح ينادي والنفس لا تحيب وقد قيل له هو ملك قال لوزيره: ما السبب المانع لها من إجابتي؟ فقال له العقل: أيها السيد الكريم إن في مقابلتك موجودًا قام مقامك أميرًا قويًا، مطاعًا، صعب المرتقى، عزيز المنال، يقال له: الهوى، عطيته معجلةٌ مشهودةٌ. فأرسل إليه وزيره، فبسط لها حضرته، وحصلت تحت قهره، وأتبعها أجناده وبادية رعيته، وما بقي لك في مملكتك إلا أبواب دولتك المتحققون بحقائقك

والمختصون بك، وها هو قد ترك بقاء قصره؛ ليخرجه، ويخرجك عن ملكك، ويستوي على عرشك؛ فدارك دارك قبل نزول الهلاك، فرجع الروح بالشكوى إلى الله القدير سبحانه، وثبت له في نفسه عبوديته بالافتقار والعجز والذلة، وتحقيق التمييز، وعرف قدره، وذلك كان المراد؛ فإن الإنسان لو نشأ في الخير والنعم طول عمره لم يعرف قدر ما هو عليه حتى يُبتلى، فإذا مسه الضر عرف النعم. فلما رجع الروح بالشكوى إلى ربّه صار سبحانه واسطةً بينه وبينها، فقال لها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ۖ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)، فلما آتاها النداء برفع الوسائط حنّت، وأتت، واشتاق، وأجابت، وأنابت بالعناية الإلهية، سؤال فإن قيل: لم سمّاها مطمئنة وقال لها راضية مرضية وهي الآن أماراة بالسوء؟!

قلنا: إنما سمّاها مطمئنة لتحقيق إيمانها أن منادي المعنى لم يكن منادياً بنفسه، وإنما كان منادياً بموجده، حيث عَلِمَتْ معنى قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾ (النساء: ٧٨)، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۖ﴾ (الإسراء: ٢٠)، فاطمأنت للنداء؛ لتحقيقها بالابتداء، وقد يقدم السبب والعلّة. وقوله ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ يريد بالتدابير مرضية عندنا؛ لتحقيق إيمانها وتوحيدها، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني عباد الاختصاص من أهل الحضرة الإلهية، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ يريد المكارة التي تعم الخليقة؛ إذ الشهوات جنّة الكافر، وهي نارٌ في الحقيقة، ظاهرها وباطنها جحيمٌ. وقد نبّه على ذلك النبي ﷺ حيث قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(١)، ويظهر أنه ﷺ يفيد خروج الدجّال؛ فذكر النبي ﷺ: «أَنَّ لَهُ وَادَيْنِ مِنْ نَّارٍ وَمَاءٍ، فَمَنْ قَصَدَ النَّارَ وَجَدَ الْمَاءَ، وَمَنْ قَصَدَ الْمَاءَ وَجَدَ النَّارَ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٣٧٩/٥)، ومسلم (٢١٧٤/٤)، والترمذي (٦٩٣/٤)، وأحمد (٣٨٠/٢)، وابن حبان (٤٩٤/٢)، والبيهقي في الشعب (١٤٧/٧)، والديلمي في الفردوس (١٤٣/٢)، والدارمي في السنن (٤٣٧/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٣٣/٦)، والبزار في مسنده (١٧٤/٨)، وابن المبارك في الزهد (٢٢٩/١)، وابن عدي في الكامل (٤٧/٥).

(٢) لم أقف عليه.

فإن قيل: وكذلك كانت تجيب داعي العقل وتسمعه من الحق كما ذكرت، فلم أجابت داعي الهوى وفرقت؟!

قلنا: الجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أنا فرضنا الكلام في أوله على أن الحق تعالى أراد أن يعرف الروح قدره للسبب الذي ذكرناه؛ فأسمعها نداء الهوى، وأصمَّها عن داعي العقل؛ ليقع ما أراد سبحانه.

والوجه الثاني: أن النفس بعض الروح كما كانت حواء بعض آدم. وصار منادي الروح أصلاً من نفسها، ومنادي الهوى أجنبيّاً عنها؛ فالأصل حاصل، والأجنبي غير حاصل، فاشتقت أن تعرف ما لم تعرف، فأجابته لترى ما لم تر، كما أجابت حواء إبليس في أكل الشجرة، ومن هنا وقعت بين الهوى والعقل الحروب والفتن على هذا الملك الإنساني، وقد يستولي أحدهما عليه، وقد يؤخذ منه، فيعزله، ويأسره، وربما يقتله في حق شخص ما. هكذا استمرت الحكمة الإلهية حتى العرض للأكبر، وربما يملك أحدهما البادية والآخر الحاضرة، وقد يملك أحدهما الملك كله ظاهراً وباطناً.

فأما العصاة: فإن سلطان الهوى مالك باديتهم، وسلطان العقل مالك حاضرتهم.

وأما الكافرون: فالهوى مالكٌ منهم البادية والحاضرة.

وأما المؤمنون المعصومون المحفوظون: فإن العقل مالِكهم باديةً وحاضرةً، فإذا كان في الدار الآخرة وذبح الموت وتميز الفريقان ونفذ حكم الله، لحق العصاة بالمؤمنين المعصومين، فحصل لهم النعيم الدائم، ولحق المنافقون بالكافرين، فحصل لهم العذاب الملازم. فلم يغنِ المنافقُ عمله شيئاً؛ فإن التوحيد أصلٌ والعمل فرعٌ، فإن اتفق في الفرع شيءٌ يفسده ويهلكه جبره الأصل من الله كالعصاة، وإذا ضرَّ بالأصل لم يجبره الفرع كالمنافق. فهذا الملك الإنساني في تصرفه في الدنيا على أربعة أطباقٍ، لا بدَّ من أحدهما في حق كل شخصٍ: إما مؤمن معصوم أو محفوظ، وإما كافر ومشرِك أصلاً، وإما منافق، وإما

العقل والهوى؛ إذ هذا موضعه انتهى.

سلوك المريد مع المرشد

فتأمل رحمك الله صنيع الهوى واستحواذه على النفس وكيف صيرته ملاذاً وميلها معه ونسيانها بعلها الكريم واتخاذها هذا الخبيث اللثيم عياداً. فاسع، رزقك الله كامل التأييد واستنقاذها بالمجاهدة من يده استنقاذاً؛ فقد أضر تسويقك بالروح المصرة على تشويقك، وإذا - ولن تستطيع ذلك - إلا إن وفقت ووقفت نفسك على مرشدٍ يحقُّ له أن يُسمَّى أستاذاً، وملكته منك الزمام، ووفيت له بالذمام، ووجدت بمخنه كمنحه استلذاذاً، وجمعت قلبك عليه، ولم يفرقك الهوى أفخاداً، حتى يسقيك رحيقه المختوم، فيشفيك عتيقه^(١) المحتوم، فتسمي بعدما وجدت نباذ القبيح الصفات نباذاً^(٢)، وأعلمه بما كمن فيك، ولا تكن ممن يتسللون لواذاً، وكسر أصنام السهوات والشهوات^(٣)، وصيرها عن أمره جذاذاً، والزمة ملازمة الظل للشاخص، عسى تُسقى أرضك منه وإبلاً ورذاذاً^(٤)، وإذا عرضت النفس عليك غيره فقل لها: إن من هذبك لا هديك هذا، ثم قل لتسمع، فلا تطمع، الحمد لله الذي هدانا لهذا، وإياك إذا أمرك أو نهاك أن تقول: لماذا؟ فمن قال لمرشده: لم؟ لا يفلح، ولو كان مربيه غداً ممشاداً^(٥)، بل كن كاليت عنده؛ لعل أن يلين بلينه

(١) الشراب المعتق الذي هو مظنة الاستلذاذ والمتعة أكثر من حديثه.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) على غرار العصر الذي عاشه المصنف رحمه الله حيث كانت الصنعة اللفظية غالبية، جمع المؤلف عدواً من الألفاظ المتقاربة حروفاً والمتباينة معنى وهو ما يعرف بالجناس مثل:

الزمام: جبل القيادة	الذمام: العهد	المجن: ما يقي الشيء
نباذ: ترك	السهوات: الغفلات. ج. سهوة	الشهوات: النزوات. ج. شهوة

(٤) الرذاذ: بالفتح المطر الضعيف.

(٥) أي سيدي ممشاذ الدينوري رحمه الله من أكابر مشايخ الرسالة القشيرية.

منك قلبًا. حكى الفولاذا: وإذا شَرَّفَكَ بخدمَةٍ فاشهد الفضل له، وَقِفْ فقيرًا ببابه سائلًا شحاذًا؛ فإن هذا الطريق لا يصلح إلا لقوم كنسوا بأرواحهم المزابل، فكن هذا ياذا، وعادِ نفسك ما استطعت، وصادق النَّصَّاحَ، وأُوِّ^(١) إلى الركن الشديد تكن معاذًا، واعلم أن أهل الله هم الملوك، فمن لم يتأدب معهم خسر فما ربح، وربما كان سوء الأدب لروحه أخاذًا. وإذا دخلت عليهم فادخل أعمى لثلا ترى لهم عيًّا، وانشَقْ عبيْرًا شاذًا^(٢)، فإذا خرجت فكن أخرس؛ لثلا تبج بسرهم؛ فتسمى خَوَّانًا بهذا الاسم مشتاذًا، وقد أنشد بعضهم في المعنى المغني هذا:

إذا صحبتَ الملوكَ فالبسْ منَ التَّقوى أعزَّ ملبسْ
وادخلْ عليهم وأنت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرسْ

فكلُّ من لا دليل له لا وصول له، ومن لا وصول له لا معرفة له، ومن لا معرفة له بنفسه لا معرفة له بربه ورفيع قدسه، ونعني بهذا المعرفة: الخاصة لا العامة، التي فيوضاتها طامة عامة وإمداداتها نامية تامة. وسيأتي الكلام عليها آخر الرسالة إن شاء الله، ولنذكر هنا بعض دسائس النفس، ونجعلها كالأصول؛ ليني عليها طالبُ الحصول والوصول، فنقول:

جملة من دسائس النفوس ساقها المصنف ﷺ سوق البصير الخبير

اعلم أن دسائس النفس لا تحَدَّ ولا يمكن أن تعدَّ. وقد ألف الشيخ الأكبر أبو بكر الموصلي رحمته الله في دسائسها رسالة نافلة لدرن تلك الخسائس غسالة، ونَبَّه أكابر أهل الطريق على بعضها؛ ليطلق منها الوثيق، ويتنبه الغافل الخائض في بحار التعويق التي أمسى بها يتخبطه الشيطان من المسِّ، فأصبح كالغريق، فمن ذلك أنها تنصح أحبابها، وتمنح الفوائد أصحابها، وتنبههم على الهلكات المتلفات وعدم التعلق بالآلات أو بما فات.

(١) أصلها: أوى يأوي، والأمر منها: ائو، فلما دخلت عليها الواو صارت وأو.

(٢) من الشذى أي العبق والرائحة الطيبة.

وتأمرهم بالاشتغال بما يطلبه الوقت الحاضر، وتعرفهم بأن الوقت سيفُ إذا لم تقطعه قطعك في أكثر المحاضر، مع أنها لا تتَّصف بما نَدَبْتُ إليه، ولا تنصف فتعترف، وتتوب، وتتفرغ للإقبال عليه، وتحيب داعي الله، وترك كل داعٍ سواه لاو.

قال سيدي داود بن باخلاً: داعي الدنيا يدعوك من حيث تشتهي وتميل، وداعي الآخرة يدعوك من حيث تنفر وتكره، وداعي الحقيقة يدعوك من حيث تفنى ويذهب شاهدك؛ فلهذا تستجيب النفس سريعاً للأول، وتستصعب الاستجابة للثاني، وتمتنع من الاستجابة للثالث، إلا إن حفت العناية اهـ.

وإذا كانت هي لا تحيب فكيف تجاب، وإذا كانت لا تقبل فكيف يقبل منها الطلاب. ومن ذلك حفظها لعبارات القوم الذين نُبِّهوا من سَكْرَةِ الغفلة والنوم، وإيرادها لها في المحافل، واعترافها بأن صاحبها غافل، وإظهارها التحشُّر والتلهُّف. وربما بكت وأبدت الذلة والتأسف، فإذا وقف صاحبها في البحث عن فعلها الحسن رأى أنها إنما فعلت ذلك ليقال عنها ما^(١) أتم إقراره بتقصيره وما أحسن. وهذه دسيئة تورث الحجاب. وقد قال بعض الأنجاء: أعظم من الحجاب الحجاب عن الحجاب.

ويا لله العجب ممن يغتر بشقشقة اللسان وهو يعلم أنها لا تجديه نفعاً ولا تكسبه يوم نشر الصحائف رفعاً، ومن جملة دسائسها القبيحة الملقنة إلى الفضيحة، نسأل الله تعالى السلامة بجاه صاحب العلامة والغمامة^(٢)، أنها إذا عزم صاحبها على الاشتغال بالقراءة والذكر والمحاسبة والفكر تُظهر له الكسل والملل، وربما تُوهِّمُه غلبة النوم عليه، وأمثال هذه العلل. فإذا وافقها وأراد المنام فتحت له باباً إلى مسامرة بعض أصحابه واتسع الكلام، وقد يسأله بعض إخوانه عن مسألة في الطريق - وهو في غاية من الضعف الطارئ من السهر أو المكابدة في أداء مراسم هذا الفريق من أورادٍ وأذكارٍ وقيامٍ وصيامٍ؛ رجاء

(١) ما تعجبة في هذا الموضع وليست نافية.

(٢) قوله الغمامة إشارة إلى إحدى معجزات النبي - صلوات الله وسلامه عليه - إذ أظلمت - بأبي هو وأمي - الغمامة في السفر ﷺ.

الوفاء بواجب التمييز لحاجب التدقيق، فيجيبه بجوابٍ أو أجوبةٍ حمّة، وربما نشط في أثناء الكلام، ورأى النشاط عمّه، فيقول في نفسه: الحمد لله الذي جعلني إذا سُئِلْتُ عن مسألة وأنا كسلان أنشط لإفادة الإخوان؛ استغناماً لتحصيل الأجر الجزيل من الرحيم الرحمن. ولو أنه وقف على هذه الدسيسة لرأى نفسه إنما نشطت مخافة أن تنسب عند السائل إلى الجهل وعدم المعرفة بهذا السؤال الصعب أو السهل، أعاذنا الله منها، ونَبِّهنا؛ لِنَخْلُصَ من شرّها والأخذ عنها.

ومنها: أن يذكر في مجلسها بعض المعاصرين الفضلاء من الأعلام النبلاء. فيرُشِّح بعض من حضر بها فيه حطُّ لمقامه، فتقول لصاحبها: وجب عليك الدفع عن أخيك، ورد قول هذا الطاعن؛ فإنه أبلغ من الطعن فيك، فيشرع في توجيه ما أوجب للمعترض الإعتراض، ويبين له ما في هذا الفعل من القبح والأمراض، وربما شدّد عليه النكير، وألزمه بالذهاب إلى المستغاب، وطلب السماح، وذكر ما صدر من التعريف أو التنكير. وإذا أمعن نظره في ذلك وجدها دسّت دسيسة خفيّة المسالك، وهي صيانة مجلسها من أن يقال يستغاب عنده فلا يرد، ويُتَكَلَّمُ لديه بما لا يعني فلا يصدُّ، وَيَسْمَعُ فعله ذلك المستغاب، فيمدحه ويشكر منه هذا الصنيع المستطاب.

ومنها: أنه يسأله عن بعض معاصريه، فيقول هو أخونا وصديقنا، ولا تسمع^(١) أن يقول شيخنا، وتقول له: الكذب لا يجوز، وكيف تصفه بالمشيخة ولم يفدك فائدة، ولا عادت لك منه عائدة، وتنسيه بعض قول الأعيان: ينبغي للمريد الصادق أن يرى نفسه دون كل جليس، وإذا شهد ذلك فقد اعترف بنقصه وكهال مجاليسه، وهناك يستفيد من كل مجاليس.

ولهذا قال بعض السادة وقد سُئِلَ عن أشياخه فقال: لا أحصيهم؛ لأنّي ما جالست أحداً إلا واستفدتُ منه، ومن أفادك بقاله أو حاله فهو شيخك. وإنما امتنعت من الإقرار

(١) أي نفسه لا تسمع.

بالمشيخة خوفاً على منصبها في الرئاسة؛ لئلا يستصغرها السائل، فإذا تنبّه^(١) ردعها، وزجرها، وأقام عليها الدلائل، ويقول لها: هل في قولك هذا أو تقبيلك يد هذا المسئول عنه ما يوجب تصغيرك عند الحق ربّ الأواخر والأوائل؟!^(٢) واذكر لها قول العارف الغارف الولي سيدي أبي الحسن الشاذلي قدّس الله سرّه؛ فإنه كان يقول: مَنْ علم اليقين بالله ﷻ وبما لك عند الله أن تتعاطى من الخُلُق ما لا تصغره عند الله مما تكرهه النفوس الغوية، كحمل متاعك من السوق، وجمع الخطب للطعام، وحمله على رأسك، والمشى مع زوجتك إلى السوق في حاجةٍ من حوائجها، وركوبك خلفها على الحمار وغيره، وأما ما تصغره في أعين الناس مما للشرع عليه اعتراض فليس من علم اليقين؛ فلا ينبغي لك ارتكابه.

وكان ﷺ يقول: إذا أهان الله عبداً كشف له عن حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته؛ فهو يتقلب في شهواته حتى يهلك ولا يشعر. وكان ﷺ يقول: إذا انتصر الفقير لنفسه فأجاب عنها فهو والتراب سواء أي لا قدر له عند أهل الشأن، ومن شأن له^(٣) بذلك فما يعاب بل يعان؛ ليذهب عن قلب المجيب ما يُعان.

وكان ﷺ يقول: العارف بالله تعالى لا تُنْقِصُهُ حظوظ نفسه؛ لأنه بالله فيما يأخذ وفيما يقول، إلا إذا كانت الحظوظ معاصي الله.

ومن قبيح دسائسها أنها تذكر لصاحبها ما جاء في فضل السباحة والكرمة وتحسن له الجود بالموجود دون امتنان للأجر، وتنسبط إذا سمح، وتسرّ إذا منح، وتزين له أن هذا من كمال الإنسان أن يفرح بالإحسان. فأفّق واصحّ؛ فمن أفاق وصحا وحقق مقالها وللتدقيق

(١) أي إذا تنبه صاحب النفس.

(٢) ورد بالمخطوطة (أ): «فإذا أذعنت فقل لها إذن تربّي عن الاتصاف بهذه الخصال الرذائل» وأذكر لها وهذا أكد للمعنى.

(٣) كذا بالأصل ولعلها: ومن شأنه، أي من عابه وانتقصه.

نَحَا^(١): أي أن قولها زورٌ ومحض تلبيسٍ ليس فيه نورٌ، وعلم أنها إنما سمحت لتكون له اليد العليا على الآخذ، وليقلده المنة، فيسمح لها بالغفوات معه، فلا يؤاخذها، وينشر لواء مدحها، ويطوي منشور قدحها. ولو أنها أخلصت النية وحسنت الطوية ورأت أن ما أهدته كان عندها أمانة فأدته لصاحبها فسلمت من آفة الخيانة والجباية، وشهدت الفضل له حيث خَفَّفَ حملها وأخذ ماله عندها لكان وصفًا حسنًا؛ إذ أخلص سرًّا وعلانية، لكنها قَلَّ أن تدع لصاحبها مقصدًا صافيًا من الأكدار؛ لاتفاقها عليه مع العدو الأكبر الغدار^(٢)، ولذا عَضَّلَ الداء، واستصعب الدواء.

ولقد قال سيدي داود بن باخلاً^(٣): إذا اعترضت النفوس للسالكين أوقفتهم عن مزيد الأذكار والطاعات، وإذا اعترضت للعارفين حجبتهن عن لذائذ المشاهدات والارتقاء إلى أعلى الدرجات؛ فالنفس مانعةٌ للفريقين. وقال^(٤): ألجمت النفوس في مفتاح^(٥) التوحيد بلجامٍ (لا) حتى ترجع عن جميع دعاويها اهـ.

أي فإذا رجعت وأنابت واستسلمت وأجابت أمرت بذكر اسم الذات؛ لتكمل لها بالجمعية سائر اللذات، ثم إذا برقت لها بوارق القبول وترقَّت في العثور على طوارق الوصول نوَّعت لها الأسماء؛ لتحلِّق بالمقام الأسمى. ومن ذلك أنها تعرف من يصحبها آداب الصحبة، وتقول لصاحبها: عرفه بما لها من الشروط، واذكر له بعض ما ذكره الهمام الأكبري في «الحل المربوط»^(٦)؛ فعسى أن يتنفع بذلك إن صحب أحد الأسياف من كل سالك، وآدابها إنما ثبت له ما هنالك ليسلك معها هذه المسالك. فلا حول ولا قوة إلا بالله السيد المالك، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون من ظلمة هذه الحوالك، اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا وَسَلِّمْ أَحِبَّابَنَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَهَالِكِ.

(١) ورد بالمخطوطة (أ): «وتبسط إذا سمحت، وتسرع إذا منحت، وتزين له أن هذا من كمال الإنسان، أن يفرح بالإحسان، فإذا دقق وصحا وحقق مقالها وللتدقيق نحا».

(٢) أي إبليس عليه من الله ما يستحق.

(٣) (ب): مفاتيح، والمثبت أجود والله أعلم.

(٤) تحت قيد الطبع - بتحقيقنا - بيروت ضمن مجموعة رسائل للشيخ.

تطلب^(١) من كل صديق وصاحب أن يفني بصحبته، وهي لا تفني بصحبة أعزّ مصاحبٍ، فهل سمعت سندًا ترويه عن تابعيٍّ أو صاحبٍ؟! كلا، ولكن غرّتها الأمانى الكاذبة، فأين أين الناجب؟! فقد مضى العمر معها سهلاً، ولم يزل ضجيعها من حيّ المعرفة، ولا راق له منها منهلاً؛ فحقّ البكاء، وإلى الله المشتكى، قال العارف:

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

ويا ليتها لما دلت على شروط الصحبة والوفاء بحقوق المحبة، اتصفت ببعض الأوصاف اللازمة؛ لتكون متنبهة لرامها حازمة، وعلى طلب الكمال الداعية له جازمة، ولما تغافلت عن قول العارف القليل أمثاله (لا تصحب إلا من ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله). وأين النهيض والدلالة عند من لا شبيه لها إلا البقرة الجلالة، والتي عندها في عاداتها فطنة الأعراب، ولها عند إراداتها يقظة النحويين في الإعراب، وأما مواعيدها العرقية فلمع سراب^(٢)، وأما مودتها فموددة السوقة مع الأصحاب، ولها في طلباتها مودة متينة، ومع نُصّاحها فموددة صحبة السفينة. لا تكتم السر إلا كما يكتم الزجاج، ولا تخفي ما استودع إلا كما يخفي السراج، إذا طلبت طريق المعاصي كانت أهدى من القطا^(٣)، وإن رامت سبيل التواصي لتهدى الصواب ضلّت، وساعدتها الخطا للخطا^(٤)؛ فهو كتميم في ذلك الوصف الذميم.

قال الطرماخ تميم:

بطرق اللوم أهدى من القطا ولو سلكت طريق المكارم ضلّت
أحاديثها أحاديثُ خرافة وعندها الخرافة والخرافة

(١) الفاعل المستتر تقديره هي يعود على النفس.

(٢) مواعيد عرقوب هي المواعيد التي لا يتم الوفاء بها قط.. من أمثال العرب.

(٣) أي كموضع الرياض.

(٤) يريد المصنف رحمه الله القول بأن النفس إذا رامت سبيل الصواب ضلّت، وساعدتها الخطوات على الخطايا والزلات.

ومن جملة دسائسها والغمامة أن تحرّض صاحبها على طلب العلم الزائد على قدر الواجب المثمر بالفوائد. وتسرد عليه ما جاء في فضل العلم، وأن النفع المتعدي أبلغ من القاصر كالصفح والحلم، فإذا جدّ وجد، فأدرك بعض ما أمل بالجهد والكد، أرتة عيوب الجهلاء الذين لم يدركوا ما أدرك، وصغرّتهم في عينيه؛ فرآهم كالذر أو شيئاً لا يدرك، ولم تزل تعظم نفسها بما فازت به من المعارف، حتى تتنكر وتتكبر على الأجانب والمعارف، فإذا نبّها وقال لها: ما هذا العجب بعلمك وعملك، وما هذا الزهو والفخر الذي ما جَمَلَك بل الأوزار حَمَلَك؟! أما سمعت قول النبيّ المنبّه للعاقل الذي نفسه ساحرة وبه ساخرة:

يا مَنْ تقاعد عن مكارم خلقه ليس التفاخر بالعلوم الفاخرة
من لم يهذّب علمه أخلاقه لم ينتفع بعلومه في الآخرة

فتنكر إعجابها، وربما على نفية تقسم، أو تعترف بنقصها؛ كيما عنها مادة العتاب تحسم، وإذا رآها تطلب العلم ولم تعمل ودعا لها تسوّف وتقول: الآن الطلب أجمل والتعلم أشرف العبادات وأكمل. فإذا قضيت منه الأرب كابدت العمل؛ كيما به تجمل، وكل هذا من باب التسويف والتخريف، حتى يولى زمان الصبا، ويأتي المشيب بسيوله الموجبة للتخريف، ويتبعه الضعف، فيستحق صاحبها التقريع والتعنيف، توعده بالإقبال مواعيد كمونية^(١)، وربيع الزمان والشباب غصّ، فإذا وليا عنه وذهبا ورأى نفسه صفر اليدين ما استفاد فضة ولا ذهباً، على السبابة بالنواجذ غصّ؛ حيث أضاع في الصيف لبن الفوائد^(٢)، وفي الشتاء الذي هو ربيع المؤمن تزود الزوائد، وفي خريف اجتناء الثمار عود العوائد، وفي ربيع الأرواح والأجسام ادّخار طيب الأعمال ليوم الشدائد. وكل ما مضى لا يعاد، ومريض عين القلب كالعين لا يعاد^(٣)، وإذا عاين منها حب الرئاسة على الأقران

(١) مواعيد كمونية كمواعيد عرقوب، ليس للوفاء بها سبيل.

(٢) إشارة إلى أحد أمثال العرب الدارجة «في الصيف ضيعت اللبن».

(٣) بينها جناس تام والأول بمعنى يتكرر والثاني بمعنى يزار.

والتميز ما بين الخلان والتصدر في المجالس والمهارة والمجادلة مع كل مجالسٍ ونهاها عن هذه الصفات القبيحة تبدي له الأعذار بأن مرادها المذاكرة والمطارحة، وما شابه ذلك من الأوجه الصحيحة. وإذا ألزمها الحجة وعرفها أنها ضلت المحجة استدلت عليها بقول القائل من الأوائل: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا الله^(١)، وهو قولٌ صحيحٌ وحكمٌ رجيحٌ، وله وجهان:

إما أن يردَّ صاحبه إلى الإخلاص في النية؛ فيكون الحق سبحانه قد أحسن إليه ولطف به، وهذا غير واقع لكل من طلب العلم بغير إخلاصٍ.

وإما أن يكون المعنى أن العلم كان نوراً من أنوار الله يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، وقد عصى صاحبه بطلب العلم لغير الله، وامتنع العلم أن يستقر في ذهنه؛ لأنه عاصي، والعلم نورٌ من نور الله، ونور الله لا يؤتى لعاصي.

وقد أنشد الإمام الشافعي رحمه الله وألهمه أن يكون في الموقف شافعٌ:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وقال اعلم بأن العلم نورٌ ونورُ الله لا يهدي لعاصي^(٢)

وكيف يثبت وصف العلم لعالمٍ قصد بتعليمه غير الله، وهو قد ارتدى برد الجهل المنافي لوصف العلم! أم كيف يتحرك جسد المعلم بدون روح الإخلاص؟! وقد يقال في المعنى: طلبنا العلم ليكون قائداً لنا لغير الله من حظوظنا، فأبى أن يكون موصلاً لنا إلا إلى الله؛ لأن طلب غير الله جهلٌ، وكيف يدل العلم على الجهل، والجهل ظلمةٌ والعلم نورٌ؟! وكيف النور يهدي إلى الظلمة؟! وليس العجب من فاضل بعلمه أعجب، إنها يتعجب من جاهلٍ متلبسٍ لدعواه، وهذا أعجب؛ إذ هو المسمى بالجهل المركب، وهو الأحق بعينه الذي يُجتنب. فإن الرجال في المعرفة على أربعة أقسامٍ كما ذكره بعض الأعلام: فقال: رجلٌ

(١) من الأقوال التي تعزى للإمام أبي حنيفة رحمه الله.

(٢) ورد هذا البيت بنص «وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي» وهو أضبط عروضياً.

يدري، و يدري أنه يدري، فهو عالمٌ فَاتَّبَعُوهُ، ورجلٌ لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فهو أحمقٌ؛ فاجتنبوه^(١)، وقد أنشد أبو القاسم الآمدي رحمه الله في هذا المعنى:

إذا كنتَ لا تدري ولم تك بالذي يسأل من يدري فكيف إذا تدري
جهلتَ ولم تعلم بأنك جاهلٌ فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري
إذا جئتَ في كلِّ الأمورِ بغمّةٍ فكن هكذا أرضاً يطوها الذي يدري
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري وأنك لا تدري بأنك لا تدري

ومن وصايا سيدي محي الدين قدس الله سرّه لتلميذه سيدي إسماعيل بن سودكين رحمه الله على ما نقله في «لواقح الأسرار ولوامح الأنوار» الذي جمعه من كلام الشيخ: ومتى ذكرت الفائدة لشخصٍ ما فلا تذكرها من كونك أعلم منه ولا أفضل، فتحجب بذلك، وتقوم بشغوفك عند نفسك، بل اذكر له الفائدة بالنظر إلى قوله عليه السلام: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجَلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(٢)، وبنية نشر العلم، والإنفاق منه والتناصح، والنظر إلى قوله: «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»^(٣) (آل عمران: ١٨٧)، فمن الوفاء بالميثاق بذل العلم الذي ينتفع به سامعه خاصة، والله أعلم. فتكون قد ذكرت وأجبت به بلسان الشرع، ومتى أنكرت على شخصٍ منكراً محققاً في الشريعة منصوصاً عليه لا تجد لك مخرجاً، ولا بد من إنكاره شرعاً، فلا تنكر عليه بطبعك ولا تعنّفه، بل قل برفقي: إن

(١) من الأقوال التي تعزي لسيدنا الإمام علي كرم الله وجهه عليه السلام: الرجال أربعة:

- رجل يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فتابعوه.
- رجل يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه.
- رجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه.
- رجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا أحمق فاجتنبوه.

(٢) رواه الحكيم الترمذي (٢٩/٥)، وأبو داود (٣٢١/٣)، وأحمد (٢٦٣/٢)، وابن ماجه (٩٧/١)، والطبراني في الكبير (١٢٨/١٠)، وفي الأوسط (٣٨٢/٢)، وفي الصغير (١١٢/١)، والحاكم في المستدرک (١٨١/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٥/٢)، والبيهقي في الشعب (٧٥/٢)، والديلمي في الفردوس (٧٤/٣)، وابن عدي في الكامل (٤٥٥/٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣١٥/٥).

الشرع قد نهى عن مثل هذا، لا تقل له: أنت على خطأ وأنت مخالف، بل ارفق به ما استطعت.

قلت له: يا سيدي أأست تعلم من نفسك ما فضّلها الحقُّ به على من هو دون مرتبتك؟!

فقال: اعلم أن صفة العلم التي قامت بي أفضل من صفة الجهل التي قامت بغيري؛ فالصفة أفضل من الصفة مطلقاً، والحال أفضل من الحال؛ لأن الموصوف أفضل من الموصوف^(١)، كيف والأحوال تحول وتُسلب وتؤخذ من محلٍّ تُعطى لمحلٍّ آخر، فلا يفضّل بين الذوات الموصوفة إلا بأمرٍ إلهيٍّ يعرفك بها اختصاصه. وقد علمت أن البعوضة لها وجه إلى الحقّ تقبل بذلك الوجه عن الحق ما تقبل؛ فانظر إليها من ذلك الوجه توفّقها حقها؛ ولتعلم إن كان قبولها لكل ما يقدره من الاختصاصات والقرب مع مشاركتها لك في الحدِّ والحقيقة، وانظر إلى أدب رسول الله ﷺ الذي علمه الله التأدب به بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (الكهف: ١١٠)، فتسمّى بالاسم الذي يشاركه فيه جميع الخلق، ولم يتسم بأعلى أوصافه من النبوة والرسالة، وغير ذلك، كل ذلك مراعاةً لمقام العبودية التي خُلِق لأجلها، ولم يؤمر النبي ﷺ بإظهار مرتبته بقوله: «أَنَا سَيِّدٌ وَلِدِ آدَمَ وَلَا فخر»^(٢)، ما أظهرها عليه الصلاة والسلام^(٣) اهـ.

وقول الطائفة: العلم حجابٌ: أي العلم بالمعلومات والاشتغال بها حجابٌ عن العلم بالذات الذي أمر السيد الأعظم بطلب الزيادة منه، أو يقال: المراد بالعلم علم اليقين؛ إذ

(١) هكذا النص بالمخطوطتين. ولعل ثم سهواً أو غفلة الناقل والأدق «لأن الموصوف أفضل من الموصوف» ومن ثم تنسحب الأفضلية على الصفات والأحوال دون الذوات. والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٤)، والترمذي (٥/ ٣٠٨)، وأبو داود (٤/ ٢١٨)، وأحمد (١/ ٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ٨٨)، وفي الأوسط (٢/ ١٢٧)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٦٦٠)، وابن حبان في الصحيح (١٤/ ١٣٥)، والبخاري في مسنده (٧/ ٢٧٤).

(٣) لعل ثم سقط في الكلام تقديره «ما أظهرها عليه الصلاة والسلام إلا اعترافاً بنعمة الله تعالى عليه» وصدق الأمر سبحانه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)

هو حجابٌ عن العلم: أي عن علم عين اليقين، وعلم عين اليقين حجابٌ عن علم حق اليقين^(١)، وقيل: حجابٌ عن الجهل، وقيل: حجابٌ عن الوقوع في المعاصي مع الإصرار عليها، وهو حجابٌ بالنظر لمن اغترَّ به وقنع بدون عملٍ؛ فأوجب له الزلل وألقاه في التكبر والعُجب وحب الرئاسة^(٢) وما شاكل هذه العلل. وبعض من لم يدرِ المراد من هذه العبارة حملها على الإطلاق، ورضي لنفسه بالجهل^(٣) وأضداده، فما أشرفها من صفةٍ، حباناً الله الحظ الوافر منها اهـ.

ومن هنا أمر الأشياخ تلاميذهم بطلب العلم الواجب الذي لا بد منه، ولا غنى لكل مكلفٍ عنه من معرفة علم العقائد وما يحتاج إليه من أمر الطهارة والصلاة والصيام. ثم إذا وجد عنده النصاب أمره بقراءة كتاب الزكاة، أو ما يوجب عليه الحج فيأمره بقراءة كتاب الحج، وما لا بد منه من معرفة إعرابٍ دون إعرابٍ؛ ليخلص اللسان من الخطأ ومدارهم على إصابة القلب واستقامة سيره إذا خطأ، وإلا فكم من معرٍٍ مصيبٍ بلسانه لحَنَ بفعله وحاله وجنانه.

واعلم أيها الأخ المحتسي كأس الإفاذة - بلّغك الله الحسنى وأنالك الزيادة - أن عدم إعراب بعض السادة لا يعد لحناً عند أهل الإرادة؛ لأن القوم يدورون مع حقائق المعاني

(١) علم اليقين: هو العلم الذي لا يساور صاحبه أدنى ريب فيه كالعلم أن الله تعالى كعبة مشرفة يقصدها الحجاج والمعترون.

عين اليقين: هو مطابقة العلم اليقيني بالرؤية العيانية كالسفر إلى مكة المكرمة ومعابنة الكعبة والطواف بها. حق اليقين: هو أن يكون المعنى أو المبنى مائلاً في فؤادك كتتمثل الكعبة المشرفة آناء الليل وأطراف النهار في كل صلواتك الفرضية والنفلية. وهذه كلها بديهيات أهل الطريق.

(٢) ورد بالمخطوطة (أ): «وحب الصيت» وهما مقاربان في المعنى.

(٣) ورد بالمخطوطات (أ): «ورضى لنفسه بالجهل، وصار يقول العلم حجاب لمن لعبت به الأهواء، ولقد صدق فإنه حجاب عظيم، كما قال الأكبري: يحجب القلب عن الغفلة، والجهل وأضداده، فما أشرفها من صفة...».

والمباني. [فلا يلحنون إلا في سمع عين المعاني لأسرار المباني]»، وكيف يلحن الناطق باللسان الروحاني عن الفيض السبحاني؟! لكن أحدهم إذا أراد أن ينطق بالكلام الوضعي الخاوي عن المعنى الرفيع الخاوي على المراد البشيع مرفوعاً وكان من حقه الرفع تقابله حقيقة، وتخطبه بأني لا أستحق الرفع، فينطق بالكلام مخفوضاً^(١)، فيظنه السامع أنه أخطأ، وما أخطأ نحو الخطأ، ولكنه حق الحقيقة لها أعطى، وبالعكس، وربما نصب المكسور لما تعطيه حقيقة من الفتح والانتصاب للحق، ويكسر المنصوب إذا أعطته حقيقة أنه بالكسر أحقُّ وبالجر والانخفاض سيلحق. وربما يجزم المتحرك إذا أعطته حقيقة السكون والجزم بالأمر الذي سيكون، ويحرك الساكن باعتبار ما تعطيه حقائق الأشخاص والأمكنة والأزمان والألفاظ أو المعاني المنخفضة أو المرفوعة الحسان. وربما ألزم الأسماء الخمسة: الألف، والياء، والواو، لا على لغة من يميز ذلك، بل لأمرٍ ورد من حيث الحقائق؛ فأوجب ما هنالك.

وقد سمعت الجد الأعلى الصديق الأكبر الأغلى ﷺ في مبشرة ذكرتها في «الرحلة الرومية» وقد طرق الباب على خير البرية، وسأله أحد الخدام: من الطارق؟ فقال: أبا بكر؟ فلاح لي في هذه المقام حكمة استعماله هذه اللغة، مع أن الفصح استعماله الواو أنه فتح لإشارة حصول الفتح لدى ذلك الباب، ونصب لانتصابه في مقام الخلافة بعده الشامخ الإطنب، ولأن الفتح أخفُّ الحركات وألطفها، والباب المتروك أسمى الأبواب وأشرفها، ولحقائق أخر بدت له ﷺ لوامع أنوارها، وهمت لديه طوابع سواطع أسرارها، فما وسعه إلا موافقة مقتضاها، والمبادرة لجامع مشتهاها. ولقد أخبرني الكاشف عن وجوه الغرائب والراشف من شراب العجائب أنه يرى الفاعل، فينطق به مفعولاً، فيقول الجهول: ليس لهذا إدراكاً ومعقولاً، ومع ذلك فما جهل ولا أخطأ ما تعطيه الحقيقة، ولكن

(١) ما بين المعقوفين لم يرد في المخطوطة (أ).

(٢) يريد أن يقول إن القول الوضعي لا يستحق الرفع بل الخفض «حتى ولو درج النحاء على غير ذلك. وهذا كلام نسلم به لأهل الحقائق. كما نسلم قواعد النحو لأربابه.

المحجوب بخطئه؛ لعدم شهوده الأوجه الرقيقة ولو رام غير ما تعطيه الحقائق لم يمكنه؛ لأن دواعي الحق لا تعصي^(١) في القرآن والحديث الحسن أو المشهور أو الصحيح إلا المعنى الرفيع والمبنى الرجيح، لم ينطق المكاشف بهما إلا على قدر قواعد الإعراب.

إلا إن قصد التنبُّه على سرٍّ غريبٍ يأتى بالإغراب، فحقَّق هذا المبحث؛ فإنه جديرٌ بأنه عليه يبحث، وسلَّم للأكابر ولا تكابر، ومع هذا فلغة العرب واسعة الأكناف منتشرة الأطراف، وما ضُبِطَ منها قدرٌ يسيرٌ، والكثير خفي وخبأ، إذ اللغة لم يُحط بها إلا نبيٌّ؛ فسَلَّم تسلم، واتخذ للعروج سلماً، واتل: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ (طه: ١١٤)، ثم إن المشايخ رحمهم الله يُشغِلونه بتهذيب الأخلاق، وفتح ما على القلب من الأغلاق بدوام^(٢) الذكر ومراقبة الملك الخلاق والتخلية والتحلية؛ ليفوز من وثاقه بوصف الإطلاق، ويأمرونه بالأخذ بالعزائم دون تتبع الرخص، وبالهرب إلى مواطن الإجماع، أو ما عليه الأكثر. وإذا استويا فلما ذهبَتْ إليه أهل الحديث، حتى يتم إشراقه، وتتحلَّى بأفخر الحلي أطواقه، وتطمئن نفسه، وتخشع، وتذل لمعرفتها بجهلها، وتخضع، وتعرف من أين جاءت، وإلى أين تصير، فتخاف، وتجزع، وتفيق من سكرتها عمًا إليه تصير، وبذا أكبادها تنقطع، وتعين رشحة طلٍّ من رشحات بحور العلوم الزواجر، فتري أن كل ما بأيدي الناس من الأوائل والأواخر رشحةً من تلك الرشحة ونفحةً من تلك النفحة. وهناك تنقطع منها شروش الكبر والإعجاب، وبطيش عن صاحبها الفكر والعقل، ويذهله ذلك الكشف العُجاب. فلو قرأ جميع العلوم وأحاط بسائر الفهوم لم يزد ذلك إلا خضوعًا، ولم يكسبه ذلك الاطلاع إلا خشوعًا.

فإذا عاين الأستاذ من مريده هذا الحال أذن له في القراءة والإقرار، وحدَّره غوائل النفس، وألزمه بخلافها في الإقامة والترحال. ألا ترى لمن تجلَّى الله سبحانه وتعالى عليه بصفة العلم كالإنسان الكامل، حتى علم ما كان وما سيكون وما لا يكون، كيف كان لو

(١) ورد بالمخطوطة (أ): «لا تعصي، ومن عصاها بالعصا لأنه عصي، ولما لم يكن في القرآن...».

(٢) (ب): آم.

يكون؛ لأن العلم صفةٌ إحاطيةٌ لا نهاية لها؛ لأن كل نهاية داخلية تحت حيطته، ومع هذا فلا يرى لنفسه علمًا ولا يشهد لها إدراكًا وفهْمًا، بل يتحقق أن ما علمه بربه وأن ما عنده وديعةٌ مستردةٌ عند أهل الحقيقة^(١). وإذا كان صاحب هذا الحال غير مقبول الدعوى في العلم فغيره بالأولى عند من استسلم وجنح للسلم، وإذا تحققت النفس في سرِّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ١، ٢) ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩) هدأت شقاشقها، وسكنت بوارقها، وعلمت أن كل ما هي فيه من الأوصاف عارية عندها، عارية منها، غير مكسية بذلك؛ لأنها لو اكتست به ربما ملكته، وهو وديعةٌ، متى شاء أخذها المالك، فتضمحل دعاويها إذا وفقت، وتذوب، وترجع حقيرةً ذليلةً إلى مولاها، وتتوب.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره في «منته الوسطى»^(٢): وَمِمَّا مِنْ اللَّهِ عَلَيَّ عَدَمُ رُؤْيِي نَفْسِي أَنِي مَعْدُودٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لَمْ يَزَلْ جَهْلِي مُشْهُودًا لِي عَلَى الدَّوَامِ. وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ؛ وَلِذَلِكَ لَا تَطْلُبُ نَفْسِي قَطُّ أَنْ تَزَاحِمَ الْعُلَمَاءَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَخْصُهُمْ عَادَةً، حَتَّى لَوْ قَدَّرَ أَنَّ السُّلْطَانَ رَسَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَلْفَ دِينَارٍ لَمْ تُحَدِّثْنِي نَفْسِي قَطُّ أَنَّهُمْ يَعْطُونَنِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، بِخِلَافٍ مَنْ كَانَ مُتَفَعِّلًا فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ فَإِنَّهُ رَبَّمَا يَفْتَتِ الْخَبْزَ عَلَى الدِّخَانِ، كَمَا كَانَ أَشْعَبُ الطَّمَّاعِ.

وسمعت أخي أفضل الدين يقول: من نظر في علوم السلف لم يحدث نفسه قط أنه من أهل العلم؛ فقد نقل أصحاب الطبقات أن الإمام ابن الحداد لما حرق كتب العلم التي في المدرسة النظامية ببغداد وندم على ذلك واقفها نظام الملك، قالوا: لا تحف؛ فإن ابن الحداد على جميع ما حرق من حفظه، فأرسلوا ورائه، فأملى جميع ما حرق في مدة سنين ما بين تفسير وحديث وأصول وفقه ونحو ذلك.

(١) ورد بالمخطوطة (أ): «وإن ادعى فبطريق المجاز لا الحقيقة، وإذا كان صاحب هذا الحال...».

(٢) بحوزتي نسخة منها، يسر الله لنا تحقيقها.

قال: وقد صنّف ابن شاهين المحدث ثلاثمائة وثلاثين مؤلفاً، منها تفسيره للقرآن في ألف مجلدٍ، ومنها المسند في ألف وستائة مجلدٍ، وحاسب الحبار على استجراره منه الخبر للكتابة، فبلغ ألفي قنطار^(١).

وحكى السبكي وغيره أن بعض العلماء أخبرهم أنه^(٢) صنّف في مذهب الإمام الشافعي ألف مجلدٍ.

وحكى الجلال السيوطي رحمه الله تعالى أن للشيخ أبي الحسن الأشعري تفسيراً في خزانة المدرسة النظامية ستائة مجلدٍ.

وحكى أيضاً عن محمد بن جرير الطبري أنه كان يحفظ وقر^(٣) ثمانين بغيراً.

وحكى السبكي أن محمد بن الأنباري كان يحفظ في كل جمعة عشرة آلاف ورقة، وأن الإمام الأوحدي كان يحفظ من العلوم قر مائة وعشرين بغيراً.

قال: ومن الغرائب أن علياً بن سينا حفظ القرآن كله في ليلة واحدة، وكان لا يسمع شيئاً إلا حفظه أول مرة كذلك.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: ما سمعت شيئاً قط ونسيته، وروينا عن عليّ بن أبي طالب رحمه الله أنه كان يقول: لو شئت لو قرأت لكم ثمانين بغيراً من معنى الباء.

وكان الإمام الأعظم الليث بن سعد رحمه الله يقول: لو كتب ما في صدري ما وسعه مركب.

(١) ورد في المخطوط (أ) زيادة وثمانائة قنطار.

(٢) ورد بالمخطوط (أ): «أن بعض العلماء بأخيم صنّف...» وهما يؤيدان المعنى غير أن ما أثبت بالمخطوطة (أ) يسوقنا للحديث عن أخيم هذه المدينة العتيقة من مدن محافظة سوهاج وهي ذاخرة بمراقد العلماء والصالحين. وإليها ينسب سيدي ذو النون المصري رحمه الله والعارف الشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر الجعفري. ولقد أثبت حفريات هذه المدينة أن بها عديد من الآثار التي تعكس عراقتها منذ العهد الفرعوني وحتى مجئ الإسلام. والحديث عن أخيم فضفاض وليس هذا موضعه.

(٣) يعني: ثقل.

فليُنظر من يدّعي العلم في هذا الزمان مرتبته في العلم بالنسبة لهؤلاء العلماء، يعرف تخلفه وجهله يقيناً.

وسمعت سيدي عليّاً الخواص رحمه الله يقول: من أراد أن يعرف مرتبته في العلم فليرد كل قولٍ علمه إلى قائله، وينظر في نفسه، فما بقي معه بعد ذلك فهو علمه الذي يبعث عليه يوم القيامة، وما عدا ذلك فله من ثواب حمله لا غيره.

وسمعته يقول مرات: لا يبلغ الرجل مقام الكمال إلا إن صارت مذاهب جميع المجتهدين نصب عينه اهـ.

ومن دسائسها أن تحسن لصاحبها الاندراج في سلك أهل الطريق، وترغبه في الدخول في زمرة هذا الفريق. وتعرفه أن الإنسان بدون شيخٍ كاملٍ لا يخلص من الرياء والعُجب فيما يعامل، وتقرأ عليه بعض عبارات العارفين في طلب المرشد وما أشار إليه مقدم العارفين الإمام الشعراني والهامم الربّاني في أوائل المنن، وتحرضه على المبادرة في طلب المرشد في السر والعلن.

وعبارة سيدي عبد الوهاب: فإن أردت يا أخي التخلّق بشيء من أخلاق هذا الكتاب فاطلب لك شيخاً صادقاً، لا تشك في صدقه؛ ليسلك بك في مقامات الطريق؛ لتعرفها بالذوق لا بالسمع، حتى تصير توحد الله في سائر المراتب كشفاً و يقيناً، كما أنك بمجرد قولك أن الفعل لله تعالى يذهب منك الرياء والعجب بأعمالك، وتعبّد الله خالصاً، لا خوفاً من ناره، ولا رجاءً لثوابه^(١)، فحكم من شهد الفعل لله كشفاً حكم من بات نائماً وجاره قائماً يصلي إلى الصباح؛ فإنه لا يصبح يدّعي قيام الليل الذي قامه جاره أبداً.

(١) من كلمات الأئمة المرشدين في هذا المعنى «لا تعبد لتنال أجراً فتكون عبد الأجر، ولا تنال قرباً فتكون عبد القرب، جرد سرك من التفكير في غير ربك، حتى إذا وصلت إلى القدس، فاعلم أن القدس حجاب القدوس سبحانه» ويقول أيضاً:

غيري يميل إلى الجنان ويطلب وأنا الذي عنها أفر وأهرب
نار الجحيم مع الرضا هي جنتي أما النعيم بغيره لا أرغب

وقد كنت أنا على هذا الحال زمناً طويلاً إلى أن اجتمعت بسيدي عليّ الخواص رحمته، فكشف لي عن بعض معالم الطريق، فعلمت أن جميع ما كنت أظنه من مقامات الخواص إنما هو من مقامات المريدين، وأن مقامات العارفين تجلّ عن أن يذوقها أمثالنا، كما أن أخلاق الأنبياء تجلّ عن أن يذوقها أكابر الأولياء؛ فإن بداية درجة النبوة تأخذ من بعض انتهاء درجات الولاية، فليس للأدنى من تخلقه بمثل صفات الأعلى سوى الاسم فقط اهـ.

فإذا رغب في سلوك الطريقة العليا ووجه المهمة في طلب المرشد ليكون متبّعاً له أمراً ونهياً فساقه الله إليه ودلّ عليه، ثم إنه دخل تحت عهده وميثاقه المحكم، وقبل كل ما شرط عليه، وبه لنفسه ألزم، تنزل له الداعي حتى تملك، ثم تحكم، وصار يحمله الميثاق بدون إشفاق كالملك المحكم، ويأمره أن يكون لدى أوامره أحرص أبكم. فلما عاينت النفس ما حلّ بها، وتحققت أنه إن تملكها عزلها، والروح ملك وحكم أخذت في نقض ما أبرمت وإظهار نقض ما بفعله تبرمت، وصعبت عليه قطع مفاوز هذه المراقي، وزيّنت له أن تقاعسها أولاً لضعفها عن تناول كأس هذا الساقى. وشرعت في إخلاذه إلى أرض الهوى التي من أخلد إليه [توى]^(١)، وفي الدرك الأسفل هوى، ثم إذا رأته خالفها، وقال لها: هذا لا يكون^(٢) أبداً، وصمّم على عداوتها والمجاهدة فيها سرمداً، حسنت له في الثاني ما قصد من الاستقامة، وربما قالت له: إنها كان قصدي أن أختبر صدق توجهك في طريق السلامة، وانخدعت له، وأظهرت الطاعة، وساعدته حيناً، وأظهرت آونةً جنباً وعدم استطاعة. وإذا ألقاها خلف ظهره وجعلها نسياً منسياً أو شيئاً فرياً قصياً ألقاها تابعةً نابعةً بمياه الموافقة، وكل ما تبديه مخادعة إذا وزنها بميزان المحافقة، ثم إنها لا تزال ترعّبه في الازدياد، وترعّبه من نقض العهد وترك الأذكار والأوراد، وتفهمه أنها لانت بعد قسوتها، وذلت بعد عزّها، وأرخت غبّ شدتها، وحلمت بعد حدتها.

(١) هكذا بالمخطوطة (ب): [توى] ولعلها التوى، وفي المخطوطة (أ): «من أخلد إليها توى» يريد أرض.

(٢) بالمخطوطة (أ): «هذا لا يمكن الهوى» وكلاهما في المعنى سواء.

وكل ذلك دعوى بغير دليل، وزخرف قول هو عين الأباطيل، وتثنى على الأستاذ، وتظهر حبه، وما عندها من محبته وزن حبة. فإذا تفرس فيها صاحبها، وكان ممن عرف مقاعد الفراسة، واستدل بالأخلاق الظاهرة على الباطنة، وحفظ من الضياع أنفاسه، وعلم بحصول أحد المتلازمين على حصول الآخر، وأوقد بالتحقيق نبراسه، وهتفت به الخواطر الصحيحة، وأرشدته العلامات الجسميّة الرجعيّة، فصححت اقتباسه، رآها تمكر به مكرًا خفيًا، فيجتنبها، ويقبل على الروح إقبال برّ ما زال بها حفيًا، ولا يتركها هملًا، بل يتتبع آثارها لعلمه بالقيافة، وينقب على دسائسها، ويسلّ عليها أسيافه، ولا يأخذ لها إذا عثرت بيد لمعرفته بعلم اليد الذي ما فوقه يد المستفيد منه أنه متى ساعدها سعت في إتلافه، ولو تقطع ساعدها، ولا تزال تراقب صاحبها كالعدو الواقف بالمرصاد، وتودّ لو أتلّف زرعها قبل مجيء زمن الحصاد. ومتى رأت عنده فترة أو كسل زادته جبال خبال وفشل. وربما تعترض أحيانًا بباطنها على الأستاذ؛ لترميه في جبال نقض العهد سيّما إذا وافقها، وأظهر الالتداذ، إلا إن كان مختبرًا مجربًا ممتحنًا لها؛ ليمسي لبيوت مقاصدها مخربًا. فلا ضرر إذا ولا ضرار، ولا يعد هذا عيبًا يوجب البوار. ثم إذا عاينت بعض لوائح وفاحت لمشامها زكيّات الروائح ولمعت لصاحبها لوامع القرب وهمعت^(١) عليها سحائب صافي الشرب أخذها اهتزازٌ وطربٌ، وخفّ عليها حمل حمل الكرب وشوقته للمزيد وشوقته للوارد الجديد. وكلما زاد التقريب تعشّقت وتعلّقت وتحقّقت، فتخلّقت. وإذا سح وابل السير وهطلت هواطل الخير نما وجدها، فهما وجدها إلى أن تبلغ مبلغ الرجال، ويحسن منها هنالك المجال، ويكشف الغطاء، ويربو العطاء، ويزول الأين والبين، وينمحي الرّان والغين عن العين، فيشاهد بعين القلب مد كل عين، وينشد هنا من على وهنًا في سيره، وهنا قول العارف الذي دنا ونال بعد قطع العناء كل الفناء:

أرومٌ وقد طال المدى منك نظرة وكم من دماءٍ دون مرماي طلّت

(١) همع: دمع أو هطل.

وكنّا وضعنا رسالةً على هذا البيت، سمينها «رفع الستر والرداء عن معنى قول العارف: أروم وقد طال المدى»، ولا يتم هذا السلوك من طريق ملك الملوك إلا لأفراد الأفراد من كل مرادٍ خصّ بنيل المراد، وإلا فأكثر من يدّعي أنه سلك، ملكته من أول قدم نفسه، وهو يظن أنه لها ملك. وربما سوّلت له أنه ناجٍ ذو تاجٍ مملّك، وهو معدودٌ في زمرة من هلك، وتغرّه بخدمة الأشياخ وكثرة الأوراد الناشئة عنها لمة الملك. وترى أنه صعد المعالي، وهو ما برح مسجوناً تحت مقعر أول فُلك.

وكم لها في هذا السير دسائس لا تحصى! ولقرينها وساوس لا تستقصى! حتى يكاد من كشف له عنها يقول: إن التخلص من هذه الوحلات محالٌ؛ لما يرى من الأمر الموهول، لكن الأمر كما قال: إن المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالحازم، وكما قيل من [مواليا] (إذا أردك لما يختاره هيأ لك)، وفي آخره (نظرة من الحب تجعل ناظرَك إكسيراً)، ولما ضعف الطالب والمطلوب وعزّ الشارب والمشروب وتوعرت المسالك على السالك وقوي سلطان الهوى وقل من له مهارة في الطلب القلبي ليصف الدواء وكثرت الدعاوى الكاذبة وأفلت شمس الصدق وأبدت المساوي الجاذبة سيما في أبناء هذا الزمان الفاسد الذي فيه علم مداواة الأمراض القلبية كاسدٌ، استحكمت النفس أي استحكام، وأنفذت ما تطلبه من الأحكام، فلا مجاهد فيها ولا مكابد يكشف غواشي خوافيها، وأكثر مريدي هذا الزمان قنعوا بمجرد النسبة الظاهرة عن النسبة الباطنة الباهرة الطاهرة، واكتفوا بالدرج والرقّ، فأنج لهم الرقّ، ونفروا عن ملابس الصفات الكاملة والسمات المرضية التي إمداداتها شاملة، وقلنا في الألفية:

وكلّ مَنْ لم يأتِ باللوازم	ففي السلوك لم يكن بحازم
وربما ينقض عهد الحقّ	من عدم التقديم للأحق
وليس كلّ سائرٍ بسالكٍ	ولا الذي سار كمثّل الطائر

(١) المواليا هو ضرب من الشعر كالמושحات الاندلسية والرباعيات والخمسمات.

وكم رأينا من مريدٍ أخذ
فلم يلج منازل الوصول
عهد الطريق وله قد نبذا
لما أضاع واجب الأصول

وقلنا في «أرجوزة الآداب» المسماة بـ«بلغة المريد ومشتهى موقف سعيد»:

وليس كلُّ من يكون أخذ
بسالكٍ في هذه المسالكِ
ولا ينال من شراب اللاهج
وإنَّما من بالشروط قام
وجاد بالآداب والكمال
وجاد بالموجود للموجود
وخاف ربَّه وجافى جنبه
وترك الخلق وراء ظهره
فذا ينال للمنى وللأمل
عهدًا وللشروط أضحى نابذاً
وسائر عن سائر المهالكِ
إلا فتى سار بذى المناهجِ
وفي هوى حبيبهِ قد هاماً
يرجو اللقاء من حضرة الجمالِ
وما تعدَّى قطُّ للحدودِ
عن المضاجع وأمَّ قربه
وما التوى عن جبه في دهره
وعلمه يصلحُ منه للعملِ

وقلنا في «الجواب الشافي والكتاب» (١) الكافي:

اعلمُ إذن أيُّها السائلُ عن
بأن أهلها هداك ربُّنا
تحقَّقوا من بعد ما تعلَّقوا
وإنَّهم أهل تلقُّ ولقَى
ساروا على الكتابِ والسنةِ يقف
صعب المراقي سرُّه ما ناله
قد ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ
فليس كلُّ طالبٍ يمكنه
وقاطع الغير ووافي صادقاً
نهج طريقة ضياؤها سما
كلُّ فتى بالحبِّ فيه هيما
ثمَّ تخلَّقوا فسادوا العظما
وسرُّهم بقربه تنعما
فون السري لدى طريق قدما
غير محبِّ كله قد سلما
عن سلوكه إذ هو جدًّا عصما
سير به إلا إذا جدًّا سما
مصدقاً معظماً محترماً

(١) هكذا في الأصل، وفي نسخة (اللباب).

مخالفًا لنفسه في سيره وبغنى الصادقين خيما
متخذًا ذكر الأسامي سلمًا وكله لمن يربّي سلمًا
لا بدّ من شخص يرى شخصًا من لم يسر في ظله ما سلمًا
وكلّ من ليس له شيخ فذا مريدٌ للشيطان وهو في عما
فاطلبه بالصدق عسى تنجوبه وعله يسقيك من رشف اللما
إلى آخره.

واعلم أن أصول مقامات الطريق عدت ألفًا.

وقال بعضهم: لا تنحصر: أي من حيث الفروع؛ فلا تشهد خلقاً، وللنفس في كلّ مقام دسائس لا تنضبط وغوائل تسويلات وتسويات بعضها ببعض لا يرتبط، فكيف الخلاص من ضيق هذه الأقفاص؟! لكنه يناله بإمداد الباري ومكابدة الموت الاختياري. فإن من مات عاش، ومن عاش طاش، ومن طاش راش، ومن راش ارتقى إلى حظائر الإنعاش. ومن ارتقى أدرك بعد الفناء منزلة البقاء، وغاب عن النقش بشهود النقاش، والطائفة عيشهم في التجلّي، وبلائهم في الستر الموجب لهم الاندهاش والاستيحاش. والخواص بين طيش وعيش، فإذا تجلّى لهم طاشوا، وإذا استردوا إلى الحظ عاشوا وحظوا بالإبشاش. وإلى الموت الاختياري يشير الخبر الذي رواه الديلمي في مسنده، وهو:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنّما الميت ميت الأحياء^(١)

وقد ورد أيضًا: «موتوا قبل أن تموتوا، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^(٢)، وآية: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ (الأنعام: ١٢٢)، ويسمى بالموت الإرادي والمجازي والمعنوي،

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٧٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٢٢٠)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٦٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ٢٨٠)، والديلمي في الفردوس (٧/ ٤٠٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٣).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٨٤)، والقاري في المصنوع (١/ ١٩٨)، والمباركفوري في تحفة الأحوذى (٦/ ٥١٥).

وحقيقته الفناء عن الأفعال الذميمة ثم الأقوال ثم الأحوال بالبقاء بالمحمود من الخصال. وبذلك يتخلص طير السر من قفص الغفلة، وتصير أرض السير بعد توعرها سهلةً.

يحكى من باب ضرب المثل للمتفهم الأمثل أن مالك درة همّ بالسفر. فسألته الدرة عن منتهى سيره؟ فقال لها: إلى بلد تجلبون منها [سفره]^(١) وتغربون عنها. فقالت له: يا سيدي، لي إليك حاجة في صدري، فعسى أن تقضيها إليّ، فيرفع بها قدري. فقال: وما هي؟ قالت: إذا وصلت دار إخوتي ومنازل صبوتي فاقرأ عليهم مني السلام، وقل لأولئك الأقوام: تقول لكم أختكم: كيف الخلاص من ضيق الأقفاص؟ وأتني بالجواب، ولك الأجر والثواب.

فلما بلغ تلك الأرض وجال في طولها والعرض بلغ السلام والأمانة، وطلب الجواب، فصاحوا صيحةً واحدةً، وماتوا. فامتألت بموتاهم تلك الرحاب، فأسف من ذلك، ورجع لأوطانه بعد قطع المسالك، فسألته عن الجواب والخبر. فأخبرها بما جرى وأجرى العبر. فصاحت صيحتهم، وماتت كميتهم، فحزن عليها السيد حزناً شديداً، وأخرجها من القفص ليدفنها، وكان قد صفده تصفيداً، فطارت، وبالسطح استجارت، فقالت: حياة بعد موت وإدراك عن فوت. فقالت: نعم، ما عاش إلا الذي مات واندرج في سلك الأموات. وقد علموني إخوتي طريق الخلاص من ضيق الأقفاص، ولات حين مناص^(٢).

وإذا سبرنا أحوال الطلاب رأيت العجب العجيب، ما بين مدح كذاب، أو قانع بمجرد الانتساب، أو زنديق ترك حمى الشريعة الغراء، وعانق^(٣) الشك والارتياب، وعوّل

(١) اللفظ بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (ب) وهو زائد لا يضيف معنى.

(٢) المقصود بالدرة عصفور محبوس في قفص اراد ان يعرف سبيل الهروب من القفص فادعى الموت كي يخرج منه وقد رمز لها بالدرة كناية عن قيمتها الثمينة الخفية التي تعبر عن الروح الحبيسة في جسم الانسان الذي هو القفص اما الاغلال فهي الشهوات التي تعوق تحرر روح الانسان من هذا السجن

(٣) بالمخطوطة (١): «ورافق الشك» والفظان قريبان للمعنى المراد.

على شطحاتٍ صدرت عن غلبةٍ حالٍ من شطاح غيَّاب. فهذا هو الجهل المحض المودي إلى غلبة الانخلاع من ربقة الدين. نعوذ بالله من الخزي يوم الحساب، وقد جردنا حسام الرَّدِّ على هذه الفرقة المفارقة التي ما شَمَّت للطريق رائحةً، ولا برقت لها منه بارقةٌ في رسالة «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد». وعقدنا للرد عليهم في الألفية فصلاً، وفي النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية قلنا فيهم قولاً فصلاً، وكتبنا في الروضات العرشية على الصلوات [المشيئية]^(١) ملمحين للرد عند قول [المصنف]^(٢):
وانشلني من أحوال التوحيد. فراجعوه وقفْ بالوصيد، وإياك وصحبة من حاد عن الشريعة المحمدية؛ فإنه شيطانٌ مريدٌ، جبارٌ عنيدٌ، غافل عن الحق بعيد، غير مصدق بالوعد والوعيد، وسيُجزى بها عمل، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦).

وقديماً قالت الأشياخ: لنا من الألف واحدٌ. وهو قولٌ معروفٌ، ونحن نترجى حصول الواحد الصادق من الألف، ولو أردنا أن نستقصي دسائس النفس الجليلة كالتي تقدمت إليها الإشارة الخفية التي تضيق عنها العبارة لما أمكننا ذلك، وأعيانا كثرة ما هنالك. وقد أشار لبعضه الغزالي في «غرور الخلق أجمعين» وفي كتاب «الإحياء» و«مناهج العابدين»، وإذا حققنا النظر رأينا تلك الدسائس من جملة الدسائس، ولكن الوقوف عليها نعمةٌ على العبد لا تجحد؛ لأن بالعثور عليها لا يُرى لها ما به تحمد هذا حال المبتدئ، وللکامل أحوالٌ في باطنه تشهد، فتارة يحمدُها وتارة يجحد؛ لأنها عنده بمنزلة درهم زائفٍ عند نقادٍ عارفين.

(١) نسبة إلى صاحبها سيدي ابن مشيش رحمته الله.

(٢) بالمخطوطة (أ): «المؤلف» وهما سيان.

مطلب علل الطريق وامراضها ودواؤها

ولنلحق هذا النوع السابع من المعرفة الذي ذكره الشيخ الأكبر في باب المعرفة من فتوحاته؛ لأن له تعلقاً بهذا المقام ومناسبة تامة تشفي من المريض السقام.

قال رحمه الله: النوع السابع من المعرفة وهو علم العلل والأدواء وما يحتاج إليه من يربي من الشيوخ. ولا تنفع هذه الأدوية إلا فيمن يقبل استعمالها؛ فإن لم يستعملها العليل فلا يظهر لها أثر؛ فلنبين إن شاء الله العلل بطريق الحصر لأمهاتها، ثم نذكر الأدوية المختصة بها العلل في هذه الطريق، ليس لها محلٌ إلا النفوس خاصة، لا حظٌ للعقول فيها البتة ولا للأبدان؛ فإن علل العقول معروفة وعلل الأجسام معروفة، وأدوية علل الأجسام موقوفةٌ على الأطباء، وأدوية علل العقول اتخاذ الخلوات بالميزان الطبيعي وإزالة التفكير فيها ومداومة الذكر، ليس غير ذلك.

علل النفوس

وما بقي لنا الخوض فيه إلا علل النفوس، وهي ثلاثة أمراض: مرضٌ في الأقوال، ومرضٌ في الأفعال، ومرضٌ في الأحوال، وأما مرض الاعتقادات فهو مرض العقول، فقد ذكرناه.

أ- أمراض الأقوال

فلنذكر مطلب أمراض الأقوال، فمنها التزام قول الحق، وهو أكبر الأمراض، دواؤه معرفة المواطن التي ينبغي أن يصرف فيها؛ فإن الغيبة حقٌ، والنميمة حقٌ، وقد نهى عنها، وما يفعله الرجل مع أهله في فراشه إذا أفضى إليها، فيقول: وذلك حقٌ، وهذا القول من الكبائر والنصيحة في الملال بالحق حقٌ، وهي فضيحةٌ، ولا تقع إلا من الجهال وأصحاب الأغراض؛ لأن الفائدة المطلوبة من النصيحة حصول المنفعة وثبوت الود. فإذا وقع النصح في الملال لم يحصل القبول وأثمر عداوة، وذمه الله؛ فإنه ينجل بتلك النصيحة في الملال،

وربما يكذب المخاطب في اعتذاره عن ذلك، ويكذب ويمجد عليه فيه. ويكون ذلك سبباً إلى فساد كبير، فلو نصحه في خلوة بطريقة حسنة بأن يُظهر له عيب نفسه في نفس الأمر ولا يشعره أنه يقصده بذلك ليعلمه أنه كان جاهلاً بقبح ذلك الأمر الذي نصحه فيه شكره في نفسه، وأحبّه، ودعا له، وأثمر له الخير، وكان في ميزانه. فما كل حقٍّ مأمور به، ولا يستحسن شرعاً ولا عرفاً، وكذلك من يجيب الناس بما يكرهون وإن كان حقاً فإنه يدل على لؤم الطبائع والجهل وقلة الحياء من الله؛ فإنه بعيد أن يسلم في نفسه عن عيب يكون فيه لا يرضي الله، فلو اشتغل بالنظر في عيبه لشغله ذلك عن عيب غيره. ومن التزم بتتبع حركات صاحبه بحيث أن يقيد عليه أنفاسه فهو من أشد الأمراض؛ فإنه اشتغل بما لا يعنيه، وغفل عن نفسه، والنفس تخزنه عندها في زمان صداقته ليوم ما، وهو لا يشعر، ويحجبه عن هذا الستور محبته فيه في الوقت، فإذا وجد في نفسه أدنى كراهية في صاحبه أو إعراض للملئ أو هفوة صدرت منه في حقّه أخرج جميع ما كان مخزوناً من القبايح التي كان خبأها عنده واختزنها له في نفسه في تتبعه، فيقول له في معرض التوبيخ: ألم تقل كذا وكذا؟! ألم تفعل كذا وكذا في يوم كذا؟! ثم إذا عدّ ما كان أخزنه يقول له: هذا كله يدل على قلة الدين، وأنا كنت أرى منك هذا كله، وأقول: لعله رأى في هذا وجهاً، والوجه لك فيه التتبع لمثاله واختارنه إياها في خزانة نفسه، وذلك لسوء الطبع ودناءة الأصل والفرع، وهذا يوجد في الأصحاب والأصدقاء كثيراً، وقد قيل في ذلك:

احذر عدوك مرةً واحذر صديقك ألف مرةً
فلربما هجر الصديق ق فكن أن أدري بالضرّة
وهذا كله وبالأل يعود على قائله، وإن كان حقاً.

ب- أمراض الأقوال:

ومن أمراض الأقوال السؤال عن أحوال الناس وما يفعلونه، ولمّ جاء فلان؟ ولمّ مشى فلان؟ والسؤال عن كل ما لا يعني، والسؤال عن أهله، ماذا فعلوا في غيبته؟ دواؤه

التأسي برسول الله ﷺ في كونه ما أتى أهله من سفر ليلاً^(١). ونهيه أصحابه عن ذلك؛ حتى لا يفجأهم، فيرى منهم ما يكره، والاستئذان من هذا الباب إبقاءً للستر؛ فإنه قد علم أن لكل هتكات. وأيضاً فما كل ما يعمل به الإنسان وإن كان خيراً يجب أن يعلمه كل أحد، فإذا ألح هذا السائل على العلم به أضر بالمستول؛ حيث جعله ينطق بما لا يريده أو يكذب. فإن لم ينطق أثر في نفس السائل حزازة، ويقول: لو كنت عنده بمكانة ما ستر عني ما سألته عنه، فينقص من خلوص مودته التي كانت له في نفسه، ولو حصلت تهمة في نفسه تؤديه إلى مثل هذا الفعل [فليس له في ذلك شرع ولا عقل ولا مروءة]^(٢)، وهذا باب قل أن يقع فيه إلا خبيث الباطن، لا دين له، سيئ السريرة، قال ﷺ: «من حسن المرء تركه ما لا يعنيه»^(٣).

ومن أمراض الأقوال، الامتنان والتحديث بما يفعله من الخير مع الشخص على طريق المن والأذى؛ لما كان يسوءه ذلك ويحبط أجر النعمة^(٤) فإنه قد أبطل ذلك العمل؛ لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَلاَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (البقرة: ٢٦٤)، وأي داء أعظم من المن والأذى؛ فإنه أذى نفسي، ودواؤه أنه لا ير أنه أوصل إليه ما كان في يديه إلا ما هو في علم الله، وأن ذلك الخير إنما كان أمانة بيده ما كان له، لكنه لم يعرف صاحبها، فلما أخرجها بالعتاء لمن عين الله في نفس الأمر حيثئذ يعرف صاحب تلك الأمانة، فيشكر الله على آدائها، ومن أعطى بهذا النظر فلا يصح منه منة أصلاً.

(١) رواه أحمد (٤٥١/٣)، وذكره السيوطي في أسباب ورود الحديث (١٧٦/١).

(٢) ما بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (١).

(٣) رواه أحمد (٢٠١/١)، والطبراني في الكبير (١٢٨/٣)، وفي الأوسط (١٨٨/٣)، وابن حبان في الصحيح (٤٦٦/١)، ومالك في الموطأ (٩٠٣/٢)، والحكيم الترمذي في النوادر (٩/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤٩/٨)، وابن عدي في الكامل (٣٧/٣)، وهناد في الزهد (٥٣٩/٢)، والقضاعي في الشهاب (١٤٤/١)، والبيهقي في الشعب (٤١٦/٧)، والدارقطني في العلل (١٠٨/٣)، ومعمر بن راشد في الجامع (٣٠٧/١١).

(٤) في المخطوط (أ) زيادة «رب النعمة» أي صاحب النعمة.

ومن أمراض الأقوال، أن يفعل الرجل الخير مع بعض أولاده؛ لأمرٍ في نفسه. وبعض أولاده ما يفعل معهم ذلك الخير، فيقول له قائلٌ بحضور من لم يفعل معه ذلك من أولاده: لِمَ لَمْ تفعل مثل ذلك مع هذا الولد الآخر؟ فهو من فضول الكلام؛ حيث قال بحضور ولده، ويثير في نفس الولد عداوةً لأبيه، ولا يقع هذا إلا من جاهلٍ كثير الفضول؛ فإنها كلمةٌ شيطانيةٌ، وليس لها دواءٌ بعد وقوعها، وأما قبل وقوعها فدواؤها أن ينظر في قول النبي ﷺ: «من حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

ومن أمراض الأقوال، أيضًا أن يقول الإنسان: أنا أقول الحق ولا أبا لي، عزَّ ذلك على السامع أو لم يعز عليه من غير أن ينظر إلى فضول القول ومواطنه، ثم يقول: قلت لفلانٍ الحق، وعزَّ عليه سماعه، ويزكِّي نفسه، ويجرح غيره، وينسى قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾ (النساء: ١١٤)، وهو دواءٌ لهذه العلة، الدواء: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ (النساء: ١١٤)، ولها مواطن وصفةٌ مخصوصةٌ، وهو أن يأمره في السر لا في الجهر؛ فإن الجهر علةٌ لا يشعر بها؛ لأنه قد يعظه لغير الله، ثم قال الله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ (النساء: ١١٤)، وقول المعروف هو القول في موطنه الذي عيَّنه الله، ويرجو حصول الفائدة به في حق السامع، فهذا معنى «أو معروف»، فمن لم يفعل فهو جاهلٌ وإن ادعى العلم، قال الله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤)، فيعلم أن مراد الله التودد والتحابب، فيسعى في ذلك، وإن لم يجعل الكلام في موضعه أدى إلى التقاطع والتنافر والتدابير. ثم بعد هذا كله قال في حق المتكلم: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (النساء: ١١٤)، ولا يكون ذلك إلا ممن يعلم ما يرضي الله. ولا يعلم ما يرضي الله إلا بالعلم بما شرع الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، فيرى عندما يريد أن ينطق بالأمر هل نطقه في ذلك الموطن يرضي الله من جميع الوجوه؟ فإن وجد وجهًا يقدح فيه فالكل غير مقبولٍ وغير مرضٍ عند الله؛ فإنه لا يحتمل التجزؤ ولا الانقسام. وهذا موضع غلطٍ، ودواؤه ما قلنا من العمل المشروع والعمل بما يرضي الله.

(١) تقدم تخرجه.

ومن أمراض الأقوال أيضاً، تغيير المنكر على شخصٍ معينٍ من سلطانٍ وغيره دون أن يعمَّ دواؤه معرفة الميزان في ذلك وبراءته في نفسه من كل منكرٍ، يعلم أن الشرع ينكر عليه في مذهبه واجتهاده لا غير، ولا يلزمه ما هو عند غيره منكراً وعنده مباحٌ، ثم الذي عنده منكراً ينظر إلى من يغير عليه ذلك إن كان ممن هو عنده معروفٌ، كالنبيذ عند الحنفي المتخذ من التمر إذا رآه يشربه أو يتوضأ به وهو عنده حرامٌ، فلا يغيره إلا على من يعتقد بتحريمه خاصة، أو يكون من المنكر المجمع عليه، فهذا هو الميزان.

وتفاريع الأقوال كثيرةٌ، وحصر عالمها وأدويتها في أمرين:

الواحد: أن تتكلم إذا اشتهيت أن تسكت، وتسكت إذا اشتهيت أن تتكلم.

والأمر الآخر: ألا تتكلم إلا فيما إذا سكتَ عنه كنت عاصياً، وإلا فلا، وإيّاك والكلام عندما تستحسن كلامك وتستحليه. فإن الكلام في ذلك الوقت من أكبر الأمراض، وما له دواءٌ إلا الصمت لا غير، إلا أن تشهد على رفع الستر، هذا هو الضابط.

مطلب في أمراض الأفعال

وأما أمراض الأفعال، وهو أن يكون آداؤك الفعل الذي هو عبادة كالصلاة مثلاً في الملا أحسن من آدائك في السر. يقول رسول الله ﷺ في مثل هذه الغفلة: «تلك استهانةٌ استهان بها ربّه في رجلٍ حسنّ صلاته في الملا وأساءها في الخلوة»^(١)، وهذا من أصعب الأمراض النفسية، ودواؤه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (العلق: ١٤)، ﴿سِرْكُمُ وَجَهْرُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣)، «فالله أحقُّ أن يُستحى منه»^(٢)، وأمثال هذه الآيات والأخبار. ولهذا دواءٌ آخر، ولكن يغمض تركيبه^(٣)، وهو أن ينوي بتحسينه تعلم الجاهل وتذكر الغافل.

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٣٦٩/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٥٤/٩)، والقضاعي في الشهاب (٣٠٤/١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠)، والمنาวى في فيض القدير (٣٧/٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢٢/٧)، والبيهقي في الشعب (١٥١/٦)، والديلمي في الفردوس (٤٣٣/١)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٥٩/١).

(٣) ورد بالمخطوطة (ب) ولكن ما أثبتناه هو الأنسب.

ومن الأمراض الفعلية أيضًا ترك العمل من أجل الناس، وهو الرياء عند الجماعة.
وأما العمل من أجل الناس فذلك شركٌ ما هو رياء عند السادة من أهل الله، ودواؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات: ٩٦)، وما أشبه هذه الآية.

مطلب في أمراض الأحوال

وأما أمراض الأحوال فصحة الصالحين حتى يشتهر في الناس أنه منهم وهو في نفسه مع شهوته، فإن حضروا سماعًا وهو قد تعشّق بجارية أو غلام، والجماعة لا تعلم بذلك، فأصابه وجدٌ وغلبة حال؛ لتعلقه بذلك الشخص الذي في نفسه، فيتحرك، ويصيح، ويتنفس الصعداء، أو يقول: الله الله، أو هو هو، ويشير بإشارات أهل الله، والجماعة تعتقد حاله أنه حالٌ إلهيٌّ، مع كونه ذا وجد صحيح، لكن فيمن؟! دواؤه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (الشمس: ١٠)، وما أشبه هذه الآية من الأخبار.

ومن أمراض الأحوال أن يلبس دون ما في نفسه. ودواؤه أن يلبس ما في نفسه وما يحل له لباسه وأمثال هذا. فمن عرف هذه العلل وأدواءها واستعملها في نفسه نفعها.

حكى عن الشيخ روزبهان أنه كان ابتلي بحب امرأة مغنية وهام فيها وجدًا. وكان كثير الزعاق في حال وجده في الله؛ بحيث أنه كان يشوش على الطائفين بالبيت في زمن مجاورته، فكان يطوف على سطوح الحرم، وكان صادق الحال. ولما ابتلي بحب هذه المرأة المغنية لم يشعر به أحدٌ، وانتقل حكم ذلك الذي كان عنده بالله بها، وعلم أن الناس يتخيلون فيه أن ذلك الوجد لوجه الله على أصله، فجاء إلى الصوفية، وخلع الخرقة، ورمى بها إليهم، وذكر للناس قصته، وقال: لا أريد أن أكذب في حالٍ، ولزم خدمة المغنية. فأخبرت المرأة بحاله ووجدّه، وأنه من أكابر أهل الله، فاستحيت المرأة، وتابت إلى الله مما كانت فيه ببركة صدقه، ولزمت خدمته، وأزال الله ذلك التعلق بها من قلبه، فرجع إلى الصوفية، ولبس خرقتهم، ولم ير أن يكذب مع الله في حاله، فهكذا صدقهم.

قلت: وهذا الشيخ روزبهان هو صاحب «عرائس البيان في تفسير القرآن ولطائف البيان»^(١)، وهو أيضًا في تفسير القرآن. وكنيته أبو محمد بن أبي النصر البقلي والفسوي.

ثم الشيرازي صحب أبا النجيب السهروردي، ورحل إلى العراق والحجاز والشام، وأخذ عن أساتذة أئمة قادة أعلام.

ثم قال الشيخ: فهذا حصر الأمر؛ فإن الإنسان لا يخلو أن يقام في قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ، وما ثم رابعٌ، وكذلك القيام في حال الوجد إذا قام بوجده ثم زال عنه جلس من حينه ولا يتواجد. فإن تواجد ولم يقل للحاضرين أنه متواجد فهو صاحب مرضٍ، فهذا إجمال هذه المسألة.

وتفاريح الأقوال والأفعال والأحوال كثيرة؛ فليحذر من الكذب في ذلك، وليلزم الصدق، ولا يظهر للناس إلا بما يظهر لله في الموطن الذي ينبغي. فإن العلم بحكم الله في تفاصيل هذه الأمور شرطٌ في أهل الله، ولا بد من ذلك. فما عبد الله من لم يعلم حكمه، فإن الله ما اتخذ وليًا جاهلاً أهـ.

وهذه الأمراض والعلل محلها النفس التي هي موطن الزلل؛ ولذلك أتبعناها بذكر الدسائس؛ فإنها من جملة تلك الخسائس، فكل من لم يشتغل بسياستها وتهذيبها من أول قدم يضعها في الطريق لا يرتقي إلى العلم، ولا يشم رائحة التحقيق.

قال سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي رضي الله عنه وعنّا به: أول منزل يطأه المحب للترقي منه إلى العلا النفس. فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن ينتهي إلى معرفتها وتحقيقها أشرق عليه أنوار المنزل الثاني وهو القلب. فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شيءٌ أشرق عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح. فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شيءٌ وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئًا فشيئًا إلى تمام نهايته، وهذه طريقة العامة وأما طريقة الخاصة فهي طريقٌ علويٌّ تضمحل العقول في أقل القليل من شرحها.

(١) يسر الله لنا إتمام تحقيقه.

وقال ﷺ: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر ويتبعه التصور وتميل إليه النفس وتلتذُّ به الطبيعة فارم به وإن كان حقًّا. وخذ بعلم الله الذي أنزل على رسوله، واقتد به وبالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده وبالهداة المبرِّئين من الهوى ومتابعته تسلم من الشكوك والظنون والأوهام والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهوى وحقائقه. وماذا عليك أن تكون عبدًا لله ولا علم ولا عمل، وحسبك من العلم العلم بالوحدانية، ومن العمل محبة الله ومحبة رسوله ومحبة الصحابة واعتقاد الحق للجماعة. قال رجل: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟». قال: لا شيء إلا أنني أحبُّ الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبَّ»^(١).

وقال تلميذه ووارثه سيدي أبو العباس المرسى ﷺ: سمعت أبا الحسن يقول: من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت. وهذا ميزانٌ للمريدين؛ ليزنوا به على نفوسهم إذا ادعوا ولاية الله. فإن من شأن النفوس وجود الدعوى للمراتب العالية من غير أن تسلك السبيل للوصول إليها، قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الجمعة: ٦).

وقال: الطيُّ طيَّان: طيُّ أصغر، وطيُّ أكبر. فالطيُّ الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفسٍ واحدٍ، والطيُّ الأكبر طيُّ أوصاف النفوس.

وكان يقول: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف وهو بمجرد جمادٍ، وجسم لطيف وهو بمجرد جانٍ، وروح شفافٌ وهو بمجرد ملكٍ، وسرٌّ غريبٌ وهو المعنى المسجود له. فالآدمي بظاهر صورته جمادٍ، وبوجود نفسه وتخيّلها وتشكّلها جانٍ، وبوجود روحه ملكٌ، وبإعطائه السر الغريب استحق أن يكون خليفةً.

(١) رواه البخاري (٢٢٤٢/٥)، ومسلم (٢٠٣٢/٤)، والترمذي (٥٩٥/٤)، وأحمد (١٠٤/٣)، وابن حبان في الصحيح (١٨٢/١)، والطبراني في الكبير (١٨٣/٣)، وفي الأوسط (١٣١/١)، والدارقطني في السنن (١٣٢/١)، والبزار في مسنده (١٦١/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٧١/١٠)، وهناد في الزهد (٢٧٤/١)، والبيهقي في الشعب (٣٨٠/١)، وأبو يعلى في مسنده (٣٧٣/٥).

وكان يقول ﷺ: ما سَمِّي إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كَسَّر الأصنام الحسية التي وجدها. وأنت يا ولدي لك أصنامٌ خمسةٌ معنويةٌ، فإن كَسَرتها فأنت فتى، النفس والهوى والشيطان والدنيا والشهوة، وافهم هاهنا:

لا سَـيْفَ إلا ذُو الفقْـةِ ر ولا فتى إلا عـلِيٌّ

وكان يقول ﷺ في معنى حديث «من عرف نفسه عرف ربه»^(١): من عرف نفسه بذلها وعجزها عرف الله بعزه وقدرته.

قال الشعراني ﷺ: وهو أسلم الأجوبة

وقال سيدي علي وفا وسيدي محمد أحد تلامذة سيدي داود بن باخلا وهو تلميذ سيدي أحمد بن عطاء الله وهو تلميذ سيدي أحمد أبو العباس المرسى قدّس الله أسرارهم وأسس أطوارهم: اطلب من نفسك الصدق في معرفة خصوصية أهل التخصص، وبحبّك لهم تنال منهم ما تريد، ولا تطلب منهم أن يشغلوا قلوبهم بك وتهمل أنت أمر نفسك؛ فإن ذلك قليل الجدوى.

وكان ﷺ يقول: إذا علمت من أستاذك الاطلاع على جميع أحوالك فقد عرضت عليه صحيفتك، فقرأها، فإمّا أن يشكر الله، وإمّا أن يستغفر لك ربك. فاسمع لهذا وأطع، وإن أعطاك الله تعالى أنت بصيرة علمت بها ذلك فقد أوتيت كتابك بيمينك، وإن خالفت ما فيه فقد أوتيت كتابك بشمالك، وإن أغفلت النظر فيه فقد أوتيت كتابك وراء ظهرك. وحيث جاءك هذا البيان فاقراء كتابك، وحرّر حسابك، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤)؛ فافهم.

وكان ﷺ يقول: النفس مطيّة المؤمن، اسمع، لا تسمح لنفسك في الشراسة ولا يقودها النفار، فتتعب بها عند رجوعك إلى الديار، وتندم على تفريطك فيها حين سلوكك في مفازة البرزخ بين الجنة والنار.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٣٤٣/٢)، والمناوي في فيض القدير (٢٢٥/١).

واعلم أن النفس مركوب الوافد عند مروره على الصراط المنصوب؛ فإن تشارست أسقطته في الدرك المغضوب، وإن سهلت له نجا عليها إلى المطلوب ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وكان ﷺ يقول: قيامك بالأمر لأجل الأمر وحده إخلاصٌ، وميزان ذلك أن تفرض أنه نهاك عن موضع أنه أمرك به أو عكسه، فإن وجدت نفسك تنبسط بأحدهما أكثر من الآخر، فاعلم أن قيامك به معلولٌ، وأنه شهوةٌ نفسيةٌ، وإلا فلا. فما أعزَّ الإخلاص، وما أدقَّ إدراكه؛ فافهم.

وكان ﷺ يقول: تقول الأطباء إن برد الرحم سببٌ في عدم الحمل، هكذا نفس التلميذ متى لم تجد لوعة الوجد وحرقة الطلب والشوق إلى المقصود لم يتولد فيها من فيض أستاذه شيءٌ، فهو مثل الوقود البارد لا يؤثر فيه القبس إلا دخانًا، كالدعاوى والرعونات الحاصلة للنفوس الداخلة بين القوم بغير حرقة شوقٍ وصدقٍ وطلبٍ وجِدٍ. ومثلها أن تكون ورقة مبلولة لا تثبت عليها كتابة، ومثلها أيضًا كحراق باردٍ: أي رطب لا يعلق فيه قبس.

وقال ﷺ: ما دمت أيها الآدمي صاحب صفات كريمة فأنت إنسانٌ باقٍ على أصلك، لم تفسخ، ولم تمسخ. ومتى نسخت منك الكرائم بالزمائم فقد نسخت عنك الإنسانية بالصورة الشيطانية التي نسخت بها. وإن خلطت لم تكن إنسانًا خالصًا ولا شيطانًا محضًا، وفي ذلك يتفاوت متفاوتون، والحكم للغالب اهـ.

فتأمل، ولا تشنْ صورة إنسانيتك بكدر صفات نفسك فتكن كمن باع الدرَّ بالكدر، أو الجواهر بالمدر.

واعلم أن حسن الصورة نعمةً ربانيةً ومنحةً إحصانيةً؛ فإياك أن تشوَّهها بصفاتٍ ذميمةٍ وسماةٍ نفسٍ لثيمةٍ؛ ففي الحديث الحسن عن صاحب الخلق والخلق الحسن: «من

أتاه الله وجهًا حسنًا واسمًا حسنًا وجعله في موضع غير شأنٍ له فهو في صفوة الله من خلقه»^(١) رواه ابن حبان وابن عساكر عن ابن عباس.

وعنه عليه السلام: «من رُزِقَ حُسْنَ صورةٍ وحُسْنَ خُلُقٍ وزوجةً صالحةً وسخاءً فقد أُعطي حظه من خيرِ الدنيا والآخرة»^(٢) رواه ابن شاهين عن أنس.

فحسن الصورة ينبئ عن حسن السريرة، وحسنها يوجب حسن السيرة، والآفات الظاهرة البدنية تدل من حيث علم الفراسة والتشريح على عسر عشرة السقيم بها، وهو مجربٌ صحيح.

قال الإمام الشافعي قدس الله سره الرجيع: احذروا الأعور والأحول والأعرج والأحدب والأشقر والكوسج وكل من به عاهة في بدنه؛ فإن فيه التواء ومعاشرته عسرة اهـ.

فعليك بالأخلاق الحسنة؛ فإنها نعمةٌ حسنةٌ؛ ليحسن صيتك في السماء، فيوضع في الأرض كذلك، فتكون ممن سما؛ ففي الحديث الشريف: «ما من عبدٍ إلا وله صيتٌ في السماء، فإن كان صيته في السماء حسنًا وضع في الأرض، وإن كان صيته في السماء سيئًا وضع في الأرض»^(٣) رواه البزار عن أبي هريرة، وعنه عليه السلام: «شرف الدنيا الفناء، وشرف الآخرة التقوى، وأنتم من ذكرٍ وأنتى شرفكم غناكم، وكرمكم تقواكم، وأحسابكم أخلاقكم، وأنسابكم أعمالكم»^(٤) رواه الديلمي عن عمر.

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/ ٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٧٩)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٠٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩٤).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٥٧)، وابن عدي في الكامل (٢/ ١٦٣)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٠٩)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٩١)، وابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٤٦١).

(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٣٥٨).

ثم قال (١): إِيَّاكَ أَنْ تَحْسَدَ مِنْ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَلَيْكَ؛ فَيَمْسَخَكَ الْحَقُّ كَمَا مَسَخَ إِبْلِيسَ مِنَ الصُّورَةِ الْمَلَكِيَّةِ إِلَى الصُّورَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ لِمَا حَسَدَ آدَمَ وَأَبَى وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ.

وفي ذلك تحذيرٌ لك إذا رأيت إماماً هدى إلى الحق أن تحسده أو تتكبر عن الخضوع له والائتمار به؛ فإن ذلك يسلبك ما فيك من الصورة المرضية ويدخلك في الصورة الغضبية، وإذا خضعت له وكنت بالعكس نقلك من الصورة الشيطانية إلى الملكية.

وكان (ع) يقول: إذا جئت إلى أئمة الهدى فلا تأتهم إلا لتَهْتَدِيَ بهم، ولا يحصل ذلك إلا بأن ترى نفسك على غواية، وأنت مضطر إلى كشف غمتها بنور روح الهداية ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢).

كان (ع) يقول: انظر السحاب كيف يتفرَّق وينحط إلى جهة التراب، فاجعل نفسك بالعبودية تراباً يخدمك من جعل نفسه بالرياسة سحائباً.

ومن كلام سيدي أبي المواهب محمد الشاذلي (ع) وكان قد أعطي ناطقة سيدي علي وفا قدس سره: إذا أردت أن تهجر إخوان السوء فاهجر أخلاقك السوء قبل أن تهجرهم؛ فإن نفسك أقرب إليك، والأقربون أولى بالمعروف.

وكان (ع) يقول: من علامة المرائي إجابته عن نفسه إذا أضيف إليه نقص وتنقيص الصالحين من أهل زمانه.

وكان (ع) يقول: احذروا زخارف أقوال أهل الرضا عن النفس، خصوصاً الذين اتخذوا العلم حرفةً وشبكةً لصيد حرام الدنيا مع تكبرهم على الناس؛ فإنهم قد حرموا خيري الدنيا والآخرة، ولهم نعوتٌ ممقوتةٌ وأحوالٌ رزيةٌ، لم تبق لهم بين الناس حرمةٌ ولا قبول شفاعَةٍ، اتخذوا أحسن الزي شعاراً، وتكبروا بذلك استكباراً.

وقد قال الشيخ تاج الدين في الحكم: لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه.

(١) أي سيدي علي وفا قدس سره.

وكان ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ (الطور: ١٩): وإن كان ظاهره إنعام فباطنه انتقام وابتلاء واختبار؛ لينظر تعالى من هو معه ومن هو مع حظ نفسه؛ فافهم دقائق أحكام الباطن، ولا تغتر بالرخص الظاهرة تكن من العارفين أهل الفهم عنه تعالى.

وكان ﷺ يقول: إذا رأيت نفسك مُعرضة عن مودة أهل الله فاعلم أنك مطرود عن باب الله.

وكان ﷺ يقول: اتّباع شهوات النفوس هو الذي نكّس الرؤوس، ومن أطلعه الله على دقائق نفسه أمّن من عكسه ونكسه.

وكان ﷺ يقول: علامة فتح القلوب ألا يدخل فيه خلل، وعلامة فتح النفوس السّامة والملل.

وكان ﷺ يقول: من كان للخلق أرضاً فهو لربه أرضى، ومن على الخلق تعالى^(١) لا يقال له تعالى: أي ائت إلينا لتسقى كؤوس الهنا لدينا.

وكان ﷺ يقول: إذا رأيت في منامك شيئاً من البشري فلا ترضى عن نفسك حتى تعلم رضا الله عنها^(٢).

وقال الشعراني ﷺ في طبقاته عن ترجمة سيدي عليّ الخوّاص ﷺ: وسأله أخيه أفضل الدين عن القساوة التي يجدها في قلبه، فقال ﷺ: اشكر الله حيث ستر عنك حالك؛ لتكون عبداً له صرفاً لا عبد خشوعك وحضورك. فقال: وأنا إن شاء الله عبداً له صرفاً مع ذلك ومع غيره. فقال: صحيح، لكن الامتحان آفاته كثيرة، والمحجوب عند الله من أدّخر له ما وعده به على أعماله إلى الدار الآخرة، وخرج من الدنيا رأس ماله كاملاً من غير خسارة.

(١) تعالى: أي تكبر.

(٢) انظر: الحكم وشرحها العظيم: إيقاظ الهمم لسيدي ابن عجيبة، تحقيق الدكتور محمد عبد القادر، وهو من أفضل تحقیقات هذا الكتاب.

ثم قال: إِيَّاكَ وَكُلَّ شَيْءٍ أَلْفَتَهُ نَفْسُكَ؛ فَإِنَّ السَّمَّ مَعَهُ، وَلَا بَدْءَ لَتَعُودَ السَّمُّ مِنْ مَعِينٍ، وَلَا مَعِينٍ لَهُ إِلَّا النَّفْسُ، وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَّاءَ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٥) مع علمه بها حال علمه بالأسماء فلما أراد الله نفوذ قدرته أَلَفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ كَانَ سَبَبًا لِأَكْلِهِ، وَلَيْسَ إِلَّا نَفْسُهُ الَّتِي حَوَّاءَ مَظْهَرُهَا، فَمَا نَزَلَ بِهِ الْبَلَاءُ إِلَّا مِنْهُ وَبِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «يُحْشَرُ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ»^(١): النَّفْسُ أَقْرَبُ خَلِيلٍ إِلَيْكَ؛ فَانْظُرْ كَيْفَ تَكُونُ؛ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا جَاءَ الْبَلَاءُ وَالْخَوْفُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

ثم قال: وسأله أخى أفضل الدين وأنا حاضرٌ عن لذة العلوم عند إيجادها في القلب قبل أن توجد في النفس، هل هي مغنيةٌ للإنسان عن حسه كما هو الأمر في النفس؟ فقال: إذا كان القلب يسع علم الحق كما ورد فكيف لا يسع علم غيره؟! فقال له أخى أفضل الدين: عالم الغيب أوسع من عالم الشهادة؛ فهي أوسع حكماً، والحكم لا يفترق عن العين كما لا تفترق لا إله إلا الله من محمد رسول الله ﷺ. فقال له أخى المذكور: فما الحكم في الإفاضة على النفس؟ قال الشيخ: هو بحكم استعدادها وبعدها عن عالمها. فقال له أخى المذكور: لا بدَّ من الفرق. فقال الشيخ: فرقٌ بلا فرق كخطاب قلبك لنفسك وأنت أنت، وهما عين إنيتك.

ثم قال: وحكى له أخى أفضل الدين وأنا حاضر، فقال: رأيت كأني ميتٌ وأنا أغسل جسدي حتى فرغت، ثم حملت نصفى الأسفل، وأنت يا سيدي حملت نصفى الأعلى، ثم سألت نصفى عوضاً عن الملكين. فقال الشيخ: أنت مقصّرٌ، لم لا تحمل نفسك كلها فتكون كاملاً؟! فقاتل نفسك بكثرة السجود، وأما سؤالك نفسك عوضاً عن الملكين فهو صحيحٌ؛ فإن السؤال حقيقة إنما ثمرته وفائدته للملكين لا لك؛ لأنك لم تُزد بسؤالهما علماً على ما كنت عليه.

(١) رواه الترمذي (٥٨٩/٤)، وأبو داود (٢٥٩/٤)، وأحمد (٣٠٣/٢)، والديلمي في الفردوس (٢١٨/٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٥/٣)، وابن عدي في الكامل (٢١٨/٣)، وابن حبان في المجروحين (١٠٧/١).

ونقل عن ترجمة أخيه المذكور أنه كان ﷺ يقول: كونوا عبيد الله لا عبيد أنفسكم ولا عبيد دنياكم ودرهمكم. فإن كان ما يتعلق به خاطرکم من محمودٍ أو مذمومٍ أخذ من عبوديتكم بقدر حبكم له، وأنتم لم تُخلقوا للكون ولا لأنفسكم بل خلقكم له؛ فلا تهربوا منه؛ فإنكم حرامٌ لأنفسكم، فكيف لا تحرموا على غيركم.

وكان ﷺ يقول: لا تركز إلى شيء، ولا تأمن نفسك في شيء، ولا تأمن من مكر الله بشيء ولا بغير شيء، ولا تختزن لنفسك حالة تكون عليها؛ فإنك لا تدري أتصل إلى ما اخترته أم لا! ثم إن وصلت إليه فلا تعلم ألك فيه خير أم لا! وإن لم تصل إليه فاشكره الذي منعك؛ فإنه لم يمنعك من بخل.

وكان ﷺ يقول: إذا خيَّرَ الحق في شيء فاخترْ عدم الاختيار، ولا تقف مع شيء، ولا ترى لنفسك شيئاً، ولا تحزن على شيء خرج عنك؛ فإنه لو كان لك ما خرج عنك، ولا تفرح قطُّ بما حصل لك من أمور الدنيا والآخرة دون الله؛ فإن ما سوى الله عدمٌ^(١).

ثم قال: وسئل ﷺ مرة عن قوله: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣) ألا يدخل في ذلك الركون إلى النفس؟ فقال: نعم. ثم قال: وإيضاح ذلك أن هذه الآية متضمنةٌ أيضاً المعرفة، وهي أقرب الطرق إلى الحق، وهي أصلٌ جامعٌ لجميع الطرق الظاهرة والباطنة؛ فإن في باطنها الحث على الأمر بالتحلُّق بالمقام الإبراهيمي الذي نحن مكلفون باتباعه، وذلك أن الإركان صفةٌ من صفات النفس، والظلم أيضاً من صفاتها، وهي موصوفةٌ بالظلم والإركان في نفسها لاعتمادها على نفسها ودعواها بأنها أفضل وأعلم من غيرها، ولم تعلم هي ذلك من نفسها، ولولا أنها موصوفةٌ بالظلم ما ظهر عنها قطُّ فعلٌ ولا أمرٌ قبيحٌ، وهذا أيضاً أقوى دليلٍ على جهلها بمعرفة نفسها وربِّها؛ حيث لم تستند إلى ربها في جميع أفعالها وأقوالها وحركاتها وسكناتها الظاهرة والباطنة المحسوسة التي تقع له في الآخرة.

(١) يعزى إلى الحارث المحاسبى رحمه الله قوله: «كل ما فاتك من الله سوى الله يسير، وكل حظ لك سوى الله هين وحقير».

فانظر يا أخي إلى إبراهيم عليه السلام لما لم تؤثر فيه نار الشهوة لم تؤثر فيه نار الحس بل وجدها بردًا؛ لأجل صفة البرد الذي في باطنه عليه السلام في حر التدبير المفضي إلى الشرك الأكبر، المشار إليه بقول لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، فعلم أن الظالم لحق ربه مُعَذَّبٌ بنار البعد عنه، ومُتَقَرَّبٌ إلى هواه الذي جعله معبوده ووجهته، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجن: ٢٣)، وإنما وصفه هنا بالعلم لأنه لم يتخذ له إلهًا خارجًا عنه وبعيدًا منه، والإله من شأنه القرب، وما ثمَّ شأنُ أقرب إلى الإنسان من نفسه لنفسه؛ لأن هواه المعبود عالمٌ بما يظهر في سرّه ونجواه، بخلاف الإله المَجْعُول في الظاهر؛ فإنه غير عالم بمصالح تلك النفس وأحوالها؛ لبعده وعدم علمه، ومن هنا قالوا: ألطف الأوثان الهوى، وأكثفها الحجارة. وأيضا فإن النفس العابدة لهواها هي المعبودة لهذا فإن صفاتها عابدةٌ لذاتها، ولذلك وقع علينا التوبيخ في قوله تعالى: ﴿وَقَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

وفي حديث: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»؛ فإن المعرفة هنا تكررت، وهي لم تقبل تكرارًا، والنفس والرب قبل التكرار. فاعلم ما تحته نُصِبُ التحقيق إن شاء الله، وصلى الله وسلم على معلم الخير ومظهر التوحيد.

ثم قال: وكان عليه السلام يقول: من صفى جوهره نفسه علم أن الحياة إنما هي لعين الجوهر، وعلم أن الموت إنما هو لتبدل الصور، ويشهد موته كلا^(١) مؤي. والشهيد المقتول في سبيل الله ينقله الله إلى البرزخ، لا موت، فهو مقتولٌ لا ميت، ومن هنا قالوا: العارفون لا يموتون، وإنما ينقلون من دارٍ إلى دارٍ؛ لأنهم أماتوا أنفسهم في دار الدنيا بالمجاهدة.

(١) في (أ): عائدة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الكاف هنا كاف التشبيه دخلت على «لا» النافية، والمعنى أن من صفى جوهره نفسه علم أن الموت ليس بموت على الحقيقة وأنه مثل اللاموت.

وكان النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ»^(١).

وكان الشيخ علي الكازروني رحمه الله يقول: من غلب نفسه فلا غالب له، ومن غلبته نفسه غلبه كل أحد اهـ.

واعلم يا أخي أن النفس كما قال سيدي علي الخوَّاص رحمه الله: إِذَا مُدِّحَتْ اتَّسَخَتْ، فَإِذَا ذُمَّتْ نَظَّفَتْ، وقد جاء في الخبر: «إِخْشُوا التُّرَابَ فِي وَجْهِهِ الْمَدَّاحِينَ»^(٢).

قيل في معناه: ادفعوا لهم شيئاً من الدنيا. وقيل: هو على ظاهره؛ لثلا يعود إلى المدح. فقد قيل: من مدحك فقد ذبحك بغير سكين.

وقال سيدي محي الدين قدس الله سره المتين: وطريقة ذلك أن تأخذ كفاً من التراب، وتلقيه برفق بين يدي المادح، وتقول: ما قدر من خُلِقَ من هذا حتى يُمدح أو ما معناه؛ تواضعاً بين يدي الله.

وقد ورد النهي عن المدح؛ لأنه من باب [التألي]؛ ففي الحديث: «إِنْ كَانَ لَابَدٌ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَكُونَ مَادِّحًا فَلْيَقُلْ: أَحَبُّ فَلَانَا لَكَذَا»^(٣) سيَّما إن كان المدح في وجه الممدوح لإحداثه الكبر والعجب عنده، ولذا ورد «قُطِعَتْ عَنْهُ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَ مَا أَفْلَحَ»^(٤)؛ لإطلاعه ﷺ على ما يحدثه ذلك المدح عند ذلك الممدوح، بخلاف من سلم من الأكدار، كالعشرة البررة من الأخيار^(٥) وكُمِّلَ الصحابة الأطهار المخلصين من داء الافتخار.

(١) لم أقف عليه في الكتب التي بين يدي.

(٢) ذكره الشوكاني في نيل الأوطار (٥/ ٢٤٠).

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة (٣/ ١٠٨).

(٤) رواه البخاري (٢/ ٩٤٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٦)، وأبو داود (٤/ ٢٥٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٨)، وأحمد (٥/ ٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢).

(٥) لعل المصنف -رحمة الله عليه- يريد العشرة المبشرين بالجنة وهم:

وإذا كان النبي ﷺ يخشى من التمداح على صحابيٍّ كاملٍ من صحابيٍّ عالمٍ عاملٍ عدم الفلاح فكيف يسوغ لنا سماع ذلك من أمثالنا والرضا به مع معرفتنا بهوء أفعالنا التي شهودها أفعى لنا وأعمالنا التي وقوفنا معها أعمى لنا، إلا إن كنا نرى نفوسنا تتأذى بسماع ذلك، وتذوب حياءً من السيد المالك الخبير العالم بما هنالك! وعلامة ذلك أن يقشعراً جلده، وينفطر كبده، وتضيق عليه المسالك، ثم يلزم أن يشكر الحق سبحانه؛ حيث ستر على المادح ظلام تفريطه الحالك.

وانظر قول عالم المدينة الإمام مالك رحمه الله ونَجَّانا بجاهه من المهالك لمطرف: ماذا تقول الناس في؟ قال: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع. فقال: ما زال الناس هكذا لهم عدوٌّ وصديقٌ، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة.

وكان رحمه الله يقول: إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه اهـ.

ولو بالكناية والتعريض في النظم والقريض، إلا إن قصد التحدث بنعمة الله، كما فعل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رحمه الله؛ فإنه صعد يوماً على المنبر فقال: «الحمد لله الذي صيّرني ليس فوقى أحد. فقيل له: ما حملك على ما تقول. فقال: إظهار الشكر، ثم نزل»^(١).

ولكن للنفس هنا دسائسٌ تخفى على الكثير ممن يدعي الجدّ والتشمير؛ فأخرج يا أخي بمن ينكيك^(٢) بكلمة الحق ويبكيك، لا بمن بالمدح الذي هو عين القدح يغريك ولما ليس فيك يعزيك؛ فإنه لصٌّ يُعريك ولا يعزيك، ودع عشرة من يفريك بما فيه يعريك فرفقة ذا تهدم البنا وتورث العنا لا الغنا، ويتودع منك الطريق، والسلام يُفريك.

أبو بكر الصديق - عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - علي بن أبي طالب - سعد بن أبي وقاص - عبد الرحمن بن عوف - الزبير بن العوام - طلحة بن عبد الله - أبو عبيدة بن الجراح - سعيد بن زيد رضي الله عنهم جميعاً وعنا بهم.

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (١٦/٦).

(٢) من نكأ الجرح أي أدماه.

فإيّاك أن تكون ممن عانق عائق النهوض، ورافق معلول المقاصد مغلول المراسد
مكلفاً مخ البعوض، يتلقى الركبان، ويتمنى حصول الأمانى قبل مجيء الإبان، وإذا ظفرت
بناصح في هذا الزمان فاعرف قدره، وعصّ عليه بالنواجذ، وغمّض عليه الأجفان؛ وقد
قيل: من لم يُربّه الأبوان ربّاه الملوان^(١).

وأنشد بعضهم في المعنى لكلّ ساء غير نبهان:

مَنْ لَيْسَ يُبْكِيهِ نَاصِحُوهُ يَضْحَكُ مِنْ حَالِهِ عَدَاؤُهُ
أَدَبُهُ حَادِثُ اللَّيَالِي مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ وَالِدَاؤُهُ

ومن الحقّ البيّن أن يغترّ الممدوح بقول من ظن فيه الخير، ويترك ما عنده من اليقين
بعدم حسن السير، فكم جاهل بسيف المدح مقتول! لظنه أن ثناء الناس عليه يمنح المقام
وأنه مقبول.

عودة على بدء

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني في منته: وممّا منّ الله به عليّ نفرة طبعي ممن يمدحني
في المجالس بنظمٍ أو نثرٍ، من حيث خوفي من رؤية النفس لمثل هذا. ثمّ إنّي أشكر الله على
إطلاقه بعض السنة عباده بمدحي مع عدم استحقاقي لذلك، ثم بعد ذلك أيضًا أفتش
نفسي؛ فربما كان حبّ المدح كامناً فيها، فيورثني المدح بعض زهوٍ وعُجبٍ، فأحجب عن
مقام العبودية.

وكان سيدي عليّ الخوّاص رحمته الله يقول: إذا رأيت نفسك على قدم الاستقامة ثم
مدحك إنسانٌ فتعرّف من الله تعالى سبب ذلك. فربما علم من نفسك حب المدح لها على
عبادتها فأعطاك ذلك، ويكون هو حظّك منه تعالى، كما يفرح الولد الصغير بالجلالجل
والشخاشيخ. ثم يقول لنفسه: لو علم الله منك الإخلاص والاكتماء بعلمه لأخفاك ولم
يبعث لك من يمدحك؛ إذ لا يساق بالترغيب والترهيب إلى الطاعة إلا من يعبد الله على

(١) الملوان: الليل والنهار، الواحد منهما ملا.

حرفي، وما مدَحَ الأنبياء إلا ليعلمنا بمقامهم حتى نقبل منهم ما جاءوا به من الهدى، لا لترغيبهم في الطاعة كغيرهم؛ إذ لا يحتاج إلى الترغيب إلا من كان محجوباً؛ فافهم.

وكان سيدي علي الخَوَاص يزجر من يمدحه أشد الزجر؛ غيرَةً لجناب الله ﷻ أن يشاركه أحدٌ في صورة المدح، مع أن مشهده أن جميع الصفات التي مُدح عليها إنما هي لله بالأصالة؛ لأنه خالقها.

وكان يقول: إذا مدحني شخصٌ أكاد أذوب حياءً من الله؛ فإن مثلي لو نطقت كل ذرة من جميع الكائنات بهجوه لكان قليلاً.

وهذا المقام أعلى مما ذكره الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في حكمه حيث يقول: العارفون إذا مُدحوا انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحق، والعُباد إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم ذلك من الخلق^(١) اهـ.

والكامل من ينظر بالعينين لا بأحدهما، فينظر ذلك من الحق فيشكره، وينظر ذلك من الخلق فيخاف أن يكون استدرأجاً، فيستغفر.

وقد تحققت بحمد الله بنظري بهاتين العينين والحمد لله رب العالمين انتهى.

وكل من ادَّعى أن المدح والذم عند نفسه سيان لشهوده أن الأفعال كلها من الله المتان فليمتحن نفسه؛ فعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان:

كُلُّ مَنْ يُدَّعى بِمَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبَتُهُ شَوَاهِدُ الْامْتِحَانِ

وليزنها بالميزان الذي يطيش على الذر. وهو الحال الذي حكاه سيد الطائفة الفائق كلامه على الدر عن نفسه؛ حيث قال: لو جلس عن يميني أحبُّ الناس إليَّ يسمعي أطيب الكلام ويطعمني ألذَّ الطعام ويخزني بالنَّدِّ والعنبر، ثم جلس عن يساري أشدُّ الناس لي عداوةً يلقمني الحنظل ويسمعي أقبح الهجو، ويقرض لحمي بمقاريض من نارٍ ما زاد من على يميني، ولا نقص من على يساري؛ لشهودي كلاً من الحالتين من الله اهـ.

(١) أي أن السعادة التي ترد على أفئدة العارفين حال تقرّظهم لا لأنهم يستحقون الثناء وإنما لأنهم يشهدون المعطي الوهاب في سجايابهم التي هي محل التقريظ. والله أعلم.

ولا تركزنْ لمدح من أثنى عليك في حالة الرضا بما ليس فيك؛ فإنك إن أغضبتَه ذمَّكَ
بما ليس فيك ولا من إذا مدحته استقل مدحك واستصغر ، وإذا مدحك استعظم
واستكبر لغروره في نفسه أنه مقدّم في أبناء جنسه؛ فهو كما قال القائل:

وإذا كانتِ النفوسُ كبارًا تعبت في مرادها الأجسامُ^(١)
فكلُّ من صغر عند نفسه كبر في العيون، والضدُّ بالضدِّ؛ فاستفت قلبك وإن أفتاك
المفتون:

وما ينفعُ الأصلُ من هاشم إذا كانت النفس من باهلة^(٢)
فارحم نفسك يرحمك الرحمن؛ فقد جاء في الحديث المسلسل بالأولية عند أهل
الضبط والإتقان^(٣): «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَّن فِي
السَّمَاءِ»^(٤)، بأن تسلك بها سبيل هداها، وتحول بينها وبين هواها؛ فيرحمك الله رحمةً خاصَّةً
خارجةً عن الحد والمقدار؛ لرحمتك أقرب جارٍ.

وقد أمرك الشارع أن تدعو أولاً لنفسك؛ مراعاةً لحقها، ولأن الدعاء للغير ربما
يُورث إعجابًا بافتقار المدعوِّ له وذهولاً عن افتقار الداعي. فإذا بدأ بنفسه حصلت له صفة
الافتقار؛ فيقرب من الإخلاص، فهناك إذا دعا لأخيه كان حرًّا بالإجابة والاختصاص.
وكن مع الناس على نفسك إن أردت أن تسعدها عند الله، وإذا حبستها على القليل من

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي وفحواه أن ذوى النفوس الكبيرة والهمم العليا يتعبون أجسادهم في نيل مرادهم
وتحقيق طموحاتهم وقد يكبو بهم جواد الجسد دون الشوط. بيد أن الإمام المؤلف قد استنبط منه معنى جديد وهو
أن من يكبر في عين نفسه ويستعظم ذاته يهون في أعين الغير.

(٢) يريد المصنف رحمه الله أن يقول إذا كان أصل المرء في بني هاشم ونفسه رديئة خبيثة فذلك الأصل لا ينفعه.
وهل أغنى عن أبي لهب أصله!؟

(٣) وقد رويناه مسندًا من طريق الشيخ عبد العزيز الغماري رحمه الله، والشيخ محمد بن عجلان اليميني حفظه الله.

(٤) رواه الترمذي (٣٢٣/٤)، وأبو داود (٢٨٥/٤)، وأحمد (١٦٠/٢)، والبيهقي في الشعب (٤٧٦/٧)، وابن
أبي شيبه في المصنف (٢١٤/٥).

الدم تأمن كثيره؛ فإنك إن أطلقتها نازعت، وكثر لجأها، وإن أردعتها انقمعت، ونما معراجها.

وقد قال الأحنف في هذا المعنى: من لم يصبر على كلمة سمع كلماتٍ وربَّ غيظٍ قد تجرَّعته مخافة ما هو أشدُّ منه.

وقال بعضهم: من بدأ بنفسه أدرك سياسة الناس، ومن أصلح نفسه صلحت آخرته، وكان الناس تبعاً له. وأحسن العظاات ما بدأت به نفسك وأجريت عليه أمرك. وكل من رضي عن نفسه أسخط الله والناس عليه، ومن ظلمها كان لغيره أظلم، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم، وأكثر ما تقع المقاطعة بين الأصحاب والخلان من عدم الإنصاف، والاتصاف بأقبح الأوصاف الموجبة للخذلان، وعدم نظر العبد لمبتداه، فمن عرف مبتداه هان عليه منتهاه.

وأنشد أبو الطيب المتنبي ساعه الله:

ولم تزل قلةُ الإنصافِ قاطعةٌ بينَ الرجالِ ولو كانوا ذوي رحمٍ
وما أحسن الاعتراف ولو كان صاحبه من الأطراف، وما أقبح الاعتراف من قليب
الاقتراف ولو كان صاحبه من بني عبد مناف، وأنشدوا:

مَنْ مَشَى مَشْيَ يَتِيهِ وَنَسَى مَا كَانَ فِيهِ
سَوْفَ يَأْتِيهِ زَمَانٌ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ فِيهِ

واعلم يا أخي أن كل من لم يجاهد لم يشاهد، وكل من ليس له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، وكل من لم تكن في بدايته قومة^(١) لم تكن له في نهايته جلسة، وكل من ليس له خدٌّ يداس لم تكن له يدٌ تُبَّاس، وكل من لم تصف منه السريرة لا تحسن له مسيرة، وكل من مال مع الهوى الغدَّار آل أمره والعياذ بالله إلى النار، مثلما قالت النخلة للشبلي^(٢): كن

(١) المراد بالقومة هنا الإرادة والتشمير عن ساعد الجد.

مثلي، يرموني بالأحجار وأرميهم بالأنهار. قلت لها: ولم كان مصيرك إلى النار؟! قالت:
ليلي مع الهوى الغدار.

وكل من لم يشتغل بمجاهدة نفسه كان من أهل من شغل نفسه في الدنيا. ومن اشتغل
بمخالفتها ومجاهدتها ليرجعها راضية مرضية وأشغلها بالله كان من أهل شغل الله في
الآخرة؛ ففي الحديث: «أهل شغل الله في الدنيا هم أهل شغل الله في الآخرة، وأهل شغل
أنفسهم في الدنيا هم أهل شغل أنفسهم في الآخرة»^(١).

أي فكل من كان شغله بالله: أي مما يقرب إليه من طاعات وعبادات فهو في الآخرة
من أهل شغل الله: أي ممن شغله الله به عما سواه هناك، فأنعم عليه بمزيد قرب وشهود.

ومن كان من أهل شغل نفسه: أي ممن اشتغل بحظوظها وشهواتها كان من أهل
شغل نفسه في الآخرة: أي كان ممن اشتغل عن لذائذ النعم وعن المنعم سبحانه وتعالى بما
يوجب له من موافقتها هنا النقم. فالمجاهدة فيها من أفضل الجهاد، وقد جاء في الحديث
الشريف عن صاحب القدر المنيف: «أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله»^(٢)
رواه الديلمي عن أبي ذر.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ليس عدوك الذي إن قتلك أدخلك الجنة وإن قتلته كان لك نوراً،
ولكن عدوك نفسك التي بين جنبيك، وامرأتك التي تضاجعك في فراشك، وولدك الذي
من صلبك؛ فإن هؤلاء أعدى عدوك»^(٣) رواه الديلمي عن ابن مالك الأشعري.

وروى العسكري في الأمثال عن سعد بن أبي هلال مرسلاً: «ليس عدوك الذي يقتلك
فيدخلك الله به الجنة وإن قتلته كان لك نوراً، ولكن أعدى الأعداء نفسك التي بين

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٤١١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٦٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩)، والرافعي في التدوين (٣/ ١٣٣)، وذكره المناوي في فيض القدير
(٢/ ٣١).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٠٨)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ١٩٦)، والعجلوني
في كشف الخفا (٢/ ٢٢٢).

جنبيك^(١)؛ فجاهد فيها أيها المريد، وشمّر عن ساقى التجريد، وخاطر ببدل الروح؛ فما فاز إلا المخاطر الرشيد، وأشهر سيف العزم من غمده، وقف بالوصيد، وتقلّد بجعبة الإقبال، وارم العدا بنصال الاهتبال، واعتقل رمح الحزم؛ لتفوز بالتأييد؛ فطالب الشهد يبذل الجهد، فكيف طالب شهود الشهيد!.

قال العارف المجيد الغارف من بحر معرفة المجيد:

وَمَنْ يَخْطُبُ الْحَسَنَاءَ يَسْخُو بِمَهْرِهَا وَطَالِبُ شَهِيدٍ لَمْ تُخَفْهُ اللَّوَايِعُ

وإذا لم تكن ممن يفهم فمن أهله تفهّم، واسأل أهل الذكر إن كنت لا تعلم؛ فمن لم يعلم وجب عليه أن يتعلّم؛ ليسلك بنور العلم السبيل الأسلم والمنهج المبهج الأقوم.

قال سيدي محمد البكري الأفخم: فتفهم تعلم، وجاهد تشاهد يا مريدي، ومن مزيدي تُعطى.

وفي منتخب كنز العمّال للفتي الهندي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وكنز العمال هو الذي جمع فيه بين منهج العمّال والإكمال، وقد رتب فيه كتاب منهج العمّال في سنن الأقوال الجامع الصغير وزوائده وفي الإكمال الجامع الكبير، ثم جمعها وسمّاه [...] ^(٢) ثم بوّب أقسام الأفعال من الجامع الكبير، وسمّاه «مستدرك الأقوال بسنن الأفعال»، ثم جمع بين كتاب غاية العمّال والمستدرك وسمّاه «كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال»، ثم حذف المكرر منه، وحرره وسمّاه «منتخب كنز العمّال».

عن ليث بن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم، فنزع ثيابه، فتمرغ في الرمضاء، ويقول لنفسه: ذوقي نار جهنم، أجيفة بالليل وبطالة بالنهار! قال: بينما [هو] ^(٣) كذلك إذ

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٠٨/٣)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٦٠/١).

(٢) هكذا بالمخطوط: «وسماه»، ولم يذكر الاسم إلا إذا أراد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى الاسم الذي ذكر بعدئذ «مستدرك الأقوال بسنن الأفعال». وتبين أنه المراد حال مطالعة المخطوطة (ب) فله تعالى الحمد والمنة.

(٣) الضمير «هو» لم يرد بالمخطوطة (أ)، وورد بالمخطوطة (ب).

أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة، فأتاه، فقال: غلبتني نفسي فقال له النبي ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ، لَقَدْ فُتِحَتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ بَاهَى^(١) بِكَ الْمَلَائِكَةُ. ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ. فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُولُ: يَا فُلَانُ ادْعُ لِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عُمَّهُمْ. فَقَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ التَّقْوَى زَادَهُمْ، واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ^(٢). فقال: واجعل الجنة مأواهم ومآبهم^(٣)».

عن بريدة قال: «بينما النبي ﷺ في مسير له إذ أتى على ظهر رجل يتقلب ظهراً لبطن في الرمضاء، ويقول: يا نفس نومٌ بالليل وبالنهار، وترجين أن تدخل الجنة. فلما قضى ذات نفسه أقبل إلينا، فقال: دُونَكُمْ أَحَاكِم. قلنا: ادْعُ الله يرحمك الله. قال: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَلَى الْهَدَى أَمْرَهُمْ. قلنا: زِدْنَا. فقال: اللَّهُمَّ اجْعَلِ التَّقْوَى زَادَهُمْ. فقال النبي ﷺ: زِدْهُمْ اللَّهُمَّ وفقهم. فقال: اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُمْ^(٤)» رواه أبو نعيم اهـ.

فإذا كان هذا بمجاهدة النفس ساعةً من نهار قد حصل له هذا الخير فكيف بمن وفق للمجاهدة فيها أغلب أحيانه وأتعبها في السير!.

قال سيدي محي الدين قدس الله سره في باب الوصايا، وهو آخر أبواب الفتوحات المكيّة الحاوية على عجائب الخبايا: وصية: عليك بالجهاد الأكبر، وهو جهادك هواك؛ فإنه أكبر أعدائك، وهو أقرب الأعداء إليك الذين يلونك، فإنه بين جنبيك، والله تعالى يقول:

(١) لعل الفاعل «الله» تعالى لم يثبت سهواً.

(٢) ورد بالمخطوطة (أ): «اللهم وفقه».

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٢٢)، والرويان في مسنده (١/ ٦١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨٥)، والحسيني في البيان والتعريف (٢/ ٦٤).

(٤) رواه ابن حبان كما في الموارد (١/ ٥٤٦)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ١٣٧)، وذكره الحسيني في البيان والتعريف (٢/ ٦٤).

﴿يَقَاتِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (التوبة: ١٢٣)، ولا أكفر عندك من نفسك؛ فإنها في كل نفس تكفر نعمة الله عليها من بعد ما جاءتها.

فإنك إن جاهدت نفسك في هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء، الذي إن قتلت فيه كنت من الشهداء الصالحين الأحياء الذين: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣٠) فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٩، ١٧٠)، وقد علمت فضل المجاهد في سبيل الله في حال جهاده حتى يرجع إلى أهله، إنه كالصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع إلى المجاهدة، وقد علمت بالحديث الصحيح أن: «الصَوْمَ لا مثل له»^(١)، وقد قام الجهاد في مقامه ومقام الصلاة، وثبت هذا عن رسول الله ﷺ، وهذا في الجهاد الفرض الذي يتعين ويعصي الإنسان بتركه لابد من ذلك.

ولا يزال العبد الناصح نفسه المستبرئ لدينه في جهادٍ أبداً لأنه مجبولٌ على خلاف ما دعاه إليه الحق، فإنه بالأصالة متَّبِعُ هواه الذي هو بمنزلة الإرادة في حقِّ الحقِّ، فيفعل الحق ما يريد، ولا تحجيرٌ عليه، ويريد الإنسان أن يفعل ما يهوى، وعليه التحجير، فما هو مطلق الإرادة. فهذا هو السبب الموجب لكونه لا يزال مجاهداً أبداً، ولذلك طلب أصحاب الهمم أن يلحقوا بدرجات العارفين؛ حتى تكون إرادتهم إرادة الحق: أي يريدون جميع ما يريده الحق، وهو ما الحق عليه، فيريدونه من حيث إن الله أراد إيجاده، ويكرهون منه بكراهة الحق ما كرهه الحق ووصف نفسه بأنه لا يرضاه؛ فهو يريده ولا يرضاه، ويريده ويكرهه في عين إرادته إن أراد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن كذلك فقد انسلخ من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك؛ فإنه غاية الحرمان، وهذا هو الحقُّ الممقوت، كما تقول في الغيبة: إنها الحق المنهَي عنه.

(١) رواه ابن حبان في الصحيح (٢١١ / ٨) بنحوه.

ثم قال:

وصية ونصيحة

قال ذو النون المصري: ليس بذى لبٍّ من كلس^(١) في أمر دنياه وحق في أمر آخرته، ولا من سَفَه في مواطن حلمه، وتكَبَّر في مواطن تواضعه، ولا من فقد منه الهوى في مواطن طبعه، ولا من غضب من حقٍّ إن قيل له، ولا من زهد فيما يرغب العاقل في مثله، ولا من رغب فيما يزهد الأكياس في مثله، ولا من استقل الكثير من خالقه ﷻ واستكثر قليل الشكر من نفسه، ولا من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره، ولا من نسى الله في مواطن طاعته، وذكر الله في مواطن الحاجة إليه، ولا من جمع العلم فعرف به ثم أثر عليه هواه عند متعلمه، ولا من قلَّ منه الحياء من الله على جميل ستره، ولا من أغفل الشكر من إظهار نعمه، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته، ولا من جعل مروءته لباسه ولم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفًا وتزيينًا في مجلسه.

ثم قال: أستغفر الله إن الكلام كثير، وإن لم تقطعه لم ينقطع، وقام وهو يقول: لا تخرجوا من ثلاثة: النظر في دينكم بإيمانكم، والتزوُّد لآخرتكم من ديناكم، والاستعانة في ربكم فيما أمركم وبه نهاكم.

ثم قال: ومن وصايا ذو النون^(٢) المصري لبعض الفتيان: يا فتى، خذْ لنفسك سلاح الملامة تلبس غداً سراويل الكرامة، واقصرها في روضة الأمان وذوقها مضض فرائض الإيمان تظفر بنعيم الجنان، وجرّعها كأس الصبر ووطنها الفقر حتى تكون تام الأمر.

(١) كلس أي كسدت وبارت تجارته.

(٢) هكذا بالمخطوطة (ب) والأدق ذى النون اتساقاً لقواعد اللغة وفي المخطوطة (ذى النون بعض الفتيان) دون حرف الجر.

فقال له الفتى: وأي نفس تقوى على هذا. فقال: نفسٌ على الجوع صبرت، وفي سربال الظلام خطرت، نفس ابتاعت الآخرة بالدنيا بلا شرط، ولا ثنا نفسٌ تدرّعت رهبانية القلق، ورعت الدُّجى إلى واضح الفلق، فما ظنُّك بنفسٍ في وادي الحنادس سلكت وهجرت اللذات، فملكت، وإلى الآخرة نظرت، وإلى العقبى أبصرت، وعن الذنوب أقصرت، وعن النُّز من القوت اقتصرت، ولجوش الهوى قهرت، وفي ظلام الدياجي سهرت، فهي بقناع الشوك متخمرة، وإلى عزيزها في غلس الدُّجى مشمّرة، قد نبذت المعاش، ورعت الحشاش، هذه نفسٌ خدومٌ، عملت ليوم القدوم، وكل ذلك بتوقيت الحى القيوم.

ثم قال: من وصايا بعض العارفين، قلت: هو ذو النون قدس سره^(١): لا تثق بمودة من لا يحبُّك إلا معصوماً، ومتى رأى منك معصيةً قلاك من صحبتك، ووافقك على ما يحبه، وخالفك فيما يكرهه؛ فإنما يصحب هواه، ومن صحب هواه فإنما هو طالبٌ راحة نفسه، يا معشر المريدين، من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل، والزُّهاد بالرغبة، وأهل المعرفة بالصمت^(٢).

قال الشعراني رحمه الله في طبقاته^(٣): قلت: وذلك ليزيدك العلماء علماً، والزُّهاد زهداً، والعارفون معرفةً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَلْصَقْتُ لِّلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠).

من وصايا الرسول ﷺ

ثم قال: وصايا نبوية، ومنها قال رسول الله ﷺ: «كَأَنَّ الْمَوْتَ عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهِ عَلَى غَيْرِنَا وَجِبَ، وَكَأَنَّ الَّذِينَ نَشِيعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ،

(١) بالمخطوطة (أ) [رضي الله عنه] وكذا (يحبّه)، (يكرهه) وكلها ألفاظ تسوق للمعنى.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٨٣٨٩)، (٦/ ٣٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٨/ ١٠).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (١/ ٦٠).

نبوئهم أجدائهم، ونأكل تراثهم كأنا مخلصون بعدهم، نسينا كل واعظية، وآمنا كل جائحة، طوبى لمن شغله عييه عن عيوب الناس، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية، وجالس أهل الفقه والحكمة، وخالط أهل الذل والمسكنة، طوبى لمن ذلت نفسه وحسنت خليقته، وطابت سريرته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من أقواله، ووسعته السنة، ولم تستهوه البدع»^(١).

ومنها: قال ﷺ: «أيها الناس، إن لكم (معالمًا)»^(٢)؛ فانتهاوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية؛ فانتهاوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى، ما يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقى، لا يدري ما الله قاضٍ فيه؛ فليأخذ العبد لنفسه من نفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا دارٌ إلا الجنة أو النار»^(٣).

ومنها: قال ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل، وعد نفسك في الموتى، وإذا أصبحت فلا تحدثها بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدثها بالصباح، وخذ من صحبتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لوفاتك؛ فإنك لا تدري ما اسمك غدا»^(٤).

ومنها: قال ﷺ: «يا أيها الناس، لا تشغلكم دنياكم عن آخرتكم، ولا تؤثروا هواكم على طاعة ربكم، ولا تجعلوا إيمانكم ذريعة لمعاصيكم، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا،

(١) رواه البيهقي في الشعب (٣٥٥ / ٧)، وابن عدي في الكامل (٣٨٤ / ١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٩ / ١٠).

(٢) معالم: ممنوع من الصرف.

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٢٧٨ / ٥)، والبيهقي في الشعب (٣٦٠ / ٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٢ / ٢)، وابن المبارك في الزهد (١٠٢ / ١)، وذكره القرطبي في التفسير (١١٦ / ١٨).

(٤) رواه البخاري (٢٣٥٨ / ٥)، والترمذي (٥٦٧ / ٤)، وأحمد (٢٤ / ٢)، وابن حبان في الصحيح (٤٧١ / ٢)، والبيهقي في الكبرى (٣٦٩ / ٣)، والديلمي في الفردوس (٣٧٩ / ٥)، وأبو نعيم في الحلية (١١٥ / ٦).

وَمَهَّدُوا لَهَا قَبْلَ أَنْ تُعَذِّبُوا، وَتَزَوَّدُوا لِلرَّحِيلِ قَبْلَ أَنْ تُزْعَجُوا؛ فَإِنَّا هُوَ مَوْقِفٌ عَدْلٍ،
وَاقْتِضَاءٌ حَقٌّ، وَسَوَالٌ عَنْ وَاجِبٍ، وَلَقَدْ بَلَغَ الْإِعْذَارُ مِنْ تَقَدُّمِ فِي الْإِنْذَارِ»^(١).

ومنها: قال ﷺ: «حَلُّوا أَنْفُسَكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَالْبُسُوهَا قِنَاعَ الْمَخَالِفَةِ، وَاجْعَلُوا آخِرَتَكُمْ
لَأَنْفُسِكُمْ، وَسَعِيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَنْ قَلِيلٍ رَاحِلُونَ، وَإِلَى اللَّهِ صَائِرُونَ وَلَا
يَغْنِي عَنْكُمْ هُنَالِكَ إِلَّا صَالِحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوهُ أَوْ حَسَنُ ثَوَابٍ أَخَّرْتُمُوهُ؛ إِنَّكُمْ إِنَّمَا تَقْدُمُونَ
عَلَى مَا قَدَّمْتُمْ، وَتَجَازُونَ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ، وَلَا تَخْدَعُنْكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دُنْيَةٍ عَنْ مَرَاتِبِ جَنَاتٍ
عَلِيَّةٍ، وَكَانَ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ، وَارْتَفَعَ الْارْتِيَابُ، وَلَاقَى كُلُّ امْرِئٍ مُسْتَقَرَّهُ، وَعَرَفَ مَثْوَاهُ
وَمَقِيلَهُ»^(٢).

ومنها: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاءٍ وَمَنْزِلُ قَلْقٍ وَعِنَاءٍ، قَدْ نُزِعَتْ عَنْهَا
نَفُوسُ السَّعْدَاءِ، وَإِنْ نُزِعَتْ بِالْكَرِهِ مِنْ أَيْدِي الْأَشْقِيَاءِ، وَأَسْعَدَ النَّاسِ بِهَا أَرْغَبُهُمْ عَنْهَا،
وَأَشْقَاهُمْ بِهَا أَرْغَبُهُمْ فِيهَا، هِيَ الْغَاشَةُ لِمَنْ انْتَصَحَهَا، وَالْمَغْوِيَّةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا، وَالْخَائِرَةُ لِمَنْ
انْقَادَ بِهَا، وَالْفَائِزُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا، وَهَالِكُ مَنْ هَوَى فِيهَا، طُوبَى لِعَبْدٍ اتَّقَى فِيهَا رَبَّهُ،
وَنَصَحَ فِيهَا نَفْسَهُ»^(٣)، وَقَدَّمَ تَوْبَتَهُ، وَأَخَّرَ شَهْوَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفِظَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَيَصْبُحُ
فِي بَطْنٍ مُوَحِّشَةٍ غِبْرَاءَ مَدْلَهْمَةِ ظُلْمَاءٍ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي حَسَنَةٍ أَوْ يَنْقُصَ فِي سَيِّئَةٍ، ثُمَّ
يُنْشَرُ، فَيُحْشَرُ إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ يَدُومُ نَعِيمُهَا أَوْ نَارٍ لَا يَنْفَكُ عَذَابُهَا وَالْيَمِيمَا»^(٤).

ومنها: قال ﷺ: «سَمُّرُوا؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَدٌّ، وَتَاهَبُوا؛ فَإِنَّ الرَّحِيلَ قَرِيبٌ، وَتَزَوَّدُوا؛ فَإِنَّ
السَّفَرَ بَعِيدٌ، وَخَفَّفُوا أَثْقَالَكُمْ؛ فَإِنَّ وِرَاءَكُمْ عَقَبَةً كَوْودًا لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا الْمَخَفُّونَ، أَيُّهَا
النَّاسُ، إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أُمُورًا شَدَادًا وَأَهْوَالًا عَظَامًا، وَزَمَانًا صَعْبًا، تَتَمَلَّكُ فِيهِ الظُّلْمَةُ،

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٤/٣٥٣).

(٢) رواه البيهقي في الزهد (٢/٦٨)، وابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين (١/١٩)، وذكره العجلوني في
كشف الخفا (١/٤٩٤).

(٣) بالخطوط (أ): «طوبى لعبد اتقى ربه ونصح نفسه» والمعنى قريب في الحالتين.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/٢٦٢).

وتتصدّر فيه الفسقة، فيضطهدُ الأمرون بالمعروفِ ويضاهون الناهون عن المنكرِ فأعدوا لذلك الإيمان، وعَضُّوا عليه بالنواجذ، والجاؤا إلى العمل الصالح، وأكروهوا عليه النفوس، واصبروا على الضراء تفضوا إلى النعيم الدائم»^(١) اهـ.

ومن الوصايا النافعة التي تحط عنك الخطايا، وتمنحك جزيل جميل العطايا، وتتحفك بجميل الهدايا، وتصيّرُك ممن خُصَّ بأرفع المزايا، وتُهديك مزوى الخبايا ملازمتك على مطالعة باب الوصايا، مع العمل بها فيه من المواعظ الكريمة السجايا، واهد منشئه، وافر الأشية ووافي التحايا.

ولقد قلت في مدحه مرتجلاً:

أقول لمن يرومُ النصحَ منِّي وأنْ أهديه في هذى الخبايا
وصايا الأكبري بها تمسك فما بعد الوصايا من هدايا
وقلت فيه أيضاً:

كتابُ الوصايا من يعاينه يفتدى علوماً لقد وافت شراباً ومنهلاً
ويحظى بأنس الأنس في خلوة الرضا ويُسقى رحيقاً في المحبة مذهلاً
ومن لم يمارسْ درسه مُتخلِّقاً بما فيه يمضي العمرُ منه سهلاً

تحقيق ما نسب إلى سيدي الشيخ الأكبر من القول بإيمان فرعون

ولقد حُبَّبَ إليَّ أن أسرد هنا عقيدة الشيخ التي ذكرها أول فتوحاته ليردّ الواقف عليها إلى تأويلٍ كلما أشكل عليه من كلماته؛ فإننا إذا علمنا من إنسان حسن العقيدة وجب علينا أن نحمل جميع أقواله على المحامل السديدة، وما أعجزنا تأويله قلنا: ربما يكون مدسوساً على الشيخ، كالقول بإيمان فرعون؛ فإن الشعراني رحمته الله نصّ عليه أنه مدسوسٌ عليه، وإذا قلنا بصحة نسبته إليه فنحمله على أن ذلك بحث منه لا اعتقاد؛ إذ قد مثل به في

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٧٦/١)، والرافعي في التلويح (٩٥/١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/١٠).

فتوحاته عن ذكر المخلّدين في النار، وقد يكون أراد بإيمان فرعون إيمان النفس؛ لأنها في اصطلاحهم يقال لها: فرعون.

وقد أنشد الشيخ رحمه الله في ذلك [دوبيت]^(١):

قلبي قطبي وقالبي لبناتٍ سرّي «خضري» وعينه عرفاني
«هارون» عقلي «وكلمي» روعي «فرعون» نفسي والهوى «هاماني»
ووجه شبهها به ادّعاؤها الألوهية.

وقد قال بعض الأسيّاح: كل النفوس دعوى الألوهية مركزٌ فيها، ولكن لم تظهر هذه الدعوى في الظاهر إلا على لسان فرعون، وبتقدير صحة إسناده له فقد سبق الشيخ إلى القول بإيمانه بعض علماء المالكية.

فإن قلت: وكيف مشى أكثر شرّاح الفصوص على القول بإيمانه.

قلنا: حملاً منهم لكلام الشيخ على ظاهره دون تأويل لبناء الشيخ الكتاب على كشفه وعيانه. ومنهم من أوّل ذلك وحمله على البحث لا الاعتقاد، وهو الأولى بمقام فرد الأفراد. وختم الشيخ عبارته فيها بقوله: وأمره إلى الله، يشير إلى عدم القطع، فيزيل الاشتباه.

ومما استدل الشيخ على قبول إيمانه من طريق البحث لا الاعتقاد بقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤)، وقال: فإن الله لا يرجو ما لا يقع.

فإن قلت: يمكن أن يتذكر أو يخشى ولا يؤمن.

قلنا: لكن هل يسمّى غير المؤمن بالخاشع المتذكر مع قول الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، وإنما يتذكر، فتدبر.

(١) الدو بيت هو ضرب من ضروب الشعر كالرباعيات ويكون كل بيتين فيه على قافية واحدة مختلفة عن ما بعدها

وقد أيد كلام الشيخ الجلال الدواني رحمته الله وإن ردَّ عليه الشيخ علي القاري في رسالة «قر العيون عن مدَّعي إيمان فرعون»^(١).

ودليل الشيخ في هذه المسألة بعد صحة نسبتها له وبعض اجتهاداته الكشف والعيان المؤيد بالقوى أو الضعيف من البرهان، فالذي ينبغي لكل مُنصفٍ ذي إذعانٍ أن يتبع ما عليه الجمهور من الأعيان؛ فإن يد الله مع الجماعة، ولا تجتمع الأمة على ضلالة؛ إكرامًا لإمامها الذي جاءها بالرسالة، واللازم على كل معتقِدٍ أو متقِدٍ أن يتبع السواد الأعظم، ولا يقلدُ الشيخ في هذه المسألة، فيسلك السبيل الأفخم بالنسبة لمن لم يكشف له عنها كما كشف للهِمام الأفخم، بل يقتدي بالجَمِّ الغفير؛ فإنَّه الطريق الأسلم، وهذا الذي ندين لله به، والله سبحانه وتعالى أعلم.

عقيدة سيدي محيي الدين بن عربي المطابقة لعقيدة اهل السنة والجماعة

وأما عقيدة الشيخ الأستاذ المكرَّم المقَدَّم والملاذ المخصوص برسوخ القدم، فهي إخواني المؤمنين، ختم الله لنا ولكم بالحسنى، لما سمعت قوله تعالى: عن نبيه هود عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآسَهِدُوكُمُ أَنِّي بِرَيْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (هود: ٥٤)، فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بالوحدانية لما علم عليه السلام أن الله سيوقف العالم كله بين يديه، ويسألهم في ذلك الموقف العظيم الأحوال عَمَّا هو عالمٌ به لإقامة الحجَّة لهم أو عليهم حتى يؤدي كل شاهدٍ شهادته ويؤدي أمانته، والمؤذن يشهد له كل من سمعه، وبهذا يدبر الشيطان عند الأذان وله حصاص^(٢)، وفي رواية وله ضُراط^(٣) حتى لا يسمع نداءه، فيلزمه أن يشهد له، فيكون من

(١) هي رسالة في إيمان فرعون لجلال الدين محمد بن أسعد الصديقي الدواني، أولها: الحمد لله قابل توبة عبده إذا تاب، وشرحها علي القاري في كراستين، كما في كشف الظنون (٨٥٠).

(٢) رواه مسلم (٣٨٩)، أبو عوانة في مسنده (٢٧٩/١)، والبيهقي في السنن (٣٤٠/٢)، والدارقطني في السنن (٣٧٤/١).

(٣) رواه مالك في الموطأ (١٣٩) والبخاري (٥٧٣)، ومسلم (٥٨٥).

جملة من يسعى في سعادته، وهو عدوٌ محضٌ ليس له إلينا خيرٌ البتة، لعنه الله. وإذا كان العدو لا بدَّ أن يشهد لك بما أشهدته على نفسك لأن ذلك المشهد الحق يعطي ذلك لحقيقته فأحرى أن يشهد لك من هو وليك وحبيبك ومن هو على دينك، وأحرى أن تشهده أنت في دار الدنيا على نفسك بالوحدانية والإيمان.

فيا إخواني ويا أحبابي رضي الله عنا وعنكم يشهدكم عبدٌ ضعيفٌ مسكينٌ فقيرٌ إلى الله في كل لحظةٍ وطرفةٍ مؤلف هذا الكتاب ومُنشئه ختم الله لنا ولكم بالحسنى، أشهدكم على نفسه بعد شهادة الله وملائكته ومن حضر من الروحانيين أو سمع أنه يشهد قولاً وعقداً أن الله إلهٌ واحدٌ لا ثاني له، منزرةً^(١) عن الصاحبة والولد، مالك الملك، لا شريك له ولا وزير له، صانعٌ لا عدل معه موجودٌ بذاته من غير افتقارٍ إلى موجدٍ يوجده، بل كل موجودٍ مفتقرٌ إليه في وجوده؛ فإن العالم كله موجودٌ به، وهو موجودٌ بنفسه، لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه، بل وجودٌ مطلقٌ منزرةً قائمٌ بنفسه ليس بجوهرٍ فيقدر له المكان، ولا بعرضٍ فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسمٍ فتكون له الجهة والتلقاء، مقدَّسٌ عن الجهات والأقطار، مرئى بالقلوب: أي في الدنيا، والأبصار: أي في الآخرة، استوى على عرشه كما قال، وعلى المعنى الذي أراد، كما أن العرش وما حواه به استوى وله الآخرة والأولى، ليس له مثلٌ معقولٌ، ولا دلت عليه العقول، لا يحده زمانٌ، ولا يقدره مكانٌ، بل كان ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان، خلق التمكن والمكان، وأنشأ الزمان.

وقال: أنا الواحد الحيُّ، الذي لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفةٌ لم يكن عليها من صفة المصنوعات، تعالى عن أن تحله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده أو يكون قبلها.

بل يقال: كان ولا شيء معه؛ فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يُرام، ليس كمثل شيء. خلق العرش وجعله جهة

(١) ورد بالمخطوطة (أ): بل وجوده مطلق مستمر قائم بنفسه ولعل لفظ منزرة أدمى للصواب. وهو سبحانه تعالى وجوده (مطلق ومستمر ومنزرة) وليس كمثل شيء. وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك.

الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسع الأرض والسماء، اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء. أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وأبلى^(١) الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناً، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاً، وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه؛ فلا تتحرك ذرة منه إلا إليه، وعنه خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجبٍ أوجب ذلك عليه، لكن علمه سبق، فلا بد أن يخلق ما خلق؛ فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً وهو خلقه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤). علم الأشياء قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء، لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكّم عليها من شاء، وحكمها علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع أهل النظر الصحيح والاتفاق؛ فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله عما يشركون، فعّال لما يريد؛ فهو المرید للكائنات في عالم الأرض والسماوات، لم تتعلق قدرته تعالى بإيجاد شيء حتى أراد، كما أنه لم يرد سبحانه حتى علمه؛ إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حيٍّ، كما يستحيل أن تقوم هذه الصفات بغير ذاتٍ موصوفةٍ بها، فما في الوجود طاعةٌ وعصيانٌ.

ولا ربحٌ ولا خسرانٌ، ولا عبدٌ ولا حرٌّ، ولا بردٌ ولا حرٌّ، ولا حياةٌ ولا موتٌ، ولا حصولٌ ولا فوتٌ، ولا نهازٌ ولا ليلٌ، ولا اعتدالٌ ولا ميلٌ، ولا برٌّ ولا بحرٌّ، ولا شفعٌ ولا وترٌ، ولا جوهرٌ ولا عرضٌ، ولا صحةٌ ولا مرضٌ، ولا فرحٌ ولا ترحٌ، ولا روحٌ ولا شبحٌ،

(١) ورد بالمخطوطة (أ): «وخلق الخلق، وخلق الذي خلق» وإذا كان لفظ «أبلى» من الابتلاء بمعنى أخبر فهو سديد. وإن كان بمعنى أهلك من البلاء فإن هلاك الخلق يكون في الآخرة وبإذن الله تعالى ولا غرو أن من خلق على الهلاك قادر وكل شيء عنده بمقدار.

ولا ظلامٌ ولا ضياءٌ، ولا أرضٌ ولا سماءٌ، ولا تركيبٌ ولا تحليلٌ، ولا كثيرٌ ولا قليلٌ، ولا غداةٌ ولا أصيلٌ، ولا بياضٌ ولا سوادٌ، ولا رقادٌ ولا سهادٌ، ولا ظاهرٌ ولا باطنٌ، ولا متحركٌ ولا ساكنٌ، ولا يابسٌ ولا رطبٌ، ولا قشرٌ ولا لبٌ.

ولا شيءٌ من هذه النسب المتضادات منها والمتخلفات والمتماثلات إلا وهو مرادٌ للحق تعالى، وكيف لا يكون مرادًا له وهو أوجده؟! فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادًا لأمره، ولا معقبٌ لحكمه، ﴿قُلِ اَللّٰهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦)، [ويضل من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن]^(١). لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئًا لم يردّه الله أن يريدوه وما أرادوه، أو يفعلوا شيئًا لم يرد الله إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه؛ فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه موصوفًا بهذه الإرادة أزلاً.

والعالم معدومٌ غير موجودٍ، وإنه ثابتٌ^(٢) في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكيرٍ ولا تدبُّرٍ من جهلٍ، فيعطيه التدبير والتفكير على ما جهل وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق، وتعين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجده عليه من زمانٍ ومكانٍ وأكوانٍ وألوانٍ؛ فلا مريد على الحقيقة سواه؛ إذ هو القائل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الإنسان: ٣٠)، وأنه سبحانه كما علّم فأحكم وأراد فخصّص وقدّر فأوجد.

فكذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعيد؛ فهو القريب، ولا يحجب بصره القريب، فهو البعيد. يسمع كلام النفس في النفس وصوت المماسّة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلمات، والماء في

(١) وردت الآية الكريمة في المخطوطة (أ) على أنها اقتباس وبضمير الغائب «يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء...» ولا شك أن الإتيان بنص الآية الكريمة أوقع.

(٢) ما بين القوسين لم يرد بالمخطوطة (أ).

الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير. تكلم سبحانه لا عن صمتٍ متقدّم ولا سكوت متوهمٍ بكلامٍ قديمٍ أزليٍّ، كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، تكلم به موسى^(١)، سمّاه التنزيل والزيور والفرقان والتوراة والإنجيل من غير حرفٍ ولا صوتٍ ولا بغمٍ ولا لغاتٍ، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات من غير تشبيهٍ ولا تكييفٍ؛ فكلامه سبحانه من غير لهاتٍ ولا لسانٍ. كما أن سمعه من غير أصمخيةٍ ولا آذانٍ، كما أن بصره من غير حدقةٍ ولا أجفانٍ، كما أن إرادته تعالى من غير قلبٍ ولا جنانٍ، كما أن علمه من غير اضطرارٍ ولا نظيرٍ ولا برهانٍ.

كما أن حياته من غير بخارٍ وتجويفٍ قلبٍ حدث عن امتزاج الأركان.

كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان؛ فسبحانه سبحان من بعيدٍ دانٍ عظيم السلطان، هميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو عن جوده فائضٌ، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبرٌ معه في ملكه، إن أنعم فنعم ذلك فضله، وإن أبلى وعدب فذلك عدله، لم يتصرف في ملكه غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكمٌ، فيتصف بالجزع لذلك والخوف. كل ما سواه تحت قهر سلطانه ومتصرف عن إرادته وأمره؛ فهو الملهم نفوس المكلفين بالتقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء والآخذ به من شاء هنا، وفي يوم النشور لا يحكم عدله في فضله، ولا فضله في عدله.

أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترضٌ هناك؛ إذ لا موجد كان ثمَّ سواه، فالكل تحت تصرف أسمائه، فقبضة تحت تصرف أسماء بلائه، وقبضة تحت تصرف أسماء آلائه، ولو

(١) المراد سيدنا موسى عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء المرسلين صلوات الله عليهم جميعاً فكلهم مكلمون بكلام قديم فكانت التوراة للكليم موسى والزيور للنبي الملك داود، والإنجيل كلمة الله عيسى، والفرقان لسيد المرسلين محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وربما اقتصر المؤلف رحمه الله تعالى على موسى عليه السلام إذ أنه الأسبق في الزمان.

أراد تعالى أن يكون العالم كله سعيدًا لكان، أو شقيًا لما كان من ذلك في شان، لكنه سبحانه لم يرد، فكان كما أراد؛ فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبدل ما حكم عليه القديم.

وقد قال: هن خمسٌ وهن خمسون^(١): ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٩)؛ لتصرفي في ملكي، وإنفاذ مشيئتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهبٍ إلهيٍّ وجودٍ رحانيٍّ لمن يعتني الله به من عباده، وسبق له ذلك في حضرة إلهاده، فعلم حين اعلم أن الألوهية أعطت هذا التقسيم، وأنها من رقائق القدم، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجد بذاته إلا إياه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات: ٩٦)، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام: ١٤٩).

الشهادة الثانية

وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتبه من وجوده ذلك سيدنا ومولانا [وأغلانا وأعلانا]^(٢) وحبيبنا محمد ﷺ، الذي أرسله إلى جميع خلقه كافةً بشيرًا ونذيرًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٦)، فبلغ ﷺ ما أنزل إليه من ربه، وأدَّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة الوداع على كل من حضر من أتباعه، فخطب، وذكر، وخوف، وحذر، وبشر، وأنذر، ووعد، وأوعد، وأمطر، وأرعد، وما خصَّ بذلك التذكير أحدًا دون أحدٍ عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: «ألا هل

(١) هن خمس في الأداء خمسون في الأجر ورد هذا حال فرضية الصلاة على الحبيب المختار ليلة الزلفي في الإسراء والمعراج.

(٢) ما بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (أ) وإن كان سيدنا رسول الله هو أغلانا وأعلانا وما في ذلك أدنى ريب.

بَلَّغْتُ؟» فقالوا: بَلَّغْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال: اللَّهُمَّ اشْهَدْ وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِمَّا عَلِمْتَ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ مِمَّا جَاءَ بِهِ^(١).

فقرر أن الموت حقٌّ في أجلٍ مسمًى عند الله، إذا جاء لا يؤخَّر؛ فأنا مؤمنٌ بهذا إيمانًا لا ريب فيه ولا شك. كما آمنت وأقررت أن سؤال فتّاني القبر حقٌّ، وعذاب القبر حقٌّ، وبعث الأجساد من القبور حقٌّ، والعرض على الله حقٌّ، والحوض حقٌّ، والميزان حقٌّ، وتطايير الصحف حقٌّ والصراط حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، وفريقًا في الجنة حقٌّ، وفريقًا في السعير حقٌّ، وكرب ذلك اليوم على طائفةٍ حقٌّ، وطائفةٍ أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر حقٌّ، وشفاعة الملائكة حقٌّ، والنبیین والمؤمنين حقٌّ، وشفاعة أرحم الراحمين حقٌّ، وجماعة من أهل الكبائر يدخلون جهنم ثم يخرجون بالشفاعة منها حقٌّ، والتأييد للمؤمنين في النعيم المقيم حقٌّ، والتأييد للكافرين في العذاب الأليم حقٌّ، وكل ما جاءت به الكتب والرسول من عند الله عُلِمَ أو جُهِلَ حقٌّ، فهذه شهادتي على نفسي أمانةً عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلها حيثما كان، نفعا الله وإياكم بهذا الإيـان وتثبتنا عليه عند الانتقال إلى الدار الحيوان^(٢)، وأدخلنا دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين [دار]^(٣) سراييلها من قطران، وجعلنا من العصاة التي أخذت الكتب بالإيـان، ومن انقلب من الحوض وهو رَيَّان، وثُقِّلَ له الميزان، وثبت منه على الصراط القَدَمَان، إنه المنعم المحسان، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله؛ لقد جاءت رسل ربنا بالحق، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) رواه البخاري (٥٢/١)، ومسلم (٦١٨/٢)، والنسائي في الصغرى (٤٤٢/٢)، وأحمد في المسند (٣٧/٥)، وابن ماجه (١٢٩٧/٢)، والطبراني في الكبير (٣٥٨/١٢)، وفي الأوسط (٤٧/٣)، وابن حبان (٣١٣/١٣).

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَارْتَبِ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

(٣) هذه الكلمة ساقطة من (ب).

فانظر رحمك الله في هذه العقيدة العزيزة السديدة المفيدة، واحذر بعدها الإنكار، وأول ما أشكل من كلامه مما فاه به في حال [الغيبة^(١)] والإسكار^(٢)]، وإذا لم تستطع حمل ما أبداه من العلوم والأسرار فدعها، وسلم تسليم ما لم تفهمه من عبارات أهل الأذكار، وكن كما قال الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: الإنكار فرع من النفاق.

قال الشعراني رحمه الله: قلت: وذلك لأن المنافقين لو لم ينكروا على محمد ﷺ لآمنوا به ظاهراً وباطناً.

وكان الشيخ صاحب العقيدة رحمه الله يقول ما معناه: نحن لا ننكر على من ينكر علينا؛ لجهلهم معاني كلماتنا، ومن جهل شيئاً عاداه.

وكان رحمه الله يقول: كثيرٌ ما يهبُّ على قلوب العارفين نفحاتٌ إلهيةٌ، فإن نطقوا بها جهلهم كَمَل العارفين وردّها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر، وغاب عن هؤلاء أن الله كما أعطى أولياءه من الكرامات التي لها فرع المعجزات فلا بدع أن ينطق ألسنتهم بالعبارات التي تعجز العلماء عن فهمها اهـ.

(١) الغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحكام الخلق لشغل الحس بها ورد عليه من جناب الحق، حتى أنه قد يغيب من إحساسه بنفسه فضلاً عن غيره.

(٢) الإسكار: غيبة بوارِد قوي. وقد يعني رؤية الغير والغيرية، ويقابله صحو الجمع، وقد يفسر السكر بأنه حالة للنفس ترد عليها من عالم القدس تؤدي بها إلى ما هي بصده من النظام المتعلق بعالم الأجسام، بحيث يوجب الاختلال الواقع في الحركات والسكنات.

(٣) الغيبة والإسكار أو السكر أحوال العارفين تسمى تارة (الجمع والفرق) أو (السكر والصحو) أو (الغيبة والحضور) فما ورد على ألسنتهم حينذاك فلا تعرض ولا تقلد وسلم لما تفهم وفوض فيما لم تفهم، يقول العارف:

فإذا جمعت فنوره لي حافظ وإذا فرقت فشرعه مجلسولي

قال الشعراني رحمه الله في أول طبقاته: قلت: ومن شك في هذا القول فلينظر في كتاب المشاهد للشيخ محي الدين، أو كتاب الشعائر لسيدي محمد وفا، أو كتاب خلع النعلين لابن قسي، أو كتاب عنقاء مغرب لابن العربي؛ فإن أكبر العلماء لا يكاد يفهم منه معنى مقصوداً لقائله أصلاً، بل هو خاصٌّ بخلقٍ دخل مع ذلك المتكلم حضرة القدس، فإنه لسان قدسٍ لا يعرفه إلا الملائكة أو من تجرّد عن هيكله من البشر أو أصحاب الكشف الصحيح، ومن نظمهم رحمهم الله:

سَائِلِي عَنْ عَقِيدَتِي أَحْسَنَ اللَّهُ ظَنَّهُ
عَلِمَ اللَّهُ أَمَّهُ شَهِدَ اللَّهُ أَنََّّهُ

وإذا ثبت دخول رجلٍ في الإسلام؛ فأخراجه عنه والطعن فيه موجبٌ لارتكاب أقبح الآثام. والحذر ثم الحذر من تكفير أحدٍ من أهل القبلة؛ فمن كفر مؤمناً فقد باء بالكفر، فكيف بمن نصّ على تمكنه في درجات الولاية أكابر العلماء ونحارير الحكماء وأساطين التحقيق وسلاطين التدقيق، ولقبه الشيخ أبو مدين الغوث بسلطان العارفين وترجمة أعيان الأولياء الذين هم في بحر المعارف غارقون لا كالعازفين، ومن ثبتت ولايته حرّمت محاربته؛ لحديث: «ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١) أي أعلمته أنّي له محاربٌ.

وقد كان الشيخ عز الدين رحمته الله يحط على الشيخ، فلما صحب سيدي أبا الحسن الشاذلي صار يترجمه بالولاية والعرفانية والقطبانية.

وقال الجلال الدواني: وأما من يقول بكون الشيخ محي الدين بن العربي من الملحدين فجعله ينادي عليه بالإلحاد؛ حيث تكلم على من لا يصل إلى كنه كلامه أساطين العلماء

(١) لعلها إشارة إلى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿آل عمران: ١٨-١٩﴾.

(٢) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، وابن حبان في الصحيح (٥٨/٢)، والطبراني في الكبير (١٢/١٤٥)، والبيهقي في الكبرى (٣/٣٤٦)، وفي الزهد (٢/٢٦٩).

(٣) يقصد سلطان العلماء العز بن عبد السلام الدمشقي.

ونحارير الفضلاء، وعجزت أفكارهم عن فهم أسرارهِ، والعجب أن تكلم بما لا يعلم حيث لم يعلم اصطلاحهم، ومن لم يعرف شيئاً أنكره اهـ.

وفتوى صاحب القاموس في حل قراءة كتبه وإقراءها مشهورة^(١)، وقد ذكرتها مع فتوى ابن كمال باشا، وبعض فتوى الحافظ العسقلاني، وعبارة الهيتمي في شرحه على الهمزية في «السيوف الحداد»^(٢)، وللسيوطي رحمه الله فيه رسالة سماها: «تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي». وجعل المذهب الذي ارتضاه فيها القول بولايته مع تحريم النظر في كتبه، وكأنه رحمه الله لما رأى دقة مدارك الشيخ وعسر فهمها على من لم يعاين اصطلاحاتهم ولا سلك طريقتهم التي تؤديه إلى الوصول لمنازل الحصول، وهى التي تدور على الفناء عن الأوصاف الذميمة وشهود الأفعال الكريمة والغيبة عنها بمنشئها ومجريها على أيديهم شهوداً ذوقياً عياناً حالياً، لا علماً ظنياً قالياً، وطريقة الفناء، كما قال السعيد بَلَّغَهُ اللهُ الْمُنَى: فيها العيان دون البرهان، منع من قراءتها خوفاً على العامة من الارتياب، وحسماً لمادة الإنكار عليه، وسدّاً لهذا الباب.

وهكذا كل من أنكر على الشيخ كالسعد والبقاعي والحافظ في أول أمره وغيرهم؛ فإن لهم مقاصد حسنة وملاحظ مستحسنة، فجزاهم الله خير الجزاء في دار الإقامة، ومنحهم على صالح نيتهم ما يرجونه في موطن السلامة^(٣).

(١) صنف مجد الدين الفيروزآبادي رسالة في الرد عن سيدي ابن عربي - يسر الله لنا - تحقيقها.

(٢) من كتب سيدي مصطفى البكري، طبع في القاهرة سنة ٢٠٠٧ بتحقيق الأخ المزيدي.

(٣) قد صنف في الدفاع عن سيدي ابن العربي جمع غفير من أهل العلم مثل: الشيخ المزجاجي في هداية السالك، والشيخ المصنف في المورد العذب، والشيخ شاه النقشبندى في فيض الحق الودود، والشيخ التابلسي والشيخ الشعراني في الرد المتين، والشيخ مجد الدين، والشيخ الكوراني في رسالتين، وغيرها مما هو تحت قيد التحقيق والدراسة لدفع شبه الجاهل للأمر من زاعم الانتساب إلى السلف الصالحين، أو من الفلاسفة الحمقى الملبسين، أو من الأشاعرة الجهلة بمذهب سيدي محي الدين، وحتى صوفية الكسالى غير العارفين بمنهج السادة ولا علم أهل الله المتحققين. وما أكثرهم في هذا الزمان، فتراهم كغثاء السيل، ينطق وراءهم كل ناعق، وما هم إلا أوعية في سوق.

واعلم أن التسليم لهذه الطائفة التي على كعبة الشهود طائفة قد عُذَّ من جملة الكرامات.

ولهذا قال بعض أكابرهم: إذا رأيت من يعتقد في هذه الطائفة فاسأله الدعاء؛ فإنه مجاب الدعوة.

وقال آخر: أخشى على المنكر سوء الخاتمة.

قال الشعراني رحمه الله في أوائل طبقاته: وقد ذكر الشيخ محي الدين في الفتوحات وغيرها أن طريق الوصول إلى علوم القوم الإيمان والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦): أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٣، ٢)، والرزق نوعان: روحاني، وجسماني، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢): أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون بالوسائط من العلوم الإلهية؛ ولذلك أضاف التعليم إلى اسم الله الذي هو دليل على الذات وجامع للأسماء والصفات والأفعال.

ثم قال رحمه الله: فعليك يا أخي بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة، ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة؛ إن ذلك إحالة للظاهر على ظاهره، ولكن لظاهر الآية والحديث مفهوم بحسب الناس وتفاوتهم في الفهم، فمن المفهوم ما جاءت له الآية أو الحديث ودلت عليه في عرف اللسان، وثُمَّ إفهام آخر باطنه يفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله عليه؛ إذ قد ورد في الحديث النبوي: «إِنَّ لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَحَدًّا وَمُطْلَعًا إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ وَإِلَى سَبْعِينَ»^(١).

فالظاهر: هو المنقول والمعقول من العلوم النافعة التي تكون بها الأعمال الصالحة.

(١) ذكره ابن عبد البر في التمهيد (٨/ ٢٨٢)، والقنوجي في أبجد العلوم (٧/ ٢).

والباطن: هو المعارف الإلهية.

والمطلع: هو معنى يتحد فيه الظاهر والباطن.

والحد: يكون طريقاً إلى الشهود الكلي الذاتي.

فافهم يا أخي، ولا يصدّنك عن تلقي هذه المعاني الغريبة عن فهوم القوم من هذه الطائفة الشريفة قولٌ ذي جدلٍ ومعارضةٍ؛ إن هذا الكلام إحالةٌ لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ؛ فإنه ليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالةً لو قالوا: لا معنى للآية الشريفة أو الحديث إلا هذا الذي قلناه، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرّون الظواهر على ظاهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله في نفوسهم ما يفهمهم بفضلته ويفتحه على قلوبهم برحمته ومنته.

ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوه، كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السر لما جاء به ﷺ من الكتاب العزيز والسنة والأحاديث الشريفة؛ إذ الوليُّ لا يأتي قطّ بشرع جديد، وإنما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب والسنة الذي لم يكن يعرف لأحد قبله، ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق، ويقول: هذا لم يقله أحدٌ على وجه الدم، وكان الأولى أخذه منه على وجه الاعتقاد والاستفادة من قائله، ومن كان شأنه الإنكار لا ينتفع بأحدٍ من أولياء عصره، وكفى بذلك خسراناً مبيناً، وربما يفهم المعارض من اللفظ ضد ما قصده لافظه، كما وقع لشخصٍ من علماء بغداد أنه خرج يوماً إلى الجامع، فسمع شخصاً من شربة الخمر ينشد، ويقول:

إِذْ الْعَشْرُونَ مِنْ شَعْبَانٍ وَلَّتْ فَوَاصِلُ شَرْبٍ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ
وَلَا تَشْرَبُ بِأَقْدَاحِ صَغَارٍ فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَنِ الصَّغَارِ

فخرج هائماً على وجهه في البراري إلى مكة، فلم يزل على ذلك الحال حتى مات فما منع من سماع الأشعار والتغزلات إلا المحجوب الذي لم يفتح الله عيني فهم قلبه؛ إذ لو فتح الله عين فهم قلبه لنظر بصفاء الهمة، وسمع بثاقب الفهم ونور المعرفة، وأخذ الإشارة

من معاني الغيب، وأتبع أحسن القول بحسن ما سبق إلى سره، قال الله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ (الزمر: ١٧، ١٨).

وصف سيدي أبي الحسن الشاذلي حال ابن تيمية

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمته الله: ولقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصاً أهل الجدل، فقلّ أن تجد منهم أحداً شرح الله صدره للتصديق بأحد معين، بل يقول: نعم، إن الله أولياء وأصفياء موجودون، ولكن أين هم؟! فلا تذكر له أحداً إلا ويأخذ بدفعه ويردّ خصوصية الله له، ويطلق اللسان بالاحتجاج على كونه غير وليّ الله تعالى، وغاب عنه أن الولي لا يعرف صفاته إلا الأولياء، فمن أين لغير الولي نفي الولاية عن إنسان؟! ما ذاك إلا محض تعصب، كما ترى في زماننا هذا من إنكار ابن تيمية علينا وعلى إخواننا من العارفين.

فاحذروا يا أخي ممن هذا وصفه، وفر من مجالسته فرارك من السبع الضاري، جعلنا الله وإياكم من المصدقين لأوليائه المؤمنين بكراماتهم بمنه وكرمه، آمين اهـ.

وقد تكفل كثير من الأشياخ بتأويل ما أشكل من كلمات القوم التي صحت نسبتها لهم، كما فعل الشعراني في منته، جعل الله الفردوس الأعلى محل مسكنه وغيره، آمين.

والحاصل: أننا مأمورون بحسن الظن بآحاد الناس، فما بالك بخاصتهم؟! وحمل المؤمن على الكمال هو وصف كَمَل الرجال، والذي ينبغي للمنصف أن يطرق كلام أخيه أوجهاً من الاحتمال، ويلوم نفسه إن بقي عندها احتقارٌ للقائل وعدم اهتبال، أو يطعن فيه بمجرد توهم أو عدم فهم، فينبّه إلى الضلال؛ فإن قذف المسلم كقتله، وسبابه كفر، وهو من باب التهويل والتشديد عن اقتحام هذا المحال.

قال العارف بالله ابن عطاء الله السكندري رحمته الله في كتابه لطائف المنن: وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمته الله:

استتار الرجال في كل أرض تحت سوء الظنون قدرٌ جليل
ما يضرُّ الهلال في حندس الليل سوادُ السحاب وهو جميل

ثم قال: وأشدُّ حجابٍ يحجب عن معرفة أوليائه شهود المائلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال سبحانه حاكياً عنهم: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣٣).

وقال سبحانه مخبراً عنهم: ﴿ أَبَشَرًا مِثَّنَا وَحِدًا نَنْبُعُهُ ﴾ (القمر: ٢٤).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٧)، وإذا أراد الله أن يعرفك بوليٍّ من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته.

وصية وإرشادٌ إياك أيها الأخ أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة والمستهزئين بهم، فتسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق وإخلاص الوفاء ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلّموا قيادهم إليه وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه. تركوا الانتصار لنفوسهم؛ حياةً من ربوبيته، واكتفاءً بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم. ثم نقل بعض عبارات الإمام أبي الحسن المتقدمة. عليه السلام عنهم، وعنا بهم

ومصادق ما ذكره في هذه الوصية من سماتهم العلية ما حكاه ذو النون المصري عليه السلام عن نفسه، قال: لما حملت من مصر في الحديد إلى بغداد لقيتني امرأة زمنية^(١)، فقالت: إذا دخلت على المتوكل فلا تنابه، ولا ترى أنه فوقك، ولا تحتج لنفسك محققاً كنت أو متهماً؛ لأنك إذا هبته سلط عليك، وإن حاججت عن نفسك لا يزدك ذلك إلا وبالاً؛ لأنك بهت الله فيما يعلمه، وإن كنت بريئاً فادع الله أن يتنصر لك، ولا تنصر لنفسك؛ فيكلك إليها. فقلت لها: سمعاً وطاعةً، فلما دخلتُ على المتوكل سلّمت عليه بالخلافة، فقال لي: ما تقول

(١) في المخطوطة (ب) ذمية، وفي المخطوطة زمنة أي مريضة ولعلها الأصوب.

فيما قيل فيك من الكفر والزندقة؟! فسكتُ، فقال وزيره: هو عندي بما قيل فيه. ثم قال لي: لم لا تتكلم؟! فقلت: يا أمير المؤمنين إن قلت لا، كذبتُ المسلمين فيما قالوه، وإن قلت نعم كذبتُ على نفسي بشيء لا يعلمه إلا الله مني، فافعل أنت ما تريد؛ فإني غير منتصرٍ لنفسي. فقال المتوكل: هو رجلٌ بريءٌ مما قيل فيه. فخرجت إلى العجوز، فقلت: جزاك الله خيرًا؛ قد قلت ما أمرتني به، فمن أين لك هذا؟! فقالت: من حيث خاطب الهدهد سليمان عليه السلام.

وكان عليه السلام يقول: من تقرب إلى الله بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه، وأغدق عليه الأنعام. فمن ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه، فإذا ترك المريد نفسه بالكلية عوضه الله عنها روحاً زكية، ومن دري وقرأ آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَرْبَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة: ١١١) علم أن المؤمن فضلاً عن المريد لا نفس له، فكيف يطالب المزيد؛ فإنها ملك الولي الحميد، كما قلت من قصيدة:

سَلَّمْتُ نَفْسِي لِلْحَبِيبِ وَلَيْسَ لِي تَسْلِيمُهَا إِذْ تَلَكَ مَلِكُ الْمَنَعِمِ
وكما أنه ليس للعارفين قلوب؛ لأن كلهم قد عاد قلباً بتجلي المحبوب، وأنشدوا يقولون:

لَا رَعَوْتَ قَلْبَكَ كَمَا رَعَوْا فَقُلْتَ وَهَلْ لِلْعَارِفِينَ قُلُوبٌ؟
كذلك لا نفس عند المريد حيوانيةً توجب الاجترا والسير إلى ورا لِيَتَخَلَّصَ مِنْ رُغُونَاتِهَا بِمَوْجِبِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾.

قال سيدي محي الدين بن العربي قدس الله سره في شرح اليوسفية^(١):

وأما قوله: (نبيع الكل في محبة الله) فبدلك على الخروج من نفسك؛ فإن نفسك هي التي تطلب الكل، وهذا الخطب هيئ؛ فإن أبا يزيد يقول في حق المؤمن: فأحرى المريد المؤمن لا نفس له. ففيل له في ذلك، فقال: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم فلا نفس له ولا مال؛ فإنه قد باعها إلى الله، واشتراها الله منه بحكم الوكالة من النفس

(١) قمنا بتحقيقه، وهو تحت قيد الطبع.

الناطققة. والنفس التي وقع فيها البيع أو الشراء هي النفس الحيوانية صاحبة الأغراض والشهوات، فاشتراها من المؤمن بوكالة النفس الناطقة، وعوضها بالجنة التي فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين، والحيوانية: هي صاحبة الشهوة، فتسلمت النفس الناطقة الجنة التي هي الثمن [وادخرتها عندها لهذه النفس الحيوانية، وردّها عليها، أبقى لها الثمن]^(١)، ولم يرجع الحق فيه، فوهبته النفس الناطقة لهذه النفس الحيوانية؛ فإنها صاحبة الشهوات والجنة دار الشهوات.

وقد فعل النبي ﷺ ذلك مع جابر بن عبد الله، كان معه في سفر، فاشترى منه ﷺ بعيه الذي كان عليه، فاشترط جابر على النبي ﷺ ظهره^(٢) إلى المدينة، فقبل الشرط، فلما وصل إلى المدينة وزن له ﷺ ثمن البعير، فلما قبضه وهبه البعير نفسه؛ فجمع له بين الثمن ورد البعير^(٣)، فهكذا فعل الله بالمؤمن الذي هي نفسه الناطقة لما اشترى منه النفس الحيوانية بالجنة أعطاه الجنة وردّ عليه النفس بالبعث فيها إلى يوم القيامة، بل عند قبضه إياها وهي الشهادة. فإن الشهادة وهي القتل في سبيل الله انتقال من يد البائع إلى يد المشتري من غير موت؛ فإن المقتول في سبيل الله ليس بميت، ولا يقال فيه: إنه ميت شرعاً؛ فإنه في نفس الأمر ليس بميت، فعندما انتقل ردّها الله على النفس الناطقة، كما ردّ النبي ﷺ الجمل على جابر عند وصوله، وأعطاه الثمن معاً، فوصف الله تعالى لنا ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وقال ﷺ في أرواح الشهداء: **إِنَّمَا تَعْلَقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ^(٤) : أَي تَأْكُلُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا**

(١) ما بين المعقوفين سقط من (ب).

(٢) أي اشترط أن يجعله النبي ﷺ يركب ظهر البعير إلى أن يصل إلى المدينة.

(٣) رواه البخاري (١١٢٣/٣)، ومسلم (١٢٢٣/٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦٧/١٠)، وأبو عوانة في مسنده (٢٥٥/٣).

(٤) رواه الترمذي في صحيحه، قال المنذري: أي ترعى من أعلى شجر الجنة وقال السيوطي: تأكل العلة.

للمقتولين في سبيل الله، وليس ثَمَّ من يدخل الجنة بالقتل إلا هؤلاء خاصةً اهـ^(١).

وورد أيضًا أن أرواحهم في حواصل طيور خضرٍ تسرح في الجنة حيث شاءت، هؤلاء شهداء المعركة^(٢).

وأما شهداء المحبة الإلهية فكلهم - أجساداً وأرواحاً - في تلك الحواصل يسرحون، وفي الجنة يمرحون.

وقد نقلنا حكاية سيدي عمر بن الفارض قدّس الله سرّه مع شيخه البقال في أواخر رسالة «تسليّة الأحزان وتصلية الأشجان» مع غيرها من الحكايات الحسان وبعض علامات المحبة، وما قال فيها عُرفاً أهل مقام الإحسان، وختمنا رسالة «الوارد الطارق واللمح الفارق» بالكلام عليها؛ لننبّه همة السالك للعروج عليها، وكررنا التكلّم في معناها؛ للتخريض على الارتفاع لمعناها في شرح ورد السحر الذي لمارِد الغفلة مِنْ تاليه نَحَر^(٣)، المسمّى بالضيء الشمسي على الفتح القدسيّ.

المحبة أصل من أصول الطريق

واعلم أن المحبة أصلٌ من أصول الطريق، بل هي قطب رحاه الذي يدور عليه كل مقامٍ رفيقٍ يسلكه أهل هذا الفريق؛ إذ عن الحب ظهر الكون بمن فيه^(٤)، وبدت للعيان خوافيه، ولولا الحب الأزلي ما وُجد شيءٌ ولا صحَّ طلب شيءٍ؛ فهو أصلٌ في وجود الأعيان أصيلٌ، وقد تفرعت عنه جميع الكائنات في مرتبتي الإجمال والتفصيل، حرمة حرم آمن (كطابة)^(٥) قدّس أن يحلّه دخیلٌ، ويَحْرُهُ لا يسمع له غطيظٌ، مديدٌ وافرٌ بسيطٌ عريضٌ

(١) رواه أحمد في المسند (٣٨٦/٦)، والحميدي في مسنده (٣٨٥/٢)، والخطيب في الكفاية في علم الرواية (٢٥٦/١)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠٧/٢).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٥٣٨/١).

(٣) أي الذي نحر مارد الغفلة في تاليه.

(٤) إشارة إلى الحديث القدس الذي ثبت عند أهل التحقيق الصوفية دون المحدثين لخباء طريقه: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق في عرفوني».

(٥) طابة وطيبة من أسماء مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

طويل^(١)، كل من دخله عاد من سُمْكِه فلم يخرج، ولا يدرك له قرا، كنز دُرّه لا يقنى^(٢)، ورمز سرّه لا يقنى، وبنائوه المحكم لا يفهم، ولا يميل، وسرّه المعجم لا يفهم ولا يقبل منه التأويل؛ إذ هو الأمر العجيب الغريب الذي يُعجز اللبيب النليل، وهو الذي متى خلا منه قلبٌ خرب، وهذا مما جرب، فصَحَّ فصَحَّ بالمماري، جَرَّبٌ وجانبٌ جانبٌ التخييل حديثٌ أهله مرفوعٌ موصولٌ غير مقطوع ولا موصوفٍ بالتعليل^(٣)، ودعمهم سلسبيلٌ على الخد من الجدِّ والكدِّ الجزيل، متواترةٌ أشجانهم، مشهورةٌ أحزانهم كالسيف الصقيل، يخطون ليحفظوا بطريق القرب والاجتماع بالحب، فيبدو لهم بياض نقِّي الخدِّ الأسيل، فيدهشون بالتولي، وينعشون بالتجلي، فلا قال لديهم ولا قيل. لا يعرف أحدهم للسلو طعماً، بل يصم عند كلام الغير، وعند رؤيتهم يعمى، وعليه يُغمى، ويخيل بسلو أحبابه بخيل جميل، اقباله جميلٌ لمن يكتسب منه الفعل الجميل، ذليلٌ ذليلٌ يتمسك بالنص الجلي - لا الإشارة - الدليل، كليل طرف وإكليل ظرف، من جمر الحب قتلٌ، وبخمر الحب ثميلٌ، عليلٌ غليلٌ، لم يدر كيف السبيل للظل الظليل، قد أبان العطف على محبوبه والبدل عن غير مرغوبه ومطلوبه لما تميز من يهواه بالاسم الجميل، وصرف عنائه عن غير أبوابه، واحتسى صرف أكوابه، وابتغى مزيد الفضل المجرد عن النقص والتغير والتبديل، وبنى على الأصول أساسه، وحفظ أوقاته وأنفاسه قبل أن يدعو داعي الرحيل.

قُرِنَتِ المحبةُ بالمحنة؛ لثلا يدعيها كلُّ بَطالٍ لم يقتحم منازل الأبطال، ولا درج في درج التكميل، فكان أولها جنوناً وأوسطها فنوناً وآخرها سكوناً، يصحبه تبئيلٌ. فكم تحت معانيها للمعاني من غرائب تدق على الأفهام! وكم نحت البلغاء قوافي من معاني مبانيها

(١) المديد، الوافر، البسيط، الطويل. كلها من بحور الشعر العروضية. وقد استعار المصنف أسماءها لبحر المحبة الإلهية. فله دره

(٢) قنى المال اكتسبه، والعبارة مضطربة في الاصلين. وأثبتنا المعنى بحسب ما لاح لنا من الصواب.

(٣) التعليل من قولهم حديث معلول أي حديث منسوب للنبي ﷺ لكن تلحقه علة من العلل التي تضعف الحديث.

يورث إيضاها الإبهام؛ إذ خَطَبُها عند خطبتها جليلٌ، ولأن الأمور الذوقية لا تدرك إلا بالذوق لا التخيلات العقلية، ولولا خوف الإطالة في هذا المختصر لأتينا بالمطول والأطول في التفصيل.

ولتقبض العنان؛ فقد بان العيان، ووضح التمثيل، ومتى ثارت نيران الحب في الفؤاد، وشجّع الجبان، وتكرّم البخيل، وحلم المتيقظ، وثبت الميال عن أن يميل، وجرت سلاسل المحبة إلى الإتيان بكل ما يوجب قربه، ومن ذلك مجاهدته في النفس الأمانة التي لم تزل ساعية في طلب الرئاسة والإمارة، الغافلة الرافلة في ثياب إعجابها، المغرورة تارةً بعلمها، وآونة بعملها، ووقتاً برفيع أحسابها وأنسابها، وليتها تنبّهت لقول السند الأعظم والسيد المعظم: «يَا معشر قريش، اشترُوا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، اشترُوا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١) رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة، ولقوله ﷺ: «إِنَّ الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس رجلان: مؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقيٌّ»^(٢)، ولقوله ﷺ: «لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ولا لأسودَ على أبيضَ إلا بالتقوى، الناسُ كلُّهم من آدمَ، وآدمُ من ترابٍ»^(٣) أخرجه أصحاب السنن.

(١) رواه البخاري (١٢٨٩/٣)، ومسلم (١٩٢/١)، والنسائي في الكبرى (١٠٨/٤)، وأحمد (٣٩٨/٢)، والبيهقي في الشعب (٣٧٩/٥)، وابن منده في الإبان (٨٧٩/٢)، والدارمي (٣٩٥/٢)، والدارقطني في العلل (٣٦٨/٩).

(٢) رواه الترمذي (٧٣٤/٥)، وأبو داود (٣٣١/٤)، وأحمد في المسند (٣٦١/٢)، والبيهقي في الشعب (٢٨٦/٤)، وهناد في الزهد (٣٢٩/١)، والديلمي في الفردوس (٣٠٤/٤)، وابن الأعرابي في التدوين (٦٢/٢)، والدارقطني في العلل (١٥٨/٨)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٤٣٣/٢).

(٣) رواه الترمذي (٧٣٥/٥)، وأبو داود في السنن (٣٣١/٤)، وأحمد (٥٢٣/٢)، والبيهقي في الشعب (٢٨٦/٤)، والديلمي في الفردوس (٣٠٤/٤)، وابن سعد في الطبقات (٢٥/١)، والدارقطني في العلل (١٥٨/٨).

فإن قلت: ألم ينص النبي ﷺ على أفضلية العرب على العجم وحرص على حبهم في أحاديث كثيرة؟!.

منها: قوله ﷺ: «أحبُّوا العرب لثلاث: لأنِّي عربيٌّ، وكلام الله عربيٌّ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربيٌّ»^(١).

ومنها: قوله ﷺ: «حُبُّ أبي بكرٍ وعمرَ من الإيمان، وبغضهم كفرٌ، وحُبُّ العرب من الإيمان، وبغضهم كفرٌ، وحُبُّ الأنصار من الإيمان، وبغضهم كفرٌ، ومن سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله، ومن حفظني فيهم فأنا أحفظه يوم القيامة»^(٢) رواه ابن عساكر.

ومنها: قوله ﷺ: «يا معشرَ الناسِ، أحبُّوا قريشًا؛ فإن من أحب قريشًا فقد أحبَّني، ومن أبغض قريشًا فقد أبغضني، وإنَّ الله تعالى حَبَّبَ إليَّ قومي، فلا أتعجل لهم نعمة ولا أستكثر لهم نعمة، اللَّهُمَّ إنك أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرها نوالاً، ألا إن الله علم ما في قلبي من حُبِّي لقومي فسرَّني فيهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ (الشعراء: ٢١٤) يعنى قومي، فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي والشهيد من قومي والأئمة من قومي، إنَّ الله قَلَّبَ العباد ظهراً وبطناً، فكان خير العرب قريشاً، وهى الشجرة المباركة، قال الله في كتابه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (إبراهيم: ٢٤): يعنى بها قريشاً أصلها ثابت، يقول: أصلها كرم وفرعها في السماء، يقول: الشرف الذي شرفهم الله به بالإسلام الذي هداهم له وجعلهم أهله، ثم أنزل فيهم سورة من كتابه محكمة: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۖ إِلَّا لَفِهُمْ رِجْلٌ ۚ وَالصَّيْفُ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢٤/٨)، والحاكم في المستدرک (٩٧/٤)، والطبراني في الكبير (١٨٥/١١)، وفي الأوسط (٣٦٩/٥)، والبيهقي في الشعب (٢٣٠/٢).

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٣٣٩/١)، والفردوس (١٤١، ١٤٢)، وابن عدي في الكامل (٧٣/٣)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٧٠/٣).

(سورة قريش)»^(١) رواه الطبراني وابن مروي عن عدي بن حاتم، كذا في الجامع الكبير للسيوطي.

ومنها: وقوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَقَدْ أَحَبَّنِي حَقًّا»^(٢) كما رواه أبو الشيخ، وقوله ﷺ: «حُبُّ الْعَرَبِ إِيْمَانٌ، وَبِغَضُّهُمْ نِفَاقٌ»^(٣) كما رواه الحاكم، وغير ذلك من الأحاديث.

قلنا: نعم، والأمر كذلك، ولا يشكُّ أحدٌ من الناس فيما هنالك. وهذا الأمر أوضح من نارٍ على علم، ولا أظنُّ أن يشكُّ فيه اثنان من العجم الفائزين بالاهتداء بأنوار النبي ﷺ العربي الهاشمي القرشي الأبطحي الثري، وهذه الأفضلية من جهة الخصوصية؛ فإن الشخصية والجنسية جامعةٌ بلا مرية، فلا مزية، وكم من أعجمي فاق كثيرًا من العرب بالعلم والتقوى لما تحلفوا عنهما، وتمسك بالسبب الأقوى؛ إذ النسب الديني مقدّمٌ على النسب الطيني، وهذا النسب هو الذي قرب به سلمان وبَعُدَ للبعد عنه العَمَانُ^(٤)، حتى قال سيّد كل حيٍّ وميتٍ: «سَلَمَانٌ مِّنَّا آلَ الْبَيْتِ»^(٥).

قال ابن حجر رحمته في شرح الحمزّة عند قول المؤلف: سدتّم الناس بالتقى، ودليل الثاني: أعني السيادة بالتقوى ما صحَّ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

(١) رواه الترمذي في النوادر (٣٣٣/١)، والطبراني في الكبير (٨٦/١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٩٥/٦)، والخطيب في التاريخ (٦٠/٢).

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٢٩١/٤)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٣، ٢٧/١٠).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٨٥/٥)، وفي الفضائل (٧٩٢/٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/٦)، والحاكم في المستدرک (٩٧/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٩٩/٦)، والبيهقي في الشعب (٢٣٠/٢)، وابن عدي في الكامل (٢٦٤/٤).

(٤) يريد عمي النبي ﷺ وهما أبو طالب وأبو لهب. رغم أن ثمة رسالة حول نجاة أبي طالب «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب». قلت [محمد نصار]: بل قد يقصد سوى أبي طالب من أبناء عبد المطلب كالزبير والحارث وجعل والمقوم وضار على ما في «الروض الأنف» للسهيلي. والله تعالى أعلم.

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٢١٢/٦)، والحاكم في المستدرک (٦٩١/٣)، والديلمي في الفردوس (٣٣٧/٢)، وابن سعد في الطبقات (٣١٨/٧)، والطبري في تاريخه (٩٢/٢).

(الشعراء: ٢١٤) دعا ﷺ جميع بطون قريش عَمَّ، وخصَّ، وقال للكل: «لا أغني عنكم من الله شيئاً غير أنكم رحم سألها ببلاها: أي سألها بصلتها»^(١)، وذلك معنى أنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، لكن الله نفع أقاربه بل وأمته بشفاعته الخاصة والعامة.

وأخرج الطبراني: «إنَّ أهل بيتي هؤلاء يرون أنَّهم أولى الناس بي، وليس كذلك؛ إن أوليائي منكم المتقون من كانوا حيث كانوا»^(٢).

وصحح الحاكم حديث: «وعدي ربِّي في أهل بيتي من أقرَّ منهم بالوحدانية ولي بالبلاغ ألا يعذبهم»^(٣).

وأخرج أحمد حديث: «والذي بعثني بالحق نبياً لو أخذت بحلقة الجنة ما بدأت إلا بكم»^(٤).

وجاء في أحاديث ضعيفة: «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرمها الله وذريتها على النار»^(٥).

(١) رواه أبو عوانة في مسنده (٩١/١)، وابن ماكولا في الإكمال (٦/٧)، وذكره ابن حجر في تعليق التعليق (٨٧/٥)، وفي مقدمة فتح الباري (٨٩/١).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٠/١)، والترمذي في النوادر (٦٧/٣)، والطبراني في الكبير (٤٥/٥)، (٤٦)، والحاكم في المستدرک (٣٥٨/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٩٣/١)، والبزار في مسنده (١٧٦/٩)، وابن أبي حاتم في العلل (٣٥٩/٢)، والدارقطني في العلل (٢٩٢/٩)، والديلمي في الفردوس (٢٩٥/٥)، والبيهقي في الزهد (٣٢٩/٢).

(٣) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٦١٩/٢)، والخطيب في التاريخ (٤٣٨/٩)، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٨٦/١).

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (١٦٥/٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٨/٤)، وابن حبان في المجروحين (٨٨/٢)، والبزار في مسنده (٢٢٣/٥)، والعقيلي في الضعفاء (١٨٤/٣)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤٦٢/٢)، وابن حجر في لسان الميزان (٣٢٢/٤)، والذهبي في الميزان (٢٦١/٥).

وفي رواية أن علياً عليه السلام قال: يا رسول الله لم سميت فاطمة فاطمة؟ قال: «لأن الله فطمها وذريتها عن النار»^(١).

أخرج الطبراني بسند رجاله ثقة: «إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»^(٢).

وورد: «يا عباس، إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك»^(٣)، ولا ينبغي لأحد من أهل البيت أن يغتر بذلك؛ لأنه استفيد من قوله عليه السلام في الحديث السابق: «إن أهل بيتي يرون أنهم أولى الناس بي، وليس كذلك؛ إن أوليائي منكم المتقون»، أو حديث البخاري ومسلم: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين»^(٤).

إن نفع رحمته وقرابته وشفاعته للمذنبين من أهل بيته وإن لم ينتف، لكن ينتفي بسبب عصيانهم ولاية الله ورسوله لكفرانهم نعمة قرب النسب إليه عليه السلام بارتكابهم ما يسوءه عليه السلام عند عرضهم إليه، ومن ثم يُعرض عليه السلام عن بعض من يقول أنه منهم في القيامة: يا محمد يريد أن يشفع له فيقول: «لا أملك لك من الله شيئاً»^(٥)، كما في الحديث.

وتأمل قول ابن الحسن السبط عليه السلام لبعض الغلاة فيهم: وَيُحْكُم، أَحْبَبْنَا اللَّهَ، فَإِنْ أَطَعَنَا اللَّهَ فَأَحْبَبُونَا، وَإِنْ عَصَيْنَا فَأَبْغَضُونَا، وَيُحْكُم، لو كان الله نافعا بقراية من رسول الله عليه السلام بغير عمل بطاعته لنفع ذلك من هو أقرب إليه منّا: أي كأبي طالب، والله إني أخاف أن يضاعف للعاصي منا ضعفين.

(١) رواه الخطيب في التاريخ (٣٣١/١٢)، والدلمي في الفردوس (٣٤٦/١)، وابن جميع في معجم الشيوخ (٣٥٩/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (١٦٨/١)، وابن حجر في فتح الباري (٣٣٨/١١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (١٨٩/١)، والخطيب في التاريخ (٢٥٢/١١)، والبيهقي في الشعب (٣٩٩/٥).

(٣) تقدم في سابقه بنحوه.

(٤) رواه ابن منده في الإبان (٤١٥/١)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٤٨/١).

(٥) رواه البخاري (٥٠٨/٢)، والطبراني في الأوسط (٢٣٨/٨)، والبيهقي في الشعب (٦٢/٤)، والبخاري في مسنده (٣٥١/١)، وأبو يعلى في مسنده (٤٦٩/١٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦٣/٣)، وابن حبان في صحيحه (١٨٢/١١).

مطلب في أن الشيعة ليسوا من شيعة آل البيت بل هم شيعة إبليس

وقال موسى بن عليّ بن الحسن بن عليّ عن أبيه، عن جده: «إنّا شيعتنا من أطاع الله وعمل أعمالنا»^(١)، وبه يُعلم أن الفرقة المسماة بالشيعة ليسوا من شيعة آل البيت، وإنّا هم من شيعة إبليس لعنه الله، كما في الحديث الشريف الذي رواه الدارقطني، وقال: إن له عنده طرقًا كثيرة: «يا أبا الحسن أنت وشيعتك في الجنة، وإن قومًا يزعمون أنّهم يحبونك يصغرون الإسلام ثم يلفظونه يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية، نفرّ يُقال لهم: الرافضة»^(٢)، فإن أدركتهم فقاتلهم؛ فإنّهم مشركون»^(٣).

وفي رواية قالوا: يا رسول الله، ما العلامة فيهم؟ قال: «لا يشهدون جمعة ولا جماعة، ويطعنون على السلف»^(٤) اهـ.

لأنهم يقولون: لا تصح صلاة الجماعة إلا خلف إمام معصوم، ولا يشتونها بعد رسول الله ﷺ إلا لاثني عشر إمامًا، وهم سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وولده زين العابدين، وولده محمد الباقر، وولده جعفر الصادق، وولده موسى الكاظم، وولده علي الرضا، وولده محمد الجواد، وولده علي الهادي والد الإمام حسن العسكري والد الإمام محمد المهدي، رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم، وحشرنا في زميرهم تحت لواء سيد المرسلين.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٨٤).

(٢) الحديث عن الشيعة فضفاض فهم طوائف شتى وفرق متعددة كاثني عشرية والزيدية والسبئية والاسماعيلية والعزائية... والرافضة طائفة ترفض إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وتقع فيها. ولذا فليس لهم في حب الصحابة الكرام نصيب.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٤٨)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢١٣)، والخطيب في التاريخ (١٢/ ٢٨٩)، وذكره الذهبي في الميزان (٢/ ١٥٣)، والمحجب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٦٤).

(٤) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٧٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢)، والمحجب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٦٤).

ولو أنهم اقتصروا على الحب والتفضيل لكان خرقاً للإجماع الذي هو أصل في الدين أصيلاً، فكيف وقد توغلوا في الطعن على السلف الصالح، وقذفوا السيدة الطاهرة المبرأة^(١)؟! فطالحهم وصالحهم للسيف صالحٌ. وقد بالغ في الرد على قبيح أفعالهم وذميم خصلهم السيد محمد البرزنجي في كتاب النواقض على الروافض، والعلامة ابن حجر رحمه الله في الصواعق المحرقة، وحيث سلط الله على هذه الفرقة المفارقة الضالة التي لسياح الشر خارقة وحارقة من مدة أعوام الأمير أويس الأفغاني، ثم ولده المظفر محمود شاه، فملك تحت سلطنتهم أصبهان وما داناها من البلدان. ثم حرَّك الله همّة السلطان الأعظم والخابان المعظم جناب المنصور المؤيد السلطان أحمد بن السلطان محمد إلى قتالهم، وأخذ منهم بعض قلاع حصينة، ومكّن سيفه منهم، فعادت شوكتهم منكسرةً وأفئدتهم حزينةً.

أردنا أن نسرد هنا مقالة بعض علماء الحنفية في كتاب ساءة حكم ساب الشيخين رحمه الله: «ما هلك الشيعة الشنيعة البشعة [إلا بسب] الشيخين»، قال في الجوهرية من كتب الحنفية: من سبَّ الشيخين أو طعن فيهما يكفر ويجب قتله.

قال الصدر الشهيد: لا تقبل توبته ولا إسلامه^(٢).

وبه أخذ الفقيه أبو الليث السمرقندي وأبو نصر الدبوسي، وهو المختار للفتوى.

والحاصل: أن السابَّ للنبي ﷺ أو لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو للشيخين أو لأحدهما فهو كافرٌ ويجب قتله، ولا تقبل توبته عندنا، بعد ثبوت ذلك عليه شرعاً على ما عليه الفتوى. ومن أنكر صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أو رمى ابنته عائشة رضي الله عنها

(١) يريد السيدة عائشة رضي الله عنها إذ يقعون فيها لخروجها على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وقعة الجمل فرضي الله تعالى عن كل الصحابة والآل والأنصار وأمّهات المؤمنين كافة وعنا بهم إنه تعالى - ولي ذلك والقادر عليه.

(٢) انظر: الفتاوى الهندية (٢/ ٢٦٤) والشفاء لعياش (٢/ ٣٠٨) وصب العذاب للآلوسي (ص ٤٧٠).

وعن والدها بها برأها الله منه كافرٌ إجماعاً، مرتدٌ تجري عليه أحكام المرتدين، بل لا تقبل توبة قاذفها، على ما حكاه العالمان الجليلان: أبو السعود والبيضاوي في تفسيرهما عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «لا توبة له»^(١) كما تقدم.

وحاصله: أن السابَّ للشيخين أو أحدهما كافرٌ عندنا، ولا تقبل توبته على المفتي به، والسابُّ لغيرهما من الصحابة مبتدعٌ يستحق النكال والرجوع عما ابتدعه بالتوبة والاستغفار، وهذا إن لم يكفرهم أو ينسبهم إلى الضلال، وإلا فكافرٌ مرتدٌ تجري عليه أحكامه. وعند الشافعية إن وقع فيهم بالكفر والتضليل فهو كافرٌ يجب استتابته، وعند المالكية سائبهم كافرٌ. والمشهور من مذهبه أنه يؤدَّب الأدب الوجيع إن لم يكفر واحداً من الأربعة، أو ينسبه إلى الضلال منهم أو من غيرهم من الصحابة، وإلا فيقتل ولا يستتاب اهـ.

وقال اللقائي رحمه الله في شرحه الصغير على جوهرة التوحيد عند قوله فيها:

وأَوَّلُ التَّشَايُحِ لَّذِي وَرَدَ إِنْ حُضِّتَ فِيهِ، وَاجْتَنِبَ دَاءَ الْحَسَدِ
وهذا على سبيل الوجوب؛ فقد قال عليه السلام: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي».

ولقوله أيضاً: «من آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(٢)، وقال: «لا تسبوا أصحابي»^(٣)، وفي رواية: «من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله

(١) ذكره السندي في حاشيته (٧/ ٩١).

(٢) وردت هكذا والأشهر رواية: «التشاجر».

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٦٩٦)، وأحمد في المسند (٥/ ٥٤)، وفي الفضائل (١/ ٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٩١)، والخلال في السنة (٢/ ٤٨١)، وابن حبان في موارد الظمآن (١/ ٥٦٨)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٧)، والديلمي في الفردوس (١/ ١٤٦)، والخطيب في التاريخ (٩/ ١٢٣).

(٤) رواه البخاري (٣/ ١٣٤٣)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧)، والترمذي (٥/ ٥٩٥)، وأبو داود (٤/ ٢١٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٤)، وأحمد (٣/ ٧)، وابن ماجه (١/ ٥٧)، والديلمي في الفردوس (٥/ ١٣).

والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً^(١).

ومن هنا قال القاضي: من سبَّ غير الزوجات فقد أتى كبيرةً، للعهن عليه السلام فاعل ذلك، وعليه الأدب بالاجتهاد بحب القاتل والمقول فيه، على مشهور مذهب مالك، حيث لم يشتمل سبه على قذف.

قال: ومن قال: إنهم كانوا على ضلالةٍ وكفرٍ فإنه يُقتل، وعن سحنون مثله فيمن قال ذلك في الخلفاء الأربعة، وينكل في غيرهم، وذكر في «الشفاء» خلافاً لمن كفر عثمان أو علياً.

وجزم العزُّ بن عبد السلام الشافعي بعدم التكفير، ولفظ القرطبي لم يختلف في كفر من قال: إنهم على ضلالةٍ، لأنه أنكر ما علِمَ من الدين ضرورةً، وكذَّبَ الله ورسوله فيما أخبرا به، واختلَفَ، هل يستتاب وتقبل توبته كالمرتد أو لا يستتاب ولا تقبل توبته كالزنديق إن ظهر عليه^(٢).. إلخ؟.

وقال في «الشفاء»: وحكى محمد بن أبي يزيد عن سُحنون: من قال في أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعليٍّ أنهم كانوا على ضلالةٍ وكفرٍ قُتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل هذا نُكِّل النكال الشديد.

وروي عن مالك: «مَنْ سَبَّ أبا بكرٍ جُلِدَ، وَمَنْ سَبَّ عائشة قُتِلَ»، قيل له: لم؟ قال: «مَنْ رَمَاهَا فَقَدْ خَالَفَ الْقُرْآنَ»^(٣)، وقال ابن شعبان رحمته الله: «لأن الله يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾» (النور: ١٧)؛ فمن عاد لمثله فقد كفر.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٤٢/١٢)، وفي الأوسط (١١٥/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٣/٧)، والديلمي في الفردوس (١٤/٥)، والخلال في السنة (٥١٥/٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٣/٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤٠٥/٦)، والبخاري في مسند ابن أبي الجعد (٢٩٦/١).

(٢) المراد - والله أعلم - أن المرید يستتاب ثلاثة أيام بلياليهن. ويضيق عليه فيهن فإن تاب قبلت توبته، وإلا قتل. أما الزنديق الذي أظهر زندقته فلا يستتاب ولا تقبل توبته وإنها يقتل حداً.

(٣) ذكره ابن حزم الظاهري في المحلى (٤١٥/١١).

وحكى أبو الحسن الصقلي أن القاضي أبا بكر بن الطيب قال: إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسب إليه المشركون سَبَّحَ نفسه لنفسه، كقوله: ﴿وَقَالُوا آتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ (البقرة: ١١٦) في آي كثيرة. وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ﴾ (النور: ١٦)، سَبَّحَ نفسه في تبرئتها من السوء كما سَبَّحَ نفسه في تبرئته من السوء، وهذا يشهد لقول مالك في قتل من سَبَّ عائشة. ومعنى هذا والله أعلم: إن الله لما عظم سَبَّها كما عظم سَبَّه وكان سَبُّه سَبًّا لنبيه ﷺ وقرن سَبُّه بسَبِّه وأذاه بأذاه تعالى وكان حكم مؤذيه تعالى القتل، كان مؤذي نبيه كذلك كما قدمناه. وشم رجل عائشة بالكوفة، فقدم إلى موسى بن عيسى العباسي، فقال: من حضر هذا؟ فقال ابن ليلي: أنا. فجلده ثمانين، وحلق رأسه، وأسلمه في الحجامين إلخ.

وهذه الجملة وإن كانت معترضة بين ما نحن بصدده من ذكر فضل العرب الفحول لكن اقتضى ذكرها السياق والزمان والحال، ونقول: الحمد لله العليّ الوليّ العظيم الذي طهر الأرض من عرف الفساد الذميم. اللَّهُمَّ ألحق بهم المخزيين في أطراف بلادنا منهم^(١)، ومزقهم أجمعين، لنقرأ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥).

ولنرجع إلى جواب السائل، فنقول: وهل يمكن لذي عقلٍ مارس المعقول والمنقول أن يحيد عن القول بأفضلية العرب الفحول الذين نزل القرآن بلغتهم، وهو سيف الله المسلول^(٢) الذين فتحوا البلاد، ومهدوا سبيل الرشاد، إلا أن يكون مجهولاً، وحاشا فضلاء العجم الأجداد ونبلائهم الأفراد أن ينكروا مزية العرب، وهم السادات الذين يبعثه ﷺ منهم أرفع السادات.

(١) النص هكذا بالخطوطتين، وهو غامض المعنى ولعله يريد «الذي طهر الأرض من عُرف بالفساد الذميم. اللهم ألحق بهم الخزي والمخزيين أين كانوا وكيف كانوا، وفرقهم أجمعين، لنقرأ (... الآية).

(٢) يريد سيف الله المسلول القرآن العظيم. ولقد جمعت الصفة فانسجبت على العرب فيكون سياق الحديث «العرب الفحول الذين نزل القرآن بلغتهم وهم سيوف الله المسلولة الذين... إلخ».

قال سيدي عليُّ القاري رحمته في «الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة»: حديث «العربُ ساداتُ العجم»^(١) لا أصل له، ومعناه صحيحٌ.

وقال فيه حديث: «جورُ التُّركِ ولا عدلُ العرب»^(٢) كلامٌ ساقطٌ لا حديث ذكره ابن الرفيح.

وأقول: هو كفرٌ بظاهره؛ حيث فضل ظلم جماعةٍ على عدل جماعةٍ مع أن أهل العدل أحسن أجناس الناس، وأهل الجور أصلهم الأنجاس.

وقال في «شم العوارض في ذم الروافض» عندما ذكر الحديث الثاني فتقله المعايي: والمراد بالكفر كفران بالنعمة أو كفرٌ دون كفرٍ، وأريد به التغليظ في الوعيد والتهديد الشديد؛ مبالغةً في الزجر والنهي، كما هو معروفٌ في الكتاب والسنة.

وقال قبل ذلك بيسير: وقد بالغ رحمته: أي في النصيح والإرشاد والتعريف بفضل أهل الفضل من العباد، وقال: «مَنْ سبَّ العربَ فأولئك همُ المشركون»^(٣) رواه البيهقي عن عمر، إلا أنه يجب حمله على أنه أراد باللام الاستغراق والجنس الشامل للنبي ﷺ بالاتفاق اهـ.

وقد جمعنا في هذا المعنى رسالةً سميناها «الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب».

واعلم يا أخي أني ما وضعت هذه الرسالة إلا لأنتفع بها أولاً وبالذات وأحظى إذا تأملتُها بوافر اللذات، وإذا نفع الله بها غيري فذلك بطريق العرض وليس القصد، إلا ما قدمته من الفرض، وهكذا في أكثر الرسائل التي جعلتها لنيل الثواب وسائل؛ إذ دسائس

(١) انظر: المصنوع للقاري (١٩١).

(٢) انظر: المصنوع (١٠٠).

(٣) رواه البيهقي في الشعب (٢/٢٣١)، وابن عدي في الكامل (٦/٣٧٩)، والعقيلي في الضعفاء (٤/٢١٧)، والخطيب في التاريخ (١٠/٢٩٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٦/١٣٦)، وابن حجر في لسان الميزان (٦/٤٨، ٧١).

النفس لا تتناهى عداً ولا يمكن حصرها حداً، وكثيراً ما تجعل الشاهد صاباً والسكوت جواباً. تقطع في مراداتها عقاباً ولا تحشى حساباً ولا عقاباً، فزَمَ زمامها، وتب إلى الله متاباً، وصير حارس الشرع الشريف على قلبك بواباً، فما وافق فاقبله أو لا، فارم به وابغ تركه قربة وثواباً. وقل: اللَّهُمَّ ألحقني بعبادك الذين ارتضيتهم نواباً، وتب عليّ يا تَوَّاب؛ لأَمسي أواباً تَوَّاباً، واحفظني من ذوق حلاوة النفس، واجعل شراها في عيني سراباً.

ومن جملة ما يجاهد المريد به نفسه فيذيقها عذاباً، ويسقيها من حنظل المداومة عليها أكواباً استعمال أوراد الطريق وأذكاره عن أمر الشيخ؛ ليرشفها باتباعها علقماً مذاباً. وقد وضعنا رسالة سمينها «المنهل العذب السابغ لوارده في ذكر صلوات الطريق وأوراده»؛ فادرس عليها تمل صواباً، ولا تركن إلى البطالة. وجاهد تشاهد علوماً أورثتها النفس اغتراباً، وكابدها كل ساعة فإنها نزاعة لساعة [تعطي بظنها إرباً، فتعطى يقيناً إرباً]. فكيف يليق بصاحب الزيِّ والزيق موافقتها وهو يعلم أنها تكسبه احتجاباً وتمنعه اقتراباً؟! فهل يُعدُّ هذا من صلحاء العوام فضلاً عن الخواص القوام الذين رفعوا عن وجوه مخدرات أغراضها نقاباً، وثُقبوا عن محذرات أعراضها وإعراضها، فلقَّبوا بالنقباء، وفهموا خطاباً لما كانوا خطاباً؟! ومما يذل منها لك الصعاب ويقلل دسائسها التي توجب الاكتئاب، الخلوات والجلوات التي اصططح عليها أهل الطريق الأنجاب، وانفتحت فيها لهم الأبواب باباً باباً، وقد أَلَفنا في آدابها وشروطها رسالة تمنح سميها عن نفسه اغتراباً، وتفصح له عن اللوازم عليه، وتعرب عنها إعراباً مسماه بـ «هدية الأحباب في ما للخلوة من الشروط والآداب»، فاعطف عليها إن حصَّلت انتساباً؛ فكل من اختلى بنفسه لم يجتبل من شراب قدسه ذهاباً وإياباً وآداباً على التصفية المطلوبة؛ لتفوز بالتحلية المرغوبة، وقرأ ما سطر في كتاب «قلبك أنعم به كتاباً»؛ فإن المريد إذا جلا بنور الذكر والتوحيد مرآة قلبه شاهد العجباب، وصبت مياه العلوم لقلبه، وتوالت عليه معارف قربه من ربِّه، فذهش وغابا. هناك يحقُّ له أن يسمَّى حيث صفاءً وأدرك لباباً وصوفي، وعرفني بالصوفي؛ لأنه تقرب لعلو قدسه بنفسه احتساباً

وقد تكلمنا على معنى التصوف والمتصوف والصوفي في رسالة سميناهنا «رشف قناني الصفا ممن صوفي الكشف عن معاني التصوف والمتصوف والصوفي»، وإياك والتسويق ولعلّ وعسى وليت وربها^(١)، فاجتنبها اجتناباً، وهذه أوصاف العارف الفارضي الذي حاز وجاز مقاماً ومقاماً دقّ به إطناباً، وفتق رتق جيوب عيوبه، وفاز بنور مشروبه وانساباً^(٢):

وكن صارماً للوقت فالملت في عسى	وإياك على ^(٣) فهي أخطر عليّ
وقم في رضاها واسع غير محاول	نشاطاً ولا تخلد لعجز مفوت
وسرّ زمناً وانفض كثيراً فحظك الـ	بطالة ما أخرت عزماً لصحت
واقدم وقدم ما قعدت له	مع الخوالف واخرج من قيود التلقّ
وجزّ بسيف العزم سوف فإن تجدّ	تجدّ نفساً فالنفس إن جُدت جدّت
وأقبل إليها وانحها مفلساً فقد	أصبحت بنصحي إن قبلت نصيحتي
فلم يدن منها موسراً باجتهاده	وعنها به لم ينأ مؤثر عثرت
بذاك جرى شرط الهوى بين أهله	وطائفة بالعهد أوفت فوفّت

ولنلخص هنا فصلاً من أواخر مقدمات سيدي [سعد الدين الفرغاني] له تعلق تامّ

بهذا المبحث النفساني.

وقال ﷺ: اعلم بعد تذكر ما سبق به التقرير أن وجود كل شخص إنسانياً أو غيره مستنداً إلى اسم كليّ أو جزئيّ من الأسماء الإلهية، وبعد تعيينه بماهيته وتنزله ماراً على المراتب الإلهية والكونية، وتشخصه في مرتبة الحسن محتاج في كل آن إلى مدد وجودي يرجح جانب بقاء ذلك الشخص على فناءه الذي هو من مقتضى عدمية ماهيته ووصول

(١) أي دع التعليل والتعلل بالإكثار من لعل كذا، عسى كذا، وربما فهذه الألفاظ للتمني والرجاء والتعلل وطريق القوم جد كله.

(٢) يريد سيدي عمر بن الفارض رحمه الله المشهور بسلطان العاشقين.

(٣) عليّ: بمعنى لعل حذف اللام لضرورة الشعر.

هذا المدد دائماً مع الإناث عبارة عن الخلق الجديد، ومثال ذلك الترجيح والاقتضاء العدمي تحليل الغذاء وقيام ما يتحلل مقامه، وكذا دهن السراج في الفئيل. والأسماء متفاوتة الدرجات في سعة الدائرة وكمال الحیطة، وإن لكل اسم مظهرًا خاصًا فلكيًا وكوكبيًا. ولكليات هذه المظاهر غلبية ومغلوبية بحسب سلطنة أدوارها، فإن كان الاسم الذي تغير منه وجود هذا الشخص الإنساني اسمًا كليًا من الأصول الأئمة السبعة تنزل ذلك الوجود بحكم اقتضاء الحركة الحينية الأصلية وسرايتها في الأسماء الكلية، ومظاهرها وتوجهاتها واجتماعها على وفق اقتضاء سلطنة ذلك الاسم الكلي، فيمرُّ على جميع المراتب بلا توقّف ولا تعويق فيها، ويكون أجدى السير فيبدو بصورة غذاء يتناوله الأبوان على أعدل وجه، ويستحيل نقطة بلا مانع، ويتفق اجتماعهما، فيستقر في الرحم، ثم يتطور في الأطوار بلا عوائق بحكم إمداد جميع الأسماء من حيث مظاهرها وترتيبها له إلى أن يُولد ويبلغ مبلغ الرجال، ويكون مظهرًا لما استند إليه وجوده أولاً. وأما إذا كان جزئيًا فإنه ينزل له الموجود المتعين في المراتب، لكن مع تعويقات وتوقفات في طريق تنزله منهم باختلافات اقتضتها الأسماء الجزئية المتقابلة واختلافات أحكام مظاهرها الفلكية والكوكبية، وذلك بأن يقتضي مثلاً اسم جزئيّ تعين وجود شخص إنسانيّ من حيث مظهر شكليّ أو اتصال فلكيّ، فيتكون بحكم ذلك الاقتضاء صورة نبات أو حيوان مقدار تكون صورة مزاج هذا الشخص منهما أو من أحدهما، ويقتضي آخر مما يقابله ويخالفه في الحكم فسادهما، فيرجع كل واحدٍ منهما إلى أصله أو بسائطه.

ثم يقتضي مرةً أخرى بحكم مظهر آخر تعينًا، ويقتضي مخالفة خلافه، فربما يتفق ذلك مرارًا للشخص، فيتعوق تعين وجوده لهذا، إلى أن يتفق خلاصه مرةً من أحكام هذه التعويقات محدث في نفس هذا الشخص ومزاجه غلبة أحكام مكانية وآثار طبيعية، وموجب إعراضه وغفلته عن موجوده الحق تعالى وتقدّس رغبًا منه، وتستلزم حجبًا مظلمةً وقیودًا محكمةً وأوصافًا منحرفةً، غير ملائمةٍ سرّه الوجودي وروحه وقلبه، ونفسه حائلة بينها وبين أصلها ومبدئها وطريق وصولها إلى كمالها الحقيقي، وجميع الأهواء والميول الطبيعية والشهوات والتعشقات الحسية والوهمية والآمال والأمانى، وغلبة أحكام

الأوهام والهواجس والتسويلات والتسويات النفسانية والشيطنانية، والظهور بصفة الحقد والحسد، والإمساك حتى الميل إلى العلوم الغير النافعة التي استعاذ منها النبي ﷺ في دعائه بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»^(١)، وحتى العقائد المنحرفة الغير المطابقة، والحرف والصنائع الغير لائقة، وأمثال ذلك كلها من أحكام هذه التعويقات، وكل واحد من هذه النقائص مختص بنوع من هذه الأحكام، وتقرير ذلك يطول، وترتب فتح السالكين على مشاق المجاهدات دون بعض مبنئ سبق على تفاوت تلك الأحكام قلة وكثرة، شدة وضعفًا، وكذلك سرعة تنبه بعض الناس ورجوعه من أحكام العادة إلى ملازمة أداء حقوق العباد، ويطول ذلك، وتوقف بعضهم في بعض المقامات والأحوال وسرعة تعدي بعضهم منها إلى ما فوقها. جميع ذلك من أحكام هذه التعويقات ومعرفتها على الحقيقة ومعرفة ما يزيل كل واحد من هذه الأحكام، وما يضادها بالنسبة إلى كل سالك من أقوال وأذكار وأعمال قلبية وقالبية، مختصة بعالم صاحب بصيرة نافذة مؤيدة بشهود محقق وعلم يقيني بمراتب الخلق وأسماء الحق، واقف على أسرار المنازل والمقامات لتحققه بها صورة ومعنى كالأنبياء والرسل وكبار الأولياء والمشايخ؛ فإن كل من قصد باب قرب من الحق تعالى فلا بد له من رفع هذه الحجب وإزالة هذه الأحكام.

وكما أن التعينات والتشكلات والاتصالات الفلكية والكوكبية من جهة أنها مظاهر أسماء الحق وصفاته لها آثار وأحكام في عالم الكون والفساد لتبعيته لها، كذلك الحركات الإنسانية التي هي كالتشكلات والاتصالات القولية والفعلية، من حيث أعضاء الإنسان وقواه التي كل واحد منها مظهر أيضًا للاسم الإلهي، لها آثار وأحكام في الأفلاك وما فوقها لتبعية حقيقية العالم للحقيقة الإنسانية في الأصل، وإزالة تلك الأحكام التعويقية من جملتها، ومنها أيضًا أكبر صور البرزخية والجنانية والجحيمية فاعلم ذلك.

(١) رواه مسلم (٢٠٨٨/٤)، والنسائي في الكبرى (٤٤٥/٤)، وأحمد (٢٥٥/٣)، وابن ماجه (٩٢/١)، وابن حبان في صحيحه (٢٨٣/١)، والطبراني في الكبير (٥٢/١١)، وأبو نعيم في الحلية (٤٠٢/١٠)، والبيهقي في الشعب (٢٨٥/٢)، وأبو يعلى في مسنده (٢٣٢/٥)، وابن أبي شيبه في المصنف (٧٨/٦).

وعلى العموم، فالشريعة هي المعينة لبعض تلك الأقوال والأفعال والحركات والسكنات، المزية لبعض حجب أحكام التعويقات المذكورة والعوارض الطارئة على الفيض الوجودي بقوة الوحدة والعدالة السائرة من الأمر الإلهي ونهيه في تلك الأقوال والأفعال المشروعة، وعلى الخصوص علماء الطريقة والحقيقة الذين هم كبار المشايخ أطباء تلك العلل والأمراض المعنوية؛ فإنهم بنفوذ بصائرهم يشاهدون تلك الأمراض في كل طالب، ويعالجون كل مريض بعقاقير ومعاجين من أذكاري وأعمالٍ ورياضاتٍ ومخالفات النفوس وترك الاختيار والزهد والتجرد، إلى غير ذلك مما يضاد كل واحدٍ منها. ولكل واحدٍ من تلك الأمراض الحاصلة في نفس السالك الساري أثرها إلى روحه وسره، إلى أن ينزل ويظهر اعتدال المزاج المعنوي، الذي هو القلب الوجداني الاعتدالي؛ فإن ملازمة الأحكام الشرعية بمثابة ما يحفظ الصحة من الشراب والغذاء في الطب الصوري، وعند غلبة كيفية وخط من الأخطا، وثوران مادة من المواد لا ينفع الاقتصار على ما يحفظ الصحة والعدالة في المزاج، بل لابد من استعمال أدوية تضاد بالخاصية لما كان سبباً للمرض من المادة والخلط، إلى أن يتكامل ويتعادل، وحينئذٍ يصحُّ أن يقتصر على ما يحفظ الصحة، وهكذا غلبة أحكام النفس، والحجب المذكورة هي الأمراض المزمنة. فلا بد من استعمال العقاقير والمعاجين القولية والفعلية والخلقية حتى تظهر الصحة والعدالة بظهور الحقيقة التي يصحُّ الاقتصار على ملازمة الأحكام الشرعية؛ لحفظ صحة هذا القلب بحكم أثر الوحدة والعدالة السارية في الأحكام الشرعية من الأمر الوجداني الآتي بيان حقيقته وكيفية تعينه عن قريب، إن شاء الله.

فعلى هذا يكون أهم المهيات للسالك وأعلى المطالب وأولى الأسباب والشرائط في سلوكه حصول شيخٍ مرشدٍ، وتقدم نقل هذه العبارة إلى آخر الفصل منه، ثم أخذ بتفصيل ما أجمل منه من كيفية تخلص النفس من أحكام هذه العوائق، وما ينبغي لها أن تستعمله إذا تنبَّهت من سِنَةِ غفلتها، وأرادت الخروج إلى معالم وصلتها. وإذا تأملت ما تقدم علمت منشأ سائر الأمراض النفسانية، وتحققت أن لا تخلص منها إلا بإمامٍ عارفٍ بالمقامات

الإحسانية سائر سابِر أحوال الطريقة، [باشقِ ناشِق] ^(١) على أطباء أسرار الحقيقة، لا قَطِ كل لا فِظِ بالعلوم الغربية الرقيقة، حافظِ كل حافظِ، محافظِ على العهود الوثيقة. فإن من لم يصن الأسرار في سويداء سره لم يُؤتمن على المعارف الدقيقة، ولا يطلّع على الغرائب والعجائب اللطيفة الرشيقة.

فالسكران من الشراب الإلهي معذورٌ؛ لغيبته بالخمور العتيقة، والصاحي إذا باح عُوقب أو عُوتب؛ لأن الصحو صيره من أسر السكر عتيقة، وأقيم في منصب الدعوى، وكان الخليفة على سائر الخليفة، فكيف يصح من السكر حتى ينسى رفيقه ورقيقه وإذا ولج الدليل في المهاوي العميقة فلا عتب على تابعه؛ إذ هوى في الدركات العميقة، فلذا قلنا: لا يصلح للإمام السكر لإهلاكه بذلك سره وفريقه. فعلم أن صون الأسرار عن الأشرار فرضٌ لازم، وعن الأخيار قبل تأهلهم لتلقي غرائب الأخبار واجبٌ، وتركه حاجبٌ، وقد أنشد العارف:

ومستخبرٌ عن سرِّ ليلى ردّدته بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن أخبرتهم بأمين
وأنشد سيدي محي الدين قدّس الله سرّه من قصيدة:

فافهم فديتك سرّ الله فيك ولا تظهره فهو عن الأغيار مكنونٌ
وغرّ عليه وصنه ما حييت به فالسرّ ميتٌ بقلبٍ الحرّ مدفونٌ
ونقل في «مسامرات الأبرار ومحاضرات الأخيار» بسنده.

قال: كان شابٌّ يحضر مجلس ذي النون المصري، ثم انقطع عنه زمانًا، ثم حضر عنده وقد اصفرَّ لونه، ونحل جسمه، وظهرت عليه آثار العبادة، فقال له ذو النون: يا فتى، ما الذي أكسبتك خدمة مولاك واجتهادك من المواهب التي منحك بها ووهبها لك واختصك بها؟ فقال الفتى: يا أستاذ، وهل رأيت من اصطفاه مولاة واختصه من بين عبيده وأعطاه مفاتيح الخيرات ثم أسرَّ إليه سرًّا أيجسن أن يفشي ذلك السر؟ ثم أنشأ يقول:

(١) هكذا بالمخطوطتين وربما كان معناها «مطلع».

من سارروه فأبدى السرَّ مجتهدًا لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وباعدوه فلم يسعدْ بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إجماعًا
لا يصطفون مديعًا بعض سرهم حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

تنبيه: النجاة لمن حفظ الأمانة

وكنّا سابقًا عندما رأينا سابقًا شائعًا عملنا رسالة في كتم الأمانة ووجوب صونها؛ إذ إفشاؤها خيانة، ووقع الإذن بتسميتها تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة، وقلنا فيما لنا من النظام السابق نخاطب النفس بصون السر؛ ليكون الظاهر للباطن موافقًا؛ ليطابق كمطابقة النعل بالنعل في سير اللاحق بالسابق. فإن العبد إذا لم يتطهر من رجس الخيانة والجناية لا يخرج عن نعت العبد الآبق؛ فخطر أيها المعقود بحل عقالك، واقطع كل عائق؛ ليمسي شرك فائقًا^(١)، والقصيدة المفيدة هي:

أيا نفس في وصل الأعبة خاطري أناس بقلبي قد أقاموا وخاطري
وعنك دعي صبا دعي واردي الهوى ولوذي بسرّ الشرب سرّ أم عامر
وجدي وجدي عنق سوف وانشقي عبر غرام يهدي طيب المحاجر
وفي جنة الإحسان يا نفس فارلقي وإن رميت سيرا للمعالي فساغري
وفي مشهد الذات العليّ تحققي وفيه احفظي آداب كل الأوامر
وغيب به عن كل شيء ترينه وإحسانه والجود والفضل عامر
وفي منزل التقريب قرّ وأبشري فإن حبيب القلب عاد مسامري
وثوب الغنا فلتلبسيه فما الفتى سوى والدي فان بناه وأمر
وإياك تفشي سرّ سرّ مكرم وصونه لا تبدي به للضمائر

(١) النشر: الرائحة، وفائق: شديد الطيب والمعنى تصبح رائحتك زكية. وبالمخطوطة (ب): «ليصبح شرك عابقًا» وكلاهما في المعنى سواء.

إلى كم كذا هذا التواني عن اللقاء
وسيري لحى الحى كى تبصري الهدى
ويا ربنا صلّ وسلّم على الذى
وآله والصحب ثمّ وتابع
سلّمى بصدقٍ للبحورِ الزواجرِ
فإنّ به أبصارَ كلِّ البصائرِ
هدانا وأهدانا لأسنى الخطائرِ
مدى الدهر ما قد هاج وجدّ مخامرِ

وقلت سابقاً محرّضاً لها على صون سر التقريب وحب أهل الله من الصحابة
والمجاذيب، وأرسلت بها للشيخ أحمد المجذوب المشهور عندنا في دمشق الشام وفيه
مرغوب المعروف بابن سراج أحد من حظي بالقرب والمعراج، صاحب الكشف الظاهر
والرشف الطاهر، وأهديتها من البيت المقدّس صدر كتاب بني على الحب المؤسس، وهى:

يا نفسُ في حبٍّ مَنْ تَهْوِينَه طيبي واستنشقي عرفه الزّاكي على الطيبِ
وسرُّ أهلِ الهوى ضنّي بذاك ولو ضنى فנית لتحظي بالأعاجيبِ
وفى المتى هيمى وجدّا من محبّته وعنك حال تجليه به غيبي
وإنّ بدّا لك منّي فى السر مللٌ لومي عليّ وفي التّقصير بي عيبي
وحافظي عند أرباب اللّسان على حفظ اللّسان وقومي في المحاربِ
ولازمي عند أصحاب القلوب على صوم القلوب فهم صقرُ المخالبِ
وحاذري فعلَ أهلِ الحانٍ تعرضي وسلّمى كلّ أحوالِ المجاذيبِ
وصدّقي ما يقولُ السّائرون به فى حال كشفهم من غير تكذيبِ
قومٌ بأرواحهم جادّوا وما بخلوا وجدّهم بين ترغيبٍ وترهيبِ
وقلّهم فوق نارِ الشوقِ قد وضعوا ولم يملّ لسليو عند تقليبِ
قد هدّبوا أنفُسًا منهم مجاهدةً وأضعفوها بتفحيصٍ وتنقيبِ

وكابدوها إلى أن ضاع نشر هدى فضاع عقلهم^(١) عن وصفِ تدريبٍ
عليهم أبداً ما لاح نجمٌ هدى سلام صبَّ بهم راجٍ لتقريبِ
ما اشتاق نحوهم من ذاق محوهم أو ما شجنتني أسرار المناهيبِ
وما شدا مصطفى الكريِّ ملتهفاً بالنصح ياتي بأنواع الأساليبِ

وهذا الشيخ أحمد المذكور له عليّ مشيخة وتربية ضاعف الله له بها الأجور، ولو شئت أن أذكر ما وقع لي معه ومع غيره من المجاذيب من النصائح والمواعظ والمكاشفات لجاء كتاباً حافلاً، ولكن في الإشارة كفاية للمستفيد إن كان عاقلاً ولم يكن غافلاً، وكنت قديماً وسنيّ إذ ذاك ثنائي عشرة أو أقل أو أكثر، رأيت بيتين لسيدي إبراهيم بن رفاعة قدّس الله سرّه، ورزقنا وإياه شهود المنى في دار التمكين والاستطاعة، فأعجبني معناهما، وأطربني مغناهما، ثم إن العمّ بل الوالد الحاجّ إبراهيم طلب تخميسهما، وحيث وقعت المناسبة بينهما في الاسم أجبته لذلك مستخيراً مستجيزاً بالسيد الأعظم من الوليّ المالك:

عروسةٌ حسن كل أوقاتها صفا وبارعةُ الإحسانِ كاملةُ الوفا
ولما سمعنا أن في حبّها الشفا دخلنا عليها نستجيرُ من الجفا
أيابة الخدر ارفقي في الذي قضا على غفلةِ الواشي من الجن والإنس
فقال مقالاً في القلوب له امتضا عليهم بعشق حشوه نار ذي القضا
فقال رضائي في الخروج عن النفس سمعنا فما تبغون؟ قلنا لها الرضا

وأنشد العلامة محمد بن أحمد التونسي المالكي رحمه الله قوله:

إذا كنت تبغي نيل كل المنى وراحة القلب مع الأنس
فكن مع الحق بلا خلقه وكن مع الخلق بلا نفس
 فإن من لم يجعل نفسه للخلق أرضاً ويشهدا أصلها وأنها من ترابٍ، للحق ما أَرْضَى.

(١) بين ضاع وضاع جناس تام الأولى بمعنى انتشر، والثانية بمعنى طاش أو سلب.

وقد قال رجلٌ لأبي يزيدٍ قدّس الله سرّه ما معناه: ما لنا لا نشاهد ما تشاهد مع أنّنا نكابد مثلما تكابد ونجاهد مثلما تجاهد؟ فقال له: أجرِ موسى على لحيتك وشاربك والبس بذي الملابس واترك لذيذ مطاعمك ومشاربك. فقال الرجل: سبحان الله! لمثلي يقال هذا!. فقال له: أنت تنزّه نفسك عن النقائص، فكيف تدرك سنى الخصائص. ومراً ﷺ على مكتبٍ وقد خرج منه الصبيان وعلى رأسه عمامة حمراء من صوفٍ، فتعلّقوا به، وقالوا له: أسلم يا يهودي. فرفع إصبعه وأتى بالشهادتين، ففرحوا بذلك، وأرسلوا واحداً منهم ليأتي بدابة، فأتى بحمارٍ أعرج، فأركبوه عليه، وطافوا به في أزقة بسطام، ف قيل له في ذلك، فقال: كنت غافلاً فذكّروني، وكنت تعباً فركّبوني اهـ.

فهذا حكم من أمارت نفسه قبل المات، ودخل رسمه وهو في الحياة.

وقال الشيخ الأكبر رحمته الله في الوصايا^(١): وصية عبد الله المغاوري، وكان رجلاً كبيراً من أهل البلد من أعمال إشبيلية بقرب الأندلس، كان سبب رجوعه إلى طريق الله أن الموحدين لما دخلوا عليه رمت امرأة نفسها عليه، وقالت: احملني إلى إشبيلية، ونجّني من أيدي [هؤلاء]^(٢) القوم، فأخذها على عنقه، وخرج بها. فلما خلى بها وكان من الشطّار الأشداء الأقوياء وكانت المرأة ذات جمالٍ فائقٍ فدعته نفسه إلى وقاعها، فقال: يا نفس هي أمانةٌ بيدي، ولا أحب الخيانة، وما هذا وفاءٌ مع صاحبها. فأبت عليه نفسه إلا الفعل، فلما خاف على نفسه أخذ حجراً وجعل ذكره عليه وهو قائمٌ، وأخذ حجراً آخر وقام به عليه فرضخه بين الحجرين، وقال: يا نفس النار ولا العار. فجاء منه واحد زمانه، وخرج من حينه يطلب الحجّ، فأقام بالأسكندرية إلى أن مات بها، أدركته ولم أجتمع به، فأخبرني أبو الحسن الإشبيلي، وقال: أوصاني عبد الله المغاوري، فقال لي: يا أبا الحسن، آمرك بخمسين، وأنهاك عن خمسين، آمرك باحتمال الأذى من الخلق، وترك أذى الخلق، وإدخال الراحة على الإخوان، وأن تكون أذنًا لا لسانًا: أي اسمع أكثر مما تتكلم به، والخامس أن تكون مع

(١) انظر الوصايا (ص ٧١).

(٢) في (ب) هواة.

الدعوى، وعن الوقوع في رجال الله.

ثم قال:

وصية

سُئِلَ بعض أهل الله عن أعون ما يجده العبد على تسكين الشهوة؟ فقال: الصيام بالنهار، والقيام بالليل، وحذف الشهوات، والتغافل عنها، وترك محادثة النفس بذكرها. فقليل له: إن الرجل يصوم بالنهار ويقوم بالليل ولا يأكل الشهوات ويجد في نفسه حركة واضطراباً. فقال له: ذلك من فرط فضل شهوة مقيمة فيه من الأول؛ فليقطع أسباب المادة منها جهده، ويمسكها عن نفسه بالهموم والأحزان، وليسكن سلطانها بذكر الموت وتقريب الأجل وقصر الأمل مما يشغل القلوب، واقطع عن نفسك الشهوات، واستقبل المراقبة لمن هو عليك رقيب، والمحافظة على طاعة من هو عليك حسيب، نسأل الله ﷻ التوفيق على بلاغ الطريق والخروج من كل ضيق؛ إنه قوي شفيق.

ثم قال: وصية في ذكرى: قال بعض العلماء: من وثق بالمقادير استراح، ومن ضجر ما استراح، ومن تقرب قرب، ومن صفي صفي، ومن توكل وثق، ومن تكلف ما لا يعنيه ضيع ما يغنيه. وقيل لبعضهم: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، والمحاسبة لنفسك قبل أن تُحاسَب، وكن عارفاً خائفاً، ولا تكن عارفاً واصفاً، لا تكن خصماً لنفسك على ربك تستزيده في رزقك وجاهك ولكن كن خصماً لربك على نفسك؛ أنه لا يحملك عليك، ولا تلق أحداً بعين الازدراء والتصغير وإن كان مشركاً؛ خوفاً من عاقبتك فلعلك تسلب المعرفة ويرزقها اهـ.

وقد كنت في يوم الخميس الثاني أو الثالث والعشرين من جمادى الثاني عام ألف ومائة وأربعة وثلاثين وأنا نزيل البيت المقدس، والمنزل الذي على التقوى مؤسس، شرعت في تسويد رسالة سميتها «التواصي بالصبر والحق امتثالاً لأمر الحق»، وكتبت منها ما يقرب

من ثلاث كراريس، واشتغلت عنها بغيرها بوارِدٍ شريفٍ نفيسٍ، وربتها على وصيةٍ ونصيحةٍ، فإذا تمت الوصية أتبعها بالنصيحة، وهكذا من الوصايا والنصائح ما هو منظومٌ ومنثورٌ؛ فلنذكر منها هنا وصيتين ونصيحتين منظومتين ومنثورتين، مع مراعاة المناسبة في ذكر كل واحدةٍ ليكمل بها واجدها مواجدة.

وصية

بادرْ إلى التوبة، واتركْ التسويف؛ فإنه يؤدِّي إلى ركوب التعاسيف؛ ففي الحديث: «يَاكَ والتسويف بالتوبة، وَيَاكَ والغرّة بحلم الله عنك، وَكُنْ بِمَنْ ساءَتْهُ خطيئته»^(١)، ومن الاستغفار فأكثر؛ ففي الحديث: «من ساءت خطيئته غُفِرَ له وإن لم يستغفر»^(٢). واجعل لك مجالس تخلو بربك فيها وتستغفر الله تعالى من حاضر أو سالف ذنبك؛ فإن لهذه المجالس بركة تعود على الدائب عليها، تخفف أثقاله، فيدنو من حضرة القرب، ويُرفع إليها؛ ففي الحديث: «حقيق بالمرء أن يكون له مجالسٌ يخلو فيها، فيذكر ذنوبه، فيستغفر الله منها»^(٣)، وأحسن النية وأخلص الطوية؛ ففي الحديث: «نية المؤمن خيرٌ من عمله، ونية الفاجر شرٌّ من عمله»^(٤)، وأغث اللفهان؛ ففي الحديث: «إن الله يحبُّ إغاثَةَ الملهوف»^(٥)، واصنع مع من عرفت ومن لم تعرف صنائع المعروف، ولا يهْمُك أمرُ الرزق؛ ففي الحديث: «إن الله تعالى ينزِّلُ المعونةَ على قدرِ المؤنة، وينزِّلُ الصبرَ على قدرِ البلاء»^(٦).

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣٨٩٨/١)، وابن عدي في الكامل (٤٣٠/٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٢٠/٥)، وابن حجر في فتح الباري (٢٣٧/١١).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٥٥٨/٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٦٤/١).

(٣) رواه الدارمي في سننه (١٠٤/١)، وأبو نعيم في الحلية (٩٧/٢)، وهناد في الزهد (٤٥٩/٢)، والبيهقي في الشعب (٤٧٢/١)، وابن أبي شيبه في مصنفه (١٤٨/٧)، وابن سعد في الطبقات (٨٠/٦).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٣٤٣/٥)، وذكره ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (١٤٨/١)، (١٤٩).

(٥) ذكره المناوي في فيض القدير (٢٦٨/٤).

(٦) رواه الترمذي في النوادر (٣٧٦/١)، وابن عدي في الكامل (١١٥/٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١١/٢)، والبيهقي في الشعب (١٩١/٧)، والرافعي في التدوين (٤٣٦/٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣٩١/٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٦٣/٦).

واعلم أن الرزق مقسومٌ، والأجل محتومٌ، ولا بدَّ لكل نفسٍ أن تستوفي رزقها، ويظهر لها الحق باطلها وحقّها. فمن كان من أهل العناية غلب حقه على باطله فحصلت له الهداية، ومن كان بالصدِّ قُوبل بالصدِّ وحصلت له الغواية، ومن لم ترنُ له لواظ الرعاية والحماية والكفاية فأتعب نفسه في طلب ما قسم له من الأزل ففاته الراحة الكبرى وعن مقام الاستسلام نزل، ومن جاهد في نفسه وألزمها الصبر والرضا تحت مجاري القدر والقضاء كان ممن أصلح فاسد ما مضى، واستنار قلبه بنور المجاهدة فيها وأضاء. ومن كشف عن طلب رزقه له سلم ونما خجله؛ ففي الحديث: «إنَّ الرزق ليطلبُ العبد كما يطلبُبه أجله، فيتوبُ إلى ربِّه نادماً مما جناه، فيستريحُ قلبه من همِّ طلبِ الغنى»^(١)، فمن زهد من الزهاد بعد رفع الحجاب وزوال الريب كان أنزل ممن زهد ابتداءً إيماناً بالغيب، وكن خفيف الحاذ، مخفياً، ضامراً قبل أن يدهمك داعي المنون؛ ففي الحديث: «ألا إن أمامكم عقبةً كؤوداً لا يجوزها المثقلون»^(٢)، واحمد الله على السراء والضراء؛ فإن أفضل عباد الله الحامدون، وامثل أمر ربك في قوله سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر: ٥٤)، وأكثر من الاستغفار؛ ففي كلام السيد المختار: «لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»^(٣)، وكثرته توجب تسهيل الصعاب، وتيسير الأسباب، وفتح الأبواب، وفيض الوهَّاب، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨٤/٣)، وابن حبان في الصحيح (٣١/٨)، وفي الموارد (٢٦٧/١)، والبيهقي في الشعب (٧١/٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٧/١)، وأبو نعيم في الحلية (٨٦/٦)، والدارقطني في العلل (٢٢٤/٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٦١٨/٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٠٩/٢).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (١٩٩/٥)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١٧٩/١)، والمنائوي في فيض القدير (٤٣٧/٦)، والذهبي في الميزان (٣٨١/٧).

نصيحة

إذا لاحت لك لوائح القبول الناشئة عن متابعة الرسول فياياك والغرور؛ فإن الحقَّ غيورٌ، ولا تغفل عن ملاحظة العبودية وظهور سلطان الربوبية؛ فإن الغفلة حجابٌ وطردٌ عن الباب، واليقظة نورٌ وقربٌ وحضورٌ، وكل من فارق عبوديته وقتًا فقد نازع الربوبية واستوجب مقتًا؛ فالزم صفاتك من الذل والفاقة تنجو من آفاتك التي ليس لك عليها طاقة، واحذر منازعة صفات الألوهية؛ فإنك لن تستطيع مقاومة الصفات القهرية؛ ففي الحديث: قال الله تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري؛ فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في ناري»^(١)؛ فالعارف من عرف قدره وما تعدى طوره ولو بلغ أعلى المقامات وبدت له أسنى العلامات، بل لا يزيده ذلك إلا ذلاً وانكساراً وخضوعاً ورجوعاً لربه وافتقاراً؛ لتحققه أن كل ما ناله من فيض قدسه لا بحوله وقوته.

فإن العجز صفة نفسه ولو أمدّه الله سبحانه وتعالى بمدد صفاته، وتجلّى عليه بعد فنائه بنور ذاته لم يغفل عن أوصاف حدته الفانية إلا إذا غيبه عن إحساسه بتجلياته الدانية. فهناك يكون القهر الإلهي بمحو رسومه مستوليًا عليه، فإذا غرق في بحر الشهود وغاب فلا ملام، وإن عايب عاب حتى يرد إليه، فعند ذلك يطالب بأداء الحقوق الواجبة ورفع الستارات الحاجبة؛ ليعرف ما له وما عليه من اللوازم، فيعطي كل ذي حقَّ حقه وللأبواب يلزم، وكل من جهل نفسه لم يتنبه، ومن عرفها عرف ربه، وفي الحديث: «إذا عرف ربّه عرف نفسه»^(٢)؛ أي الإنسان، ففوّق؛ لتعرف سرَّ إنسان العين وعين الإنسان. ومن عرف من أين جاء وإلى أين يصير وجد نصيرًا وهان عليه العسير وكان بالأُمور بصيرًا؛ فإن من

(١) رواه أبو داود في سننه (٥٩/٤)، وأحمد (٣٧٦/٢)، وابن ماجه (١٣٩٧/٢)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٦١/٢)، والحاكم في المستدرک (١٢٩/١)، وابن حبان في الصحيح (٣٥/٢)، وفي الموارد (٤٢/١)، والقضاعي في الشهاب (٣٣٠/٢)، والطبراني في الأوسط (١٠٣/٩)، والبيهقي في الشعب (٢٨١/٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٥/٨)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢٢٥/١)، (٣٩٩/٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (٣٤٣/٢، ٣٤٤).

عرف مبتدأه هان عليه منتهاه ورجع القهقري لشهود مقره لما رآه عين مقره، فسجد قلبه إلى الأبد، ولربه بحول ربه عبد، فكان بالله الله سائر افهم الأشائر^(١)، فعاد في السرى حائر، فزال غروره، وبقي سروره، وفني عناءه لما بحبيبه، حصل غناه، ونال ثناه.

وصية

واشرب به كأس الشراب الأنفس
صعب المنال بدون شق الأنفس
واحفظ عهدًا لا تكن بمن نسي
فخرًا به كأس الفاخر تحسبي
ترقى إلى الفلك المنيع الأطلس
ما مثلها عند الفقير المفلس
إذ قد حتمها بالشداد الحرس
بل جنة المحسان لا دار المسي
تمسي كمن أثواب معرفة كسي
أعمى وإن أخرجت كن كالأخرس
فتعد من أخير هذا المجلس
لا تخشى من رمح يصدك أو قسي
وجه له سجدت جباه الخنس
ومدينة وكمثل بيت المقدس
قد فاز باللذات دون المجلس
أسقى متابعه حلال الأكوس
أو سار سائر في الظلام الأغلس

بادر إلى الحي الرفيع الأقدس
واعلم بأن الشرب من كاساته
واخطب لعزة كي تفوز بعزة
فإذا ارتضت خديمها يا حبذا
وإذا دعيتك بعبدها في حبها
أو نادمتك فتلك خير كرامة
كم من دم قد طل دون خيامها
فالزم جامها فهو جنة صبا
هذا مناخ العارفين فنخ به
وادخل على كبرائه متكففا
كي لا ترى عيبًا ولا غيبًا ترى
واقصد حى التقريب إن رمت العلا
واكشف عن الوجه الجميل براقعا
وله توجهت الوجوه ككعبة
من نال منه نظرة فله الهنا
ثم الصلاة مع السلام على الذي
والآل والأصحاب ما لاح الضيا

(١) لعله يريد «الأشائر» جمع إشارة. وإن كان الأدق فهم الإشارات.

نصيحة

نشوانُ خمر الحَيِّ في الحَيِّ انتشا
رُشاله كلُّ المعاني أقبلت
غشى عليه النور حتَّى عمَّه
لم يعش عن ذكر الحبيب فما افتشى
كم في الهوى لم يفش بين وشاته
وله المنى قد قال كن في حبنا
وبنا قمت إن كنت تعشق حسنا
وافن لتبق عندنا يا عبدنا
تنسى به ذكر السوى يا ذا الجوى
وأقبل إلينا صادقاً وموافقاً
يا مبتدئ في السير هذا المهدي
واسلك سبيل الصادقين تفز
ثم الصلاة مع السلام عليك يا
والآل والأصحاب أرباب التقى
والتابعين لهم وتابعيهم إلى
 فشمّر أيها الأخ الصادق ذيل الاجتهاد، واحذر الكسل والفشل، وجرّد سيف
 المجاهدة، واطلب الوصف الأكمل، ولا تقنع بالوشل، واقبل كلام الفرد ابن الوردي
 ساعده الله المعيد المبدي في قوله:

اطلب العلم ولا تكسل فما
لا تقل قد ذهبت أوقائمه^(١)
 أبعد الخير على أهل الكسل
 كل من سار على الدرب وصل

وقول ابن غانم المقدسي رحمه الله تعالى:

(١) في المخطوطة (أ): «لا تقل قد ذهبت أربابه» وكلاهما معنى قيم.

ولا تقل لي الطريق وعمرٌ فذاك سهل لمن مشاه

وأقبل بالصدق في الكد؛ فمن جدّ وجد.

قال سيدي عبد الكريم الجيلي الهمام العالم العامل في إنسانه الكامل: ولقد حكى لنا فقيرٌ أنه سمع شيخه يقول: من قصد شيئاً وجَدَّ وجَدَّ. فقال: والله لأخطبن ابنة الملك، ولأبلغن فيها غاية الجد والاجتهاد. فذهب إلى الملك، فخطبها منه، وكان الملك لبيباً عاقلاً فكره أن يحقره ويقول له: لست بكفءٍ لها، فقال له: اعلم أن مهر ابنتي جوهرةٌ تسمى بالهرمان، لا توجد في خزائن كسرى أنو شروان أو خاقان. فقال له: يا سيدي، وأين معدن هذه الجوهرة؟ فقال له: معدنه بحر سيلان؛ فإن جئتنا بصادقها المطلوب مكنّاك من هذا النكاح المخطوب.

فذهب الفقير إلى البحر، وأخذ يغرف بقصعته منه ويبدده في البر، فمكث على ذلك مدة لا يأكل ولا يشرب، وهو منعكفٌ على هذا الفعل ليلاً ونهاراً، فأوقع صدقه خوف انغراف البحر في جوف السمك والحيتان، فاشتكت إلى الله. فأمر الله الملك الموكل بذلك البحر أن يذهب إلى ذلك الرجل، ويسأله عن حاجته فيسعفّه ببغيته، فلما سأله عن مقصده؟ وأجابه الرجل، أمر البحر أن يقذف بموجه إلى البر ما عنده من جنس ذلك الجوهر، فامتلاً الساحل جواهر ولائى، فحملها، فذهب إلى الملك، وتزوج بابنته.

فانظر يا أخي ما فعلت المهمة، ولا تظن بأن هذا أمرٌ عجيبٌ أو شيءٌ غريبٌ؛ فقد شاهدنا بل جربنا من أنفسنا ما هو أعظم من ذلك ما لا يُحد ولا يُحصّر، والله على ما نقول وكيلٌ، ولم أحلف لك إلا خوفاً عليك من بادرة الإنكار وأن تنزع بقلبك عن سلم الهدى ومعراج الأسرار؛ فإن القلوب إذا جال فيها الخناس والبسها ثوب الوسواس يوشك أن تجول في مهامه الإياس، فتحرم نور اليقين بظلمة الالتياس اهـ كلام الجيلي قدّس الله سرّه.

الرجال ثلاثة:

واعلم أن الرجال على ثلاثة أقسامٍ: جسمانيٌّ، وروحانيٌّ، وربانيٌّ. فالأول: هو الغافل السابغ السائح في أراضي القبائح، والثاني: السالك السائر والمالك الطائر، والثالث:

الواصل الموصول والموصل كل مقطوع مفصول. فالأول منكم في شهواته وسهواته، والثاني ساعٍ في مماته لأجل حياته، والثالث غائبٌ بشهوده عن وجوده مستغرقٌ في تجلياته، والأول شاردٌ عن أوطانه متغربٌ عن جيرته وخلانه متقرب من حظوظه غافلٌ عن شأنه، والثاني مقبلٌ على منازل عيانه ومقامات إحسانه وتعمير دوائر أركانه، والثالث مكاشفٌ بغرائب عرفانه مدهوشٌ بعجائب تجلياته غير ناظرٍ لأكوانه، قد اختطفته يد الجذبات عنه، فغاب عن إنسه وأنه^(١).

وإني دخلت على شيخنا المرحوم، فأخبرني بما معناه: أنه سمع منادياً ينادي على حمارٍ شاردٍ، فاعتبرت، فإذا أنا شاردٌ عن أوطان شربي، متباعدٌ عن منازل شربي؛ فإن أوطان أهل الطريق بيوت المجاهدات وثبوت المشاهدات، وقد أخذتني العبرة بهذا الاعتبار، وقلت: أنا الحمار؛ لإشغال اليوم بالأكل والشرب والنوم، وقد كان أنسي في الخلوات وتلذذي في الجلوات، وأنا خائفٌ أن أموت وأنا على هذه الحالة التي أنا بها مخمورٌ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينقلني إلى دوام المراقبة والحضور، وقد ترجمته رحمته في كتابٍ، وسميته بـ «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب»، فمن وقف عليه عرف حسن سيرته وصفا سيرته ونفى عنه كل نقصٍ تُسبب إليه، ولقد قرأت عليه الورد الذي سميته «الابتهالات السامية والدعوات النامية»، ومطلعه: **اللَّهُمَّ خلصني من رِقِّ البشرية وخدمة الجسمانية، واجعلني عبداً روحانياً خالصاً مخلصاً مما سواك.. إلخ، فبكى بكاءً كثيراً، ودعا لي دعاءً كثيراً، وكنت عرضت عليه «الفتح الجديد والعقد النضيد»، وهذا أول وردٍ فتح به علي و«التوجه الوافي والمنهل الصافي»، فلم ينسخهما، ونسخ الأول بيده رحمته وأمدنا من مدده، آمين.**

واعلم أن الطرائق بعدد أنفاس الخلائق، لكن الذي يتحتم على المريد أن يرى طريقه أعلى الطرائق؛ ليجتمع عليه قلبه وينصرف إليه لُبُّه، ويعتقد أن شيخه أرفع مشايخ عصره؛ لئلا تتطلب نفسه الاجتماع بغيره من أهل مِضره، فيتشتت منه العزم، ويفوته الجزم

(١) فغاب عن إنسه وأنه: أي غاب عن نفسه وزمانه.

والحزم، وتتشعب آرائه بغير حساب، ويدخل عليه الهوى من كل باب، فلا ينتفع منه بوعظٍ ولا سؤالٍ ولا جوابٍ، ولذا منع الأشياخ المريد ما دام في حجر التربية من الاجتماع بغيرهم قصد الاقتراب.

فإن قلت: ألم يقل سيدي أبو الحسن الشاذلي رحمه الله لأتباعه الأنجاء: ردُّوا غير هذا المورد، فإن رأيتم موردًا أعذب منه فردوه؟!.

قلنا: حمله الإمام الشعراني رحمه الله على كُمل الأصحاب الذين ثبتت أقدامهم في طريق المعرفة والآداب.

فإن قلت: وما سبب اختلاف الطرائق حتى كانت بعدد أنفاس الخلائق؟! وهل بثُّ الحقائق هو الأولى أم كتمها من غير الذائق؟! وما سبب اشتغال بعض الأكابر بالتأليف وبعضهم بالإرشاد ودونه؟ وأي الفريقين أرقى في قطع العلائق؟

قلنا: قد أجبنا عن هذا السؤال في رسالة سمينها «الكأس الرائق في سبب اختلاف الطرائق»، وإذا لم تخرق من نفسك العادات وتمزق منها ثياب الإرادات لا تدرك مذاق السادات المرتقين منابر السیادات. ولا تظن أن مجرد الذكر والأوراد والعبادات التي صارت من جملة العادات تكفي في المجاهدات والمكابدات. ومن هنا قال بها معناه بعض السادات: إذا صارت العبادة عادةً لم تفدك إفادةً موجبةً للترقى في درج السعادة. وسبب ذلك دخول النفس فيها؛ لأنها صارت من مألوفاتها، حتى إذا تركها صاحبها تطلبها منه ولم ترض إلا بقراءتها عليه. وعلامة حصول ثمرة الأوراد كثرة الواردات؛ (فمن لا ورد له لا وارد له)، ومن لا واردات له لا ثمرة عنده، ومن لا ثمرة عنده لأوراده لا غذاء فيها لروحه؛ فهو كمن يتغذى بالسراب يظنه الشراب، فلا يغنيه من ظمأ نيل الاقتراب، لكن له مزيد ثواب إذا أخلص في تلاوته وأتاب دون رفع براقع وحجاب.

قال سيدي أبو الحسن تاج العارفين البكري رحمه الله في آخر رسالته «الرجوع من السفر»، في الباب العاشر منها: اعلم أنه ليس الحظ من المريد كثرة الصوم ونحو ذلك، بل محق نفسه وإزالة أوصافه والفناء عن بشريته، وجماع ما تنال به ذلك هضم النفس، واعتقاد أن

لا فضل لك ولا حق لك على أحد، ولا تظن أنك خيرٌ من أحدٍ البتة، ولن في القول: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ﴾ (الإسراء: ٢٤)، وإذا كبرت عليك نفسك فراجع أستاذك؛ ليهذبها ويأمرك بما يفرج عليك، وامثل أمره ولو بتمزيقٍ وتخريقٍ للعادات، وإياك من مخالفته في ذلك؛ فهذا باب الكمال الأعظم.

وقال ولده سيدي محمد البكري المشهور بالقطب رحمته في أول رسالة له: وبعد، فإن للنفس تجلياً بمقتضى الطبيعة، وآخر بمقتضى الحقيقة، فالأول اعتبارات عالم الخلق، والثاني أطوار عالم الأمر، وبينهما برزخ يقضى عليه بأقرب طرفها إليه. والعارف المحقق من الله عليه؛ فأتقن الطرفين وحقق معرفة البرزخ في البين إلى أن تلج في بحر الطمس من عالم النفس بالكلية حتى تكون، ولو كانت كاملةً معه في حكم الأجنبية فربما أعطت الرياضة النفس بصومٍ وصلاةٍ ومجاهدةٍ ومخالفةٍ وإماتةٍ للشهوة تجلياً من وراء ستارة عالم الخلق ضرورة اقتضاء الحكمة للمجالي حكمها، فيقع في وجود من حصل له هذا القسط أنه ورد منهل القدس الداني واشتمَّ أنفاس الغيب العياني، لا والله إنما طبع المظهر بوصف الظاهر الذي نقش في لوحه ما يناسبه وأعطاه ما يلائمه مما تعذب به لديه مشاربه، حتى يقع لأصحاب هذا الوصف مشافهات ومشاهدات وخوارق في عالم الملك وحقائق في حضرة الملوك، وكلها محكومٌ عليها بأنه حصّة نفسة في صورة خفية بمظاهر خلقية سترت حضيض خليقتها أضواء حقيقتها، وإنما يحظى العبد بقدم العزم والتطهير من حدث الوهم بهاء اليقين المطلق من إضافات الاعتبار، وانتهت إليه به منه الإشارات، ووقع ذلك في البرزخ. والحال أنه لم يرتق بعد عن حضيض سجّين نفسه إلى منتهى عليين فيض قدسه، وإنما هو بعد من وراء حجابٍ وسترٍ مسدلٍ ونقابٍ، فمهما كان أقرب إلى الطرف الخلقى يحصل للعبد تجليات لا هي عين التي كانت ولا هي غيرها من كل وجه. فإذا توسط البرزخ سكنت نفسه مدة عن أن يتجلى لها شيءٌ؛ لأنها في حق مرتبة لا تتعادي طرفها، فبينما هو في ذلك إذا بداعي القهر سلطان الأمر من مطلع شمس الأحديّة، استهّل داعياً إلينا، فيأخذ في الإقبال غير مكترثٍ ولا مستعجلٍ، وسبب تحريه صدق

سلطان الدعوة التي انمحق تحت هيبة قواه، وذلك مقصودٌ له حتى يكون انتقاله بمحض قوة الداعي؛ فعند ذلك يؤذن له بالوصول؛ فإن العبد مهما سلك بنفسه ولو هي في أعدل أحوالها غايته أن يصل إلى خلوصها من أحوالها، فعند ذلك ربما أوحى لها إلهامًا «أقبلي إليَّ بي»، فمهما حصل لها في هذا المقام فهو الحق الذي لا يلتبس ولا يحتاج صاحبها إلى سؤال عن وقائعه؛ إذ معه منه فيه معلّمٌ حقٌّ وقائدٌ صديق.

قلت: وهذا أكثر ما يقع لأهل الجذب الرباني والقرب الصمداني وفي غيرهم نادر؛ فللجد بادر.

ثم قال: وهذا الذي رَقَمَه قلم الإمداد بمدد الإلهام محك لأحوال الرجال بأوفر خطاب، ولكن ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩)، وهم أهل الهمم الذين آثروا الله من حيث هو على كل شيء وعلا متهم ألا يغيرهم عنه من حيث هو شيءٌ وألا يزالوا في ازدياد من حيث هو مبقِيهم به بعد إفنائهم فيه عن كل شيء.

هذا وما أصدره راقم الفيض وصدر به لسان الفتح من تحرير انجلاء عرائس التجلّي في مظهر عالم الخلق أولاً، سببه أن كل تجلٍّ حصل للعبد لاحظ فيه هو الأقرب إلى حسّه والأنسب بعاداته والأليف بظهوره ليلا يفجأه ما هو وراء مألوفه بكل اعتبارٍ دفعةً واحدةً، فلا يقوى على ذلك. والحكمة الربانية قضت بالتدريج ومجارة المزاج الإنساني باللطف في التخريج، فبحقّ يكون انجلاء الأسوار في استتار عالم الخلق متقدماً؛ لأنك خلقٌ محضٌ مهما نظرت إلى صور الوجود، وأن قيامها بأمر محضٍ، فأنت أمرٌ محضٌ مهما بطنت في الشهود، ووراء الأمر الأمر وهو الباطن الظاهر، وبلا شبهة أنت إنسٌ بما عرفته، ثم تسير فيما لم تعرفه ومعك حصّةٌ مما تعرف، فمتى تخلص من كل شيء تعرف إلى كل شيء ليس لك فيه معرفة، ولا به إلفٌ ولا معه تعرف البتة، فالزم البرزخ السابق؛ ليكون لك به إجمامًا: [أي راحة] (١) من كد المجاهدة المخرجة عن طور الخلق، وإن كان إخراجاً مقروناً

(١) ما بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (أ).

باللطف، وحسبك من اللطف عدم محقك في مبادئ سيرك؛ إذ ليس من أوقد نار الحكمة ليصعد بها أنفاس تدبير إكسير الحقيقة كمن زاد في الاشتغال على قسط الاعتدال فأبقى ما يراد منه الإبقاء للقاء، ثم في مدة البقاء في البرزخ يغلبه الاصطلام والدهش والحيرة، ولكن من غير عريضة سكر ولا كثرة أفعال ولا زائد حركة؛ إذ تلك إنما تكون غالباً في المبادئ، وفي هذا البرزخ يتحف العبد بالسريان إلى من أين يعرف وإلى أين يعرف، ومن المعلوم أن هذه الكلمات شذرات من العبارات عن الإشارات ومقدمة تليح أنموذج هذه المقامات بأخص المقالات، والله العليم بأهل التكريم، ولا يشم هذا النسيم إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقال ﷺ في رسالة أخرى: واعلم أن الشيطان إذا أحس بإقبالك على من عنده وديعتك ولديه بقيتك يحشد أجناده ويجلب عليك؛ ليصرفك عما يوجب إيصال نفعه إليك؛ حسداً منه؛ وأنفة من أن يصل أحدٌ إلى الحق أو يأخذ عنه. فكن على بصيرة في نفسك، وأحسن الظن بربك وأوليائه والعقيدة في أحبابه وأصفياه. فإذا تقلدت لديك الأحوال واختلت عنك الأقوال والأفعال فاثبت ثباتاً [لا يزول وتزل الجبال]^(١)، فما هي إلا أويقات ثم يتبلج نور المواصلة ويتأهل العبد للجبر والمقابلة.

والقول الجامع في سلوكك دوام المراقبة وعدم الازدراء بالخلق والمداومة على تأدية وظائف الحق وترحيل نفسك عن موطن شهواتها، خصوصاً من حيث رئاستها وشهرتها وذلك الترحيل بمخالفة محبوبها ومباينة مرغوبها. وعلامة المحب أن يؤثر حبيبها على كل شيء لو كان له كل شيء، فكيف وليس له شيء فلم يبق إلا ما أضيف إليه إضافة مجازية، فلا أقل من أن تسمح بذلك طلباً للفوز بالأسرار الحقيقة.

والليل مطية تقطع عليها المراحل المتباعدة فاملأه بالذكر والفكر والمراقبة والمجاهدة، ولا أقل من ثلاثة أوقات: واحد بعد العشاء، وواحد في الجوف، وواحد في السحر، مع مراعاة حق البنية؛ فإنها راحلتك التي أنعم الله عليك بها، وصورتك التي تتوجه إليك

(١) لعل المقصود [تزول الجبال ولا يزول].

العناية بها، واحتفظ من اللُّقْم التي تدخلها جوفك، واحرص كل الحرص على الأقرب للحل فالأقرب، وإياك والامتلاء من الطعام؛ فإنه مجلبةٌ للآثام وسببٌ للتكاسل عن امثال الأوامر والقيام بالأحكام. فإذا أحسَّ القلب بحبِّ الربِّ أو شَعُر به تنصرف عنه شهوة الطعام والشراب، فلا يتناول إلا بقلة وإقامة لصورة الأسباب^(١).

واحذر كل الحذر من مجالسة غير الجنس، خصوصًا من لم يتمذهب بمذهبك من حب أستاذك بل أركس في الرجس؛ فإن مجالسة هؤلاء من غير ضرورة سَمٌّ قاتلٌ ومانعٌ عن الهدى وحائلٌ. وأحسن من جالست من كان معك على نفسك، فإن لم تجد فمن لم يطلب منك أن تكون لنفسه، فإن لم تجد فمن لم يشغلك عن صلاح نفسك، وأجل المجالسين من تهديك كلماته وترشدك إشاراته، وذلك أستاذك وأخوك في طريق أستاذك وصفوك من اللِّياذ بملاذك. وإياك واستبطاء الوصول؛ فذاك ولو بعد السلوك سببٌ لعدم بلوغ المأمول، فإنك لو عشت سالكًا عمر الدنيا ألف مرة وظفرت بعد ذلك من الله قدر ذرة كان ما وصلت إليه أعظم من كل شيء سلكت عليه، بل لو لم تصل إلا للتوفيق بدوام الخدمة لكان ذلك أوفى وأوفر نعمةً، والله أسأل أن يلقي إليك مقاليد الحكمة، وأن يعاملك بمحض الرحمة.

فتأمل هذه العبارات الرشيقة البكرية؛ فإنها عقيدةٌ بكريةٌ، وقد ذكرت ترجمة هذا الهمام في ابتداء شرح الصلوات النبوية التي تلقاها من الحضرة المحمدية المسماة بـ «الفيوضات البكرية على الصلوات البكرية»، وهو بين أيدينا، نرجو من الله له التمام؛ لتشق من عرفه طيب التمام، ومطلع صلواته: اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ على نورك الأسنى وسرِّك الأبهى وحبيبك الأعلى وصفيك الأزكى.. إلخ، ولقد منَّ الله سبحانه على عبده بجزيل بره ورفده، فوضع صلوات على الحبيب المعظم والطبيب الأفخم تنوف على الثلاث مائة، وسميتها «الدُّر الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق»، وقد مضى على مدة تأليفها نحو خمس عشرة سنة.

(١) ينصح السالك بالإقلال من المأكَل والمشارب ويكون طعامه احتراماً للأسباب التي وضعها الحق سبحانه للبقاء.

ثم أنعم^(١) بوضع صلوات ألفية، وفضل هذا العدد معلوم، ومزيتة ليست خفيفة، وكان ذلك من نحو خمسين سنة، وسميتها «صلوات بكرية في الصلاة على خير البرية»، ثم حجب لي أن أضع صلوات نبوية أضمنها الأحاديث المصطفوية الواردة في فضائل الخلفاء الأربعة الذين على حبهم قلوب المؤمنين متفقةً ومجتمعة، وأن أسميها «الصلوات الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة»^(٢) لبعض ما ورد في فضل الخلفاء، وهذه الصلوات لم تبيّض، وأرجو بها يوم تسود وجوه المبغضين فيهم وجهي يبيّض، وأما القصد من ذكر هذه الصلوات وغيرها من الرسائل لأشكر الحق على نعمه التي أسداها إليّ ومنته التي أسبغها عليّ، حيث أهّلني للاشتغال بتصفح وجوه الدفاتر والانكفاف عن العبث^(٣) والخوض فيما لا يعني، سيما في هذا الزمان الذي سيفه باتر، والمقصود التذكر لا أن أذكر، وأن أسهر في مسامرة أحياء الأموات، لا أن أشهر، وهل يليق بمن هو مثلي مضمّخ بالعيوب موسخ بالذنوب متعرج بالمعاصي متفرج بالمعاصي أن يخطر بباله أو يمر في خياله أن يُذكر بين الأقران أو يُعد في نوع هذا الإنسان؟! وأعوذ بوجه الله من دسائس النفس في مثل هذا الكلام؛ فإن دسائسها أدق من أحبال الشمس، والسلام، ولنختم هذه الرسالة؛ فقد تحتم الختم، وصار ملتزمًا؛ لأن الاختصار يتأكد لضعف الهمم.

ولنتكلم الآن على معنى قوله ﷺ: «إِذَا عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»^(٤): أي الإنسان، رواه الديلمي في مسند الفردوس، وكثيرًا ما تورده السادة الصوفية بلفظ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»؛ فيكون على ما ذكر من باب رواية الحديث بالمعنى، وقد يكون صحّ عندهم بهذا اللفظ من طريق آخر، وقد نقل شيخنا الشيخ عبد الغني حفظه الله تعالى في «كتاب الوجود الحق من كتاب منجز التوحيد» تأليف من يهدي المقتدى به للمشهد العزى الشيخ

(١) الفاعل مستتر يعود على المنعم الوهاب سبحانه وتعالى.

(٢) هذه الرسالة طبعت عدة مرات، وهي من أجل ما له من الأذكار والأوراد رضي الله عنه.

(٣) انكف عن الشيء: نأى وابتعد عنه.

(٤) تقدم تحريجه.

نجم الدين الغزى حديث أدرج فيه هذا الحديث بلفظه أو معناه، وقد يكون صح من طريق كشفهم وتلقيهم عنه رحمته مشافهةً يقظةً؛ فقد ثبت عن كثير من الأكابر ادّعاؤهم رؤيته رحمته فسلم ولا تكابر.

وقال المحقق المتقن الحجة العمدة ابن حجر الهيتمي رحمته في شرح الهمزية عند قول الماتن:

لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَا وَجْهِهِ زَالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رَأَاهُ الشَّقَاءُ

بعدما ذكر أنه يمكن حمل تمنيه على إدراك زمنه رحمته أو رؤيته منامًا، وأورد الأحاديث الواردة في ذلك، ثم قال: أو ليتني أراه في يقظتي بناءً على إمكان ذلك، وهو ما حكاه ابن جرير والياضي وغيرهم عن جماعة من التابعين ومن بعدهم: أنهم رأوه في المنام، فرآه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء غيبية، فأخبرهم بها، فكانت كما أخبر.

قال: قال ابن أبي جرير: وهذه من جملة كرامات الأولياء؛ فيلزم منكرها الوقوع في ورطة إنكار كراماتهم.

وفي منقذ الغزالي: أن أرباب القلوب في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد.

وقال البدر حسن الأهدل وقوعها للأولياء تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك قويًا، انتفى عنه الشك، وما تواترت عليه أخبارهم لم يبق فيه شبهة، ثم أخذ يبطل ذلك ويفسده، ويعظم النكير على مجوزه بما لا حجة فيه ومما يبطل جميع ما دندن به وجاوز فيه الحد أن من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم حيٌّ في قبره، وأنه لا يراه في اليقظة الرؤية النافعة إلا وليًّا، وأنه لا يبعد أن من أكرم برؤيته رحمته بإزالة الحجب بينه وبينه؛ فهو رحمته مع كونه في قبره يراه الأولياء في قبره ويحادثونه، وإن بعدت ديارهم واختلفت مراتبهم في الحالة الواحدة، ولا يلزم من وقوع ذلك لهم على جهة الكرامة الباهرة أنهم صحابة؛ لأن الصحبة انقطعت بموته رحمته، وإذا كان من رآه بعد موته وقبل دفنه غير صحابيٍّ فهو لا كذلك

بالأولى، (فاندفع) قول فتح الباري: هذا مشكّل جدًّا ولو حُمل على ظاهره كانوا أصحابه انتهى.

ومما يؤيد أن الناظم يحتمل أنه أراد ذلك أنه تلميذ القطب أبي العباس المرسى رحمته الله فهو الذي حلت عليه بركته حتى وصل إلى النظم البالغ الذروة العليا، والقطب المذكور وارث القطب الأكبر: أي الحسن الشاذليّ، وكلُّ منهما حفظت عنه رؤية النبي صلى الله عليه وآله يقظة، بل قال أبو الحسن: لو حُجب عني رسول الله صلى الله عليه وآله ما عددت نفسي مسلمًا، والقطب علي ابن القطب محمد بن الوفا، وهما من جملة المنتسبين إلى القطب الشاذليّ؛ ومن ثم قالوا: طريقة الوفايَّة خلاصة طريق الشاذليَّة، وهو ممن حفظت عنه رؤية النبي صلى الله عليه وآله مرارًا، لاسيما عند قبر والده بالقرافة، كما هو مسطور في كراماته، فيكون الناظم منسوبًا لهؤلاء الواقعة لهم الرؤية يقظة، يقرب أنه سأل في وقوع ذلك له كما وقع لهم.

ولقد كان شيخني وشيخ والدي الشيخ محمد بن أبي الحمايل يرى النبي صلى الله عليه وآله كثيرًا، حتى يقع له أنه يسأله في الشيء فيقول: حتى أعرضه على النبي صلى الله عليه وآله. ثم يدخل رأسه في جيب قميصه، ثم يقول: قال النبي صلى الله عليه وآله فيه كذا وكذا. فيكون كما أخبر، لا يختلف في ذلك أبدًا؛ فاحذر من إنكار ذلك؛ فإنه السُّمُّ الوحيُّ اهـ.

قال في المختار: والوحي: السرعة، يمد ويقصر، ويقال: الوحا الوحا: أي البدار البدار، والوحيُّ على فعيل: السريع، يقال: موتٌ وحيٌّ اهـ.

ونقل الشعراني رحمته الله في طبقاته في أول ترجمة سيدي إبراهيم المتبولي رحمته الله: أنه كان كثيرًا ما يرى النبي صلى الله عليه وآله في المنام، فيخبر بذلك أمه، فتقول له: يا ولدي، إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة. فلما صار يجتمع به في اليقظة ويشاوره على أموره قالت له: الآن قد شرعت في مقام الرجولية. وكان مما شاور عليه عمارة الزاوية التي ببركة الحاج، فقال له: يا إبراهيم عمّرها هاهنا، وإن شاء الله تكون مأوىً للمتقطعين من الحجاج وغيرهم، وهي دافعةٌ للبلاء الآتي من الشرق عن مصر، فما دامت عامرةً فمصر عامرةٌ. ولما شرع في غرس النخل

بالقرب من البركة لم يصح له بئر، فاستأذن النبي ﷺ، فقال: غداً إن شاء الله أرسل لك علياً بن أبي طالب يعلم لك على بئر نبي الله ﷺ شعيب الذي كان يسقي منها غنمه. فأصبح، فوجد العلامة مخطوطة، فحفرها، فوجدها، وهى البئر العظيم بغيطة إلى الآن انتهى.

واستفيد من نشر هذه العبارة أن رؤيته ﷺ يقظةً ثابتةً لكل من رسخ قدمه في مقام الولاية، ولكن منهم من أذن له، فأخبر لما الإخبار عليه تحتم، ومن لم يؤذن له في ذلك فكتم. ومنهم من يسمع خطابه ﷺ عند وصوله إلى قبره الشريف لا غير، ومنهم الذي يسمعه على كل حالٍ لتكملة في السير، كما يحكى عن سيدي أحمد الرفاعي الجامع لكل كمالٍ وخير الملبّي داعي التقريب ببلى وأجل ونعم وجيرانه لما زار الحجرة النبوية ووقف أمام الشباك المزيل عن مواجهه كل همٍّ وغمٍّ وكربٍ وضيرٍ أنشد لما طار طائر لبّه بأنواع القرب من حبه كما يطير الطير:

في حالة البعد روحى كنتُ أرسلها تُقبّل الأرض عني وهى نائيتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدّ يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت له اليد الشريفة الميمونة المباركة فقبلها، وهذه كرامة ظاهرة اختص بها دون مشاركة^(١).

ويقرب من هذه الحكاية ما وقع لسيدي محمد البكري قدس الله سرّه على ما نقل في ترجمته: أنه لما زار ذلك المقام الأقرب الأعجب الأنهج والرحب الرحيب الأوسع الأفرج الأبهج، ووقف خاضعاً في مقابلة الشباك والدمع على الخد في اشتباك، سمع من الحضرة كلاماً كالذر المنظم، وهو المصراع الأخير، فبنى عليه أبياتاً، وأنشدها قبالة الوجه المعظم، وهى:

(١) بل وقعت لقطب زمانه شيخنا العارف بالله سيدي جودة بن إبراهيم النقشبندى فانظرها بتامها في كتاب «النفحات الجودية» لشيخنا الدكتور جودة المهدي حفظه الله.

ولما آتينا قبراً أشرف مرسل	ولاح لنا سرُّ العناية ينجلي
وعُيِّبَ سرُّ الروح في ملكوته	فصار عن الأكوان في أيِّ معزل
وسار من الجمع المحيط لرتبة	فقال بسرُّ الذات عن وصف منزل
عرضتُ عليه ما أردت فقال لي	بلسانٌ تجلَّى الحقُّ منه بمقول
مجيئاً بما أملتُه من عطائه	سمعنا وأعطيناك فوق المؤمل

ولهم ﷺ في الأخذ عنه ﷺ طرائق شتى مستقيمة، كالخط المستقيم لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً.

ومن تلك الطرق التي يأخذون فيها عنه ويتلقون بها منه ما ذكره سيدي محي الدين قدس الله سره في الباب الرابع عشر من فتوحاته، الذي عقده في معرفة أسرار أنبياء الأولياء وأقطاب الأمم من آدم ﷺ إلى سيدنا محمد ﷺ.

قال ﷺ: وأما حالة الأنبياء الأولياء في هذه الأمة فهو كل شخصٍ أقامه الحق في تجلٍّ من تجلياته، وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل ﷺ، فأسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ، حتى إذا فزع من خطابه وفزع عن قلب هذا الوليِّ عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمة المحمدية، فيأخذها هذا الوليُّ كما أخذها المظهر المحمدي للحضور الذي حصل له في هذه الحضرة مما أمر به ذلك المظهر من التبليغ لهذه الأمة فيرد إلى نفسه، وقد وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد ﷺ، وعلم صحته علم يقين، بل عين يقين؛ فأخذ حكم هذا النبي، وعمل به على بينة من ربه.

فربَّ حديثٍ ضعيفٍ قد ترك العمل به لضعف طريقه من أجل وضاع كان في رواته يكون صحيحاً في نفس الأمر، يكون هذا الواضع مما صدق في هذا الحديث من طريق ذلك الثقة. وهذا الولي قد سمعه من الروح يلقيه على حقيقة محمد ﷺ، كما سمع الصحابة حديث جبريل ﷺ مع محمد ﷺ في الإسلام والإيمان والإحسان في تصديقه

إيَّاه، وإنما سمعه من الروح الملقى، فهو فيه مثل صاحب الذي سمعه من فم رسول الله ﷺ علماً لا يشكُّ فيه، بخلاف التابع؛ فإنه يقبله على طريقة غلبة الظن لارتفاع التهمة المؤثرة في الصدق، وربَّ حديثٍ يكون صحيحاً من طرق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر، فسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث الصحيح، فأنكره، وقال له: لم أقله، ولا حكمت به. فيعلم وضعه، فيترك العمل به عن بينة من ربه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه، وهو في نفس الأمر ليس كذلك. وقد ذكر مثل هذا: أي مما يتضمن معنى هذا الكلام مسلم في صدر كتابه الصحيح، وقد يعرف هذا المكاشف من وضع ذلك الحديث الصحيح طريقه في زعمهم إما أن يسمى له أو يقام له صورة الشخص... إلخ.

وإنما ذكرنا هذا الكلام ليزول عنك الشك في إيرادهم بعض أحاديث ضعيفة الإسناد عند العلماء الأعلام؛ لأن طريقة هؤلاء الضبط والإتقان، وطريقة أولئك الكشف والعيان، فسلم لكل طائفة أقوالها، فهذا أولى بنفس المسلم وأقوى لها. فإن قلت: ألم يورده بعض النقاد أثراً؟!

قلنا: نعم، لكن من حفظ حجة على من لم يحفظ، فاقفُ إذن له أثراً، والمثبت مقدّم على النافي، وليس بعد إثبات الدليمي له ما ينافي، وقد ارتفع بما قدّمنا الالتباس ولزم التابع الاقتباس، وليحذر المنكر أن يوافق النفس التي بالعيوب مشحونة بالرد على الأماجد الأعيان الذين أرواحهم مطلقة غير مسجونة، وفي حب المعالي مشحونة، وأفئدتهم محزونة، وأسرارهم محزونة، فمن فوق^(١) إليهم سهماً عادٍ إليه ولو كان شهماً. وعلى رسلك أيها اللائم؛ فإن لكل مجالاً رجالاً ولكل مقام مقالاً. وعليك بالتؤدة حتى يُريك الله المخرج، ودع الاستعجال، وخذ بيدك قسطاس المعدلة، وأدخل فمطاط التكملة تسلم من شوائب الاعتراض وتخلص من سائر الأمراض. فلو دخلت حديقة أهل الحقيقة وولجت شرعة

(١) فَوْق بمعنى سدد وصب.

أهل الشريعة الوثيقة وطرقتك طوارق الطريقة لما بدا منك اعتراض، ولرأيت مشروهم واحداً، وإن اختلفت أذواقهم الرشيقة، وقد نصحتك؛ فلا تتعرض للسّم الزّعاف الذي لا يُتقى، وعد عن عد هنات أهل التلقي والإلقاء، وإن لم تقبل نصحي فحبلك على غاربك مُلقى، وستندم إذا نزل بك البلاء وتتذلل وتتملق فلا يفيدك تذللٌ وتملقٌ، واعلم أن المعرفة في اللغة هي العلم.

قال في القاموس: عرفه يعرفه معرفةً وعرفان وعِرفة بالكسر، وعِرفان بكسرتين مشددة الفاء: علمه، فهو عارفٌ وعَرِيفٌ وعَرُوفٌ اهـ.

قال السيّد الشريف في التعاريف: المعرفة إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبقةٌ بنسيانٍ حاصلٍ بعد العلم؛ ولذلك سُمّي الحق تعالى بالعالم دون العارف.

وقال سيدي محي الدين قدّس الله سرّه في اصطلاحاته: العارف والمعرفة من أشهده الحق نفسه، فظهرت عليه الأحوال، والمعرفة حاله.

وقال في الباب السابع والسبعين بعد المائة من فتوحاته التي عقده للتكلم على مقام المعرفة والاختلاف الذي بين الصوفية فيها وبين المحققين: وَبَعْدَ أَنْ تقرر هذا فلنرجع إلى الطريقة المعهودة في هذا الباب التي بأيدي الناس من أهله؛ فإن هذه الطريقة التي نبّهناك عليها طريقةٌ غريبةٌ، فنقول: إن المحاسبيّ ذكر أن المعرفة هي العلم بأربعة أشياء: الله، والنفس، والدنيا، والشیطان. والذي قاله رسول الله ﷺ: إِنَّ الْمَعْرِفَةَ بِاللّهِ لَيْسَ لَهَا طَرِيقٌ إِلَّا الْمَعْرِفَةُ بِالنَّفْسِ، فقال: «من عرف نفسه عرف ربّه»، وقال: أعرفكم بنفسه أعرفكم برّبّه، فجعلك دليلاً: أي معرفتك بك دليلاً على معرفتك بربك، فإما بطريقة ما وصفك بما وصف به نفسه من ذاتٍ وصفاتٍ، وجعله إياك خليفةً نائباً عنه في أرضه، وإما بما أنت عليه من الافتقار في وجودك، وإما الأمران معاً، لا بد من ذلك، ورأينا الله يقول في باب العلم بالله المعبر عنه: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)، فأحالتنا الحق على الآفاق وهو ما خرج عنا وعن أنفسنا، وهو ما نحن عليه

وبه. فإذا وقفنا على الأمرين معًا عرفناه، وتبين لنا أنه الحق، فدلالة الله أتم، وذلك إننا إذا نظرنا في أنفسنا ابتداءً لم نعلم هل يعطى النظر فيما خرج عنا من العالم وهو قوله (في الآفاق) علمًا بالله ما لم تعطه نفوسنا أو كل شيء في نفوسنا، فإذا نظرنا في نفوسنا حصل لنا من العلم به ما يحصل للنظر في الآفاق.

فأما الشارع: فعلم أن النفس جامعةٌ لحقائق العالم، فجمعك عليه؛ حرصًا منه، كما قال فيه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨)؛ حتى يقرب الدلالة، فتفوز معجلًا بالعلم بالله، فتسعد به.

وأما الحق: فذكر الآفاق حذرًا عليك مما ذكرناه أن تتخيل أن قد بقي في الآفاق ما يعطى من العلم بالله ما لم تعطه نفسك، فأحالك على الآفاق، فإذا عرفت عين الدلالة منه على الله، نظرت في نفسك فوجدت ذلك بعينه.

فالذي أعطاك النظر في الآفاق أعطاك النظر في نفسك من العلم بالله، فلم يبق لك شبهة تدخل عليك؛ لأنه ما ثمَّ إلا الله، وأنت وما خرج عنك وهو العالم، ثم علمك كيف تنظر في العالم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان: ٤٥)، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٧)، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ١٨٥)، وكل آية طلب منك فيها النظر في الآيات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤)، ويتفكرون، ويسمعون، ويفقهون، وللعالمين، وللمؤمنين، ولأولي النهى، ولأولي الألباب، لما علم سبحانه أنه خلق الخلق أطوارًا، فعَدَدَ الطرق الموصلة للعلم به بأن كل طور لا يتعدى منزلته بما ركب الله فيه، فالرسول ﷺ ما أحالك إلا على نفسك لما علم أنه سيكون الحق قواك، فتعلمه به لا بغيره فإنه العزيز والعزیز هو المنيع الحمى، ومن ظفر به غيره فليس بمنيع الحمى فليس بعزیز، فلهذا كان الحق قواك، فإذا علمته وظفرت به يكون ما علمه ولا ظفر به إلا هو، فلا يزول عنه نعت العزة، وهكذا هو الأمر؛ فقد سدَّ باب العلم إلا منه، ولا بد، ولهذا ينزّهه العقل، ويرفع المناسبة من جميع الوجوه، ويجيء الحق فيصدق في ذلك بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

(الشورى: ١١)، يقول لنا: صدق العقل؛ فإنه أُعطي ما في قوته لا يعلم غير ذلك، فإن أُعطيت كل شيء خلقه، والعقل من جملة الأشياء فقد أُعطيناه خلقه، وتتمة الآية فقال: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠)، أي بين، فبين سبحانه أمراً لم يعطه العقل ولا قوة من القوى. فذكر لنفسه أحكاماً كما هو عليه لا يقبلها العقل إلا إيماناً أو بتأويل يردّها تحت إحاطته، لا بد من ذلك؛ فطريقة السلامة لو لم يكن على بصيرة من الله أذ لا يتأوّل ويؤمن ويسلم ذلك إلى الله^(١) على علمه فيه، هذه طريق النجاة.

فالحق سبحانه يصدق كل قوة فيما تعطيه؛ فإنها وفّت بجميع ما أعطاه الله، وبقي للحق من جانب الحق ذوق آخر، يعلمه أهل الله، وهم أهل القرآن، أهل الله وخاصته، فيعتقدون فيه كلّ معتقّد؛ إذ لا يخلو منه وجهٌ في كل شيء هو حق ذلك الوجه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان إلهاً، وكان العالم يستقل بنفسه، وهذا محالٌ؛ فخلو وجه الحق عن شيء من عالم محالٌ، وهذه المعرفة عزيزة المنال؛ فإنها تؤدي إلى رفع الخطأ المطلق في العالم، ولا يرتفع الخطأ الإضافي وهو المنسوب إلى مقابله؛ فهو خطأ بالمقابل، وليس بخطأ مع عدم التقابل. فالكامل من أهل الله من نظر في كل أمرٍ على حدة، حتى يرى خلقه الذي أعطاه الله ووفّاه إيّاه، ثم يرى ما يبين الله لعباده مما خرج عن خلق كل شيء، فينزل موضع البيان من قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ موضعاً، وينزل كل خلق [على]^(٢) ما أعطاه خالقه. فمثل هذا لا يحصى ولا يخطأ بإطلاق في الأصول والفروع، وقد قيل بذلك.

ثم قال بعد: إن قسم المعرفة إلى سبعة أنواع.

فقال: النوع الخامس من علوم المعرفة، وهو علم الإنسان بنفسه من جهة حقائقه، اعلم أن الإنسان ما أُعطي التحكم في العالم بما هو إنسانٌ، وإنّا أعطينا ذلك بقوة إلهية ربانية؛ إذ لا يتحكم في العالم إلا صفة حق لا غير، وهو في الإنسان ابتلاء لا تشريعاً، ولو

(١) بالمخطوطة (ب): «ويؤمن إلى الله على علمه...».

(٢) سقط من (ب).

كانت تشريعاً بقيت معه في الآخرة في دار السعداء، ولو كانت تشريعاً ما قيل له: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَىٰ﴾ (ص: ٢٦)، فحجّر عليه، والتحجير ابتلاءٌ، والتشريف إطلاقٌ، ولا نسب في التحكم إلى عدلٍ ولا إلى جورٍ ولا وِليَّ الخلافة في العالم إلا أهل الله، بل وِليَّ الحق التحكم في العالم من أسعده الله به ومن أشقاه من المؤمنين، ومع هذا أمرنا الله أن نسمع له ونطيع، ولا نخرج يداً عن طاعة، وقال: «فإن جازوا فلکم وعليهم»^(١)، وهذه حالة الابتلاء لا حالة الشرف، فإنه في حركاته فيها على حذرٍ وقَدَمٍ غرورٍ؛ ولهذا يكون يوم القيامة على بعض الخلفاء ندامةً.

فإذا وقف الإنسان على معرفة نفسه واشتغل بالعلم بحقائقه من حيث ما هو إنسان فلم ير فرقاً بينه وبين العالم، ورأى العالم الذي هو ماعدا الثقلين ساجداً لله، فهو مطيعٌ قائمٌ بما تعيّن عليه من عبادة خالقه ومُنشئِهِ طَلَبَ الحقيقة التي يجتمع فيها مع العالم، فلم يجد إلا الإمكان والافتقار والذلة والخضوع والحاجة والمسكنة. ثم نظر إلى ما وصف به الحق العالم كله، فرآه قد وصفه بالسجود له حتى ظله، ورأى أنه ما وصف بذلك من جنسه إلا الكثير لا الكل، كما وصف كلَّ جنسٍ من العالم، فخاف أن يكون من الكثير الذي حَقَّ عليه العذاب، ثم رأى أن العالم قد فطروا بالذات على عبادة الله، وافتقر هذا الإنسان إلى من يرشده ويبيّن له الطريق المقرب إلى سعادته عند الله لما سمع الله يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، فعبده بالافتقار إليه كما عبَدَ سائر العالم، ثم رأى أن الله قد حدّد له حدوداً ورسم له أموراً ونهاه أن يتعدّاها، وأن يأتي من أمره سبحانه ما استطاع. فتعيّن عليه العلم بما شرع له ليقم عبادة الله الفرعية كما أقام عبادة الله الأصلية؛ فإن العبادة الأصلية هي التي تطلبها ذوات الممكنات بما هي ممكناتٌ، والعبادات الفرعية

(١) الحديث وارد في أئمة الصلاة لا في إمامة الحكم ولفظ البخاري في الصحيح (٦٥٣) «يصلون لكم فإن أصابوا فلکم وإن أخطأوا فلکم وعليهم». ورواه أحمد والبيهقي وعبد الرزاق والطبراني في الكبير والأرسط والدارقطني وأبو يعلي، كلهم بنحوه.

هي أعمال يقتصر فيها العبد على إخبار إلهي من حيث ما يستحق سيده وما تقتضيه عبوديته.

فإذا علم أمر سيده ونبيه ووفى بحق سيده وحق عبوديته، فقد عرف نفسه، وكل من عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه عبده بأمره، فما تَمَّ بين العبادتين: عبادة الأمر وعبادة النهي، إلا الثقلان؛ فإن الأرواح الملكية لا نهى عندها، ولهذا قال الله فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ (التحریم: ٦)، ولم يذكر لهم نهياً، وقال تعالى في عبادتهم الذاتية: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْغَمُونَ﴾ (فصلت: ٣٨)، فإن حقيقة نشأتهم تعطي ذلك، فهذه هي العبادة الذاتية، وهي عبادة سارية في كل ما سوى الله، ولما كان الإنسان مجموع حقائق العالم كما قلنا، وعرف نفسه من جهة حقائقه تعين عليه أن يقوم وحده من حيث هو لعبادة جميع العالم وإن لم يفعل فما عرف نفسه من جهة حقائقه؛ لأنها عبادة ذاتية.

وصورة معرفته بذلك أن يشاهد جميع حقائقه كلها في عبادتها كشفاً كما هي عليه في نفسها سواء كُشف بذلك أم لم يُكاشف، فهذا هو الذي أريده بالعلم بحقائقه: أي عن الكشف، فإذا شاهدها لم يتمكن له مخالفة سيده فيما أمره به من عبادته بالوقوف عند حدوده ومراسمه فيما دخل فيه وفيما خرج عنه. فإذا قال: سبحان الله بكلمة على ما رسمناه انتقش في جوهر نفسه ما قاله العالم كله من حيث تلك التسيحة، فهي هذه النفس الذكية التي تُسمَّى لسان العالم، بحيث لو صحَّ أن يتعطل شيء من العالم في عبادة ربه لقام هذا العبد العارف بهذا القدر مقامه فيما فرط وسدَّ مسده لو تصور هذا، ويجازى هذا العبد من جانب الحق بهذا القدر، وهو مجازاة الأصغر بجائزة الأكبر.

نقول: لو قدرنا العالم كله ما سوى الإنسان غفل عن عبادة ربه طرفة عين وكان هذا الإنسان ذاكرة الله قائماً بحقه في تلك اللحظة ناب مناب العالم وسدَّ مسدَّه فجوزي بجزاء العالم وإن كان لا يتصور من العالم غفلة؛ فإنه ليس من أهل الغفلة إلا الثقلان خاصة، فانظرها أعطاك ربك العلم بنفسك وبما أنت عليه من حقائق الكون اهـ.

وقال في كتاب الأسفار: اعلم أن الإنسان إذا جهل حاله فقد جهل وقته، ومن جهل وقته جهل لنفسه، ومن جهل نفسه جهل ربه؛ فإن رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»^(١) إمّا بالنقيض كالمعرفة العامة: أي إذا عرفت نفسك بالفناء عرفت ربك بالبقاء، وإذا عرفت نفسك بالعجز عرفت ربك بالقدرة، وقس على ذلك، وإمّا بالصورة كالمعرفة الخاصة وهي التي عوّل عليها أهل الخصوص من الجماعة. ونحن وإن كنا نقول بذلك فمعرفة العامة عندنا أرجح؛ فإنها الجامعة بين الابتداء والانتهاء، فإليها الرجوع، ولا بد من عامة وخاصة. فاعلم ذلك وكن على بصيرة من أمرك في ذلك وعلى بينة من ربك؛ عسى يتلوك شاهد منك، فيكون سبب سعادتك إن شاء الله، فتكون ممن سبقت لهم الحسنى من الله جلّ ثناؤه وعزّ جلاله اهـ.

وقال القشيري رحمه الله في الرسالة في باب المعرفة: قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام: ٩١)، وجاء في التفسير: ما عرفوا الله حق معرفته، وروى بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ دَعَامَةَ الْبَيْتِ أَسَاسُهُ، وَدَعَامَةُ الدِّينِ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ وَالْيَقِينُ وَالْعَقْلُ الْقَامِعُ. فَقُلْتُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأَمِي، مَا الْعَقْلُ الْقَامِعُ؟ فَقَالَ: الْكَفُّ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْحَرَصُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَعْرِفَةُ عَلَى لِسَانِ الْعُلَمَاءِ هِيَ الْعِلْمُ، فَكُلُّ عِلْمٍ مَعْرِفَةٌ، وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ عِلْمٌ»^(٢)، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الله بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فحظي من الله بجميل إقباله، وصدق الله في جميع أقواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصنع بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره. فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريئاً ومن المساكنات والملاحظات نقياً وأدام في السر مع الله مناجاته وحقّ في كل لحظة رجوعه إليه وصار محدثاً من قبل الحق بتعريف أسرارهِ فيما يجري له من تصاريِف أقداره يسمّى عند

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٢٢) وزاد في المخطوطة (ب): «وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم».

ذلك عارفاً وتسمّى حالته معرفةً، وبالجمله فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه، ثم أخذ يسرد أقوال المشايخ في المعرفة على حسب ما ذاقه كل منهم وشاهده في المعاني المشرفة.

قال سيدي عز الدين بن عبد السلام: أحمد بن غانم المقدسي رحمته الله في كتاب «حل الرموز وفتح الكنوز»: وقد ظهر لي من الحديث أي حديث: «من عرف نفسه عرف ربه» ما يجب كشفه، ويستحسن وصفه، وهو أن الله تعالى وضع هذه الروح الروحانية في هذه الجثة الجسمانية لطيفة لاهوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته، ووجه الاستدلال لذلك في عشرة أوجه:

الأول: أن هذا الشكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى مدبرٍ ومحركٍ، وهو الروح تدبره وتحركه علمنا أن هذا العالم لا بد له من محركٍ ومدبرٍ.

الوجه الثاني: لما كان مدبر الجسد واحداً وهو الروح علمنا أن مدبر العالم واحداً لا شريك له في تدبيره، لا جائز أن يكون له شريك في ملكه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ (الإسراء: ٤٢)، كما يقولون: ﴿إِذَا لَابَتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) (الإسراء: ٤٢، ٤٣)، وقال تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنين: ٩١).

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وبتحريكها له علمنا أنه تعالى مريدٌ كما هو كائنٌ في كونه، لا يتحرك متحركٌ بخيرٍ أو شرٍّ إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك في الجسد شيءٌ إلا بعلم الروح وشعورها به لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكونه شيءٌ علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الوجه الخامس: لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء بل هو قريب في الجسد، علمنا أنه قريب إلى كل شيء، ليس شيء أقرب إليه من شيء ولا شيء أبعد عنه من شيء، لا بمعنى قرب المسافة؛ لأنه منزّه عن ذلك^(١).

الوجه السادس: لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد ويكون موجوداً بعد عدم الجسد علمنا أنه تعالى موجود قبل كون خلقه، ويكون موجوداً بعد فقد خلقه ما زال ولا يزال، وتقدّس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له كيفية، علمنا أنه مقدّس عن الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح في الجسد لا يعلم له أبنية علمنا أنه تقدّس عن الأبنية والكيفية ولا يوصف بأين ولا كيف، بل الروح موجودة في سائر الجسد ما خلا منها شيء من الجسد، كذلك الحق تعالى موجود في كل العالم ما خلا منه مكان، وتنزّه عن المكان والزمان.

الوجه التاسع: لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يمس ولا يلمس، علمنا أنه سبحانه وتعالى منزّه عن الجسّ والحسّ واللمس والمسّ.

الوجه العاشر: لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يمثل بالصور علمنا أنه لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار، ولا يشبه بالشموس والأقمار، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، فهذا معنى قوله ﷻ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، فطوبى لمن ربه عرف وبذنبه اعترف. وفي هذا الحديث نفسه تفسير آخر، وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك، فمن عرف لنفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء، ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو.

(١) الله تعالى منزّه عن الزمان والمكان. فهو سبحانه خلق الزمان فلا يقال متى كان، وخلق المكان فلا يقال أين كان. وكل ما دار ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)

واعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك، فكيف لك سبيلٌ إلى معرفة إياه كما إياه؟! فكأنه في قوله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» علّق مستحيلاً على مستحيل؛ لأنه مستحيل أن تعرف نفسك وكيفية وكميتها فإنك إن كنت لا تطيق أن تصف نفسك التي بين جنبيك بكيفية ولا أينية ولا سبحانه ولا هيكلية ولا هي بمرئية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين وهو مقدس عن الكيف والأين؟! وفي ذلك أقول:

<u>قل لمن يفهم عني ما أقول</u>	<u>قَصُرَ القولُ فذا شرُ يطول</u>
<u>ثم سرّ غامض من دونه</u>	<u>ضربت والله أعناقُ الفحول</u>
<u>أنت لا تعرف إياك ولا</u>	<u>تدر من أنت ولا كيف الوصول</u>
<u>لا ولا تدري صفات رُجبت</u>	<u>فيك حارت في خفاياها العقول</u>
<u>أين منك الروح في جوهرها</u>	<u>هل تراها فترى كيف تجول؟</u>
<u>أين منك القلب في قالب</u>	<u>أين منك السرُّ قل لي يا جهول؟</u>
<u>هذه الأنفاس هل تحصرها؟</u>	<u>لا ولا تدري متى عنك تزول</u>
<u>اعرف الاسم به كن واثقاً</u>	<u>تملك الأصل على كلِّ الأصول</u>
<u>ملك الدنيا جميعاً يا فتى</u>	<u>تبلغ المأمول مع ذكرٍ تقول</u>
<u>اذكر الاسم ولا تنس له</u>	<u>ترتقى العليا وتعرف ما تقول</u>
<u>أين منك العقل والفهم إذا</u>	<u>غلب النوم فقل لي يا جهول؟</u>
<u>أنت أكل الخبز لا تعرفه</u>	<u>كيف يغدو منك أم كيف يثول؟</u>
<u>أنت شارب الماء لا تدري به</u>	<u>كيف يجري منك أم كيف تبول؟</u>
<u>فإذا كانت طواياك التي</u>	<u>بين جنبيك كذا عنها ضلول</u>
<u>كيف تدري من على العرش استوى</u>	<u>لا تقل كيف استوى كيف النزول</u>
<u>كيف يحكى الرب أم كيف يُرى</u>	<u>يرى فلعمري ليس ذا إلا فضول</u>
<u>هو لا كيف ولا أين له</u>	<u>وهو ربُّ الكيف والكيف يحول</u>
<u>هو فوق فوق لا فوق له</u>	<u>وهو في كل السواحي لا يزول</u>
<u>جل ذاتاً وصفاتٍ وثناً</u>	<u>وتعالى قدره عما أقول</u>

اهـ.

ثم قال:

فصل

اعلم أن من عرف نفسه عرف ما يراد منه، فأشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له، ووافقها في مواقف العبودية للقيام بحقوق الربوبية. ومتى انشغلت بمعارضة الربوبية فانتها العبودية ولم تدرك الربوبية. وها أنا أشرح لك صفة ذاتك ومعنى صفاتك؛ لتعلم ما يراد منك في حياتك ومماتك. فاعلم أن الله تعالى لما أراد أن يبتني صورة آدم من زمن تقادم ابتناها على صورة مدينة، وأتقن فيها من المباني ما يدل على قدرة الباني، وحرك فيها مثالث ومثاني^(١) يشيران ليس له ثاني. ثم نصب وسط هذه المدينة قصرًا، وبثَّ حوله أشراك المهلكة، وسَمَّى ذلك القصر بالقلب؛ إذ هو بيتُّ للقلب، وجعل مدار هذه المدينة عليه ومرجع الكل إليه، بإشارة: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلُحت صلَّحَ بها سائرُ الجسدِ وإذا فسدتُ فسدَ بها سائرُ الجسدِ ألا وهي القلب»^(٢)، ووضع في هذا القصر سرير العزِّ والسلطان، وأجلس عليه ملكًا يقال له: الإيوان، وبثَّ الجوارح في خدمته كالغلمان، فقال اللسان: أنا الترجمان، وقالت العينان: ونحن الحارسان، وقالت الأذنان: ونحن الجاسوسان، وقالت القدمان: ونحن الساعيان، وقالت اليدين: ونحن العاملان، وقال الملكان: ونحن الشاهدان، وقال صاحب الديوان: وكما تدين تدان. ثم جعل له وزيرًا وهو العقل، فقال الوزير: أيها الملك لا بد لك من خاصة تصطفيهم لنفسك خاصة، يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. فأول ما تحتاج إلى تاج وهو الولاية، وإلى معراج وهو العناية، وإلى دليل وهو الهداية، ثم لا بد لك من مركوب وهو الصدق، ومن حلَّةٍ وهي السكينة، ومن حاجبٍ وهو العلم، ومن بوابٍ وهو العمل، ومن سياف وهو الحق، ومن

(١) في المخطوط (أ): وحرك فيها ثاني وثالث.

(٢) رواه البخاري (٢٨/١)، ومسلم (١٢١٩/٣)، وابن ماجه (١٣١٨/٢)، والحكيم الترمذي في النوادر (٥٠/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٦٤/٥)، وفي الشعب (٥٠/٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٦/٤)، والديلمي في الفردوس (٢١٨/١).

كاتبٍ وهو المراقبة، ومن سجنٍ وهو الخوف، ومن ميدانٍ وهو الرجاء، ومن سراجٍ وهو الحكمة، ومن نديمٍ وهو الفكر، ومن خزانةٍ وهى اليقين، ومن كنزٍ وهو القناعة، ومن صاحب تدبيرٍ وهى الفراسة.

ثم أيها الملك تنظر إلى رعيتك بعين الرحمة، وتفتح خزائن النعمة، وتعديل بينهم في القسمة، وتبعث إلى كل واحدٍ قسمه يقيم به رسمه، فقال الملك: انظر أنت في الرعية، وأزل عنهم الشكية، وتولّ تفرقة الجامكية، فقالت اليدان: أنا عليّ جمع الأدلة، وقالت الأسنان: أنا أطحن وأعزل النُّخالة، وقال الرّيق: وأنا أعجن وأتولى إلى المعدة إرساله. فقالت المعدة: وأنا أطبخ وما أزيد على ذلك عمالة، فقال الكبد: وأنا أخذ ما صفي وأترك الحثالة، فقالت القدرة: وأنا أتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة، فأبعث إلى كل عضوٍ ما يطبق احتمال، فلما فرقت الجامكية نقداً لأحواله وصحح الملك أحواله قال له الوزير: ما بعد النفقة إلا الفرض وأداء الغرض؛ فنادى في جيشك بالطول والعرض؛ لينذر البعض البعض قبل أن تُبدّل الأرض غير الأرض، فنادى مناديه: يا معشر الرعية، إن الملك قد أقسم بالآلوهية أن من عدل عن الطريق السوية وكفر نعمة العطية وأنفقها في (الخطية)^(١) فلقد أفسد النية ونقض البينة أولئك شرُّ البرية، وأن للملك عدواً وقد سكن جوارحه يقال له النفس الأمارة، وهى تنازعه في الإمارة، واستنصرت عليه بالدنيا الغدّارة، فظاهرها الهوى، وبعث إليهما أنصاره، وجاء الشيطان، فكتب له منشور الوزارة، وقد استوى في أرض الملك الغارة، فيا خيل الله اركبي، ومن الأعداء لا ترهبي؛ فهناك القلب ركب بين ميسرة خوفه وميمنة رجائه ومقدمة توكله وساقه التجاؤه متحملاً أثقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥).

فلما وصل بجنوده إلى معبوده بصدق النية ونادى مناديه في ناديه: إن الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنيّة، فمن شرب منه فليس مني، ومن عوّل عليه فليتنحّ عني. فقالت الضرورة: لا بد من إقامة الصورة، فجاءت مروحة الراحة بإباحة ﴿إِلَّا مَنْ أَغْرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾

(١) أي في نيل حظه وهواه.

(البقرة: ٢٤٩). فأما من عدموا الفطنة ووقعوا في شرك الغفلة، فشربوا وتزودوا حتى أورثهم البطنة^(١). فلما قابلهم القوم قالوا: لا طاقة لنا اليوم، فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله: ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٤٩)، فالتقيا بجيشهما في مجمع بحرهما: ﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (الفرقان: ٥٣)، فكان التوكُّل موكلًا بالحرص والزهد مجانباً للدنيا، والتواضع مدافعاً للعجب، والإخلاص مبارزاً للرياء. والتقوى نافية للدعوى، والخوف مفارقاً للهوى، والتسبيح والتقديس في محاربة إبليس التعيس. فتقدم حزب الله وشعارهم: اللَّهُمَّ إِنَّا جَعَلْنَاكَ إِقْدَامَنَا، فَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، فَإِنَّا لَا نَدْرِي مَا قَدَّمْنَا، فهزموهم بإذن الله، وانتصروا، وما النصر إلا من عند الله، فلم يرَ منهم إلا مولاً دبره وقاصم عمره، فأصبحت منازل الهوى والنفس ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤)، وما زالت النفس ناشزة في أسرها^(٢) حين اعترفت بخسرها واتصفت بكسرها، وناداهما من له المنة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وقد قيل:

يا نفسُ توبي اليوم من قبل أنْ	تفتضحى في الغد بين العباد
وخالفى يا نفس حكم الهوى	وجاهدى في الله حقَّ الجهاد
وادرعى درع التقى واصبرى	وصابري في حرب أهل العناد
يا نفسُ إن الله منك اشترى	بشرط تسليم جميع القياد
فاستبشري بالبيع واستسلمي	وأصلحي يا نفسُ منك الفساد
أفلسيت والسلعة معيوبه	لا تشتري والسوق سوق الكساد
والركبُ قد جدُّوا مسيراً فلا	لهول يوم العرض قدمت زاد
وكلما أبيض شيبى فما	يزداد وجه القلب إلا سواد
واخجلتسى واحسرتى أن أكن	من بين صحبي قد عدت الوداد

اهـ.

(١) البطنة: هي الامتلاء الشديد من الطعام.

(٢) ورد بالمخطوطة (ب): «ما زالت النفس بأسرها في إسراجها».

وقد توجَّهت لزيارة شيخنا المقدام بركة الشام الراقي للمنزل الأسنى والساقى جُلَّاسَه المدام القدسي والمكاشف بالسر النفسي جناب سيدي عبد الغني النابلسي^(١)، رفع الله قدره لديه، وجعل الرتب المتقاعسة منقاداً إليه، والمواهب التامة لا الناقصة طوع يديه، وختم له بالحسنى، وأغدق إنعامه عليه، نهار الأحد السابع من شوال المبارك عام ألف ومائة وسبعة وعشرين، فجرى الكلام في ذكر النفس، وأنها أرضية وإن الروح من أمر الله وهي علوية، وأن الصفات الروحانية إذا قويت واستولت على صاحبها ضعفت الصفات النفسانية، وربما اضمحلت، وهذا المعبر عنه بالتجرد والانسلاخ من الأحكام الإنسانية البشرية بالكلية، وبعد ذا يصح التخلق بالأخلاق الإلهية مع ثبوت العلاقة البدنية بالروح الحيوانية، وإنما بظهور النور الخفي يختفي ثوران نار الوصف الذميم الخُلقي والخُلقي، كاختفاء اشتعال النار إذا أشرقت أشعة الشمس رابعة النهار، فقال ﷺ: «إِنْ كُلُّ مَا يَضُرُّ بِالْجِسْمِ مِنَ الْمَجَاهِدَاتِ تَنْتَفِعُ بِهِ الرُّوحُ فِي الْمَشَاهِدَاتِ»، قال الله تعالى: ﴿وَتَسْقُلُونَكُمْ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء: ٨٥)^(٢)، ﴿إِلَّا كَلَمَحَ الْبَصَرِ﴾ (النحل: ٧٧)، فلا تعدد فيه، وإنما التعدد في الخلق: أي المخلوق؛ فالحق تعالى له الوجود المحض، ويقابله العدم المحض، والموجودات برزخ، فإن الخلق لهم وجهان: وجهٌ للخلق: أي الذي هو وصف حدوثهم، ووجهٌ للحق: أي الذي يستمدون به منه تعالى، فمن حيث خلقتهم وعدم قدرتهم وعجزهم في أنفسهم العجز التام عدم، ومن حيث الوجه الحق الذي يمدهم وجود، لكن العقل يقصر عن إدراك كيفية ما هو الأمر عليه^(٣).

فقلت له: لأنه معقولٌ بالمحدثات واقفٌ مع الأمور الوهمية. فقال: هي وهمية من حيث صورها؛ فإن صورة الشمعة مثلاً ما هي عين الشمعة، ولو كانت عينها كنا إذا

(١) بالمخطوطة (أ) الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي.

(٢) بالمخطوطة (أ) عقب الآية الكريمة «والامر واحد» ثم بداية الآية المباركة «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر». فلا تعدو فيه. وهذا أتم للمعنى.

(٣) سياق المصنف في المخطوطة (أ) نفس الكلمات بيد أنه قدم وجه الحق على وجه الخلق. وهذا أنسب لأن الوجود حرى بالتقدم على الموم.

أذهبناها فني وجودها مع أنه باق، ويمكن تصورها بصور كثيرة، فهذه الصور هي الأمور الوهمية. وأما الأمر الواحد الظاهر به كل شيء من غير أن يقيد شيء فهو الحق الثابت، وما عداه الباطل الزاهق، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، فإذا نفيت صفات العبد بتجلي الحق الخاص فإنه ما تجلي شيء إلا خضع له كل شيء: أي اضمحل وفني لأن الحادث لا يقوى على تجلي القديم، ثم يبقيه بإمداده، فيبدو له عجزه من حيث نفسه، فيقول عند ذلك كما قال الصديق الأكبر عليه السلام: «العجز عن درك الإدراك هو عين الإدراك»^(١)، فالحق تعالى لا يُدرك ولا يُدرى.

فقلت له: وإلى هذا أشاروا بقولهم: لا يرى الله إلا الله. فقال: نعم؛ فإن من عرف نفسه بربه لا بنفسه وتحقق في ذلك بطريق الذوق وهو فوق المعرفة لأن المعرفة تستدعي عارفاً ومعروفاً ومعرفة.

فقلت: والثلاث منفى والتوحيد ثابت. فقال: ومن هنا أنشد سيدي عمر بن الفارض رحمته الله:

وعن لقلبي بالعارف ارجع فإن تر الت نابز بالألقاب في الذكر تمقت

اتضح له أن الذوق فوق المعرفة؛ فقد يعرف الحق من لم يتحقق فيه.

فقلت: إن لكل حق حقيقة. فقال: نعم، ولهذا كان الصدق فوق الحق، فإن بعض الناس يقول الحق ولا يصدق في قوله: أي كالمنافق فإنه يقول الحق ولا يصدق في قوله عند نفسه، فما طابق الواقع عند نفسه؛ لأن الصدق في اصطلاح أهل المعاني هو مطابقة الحكم للواقع عن دليل، فلا يُعد المنافق صادقاً وإن قال الحق.

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ١٨١)، والسيوطي في شرحه (١/ ١٠٣).

(٢) ورد بالمخطوطة (أ) على لسان صديق الأمة عليه السلام: «العجز عن درك الإدراك إدراك» وهما في المعنى سواء وإن كان نص المخطوطة (أ) هو الأشهر.

ثم قال: والمطلوب فناء الدعاوى النفسانية الكاذبة وملازمة الصدق: أي في الأقوال والأفعال والأحوال، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٨) حتى يفنى في شهوده ما لم يكن، وليبق ما لم يزل.

فقلت: والفناء حاصل، فما معنى الفناء هنا؟ فقال: إن الفناء طهارة الإنسان، والطهارة مأمورٌ بها، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (المائدة: ٦): أي طهروها عن أن تواجهوها بالأغيار، ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة: ٦) مبالغة في الخروج عن الدعاوى الكاذبة.

فقلت: وهذا الفناء إنما هو انكشاف باعتبار الشهود لا الوجود. فقال: الانكشاف حاصل، وإنما الحق يقلب قلوب من شاء ويصرفها عنه، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَ هُمْ﴾ (الأنعام: ١١٠)، وقال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ١٤٦)، فما منعوا إلا بصرفه تعالى.

فقلت: وطريق الذوق لا بد فيه من مجاهدة. فقال: نعم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، والجهاد في الله على الدوام يورث الذوق التام. وهذا المقام يحتاج إلى صدق توجه؛ ليدرك الكمال، ولهذا قال ﷺ: لذلك الأعرابي: «قُمْ صَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ»^(١)، مع أنه صلى، لكنها صلاة غير كاملة، والمقصد الكمال، فلم تسم صلاة لنقصانها، وكذا من يدعي المعرفة بالله ولم يكن تحقق بها فدعواه زور، إذا الناقص لا يوصف بصفة مطلقة: أي إن لم يقصد التجوز، ثم قال بعد سرد عبارات: فمتى كُشف للعبد الغطاء أدرك الأمر على ما هو عليه، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ (الواقعة: ١)، فسماها «واقعة» لتحقيق وقوعها مع أنها من حيث الشاهد لم تقع. فمن كُشف له شهد القيامة وأحوال الآخرة ورأى أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٨٤)؛ فالكل له؛ إذ هو الملك لا غيره،

(١) ذكره ابن حجر في الدراية (١/٤٤٣).

والموجود الحق لا سواه، فمن عرفه أنكر أعداءه، فأنشدته قول سيدي أبي مدين الغوث
رحمته:

عرفنا بها كلَّ الوجود ولم نزلْ إلى أن بها كلَّ المعارف أنكرنا

فقال رحمه الله: جاء في صحيح مسلم: «يُنَادِي مَنَادٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ فَلْيَتَّبِعْهَا، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ فَلْيَتَّبِعْهُ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مَنْافِقُوهَا، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي عَرَفُوهَا فَيُنْكِرُونَهَا، وَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ لَسْتَ رَبَّنَا، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ فِي الصُّورَةِ الَّتِي عَرَفُوهَا فَيَقُولُونَ: نَعَمْ أَنْتَ رَبَّنَا...»^(١) إلخ الحديث.

فقلت: يتجلى في صورة التشبيه فينكرونه؛ لأنهم ما عرفوه إلا بصورة التنزيه. فقال:
والحق لا تحصره صورة؛ لأنه المصوّر لكل صورة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

ثم قال: والحاصل أن الأمر الواحد ليس فيه تعدد، وإنما التعدد في التقدير، قال
تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨)، فالمقدور الكائنات وهى خلق الله، قال
تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢): أي من الأزل، فلا تبديل لكلمات
الله. ومن هنا يعجز أحدنا عن دفع ما يؤذيه وجلب ما ينفعه وإيجاده؛ لأن الوجود الحق
هكذا خلق وقدر، وهو الخلاق لا غيره سبحانه وتعالى، فالتصورات والتخيالات
والخواس الباطنة والظاهرة كلها مخلوقة له تعالى، يذهبها ويأتي بغيرها، فقرأت: ﴿بَلْ هُمْ فِي
لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (ق: ١٥).

قال: والأمر ليس فيه تعب، فمن داوم على المراقبة مع قدم الاتّباع وصل إلى الذوق،
ومن عرف نفسه عرف ربه، فما ثم غيره، والله بكل شيء محيط انتهى ما حفظته من مجلسه،
ولا يخلو من تغيير بعض ألفاظه بالمعنى واضحاً مع تقديم وتأخير.

(١) رواه البخاري (٢٤٠٣/٥)، ومسلم (١٦٤/١)، والنسائي في الكبرى (٤٥٧/٦)، وأحمد (٢٧٥/٢)، وعبد
الله بن أحمد في السنة (٢٣٩/١)، والطبري في التاريخ (١١٥/٥)، وابن منده في الإبان (٧٨٤/٢)، وأبو يعلى في
مسنده (٢٤١/١١)، ومعمر بن راشد في الجامع (٤٠٧/١١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥٦٤/٥)، وابن حبان
في الصحيح (٤٥٠/١٦).

وقد ذكرت مجلسًا غير هذا في رسالة الصحبة وآخر من رفع الستر والرداء، وكنت وأنا في البيت المقدس في الحضرة الثانية تصديت لجمع بعض موارد كانت ترد عليّ فأودعها بطون الأوراق، وكثيرًا منها كنت أمزقه أو أغسله أو أودعه في النار للإحراق، وسميت هذا المجموع: «جمع الموارد من كل شارد»، ولنذكر عبارة منه هنا فيها إشارة لهذا الحديث وفوائد أخر تُورث الهناء نسمة فخرية وآية فخرية، والفجر وليال عشر، ليس الكتم كالنشر، حصول الفجر يزيل ظلمت الهجر، ويزيد في الأجر الفجر ما به انفجر الظلام وتشققت حجب الغمام، ومذ كنت في ليل العدم وأشرق عليك صبح وجود القدم وكونك مربيك في رحم أمك بعد مواصلة أبيك ثم بعد ظهورك للوجود أقمت في ليل الجحود حتى أقرت لمعبودك بالتوحيد بعد أن لاح لك فجر احتياجك للملك الحميد، ثم لم تنزل في ظلمة الجهل تغدو وتروح إلى أن يشرق عليك فجر المعرفة من جناب السُّبُوح. ثم لا تزال في ظلمة قفص جسمك إلى أن يطلع عليك فجر فناءك عنك وعن اسمك، ومن هذا الوادي النادي تعرف جمرات نفسك وتغرق خمرات قدسك بكأس أنسك، وتحقق في حديث: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»، فتطهر من رجسك، وتخلص من حبال حدسك؛ فإن من جهل نفسه ضلّ وزلّ وكان ممن به شيطانه هزي لما هزل، وعن المجاهدة في نفسه اعتزل وقنع بالتشبيب والحماسة والمدح والغزل.

ومن المعلوم أن الجد يثمر لمن ساعده حكم الأزل، فجرّد سيف عزمك لتكون ممن له الحب في العطاء أجزل، وممن أشرب حبة القلوب لما عن نفسه وهواه نزل وحاك أثواب المجاهدة على أنوال المكابدة، ولرقيق التدقيق عن دسائسها غزل، فناجاه الحبيب في ليالي التقريب سحر فجر التهذيب، لساء دنيا التدريب غيث رحمته نزل، فعساك إذا ظفرت بكنز معرفة النفس أن تطلق روحك من الحبس، وترقى إلى رتبة (السماء الرامح والأعزل؛ فإنك ما دمت مترديًا برد التعويق فأنت وثيق، وما دمت في عالم الضيق فأنت رقيق؛ فاسرح في رياض العرفان واشرح معاني ما تقوله غواني الأشجان. وصيِّح بلابل الشهود الصادحة على أغصان الافتتان، وإذا باحت بما تكنه أزاهر القرب وناحت لدورانها على قلبها نواير الشرب، وسالت جداول الغرام، وشالت الحسنة

براقع الاكتتام، وامتلاأت حياض الفؤاد بالهيام، وقالت: قطني؛ فقد امتلأ بطني من نصل السهام، واخضرت لما أحضرت الأنفس الشخّ بالأنفس أشجار التقريب، وأثمرت بفواكه المسائرة والمسامرة والمكاملة والمحادثة للحبيب، وجرت خيول همته في ميدان عزيمته، وامتدت موائد الكرم لأرباب الهمم، ونادى منادى الاعتدال: هلمّوا يا طلاب سعاد، وهيا لتحصيل الزاد، وحيّ على الصلاة وبلوغ المراد، فهناك يقبل أهل الرغبة والرهب بكمال الاحترام والأدب، وتطيب منهم الأوقات، وتطيب مجالسهم بنشر كأس السعادة، فلا ترى هناك إلا ضارباً بذقنه إلى صدره مبهوتاً أو مصطلياً مدهوشاً بما لاح، أورثه الشهود سكوتاً وسكوتاً، قد غمّسوا في بحر الغيبة والسكر غمّساً، وطمسوا الدهشة عن الشكر طمّساً، وإذا غيّبوا في فهم بدرّاً أطلع الساقى شمّساً فهم أمواتُ الأحياء بل أحياء الأموات، الذين سكنوا في وجدهم رمّساً، وخشعت منهم الأصوات، فلا تسمع إلا همّساً، وكثيرٌ من أهل الرعونة إذا اشتَم ذلك الشذا من بعيدٍ وانزاح عن عيونه قذى الجفاء وبدت لها أنوار قرب الوصيد شطح وعربد في الكلام وتاه وفاه، وما شرب بل همّ في شرب المدام، كما قال العارف المقدم:

هنيئاً لأهل الدير كم سكرُوا بها وما شربوا منها ولكنهم هموا

أي أن أهل دير الأزل لما قصدوا شراب خمر العيان هبت عليهم روائح فوائح طيبة، فأسكرتهم، وأخذهم الطرب والهيام، فكيف لو ذاقوا؟! وكيف لو شربوا؟! لسكروا ما فاقوا حتى ولا في الجنان، أم كيف لو ارتوى منهم بصرها القديم الجنان؟! وقد أنشد لسان الحال في وصف هذا السكران الذي أورثه السكر بعد العرفان نكران:

<u>نعم كم عديم الذوق مذ لاح نور</u>	على البعد منه صار يحكي ويشرح
<u>فهذا وما ذاق المدام ولا ارتوى</u>	به في السر مما للمتميم يمنح
<u>فكنْ ذا سكونٍ لا تقلْ نلت مأربٍ</u>	ولا تكُ ممن بالذي نال يفرح
<u>ولكن بمن أعطاك فافرح فإنما</u>	بربك إن حققت تشقى وتفلح
<u>ونفسك فاعرفها لتعرف سيّدا</u>	إذا أنت لم تعرفه في النار تطرح

وجد وجدد كل آن عزائما	إلى الحب كيما في المعارج تسرح
فجهل الفتى بالنفس أعظم حاجب	بصيره في مربع الهجر يمرح
ودغ عنك أصناف الدعاوى أخوا	الهوى فذو السير للعلواء بالكل يسمح
ولا ترعيباً في سواك حقيقة	فكل إناء بالذي فيه ينضح
ولازم على شرط الإرادة راغباً	عن النفس والأهواء عليك تفلح
وسلم لمولاك الأمور جميعها	وأب خاضعاً إن كنت للسلم تمنح
ولا تعد عن حكمتي كتاب وسنة	فمن حاد عن هذين لم يك ينج
ولا بد من شخص يُريك شخوصها	لكيما به ميزان قربك يرجح
ويا ربنا صل وسلم على الذي	فؤادي عن أبوابه ليس يبرح
وآل وأصحاب كرام وتابع	مدى الدهر ما للنفس ذو الجدد يجرح

واعلم أنك متى غفلت عن ربك أغفلت عن نفسك على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)؛ فمعرفة نفسك بنفسك أصل في معرفتك بربك، ومفهوم الآية أن من نسي الله أنساه الله نفسه، ومفهوم الحديث أن من جهل نفسه فنسيها فقد جهل ربه ونسيه، فيفهم الطرد والعكس. فاركب جواد الهمة وسر في فيافي التوحيد^(١)، وغض بعد التجرد عن ملابس اللبس في بحار تجريد التفريد، وأم بالنفس المراتب المنصوصة والمعاهد المخصوصة، وحل عقاص الذوائب المعقوصة؛ لترش منك الأجنحة المقصوصة، فتطير لقباب العلوم التي على أهلها مقصوصة. وبهم ممتلات أرجاؤها وأركانها مقصوصة، فاهمة براق أهل المعرفة على متنها تعود، فيعرفون الأسماء التامة والمقصورة والمنقوصة، فاللازم على كل حازم جازم أن يوجهها لطلب المحبوب؛ ليخلص من العيشة المبعوضة المنقوصة إلى أن يسقط فجر الإطلاق وينغلق كمال الانغلاق. وهناك يبلغ المأمول أمله، ويبرك محمل جملة، ومتى راشته همة مريد إلى طلب المزيد عندما انقشع حجاب ليل الطبع ولمع ضوء المثاني السبع وبزغ قمر

(١) المقصود كون السير في التوحيد هو بالمجاهدة لذا شبهه بالفيافي.

الروح وأشرق شمس العقل فار تنور الفتوح، وولج جمال الجمال من سم خياط الكمال، دخل السيار جنة التحلي، واستكن الطيار بجنة التجلي، فيبلغ رفرف المعارف وسدرة منتهاها، وتُعطي نفسه الذكية مجامع مشتهاها، وتنفجر الأنوار في فؤاده، وتعكف عليه، وتنجذب القلوب القاسية بمغناطيس المحبة إليه.

ومعلومٌ أن من أخلص لله أربعين صباحًا في سره وإعلانه تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. والينابيع لا تكون محلاً في الأرض المقيدة الحاملة، والحكمة الإكرامية لا تتفجر إلا في قلوب مؤدية كاملة قُدِّست عن الشوائب وبدا لها ما كان عنها غائبًا، وإذا صحَّ لم يكن القلب كالأرض في حمل الأسايا وإظهار محاسن الخبايا، توطأ بالأقدام، ولا تُظهر لواطئها ملام لا تظهر فيه حكمة إلهية، ولا تبدو واضحة فيه لمحة ربانية، ولما كان الفجر أول النهار خصت صلاته بالاثنينية، فكانت ركعتين في السفر والحضر لسر يدركه من نَصَرَ الله وجهه وأخضر لما قلبه أحضر؛ إذ قد ظهرت الكثرة المشاهدة الخلقية عن المرتبة الفردية الحقة

ورد في الخبر أن رسول الله ﷺ سئل: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال ﷺ: «في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء»^(١). وقال عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به عن ربه جل وعلا: «كنت كنزًا مخفيًا لا أعرف، فأجبت أن أعرف، فخلقت الخلق، وتعرّفت إليهم، فبي عرفوني»^(٢)، فالليل يشير للمرتبة العمائية، والفجر للمنزلة الحبية، التي عنها وبها كان الظهور، وأضاء الديجور، فلولا وجود ليل العماء ما ظهر عين فجر الحب مهما تكن فهما، وأول شيء أظهره فجر الحب للعين نور نبيك يا جابر، ثم عنه ظهرت الموجودات أصاغر وأكابر، فهو البحر الذي عنه تفرعت سائر البحور، ومنه استخرجت

(١) رواه الترمذي في السنن (٥/٢٨٨)، وأحمد (٤/١١)، ابن ماجه (١/٦٤)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/٢٤٦)، والطبري في تاريخه (١/٣١، ٣٢)، والطبراني في الكبير (١٩/٢٠٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/٢٧٢)، والديلمي في الفردوس (٣/٢٦٨).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/١٧٣).

يتيمات قلائد النحور، وهو ﷺ حقيقة الحقائق وملك الأملاك المخاطب: «بلولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»^(١)، فما لمع برق الظهور إلا عند سحائب الإثنية، وبها تميزت الربوبية عن العبودية.

وحيث كان الفجر هو الذي ظهر عنه كل خافٍ جعل الشارع صلاته ركعتين؛ تنبيهًا على هذا السر الشافي، إذا سبكت على نار المجاهدة من الجواذب الإلهية في بواتق^(٢) كان فجرك الفجر الصادق، وإن لم تحظ بهذه الجواذب كان فجرك الفجر الكاذب؛ فإن من لم تستخلصه جذبات الحق التي كل جذبة منها توازي عمل الثقلين لا يتخلص من قيود الأئين ولا يطلق من البين. وهذه هي النفحات المشار إليها وحض الشارع عليها، فمن نفح منها نفحةً أو رشح من ماء سحابها رشحةً شاهد فتاحه وأعطاه مفتاحه، فيفتح به المغاليق، وعامل كل مقام بما يليق، وأنشد لسان الحال بلطيف المقال:

فجرُ سرِّ العرفانِ والتَّحقيقِ	ليس يبدو إلا لذي تصديقِ
كَشَفَ النُّورَ عن ظلمة ليله	فاستبان له خفايا الطريقِ
جَمَعَ الكلَّ منه فيه لهذا	فاق بالفرق فرقة التفريقِ
واهتدى بالشذا الذي لاح لما	قد كُسي حلّه من التمزيقِ
فادخل الغارَ غارَ سرِّ التداني	وتحلَّ بحليّة الصّدِّيقِ
وتأمَّل بقاء نجمٍ بفجرٍ	وخفاءه بالشمس عن الشروقِ
هكذا شمس ذاته إن تبدَّتْ	توارى الصفات ذات البروقِ

وانما كانت جهرية لأنها ليلية عرفًا نهارية شرعًا، والليل موطن الإجهار؛ لأنه المحل الأصلي للمناجاة، والنهار منزل الأسرار؛ لأنه مركز المفاجآت، فغلبت عليها النسبة الليلية، فلهذا كانت جهرية.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٢١٤)، والقاري في المصنوع (١/ ١٥٠).

(٢) في المخطوطتين «بوادق» ولكن سياق المعنى يجعل المراد «بواتق» جمع بوتقة واتساقًا للجرس الموسيقي. لأن جمع بوتقة القياس بوتقات.

وقد قال سيدي محي الدين ﷺ: الليل ذكرٌ والنهار أنثى، فلما كانت لها نسبة إلى الليل ونسبة إلى النهار كانت ركعتين، وجمعت بين الرتبتين، وبقي حكمها إلى وقت ظهور الشمس، فافتقرت بذلك عن الصلوات الخمس، فتحليها بتجلي الربوبية؛ لأنها تطلب بقاء نجوم الصفات، فإذا ظهرت شمس الأحدية ارتفع حكم الذات، ولزمه قضاء ما فات.

فافهم حماك الله من الزيف واللبس، وتفهم أسرار الصلوات الخمس، ولم يُسمَ قرآنًا من الصلاة غيرها، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ (الإسراء: ٧٨). قال القاضي البيضاوي: جعله الله لكل مدِّ حاوي: أي صلاة الصبح، سماها قرآنًا؛ لأنه ركنها: ﴿إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء: ٧٨) لملائكة الليل وملائكة النهار^(١).

استحب الشيخ الأكبر ﷺ أنه يقول المصلي قبل تكبيرة الإحرام: وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته؛ لأن عند قيامه إليها تأتي ملائكة النهار وتذهب ملائكة الليل، وفي العصر بالعكس، ويسلمون فيحتاج المكاشف أن يرد السلام وجوبًا وغيره استحبابًا أو ندبًا، وإلى هذا يشير حديث «أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون». فجدُّ أيها الواني في صفا الأقداح والأواني؛ لتبدو لك خفايا المعاني، وتشرف على غاليات المغاني، وجاهد النفس الأمَّارة، وشن عليها الغارة؛ فإنها العدو الأكبر المعادية لمولاهها، كما جاء في الخبر عن سيد البشر: «عادِ نفسك؛ فإنها انتصبت لمعادتك»^(٢)، فعسى بالخلاص فيها والتبري عنها يسطع فجر الأسرار، فتعد من الأحرار المخلصين بالخروج من رقَّها، المخلصين من شوائب فتقها ورتقها، الذين لاح لهم صبح الأزل حسب كل منهم في الجهاد فيها جهده بذل، وحومة ميدانه نزل، فأنشد لسان الحال معرفًا ومحرِّصًا على الثبات في المجال:

(١) أي ومشهوداً من شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء، والنوم الذي هو أخو الموت بالانتباه. ولكونها مشهودة لملائكة الليل وملائكة النهار استحب الشيخ الأكبر... وهو معنى مستنبط جيد.

(٢) ذكره الأمدى في الإحكام (١/ ١٩٧، ١٩٨).

صباح جمال الذات يشرق نوره	فيزداد من صبّ الغرام سروره
وتبدو عليه بارقات كماله	فيسمو على شمس النهار ظهوره
ومن كان عند الحب في الغيب حاضراً	تساوى لديه غيبه وحضوره
ومن فجرت عين العلوم بقلبه	فسائر أكوان العليم قبوره
فجاهد تشاهد يا مريد تقرّباً	لعمل الحشا بالجد ينمو جوره
وبالذكر فاجل القلب من أثر الصدا	لترفع في حيّ الشهود ستوره
ويظهر في ظهر الظهور ذكاؤه	وتبزغ في ليل الخفاء بدوره

ونسأل الله أن يمنّ علينا بالرشد والهداية، ويسلك بنا بمنته سبيل أهل العناية؛ فإننا إليه آيئون تائبون مؤمنون بكل ما جاء من عند الله على مراد الله، وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ عليه مراد رسول الله ﷺ، اللهم ثبتنا على ذلك حتى نلقاك، وأنت راضٍ عنا يا وليّ يا مالك اهـ.

ولقد نظمت أوائل مجيئي بهذه الدار أحياناً أخاطب النفس فيها، وأعرضها على المعرفة بنفسها؛ لتعرف بارئها، مقتفياً فيها أثر نبيحنا الشيخ عبد الغني رزقه الله العيش الهني في قصيدة مطلعها:

هيكلي مسام سليم الشبح	طاهر الذيل نظيف القدح
وانساني بالتجلي طافح	يتكفؤ بفنون الملح

إلى آخره، وهي:

مخني في الحب أضحت منحني	لمحي فيه أنست بالملح
راحتني في راحتني حيث الحبا	وطنني والحب أملاً قدحي
سرني شربي وسر بسري سُر بي ^(١)	مذ رأوني عنهم لم أجنح

(١) أي أفراني في السرب.

خددِي خَدِّي به ثم اجرحي
وسويدا القلب منِّي فاترحي
عن حبيبي ثم لم أنتصح
بزمامي للمقام الأصلح
من هداانا بالعير الأفوح
الشرا وهيمي في الهوى وافتضح
حبَّ ثم اغتبقي واصطبحي^(١)
في التجلّي واخفي وجداً أوْبُحِ
قد طما وانبسطي وانشرحي
لمحبه وصلاً وستراً أرخي
واتركي يا نفس سحب السبح
فَعَنُ أبوابه لا تبرحي
ح الذي تهوينه ثم اطرحي
يدني نوْماً من كلابِ نَبِّحِ
فلقد لبْدُ لديهِ مسرحي
ذلك العرف وبالوجد اشطحي
الحق في ذلك يوْماً وامرحي
عن مناك أبداً لا تمزحي
تعلمي ما قد جبا من منح
لاح من كرب لقلب فرح

سَحِّي عيني لا تسحي بالبكاء
وأدل في بئر الحشا جبل انتشا
مَهْ عذولي إنني لا أنثني
كيف أسلو وغرامي قائدُ
وعلى السريّ تجلّي سحرًا
فاشربي يا نفس قد طاب
واعرفي من أنت كما تعرفي الـ
واغرفي من دَنه ثم اغرقِي
واسبحي في بحر بَرِّ بَرّه
واجنحي للقرب فالحب جبا
سَبَّحي حيث بدا وجه المنا
جُبُّك أقرب من جبل الوريد
واهجري من لام إذ لاح صبا
فجبين الحب فجرٌ صادقُ
بيته المعمور طوف في حوله
ومع الهيام هيمي وانشقي
واسرحي ما بينهم إن أذن
ويجدُ فاقطعي ما عاكك
فلقد قربك منه ولم
فرحي ثم وفخري فجره

(١) اغتبقي واصطبحي بينها طباق فالغوق شراب المساء، والاصطباح شراب الصباح.

واشهدي نور جمال باهر	ومعاني القرب في الشرب اشرحي
ودعى الغير ودَّع يا مصطفى	غير من تهوى به واسترح
والزم البكر وبكّر للحمى	أيها البكري ثم انطرح
فمسي يفتح بواب العطاء	قفل باب مثله لم يفتح
وصلاة الله تُتلى دائماً	للحبيب الهاشمي الابطح
وسلام منه يُهدى للذي	جاء يهدي للسبيل الأوضح
وعلى الآل وصحب كلهم	صبح الصبح بوجه أصبح
وكذا الأتباع ما صبَّ شذا	مخني في الحب أضحت منحي

واعلم أن معرفة النفس على ما هي عليه يتوقف على صدق توجهٍ يقربك إليه ووجود دليل تنقاد له، وتلق نفسك سلماً بين يديه؛ ليعينك على نفسك، وينسيك ذكرها حتى عنها تمسك، ويسقيك من الشراب الطهور الذي مزاجه الكافور، ويمنحك كأساً مزاجها زنجبيلاً، ويوردك عيناً تسمى سلسيلاً، يطوف عليك بأقداح الصفا، وينادمك برسائل أهل الوفاء، ويشغلك بالذكر الأتم، وينقلك في المراتب على الوجه الأعم حتى يستغرقك الذكر، ويحضرك مع المذكور بدون استعمال آلة الفكر، وهناك تغيب غيبة شهودية، وتطيب طيبة وجودية، ويدهشك تجلي المذكور، حتى عن الذكر الذي لواءه منشورٌ، فيطلب منك في ذلك المقام المحصور ترك الذكر لكمال الحضور، وربما أنشد لسان حالك لما أعرب وأغرب واصفاً هذه المسالك من كل سالك:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ

وقد أشرنا للمراد من هذه المدامة في اصطلاح القوم الفاترين بكل كرامةٍ في رسالة «بلوغ المرام في جلوة خلوتية الشام»، وأوردنا فيها بعض ما ورد في فضائل الذكر، ثم إنا أفردنا لأقسامه قريباً رسالة سمينها «المدام البكر في بعض أقسام الذكر وترك الذكر»، ولا يزال يريقك مقاماً بعد مقام حتى يدخلك حضرة النور التي تطفئ الأوام وتشفي الأسقام وهناك تعرف نفسك على ما هي عليه، فتعرف إذن سيدك، ويكشف لك أنك بين يديه،

فتلج جنة المراقبة وجنة المحاسبة والمعاقبة، فتحاسب نفسك على الخواطر، وتعاقبها على تفويتها الحظ في هذه المشاهد العواطر. وإذا أراك قد تأهلت للكمال وتحليت برداء الجلال وترديت برداء الجمال استأذن الحق تعالى واستخره وأتبعها مع الإخوان بالاستشارة، فإذا أتاه توقيع الإذن المعلوم ورأى العلامة قد ظهرت له على طريقهم المفهوم إذن أذن لك في بسط بساط النيابة، وصرح في نشر ألوية الدعوة لطلاب الإنابة، وفعل ما أشرنا إليه في نظم القلادة، وأنشد ما أنشده بعض السادة:

أهيمُ بليلي ما حييتُ وإن أمتُ وكلتُ بليلى من يهيمُ بها بعدي

وقد ذكر هذا البيت المبرّد في الكامل، وعزاه إلى نصيب، وأنشده: أهيم بدعد. ثم قال: وأما قول نصيب أهيم بدعد.. إلخ فلم نجد الرواة ولا من يفهم جواهر الكلام له مذهباً حسناً، وقد ذكر عبد الملك ذلك لجلسائه، فكلّ عابه، فقال عبد الملك: فلو كان إليكم كيف كنتم قائلين، فقال قائل منهم: منذ كنت أقول:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ وإن أمتُ فواحرزنا من ذا يهيم بها بعدي؟

فقال عبد الملك: ما قلت والله أسوأ مما قال. فقيل له: وكيف كنت قائلاً يا أمير المؤمنين. فقال: كنت أقول:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ وإن أمتُ فلا صلحتُ دعد لذي خلّةٍ بعدي

فقالوا: والله أنت أشعر الثلاثة يا أمير المؤمنين اهـ.

وليس الأمر إلا كما قيل:

وهذا عليه رونقُ الحظِّ وحدهُ وهذا عليه رونقُ الحظِّ والملكِ

وعندي أن الثاني أشعر والثالث أوعر^(١). وقد تمثل بهذا البيت سيدي محمد الشناوي لما أذن بتلقين الذكر لجماعة: منهم سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله.

(١) ونرى أن الأول مفرط في إثارة ليلاه في أنه يوكل بها من يهيم بها بعد مرقدّه، والثاني مוגل في هيامه حزين لانفراط عقد هذا الهيام بعد رحيله، فهي لا تصلح إلا له. وهو لا يصلح إلا بها، أم الثالث فمفرق في الأنانية

ولما كنت في المحروسة طلب مني تضمينه الولد الروحاني الشيخ محمد الحفناوي، فأجبته، وبلغني أنه شطره، فشطرته اثني عشر تشطيرًا، وذكرت التضمين والتشطير في رحلة مصر المسماة «بالنحلة البصرية في الرحلة المصرية»، وما أحقه هذا البيت بمقام الإرشاد الذي هو لفتيلته زيت؛ إذ في مثله التوكل جائزٌ وفاعله للخير حائزٌ، ثم بعد الإذن الصريح الذي لا يقبل التأويل ولا يرد إلى التلويح هناك يحتاج إلى إخوان صفا وخلان وفا يساعدونه على القيام بالنظام، وإلى عناية ربانية تجذب قلوب الأنام، وليس ظهور الكرامات من شرط هذا المقام؛ إذ قد تخطاها وصيرها وراء ظهره، بل وسائر العلوم والفهوم وكل مرام؛ لأنه قد صار صاحب رسوخٍ في المقام، فهو كما قال العارف الإمام سيدي عمر بن الفارض:

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين تدري الناس أين توجهنا

فإذا كان الناس الذين زال عنهم الالتباس لا يدرون كيف توجهوا فما بالك بغيرهم ممن لم يحسنوا إحسانهم في سيرهم! فإن (ال) في الناس للعهد: أي الذين حفظوا العهد. فإن قلت: وهل يمكن أن يكون الرجل من أولئك الأقوام ويجهل من العارفين المقام؟!

قلنا: لهذا المقام شاهدٌ من كلام أهل التحقيق، وهو قولهم: لا يصير الصديق صديقًا حتى يشهد فيه سبعون صديقًا أنه زنديقٌ. وسبب ذلك لركة المقام ووقوف كلٍّ من الصديقين مع الحكم الظاهر الغالب المالك، واعتبر بمن أنكر عليه الجمهور كالحسين بن منصور، وهذا أمرٌ واقعٌ في سائر الدهور غير منكورٍ بل مشهورٍ، وثمَّ ما هو أغرب من ذلك وأعجب مما هنالك، وهو جهل صاحب المقام نفسه وحاله وعدم معرفته بما اختص به من الفيض القدسي ورواية أهل الكشف ما به حيي وماله في الغيب خبي، وقد سألتني عن إمكان ذلك بعض غرباء المغرب الذين حالهم أغرب من عتقاء مغرب؟ فأجبته عن

والأثرة بحيث يدعو على دعد ألا تصلح لأحد بعد إذا وُريَ الثرى ومن هنا ترى - معي ومع المصنف - أن الثاني أرق عاطفة وأصدق هيام.

ذلك في رسالةٍ وسميتها «بالثغر الدرّي البسام فيمن يجهل من نفسه المقام»^(١) وهو من أهل الرسوخ في المقام.

من مآثر الصالحين

واعلم أن كلّ من ظنَّ أنه بمجرد توجهاته الموافقة لحظوظ نفسه العامل لها بموجب أمرها يكون مجاهدًا ويخلص من حبائل وهمه وحده فظنه فاسدٌ ورأيه كاسدٌ. بل لا بد من الخروج عنها بالكلية والدخول تحت طاعة المربي ذي الأنفاس العلية؛ ليربيه تربية عارف نبيه، ويسقيه شراب التحقيق لا التمويه، ويصيرها عنه أجنبية، وتعود دسائسها الخفية لديه جليلة، ويشاهد نقص مرتبته في حال ارتقائه وانحطاطها عن أقرانه في صفو اجتلائه، ولا يرى أنه تواضع أو تنزل من رفيع المنازل؛ فإن من كان كذلك فهو عن التواضع بمعزل [علم أنها تطبعت]^(٢). وسبب ذلك أن العارف إذا كوشف بها انطوت عليه النفس من ذميم الخصال رأى أمرًا مهولًا؛ فإنها جامعةٌ لكل قبيح يورث البعد والانفصال. ثم إنه إذا جاهد فيها حق الجهاد وردّها بعد إعتابها إلى الانقياد علم أنها تطبعت على ما سلكها عليه وكابدها حتى أوصلها إليه، والطبع يغلب التطبّع، والإنسان يخرج عن تطبّعه ولا يخرج عن طبعه؛ ففي الحديث: «إذا سمعتم أن الجبل زال عن موضعه فصدقوا، وإذا سمعتم أن الإنسان زال عن طبعه فلا تصدقوا فإنه يصير إلى ما جُبِلَ عليه»^(٣) رواه أحمد عن أبي الدرداء، وصحَّ كذا في الجامع الكبير؛ فلهذا لا يزكيها أبدًا ولا يرى أنها صلحت صلاحًا تامًّا سرمدًا، وكل من زكاها مدحها وما زكاها جهادًا فقد حكم عليه حاله، وعلى سكره تمادى؛ فلهذا ترى أكثر الأكابر من الكُمَّل السالكين الطريق الأجل لا يشهدون لهم حالًا ولا مقامًا، ولا يرون أنهم يصلحون أن يكونوا خدّامًا. وكلٌّ من صدر عنهم في هذا الباب

(١) مخطوطة بحوزة الفقير (محمد نصار).

(٢) ما بين المعقوفين لم يرد بالمخطوطة (أ).

(٣) رواه أحمد (٤٤٣/٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/٧)، والعجلوني في كشف الخفا (٣٠٣/١).

من هضم نفوسهم فهو من حيث معايتهم إخباراً بما هو الواقع، فلا يقال فيه تواضع، وأيضاً فإن الخوف من الحق قد قطع أكبادهم؛ لتحقيقهم في حضرة الإطلاق التي يفعل الله تعالى منها ما شاء، ومن هذا المقام بكاء الصديق الأكبر ﷺ، وقوله حين قيل له: أتبكي وقد بشرك رسول الله ﷺ بالجنة؟ فقال: أخاف أن يكون ذلك معلقاً على شيء^(١). ومن هذا المقام قوله: ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل^(٢). ومن غلبة الخوف عليه ﷺ كان يُشم من فمه رائحة الكبد المشوي^(٣).

وكان في وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ خطآن أسودان من كثرة البكاء^(٤). وكان يمر بالآية في ورده فتخنفه العبرة، فيبكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يُعاد، يحسبونه مريضاً^(٥). وكان يسمع حنينه من وراء ثلاثة صفوف^(٦). وكان ﷺ يقول: ليتني كنت كبشاً، أهلي سمنوني ما بدا لهم، ثم ذبحوني، فأكلوني، وأخرجوني عذرة، ولم أكن بشراً^(٧). ولما مرض كان رأسه في حجر ولده عبد الله، فقال: يا ولدي، ضع رأسي على

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الترمذي (٥٥٦/٤)، وأحمد في المسند (١٧٣/٥)، وفي الزهد (٤٢/١)، وابن ماجه (١٤٠٢/٢)، والحاكم في المستدرک (٥٥٤/٢)، وهناد في الزهد (٢٥٨/١)، والبيهقي في الكبرى (٥٢/٧)، وفي الشعب (٤٨٤/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٣/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٤/١)، والديلمي في الفردوس (٧٨/١).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٢٥٣/١)، والبيهقي في الشعب (٤٩٣/١)، وأبو نعيم في الحلية (٥١/١)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥٩/٢)، وابن الجوزي في صفوة الصفوة (٢٨٦/١)، والمباركفوري في تحفة الأحوذى (٤٩/٥).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٥١/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩٥/٧). ويعاد بمعنى يزار.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) رواه الطبراني في الكبير (٢٧/٢٣)، وهناد في الزهد (٢٥٨/١)، والبيهقي في الشعب (٤٨٥/١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٩٧/٥).

الأرض. فقال له عبد الله: وما عليك إن كان على فخذي أم على الأرض؟ فقال: ضعه على الأرض. فوضع عبد الله رأسه على الأرض. فقال: ويلى ويلى أُمى إن لم يرحمني ربي^(١).

ثم قال ﷺ: وددت أن أخرج من الدنيا كما دخلت، لا أجر ولا وزر^(٢).

ثم قال ﷺ: اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط^(٣).

فلما مات رآه العباس ﷺ، فقال: كيف وجدت الأمر يا أمير المؤمنين؟ فقال: كاد عرشي يهوي بي لولا أن وجدت رباً رحيماً^(٤).

وكان إذا مرَّ على مزبلة يقف عندها، ويقول: هذه دنياكم التي تحرصون عليها^(٥).

وكان يقول: أن تضروا بالفانية خيرٌ لكم من أن تضروا بالباقية^(٦).

وكان ﷺ يأخذ النبتة من الأرض، ويقول: يا ليتني كنت هذه النبتة، لم أخلق، ليت أُمى لم تلدني، ليتني لم أك شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً^(٧).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٢/١)، والطبري في تاريخه (٢٥٥/٤)، والبغوي في مسند ابن أبي الجعد (١٣٦/١)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٧٥/٥).

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٥٠)، والبيهقي في الكبرى (٩٧/١٠)، وفي الشعب (٣٩١/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥٢/١)، وابن سعد في الطبقات (٣/٣٥١).

(٣) رواه مالك في الموطأ (٢/٨٢٤)، والحاكم في المستدرک (٩٨/٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥٤/١)، وابن سعد في الطبقات (٣/٣٣٤)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١٢٨/١٠)، وابن عبد البر في التمهيد (١٤٨/١٨).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٤/١).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٤٨/١)، وابن أبي عاصم في الزهد (١١٨/١).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (١٤/١)، والحاكم في المستدرک (٥٢٩/٤).

(٧) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٦/٣٨٤)، والطبري في التفسير (٦٦/١٧)، وابن أبي شيبه في المصنف (٧/٩٨)، والبيهقي في الشعب (١/٤٨٦)، وابن المبارك في الزهد (٧٩/١)، وهناد في الزهد (١/١٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٤١)، وابن سعد في الطبقات (٣/٣٦٠).

وكان ﷺ إذا حصل للناس همٌ يخلع ثيابه ويلبس ثوبًا قصيرًا لا يكاد يبلغ ركبتيه، ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار، وعيناه تذرفان حتى يُغشى عليه^(١).

وكان ﷺ يحمل جراب الدقيق على ظهره للأرامل والأيتام، فقال له بعضهم: دعني أحمل عنك. فقال: ومن يحمل عني يوم القيامة ذنوبي^(٢).

وعن الحسن ﷺ عنه: أن قومًا أتوا عمر ﷺ، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن لنا إمامًا شابًا إذا صلى لا يقوم من مجلسه حتى يتغنى بقصيدة. فقال عمر ﷺ: فامضوا بنا إليه، فإننا إن دعوناه يظن بنا أننا قد غرضنا أمره. فقاموا حتى أتوه، فقرعوا عليه الباب، فخرج الشاب، فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذي جاء بك؟ فقال: بلغني عنك أمرٌ ساءني. فقال: إني أعتبك يا أمير المؤمنين، ما الذي بلغك؟ قال: بلغني أنك تتغنى. قال: فإنها موعظةٌ أعظمُ بها نفسي. فقال عمر: قل إن كان كلامًا حسنًا قلت معك، وإن كان كلامًا قبيحًا نهيتك عنه. فقال:

وفؤادي كلما عاتيته	عاد في اللذات يبغى نصبي
لا رآه الدهر إلا لاهيًا	في تماديه فقد برح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فني العمر كذا باللعب
وشباب بان مني فمضي	قبل أن أقضي منه أربي
ما أرجى بعده إلا الفنا	طبق الشيب على مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبدًا	في جيمي لا ولا في أدب
نفسى لا كنت ولا كان الهوى	أتقى الله وخافي وارهبي

فبكى عمر، ثم قال: هكذا فليغن كل مغنٍ. قال عمر: وأنا أقول:

(١) لم أنف عليه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/١٩٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٥)، والمزي في تهذيب الكمال (١٣/١٠٦).

نفسى لا كنت ولا كان الهوى اتقى الله وخافى وارهبى^(١)

رواه ابن سمعان في الدلائل كذا في منتخب كنز العمال.

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعةً من أوله، وكان يختم القرآن في ركعةٍ كثيراً. وكان يردف غلامه خلفه أيام خلافته، ويخطب وعليه إزار عدنيٌّ غليظٌ بأربعة دراهم، ويطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته، فيأكل الخبز بالزيت، وكان رضي الله عنه إذا مرَّ على المقبرة يبكي حتى تبل لحيته الشريفة^(٢).

وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه على ما حدث به ضمرة الكندي، حيث قال: أشهد بالله لقد رأيت علياً في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغاب عن نجومه يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته الشريفة يتململ تململ السليم: أعني اللديغ، ويبكي بكاء الحزين، فكأنني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا: أبي تغررت أم إليّ تشوّفت، هيهات هيهات عُري، غيري وقد أبنتك ثلاثاً، فعمرك قصيرٌ، ومجلسك حقيرٌ، وخطرك كبيرٌ، أوّاه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق^(٣).

وقال نوفل البكائي: رأيت علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه خرج فنظر إلى النجوم، فقال: يا نوفل أراقدُ أنت أم راقمٌ. فقلت: بل راقمٌ يا أمير المؤمنين. فقال: يا نوفل، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قومٌ اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً وماءها طيباً والدعاء والقرآن دثاراً وشعاراً، رفضوا الدنيا على منهاج عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام^(٤).

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (٥٩٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٨/٢)، وابن حبان في الثقات (٤٥٣/٦)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٦٨/٣)، والمزي في تهذيب التهذيب (٤٥٩/٢٢).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٨٥/١)، وابن الجوزي في العلل (٣١٦/١).

(٤) رواه البيهقي في الشعب (٣٧٢/٧)، وأبو نعيم في الحلية (٧٩/١)، والخطيب في التاريخ (١٦٢/٧)، وذكره القرطبي في تفسيره (٢٣٠/١).

قال الشيخ الأكبر رحمه الله في روح القدس بعد سرده كلام الإمام: يا بحوراً احتوى عليها هذه الألفاظ الراقية ليس لها سواحل ناشدتك الله يا نفس هذا عليّ عليه السلام على تمكنه فيما يدعيه من المقام والحال قد علم المقام وعمله وأحكامه، ووافى الحقائق حقها على أتم الوجوه، ولم ينجح إلى تلويحات الأحوال، كما فعلت أنت وأكثر العارفين في زمانك، الذين انبسطوا بعد قبضهم، وأنسوا بعد هيبتهم، وجمعوا المال بعدما كانوا رموا به، فرجعوا فرجع عنهم، فتخليلوا أنهم في الحاصل وهم في الغائب، انظري يا نفس تمكنه في المعارف وتبرزه في صدر المواقف وضربه بيده إلى صدره، فيقول: إن هاهنا لعلومًا جمّة لو وجدت لها حملة، وهذا عمله في خلوته، يخاطب دنياه بلسان مولاه توحيدًا مكملًا وتمييزًا محققًا، لم يخلط بين الحقائق، ولا داخل الرقائق بعضها على بعض، أحكم الحال والمقام، وعلم أنها ليست بدار مقام؛ فعاملها معاملة الزائل، فعل الحكيم الحازم، لم يحجبه مخاطبته لدنياه بلسان الهجر والقلّة، وتحسره على قلة الزاد وبعد الطريق، وذكر الوحشة بعد تحصيل الأنس، وتغييطه الدارجين على منهاج من وجد شيئًا من غير شهوة فلم يعلق بقلبه كون، ولا يحجبه ذلك كله عن تحقيقه في المشاهدة، بل ذلك تمكين، حيث أعطى المواطن حقها وأنصف ربه ونفسه ودنياه وآخرته فبقي حرًا في وقته: أي كل ذلك حق في نفسه، أنشدك الله يا نفس على معرفتك القاصرة ومشاهدتك هل صاحبت هذا الحال استصحاب هذا الإمام؟! قالت: لا والله، إنما هي بوارق تلمع وأهلة تطلع في أوقات دون أوقات، والغالب الشتات، بل ندعي ومن رأيت من المشيخة التصرف بها والأخذ من طياتها من جهة حقائق الإيجاد السلبي والاستخلاف الذي صح لي، وهو نقص في الحكمة؛ حيث لم أكن مثل عليّ عليه السلام بحكم المواطن، والله ما لي شبيه إلا بمن غاط، وصلى في المرباض في المسجد.

وهكذا كل من وسّع على نفسه في الدنيا من عالٍ ودونه؛ فالكل والله تافه وفي العماية تائه، إنا لله وإنا إليه راجعون.

لولا أني أريد أن أقف على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة، وعدلنا عن هذه المحاضرة؛ فقد رماني هذا الإمام بداهية ما أرى لها ناهيةً وقاصمةً ما أرى لها عاصمةً، وقد أسلمت لبرهان العلم، واستسلمت لسلطان الحكم ومن مثل علي، وهذا مقامه ومن يعادله، وهذا كلامه، لو لم ينبّه لغفلنا عن شرف منزلته إلا بسكون الحصى في كفه لكان ذلك تنبيهًا لكل قلبٍ نبه، فيا سوء ما كنت فيه، جزاك الله عني خيرًا، زدني زادك الله حكمةً وإيمانًا وحفظًا وبيانًا، ثم أخذ يزيد ما يحق أن ينشد فيه قوله ﷺ^(١)، وقد قرب عليه الباب الجامع لأبواب الفتوحات، فتعجب في إيجازه وإعجازه، فقال:

إن هذا هو السحر الحلال أين أنتم أين أنتم يا رجال
فاشربوه لبنًا من ضرعنا شرب صاِدٍ ورد الماء الزلال
ثم قال:

إنما العلم به العلم بنا فلذا نجهله في كل حال
في رجوع الظل علم واضح حكمة الظل تُرى عند الزوال
وكان صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يبكي ويلقي دموعه بكفيه، ويقول: هكذا يرش بها الأرض.

وكان رضي الله عنه يقول: لو تعلمون مني ما أعلمه عن نفسي لحثيم التراب على رأسي^(٢).
وكان يقول: لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنةً وهو يحب ظالمًا لبعثه الله يوم القيامة مع من أحب^(٣).

(١) الضمير في قوله يعود إلى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رحمه الله.

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/٤٩٥).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/٥٦)، وفي الأوسط (٣/٣٧٧)، وابن حبان في الصحيح (٤/١٥٠)، وفي الموارد (١/٧٣)، والدارمي في السنن (١/١٠٤)، وابن أبي شيبه في المصنف (٧/٤٥٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/١٠٩).

ولما مرض ﷺ عاده عثمان بن عفان ﷺ، فقال له: ما تشتهي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا أمر لك بطبيب. قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا أمر لك بعتاء. قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك. قال: أتخشى على بناتي الفقر وقد أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة؛ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»^(١).

وكان ﷺ يقول: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم بالخشية^(٢).

وكان ﷺ يقول: ويلٌ لمن لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات^(٣).

وكان أبو الدرداء عويمر بن زيد ﷺ يقول: والله الذي لا إله إلا هو ما أمن أحد على إيمانه أن يسلب إلا سلب^(٤).

وكان ﷺ يقول: إذا تغير أخوك واعوجَّ فلا تتركه لأجل ذلك؛ فإن الأخ يعوجُّ مرة ويستقيم أخرى^(٥).

وكان هذا مذهب عمر بن الخطاب ﷺ والنخعي وجماعة لا يهجرون عند الذنب، ويقولون: لا تحذثوا بزلة العالم؛ فإنه يزل الذلة ثم يتركها^(٦).

(١) رواه البيهقي في الشعب (٤٩١/٢)، وذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢٦٩/٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤٩٨/١)، وابن حزم في التهذيب (٢٧١/١).

(٢) رواه أحمد في الورع (٨٠/١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٣١٤/١).

(٣) رواه الربيع الأزدي في مسنده (٣٦٦/١).

(٤) رواه العدي في الإبان (١٠٨/١)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٤٣٤/١).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) رواه البيهقي في الكبرى (٢١١/١٠)، وابن المبارك في الزهد (٥٢٠/١)، وابن عدي في الكامل (٦٠/٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (١٤٠/١).

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يحمل حزمة الحطب على رأسه وهو يومئذ خليفة^(١) لمروان يقول:
أوسعوا الطريق لأمركم^(٢).

ولما حضرته الوفاة بكى، فقيل له في ذلك. فقال: أبكي على بعد سفري وقلة زادي،
وأني أصبحت على مهبط جنة أو نار، ولا أدري أيهما يأخذني^(٣).

وكان ورده كل ليلة رضي الله عنه اثني عشر ألف تسبيحة، ويقول: أسبِّح على قدر ذنبي^(٤).
ورفع يوماً على جاريته سوطاً، ثم قال: لولا خوف القصاص لأوجعتك، ولكن
سأبيعك لمن يوفيني ثمنك؛ اذهبي فأنت حرة لوجه الله^(٥).

وكان رضي الله عنه هو وامرأته وجاريتته يقسمون الليل أثلاثاً، يصلي هذا ثم يوقظ هذا،
ويصلي هذا ثم يوقظ هذا^(٦).

وكان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول: يا صاحب الذنب لا تأمن شر
عاقبة؛ فإن ضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب
إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وعدم
اضطراب قلبك من خشية الله وأنت على الذنب أعظم من الذنب^(٧).

(١) يريد رضي الله عنه والياً لمروان، إذ تولى إمارة البحرين في خلافة مروان بن الحكم.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١٥٧)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٣٨)، وابن أبي عاصم في الزهد
(١/ ١٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٣)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/ ٦٩٤)، والذهبي في سير
أعلام النبلاء (٢/ ٦٢٥).

(٤) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/ ٦١٠)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢١).

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٧٤)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٨٢)، وأبو يعلى في مسنده
(١٢٢/ ٣٢٩)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٣٤٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٣).

(٦) رواه البخاري (٥/ ٢٠٧٣)، والبيهقي في الصغرى (١/ ٤٧٣)، وفي الشعب (٣/ ١٢٦)، وذكره ابن حجر في
الإصابة (٧/ ٤٢٢).

(٧) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٢٤)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/ ٧٥٥).

وكان مجرى الدموع في وجهه كأنه الشراك البالي^(١).

وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من عبّاد الصحابة، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عودٌ من الخشوع، وكان رضي الله عنه يسجد ويطيل السجود حتى تنزل العصافير على ظهره، لا تحسبه إلا جدار حائط، وكان رضي الله عنه يحمي الدهر كله ليلة قائماً حتى يصبح، وليلة يحميها راکعاً حتى يصبح، وكان يُسمّى حمامة المسجد^(٢).

وكان سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله، وكان رضي الله عنه يقول: إني لأستحي من الله تعالى أن ألقاه ولم أمشِ إلى بيته. فمشي عشرين سنة من المدينة على رجله، والجنايب تنقاد معه، وكذا فعل أخوه الحسين رضي الله عنه، حتى حجَّ خمساً وعشرين حجة^(٣) هاشياً وجنائبه تنقاد بين يديه^(٤).

وخرج الحسن رضي الله عنه عن ماله لله تعالى مرتين، وقاسم الله ثلاث مرات حتى أنه كان يعطي نعلاً ويمسك نعل^(٥).

وكان أويس القرني رضي الله عنه يلتقط النوى وهو قوته، وقال له رجلٌ: أوصيني. فقال: وصيتي إليك كتاب الله وسنة سيد النبيين والمرسلين وصالحى المؤمنين، وعليك بذكر

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/١٤٥)، وفي الأحاد والمثاني (١/٢٩٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/٢٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٠٧)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/٧٥٦)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/٣٥٢).

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/٣٩٧).

(٣) في المخطوطة (أ): «حتى حج خمساً وعشرين حجة ماشياً» وهو الأدعى للصواب: فلا يعقل أن يحج أمرؤ خمسمائة حجة وهو رضي الله عنه لم يتجاوز السبعين من عمره.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٧)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/٧٦٠).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/٣٨)، وذكره المزي في تهذيب الكمال (٦/٢٣٣)، وابن حزم في تهذيب الأسماء (١/١٦٢)، وابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/٧٦١).

الموت، ولا يفارق قلبك ذكره طرفة، وانصح الأمة جميعاً، وإياك ألا تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تعلم، فتدخل النار^(١).

وكان عليه السلام إذا مشى يتصدق بكل ما في البيت، وقال له هرم بن حبان: أوصني. فقال: توسّد الموت إذا نمت واجعله نصب عينيك إذا قمت^(٢).

وكان عامر بن قيس عليه السلام قد فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة، وفي رواية ثمان مائة ركعة، فلا ينصرف إلا وقد انتفخت قدماء وساقاه، ثم يقول لنفسه: إنها خلقت للعبادة، والله لا عملت بك عملاً حتى لا يجد الفراش منك نصيباً^(٣).

وكان الأسود بن زيد النخعي عليه السلام يجهد نفسه في الصوم والعبادة حتى اخضر جسمه واصفرّ، وكان يقول: إن الأمر جدّ؛ إذا لاموه على تعذيب نفسه في العبادة^(٤).

وكان الربيع بن خيثم عليه السلام يقول: كن وصيّ نفسك يا أخي، وإلا هلكت^(٥). وأصابه الفالج، فقيل له: لو تداويت؟ فقال: عرفت أن الدواء حقّ، ولكن عن قريب لا يبقى الدواء ولا المداوى^(٦).

وكان عمله كله سرّاً لا يطلع عليه أحد إلا أهل بيته، ودخل عليه رجل وهو يقرأ القرآن في المصحف، فغطاه بكمه، وهو يقول: ما لا يُبتغى به وجه الله لِيُضمحل^(٧).

(١) رواه اللالكائي في كرامات الأولياء (١/١١٥)، والحاكم في المستدرک (٣/٤٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٨٥)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٣/٥١).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٣/٥٥).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٢٤٧).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٠٣)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٣/٢٣).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١/٢٥)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٣/٦٠)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٠)، والمزي في تهذيب الكمال (٩/٧٣).

(٧) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٧٦)، والبيهقي في الشعب (٥/٣٥٠).

وكان ﷺ يأتي المسجد يتهادى بين رجلين، فيقول الناس له: إن الله تعالى رخص لك. فيقول: فماذا أصنع في منادي ربِّي وهو يقول: حيَّ على الصلاة^(١).

وكان أبو مسلم الخولاني رحمه الله على جانبٍ عظيمٍ من العبادة حتى لو قيل له: إن جهنم تسعر لما استطاع أن يزيد في عمله شيئاً^(٢).

وكان ﷺ يترك الأكل، ويقول: الخيل إنما تجري وهي ضمروكان ﷺ يقول: من شدَّ رجله في الصلاة ثبت الله رجله على الصراط.

وكان أبو سعيد الخدري رحمه الله يقول: من شرط المتواضع أن يخرج من بيته، فلا يلقي أحداً إلا رأى له الفضل عليه، وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده.

وكان يقول: ما من وسواس نبذ فهو من إبليس يستعان عليه بالذكر والقرآن، وما كان فيه إلحاحٌ فهو من النفس، فيستعان عليه بالصلاة والصوم والرياضة وقيل له: هل في البصرة منافقٌ. فقال: لو خرج منها المنافقون لاستوحشت

وقيل له: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا. فقال: وهل رأيتم فقيهاً قطّ بأعينكم؟! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بذنوبه، المداوم على عبادة ربه ﷻ

وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يقول لنفسه إذا دخل الليل: قومي يا مأوى كل شرٍّ، والله لأدعئك تزحفي زحف البعير. فكان يصبح وقدماه متنفخان، فيقول لنفسه: بذا أمرت ولذا خلقت^(٣).

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٢٤).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٢٤٨). وبالمخطوطة (ب): «وصلى ﷺ الصبح بوضوء العشاء ثلاثين

سنة».

وكان ﷺ يقول: ما فاتتني فريضة في جماعة منذ أربعين سنة، وما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد^(١).

وكان ﷺ يقول: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله^(٢).

وكان الإمام جعفر بن محمد الباقر ﷺ يقول: ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج^(٣).

وكان إذا ضحك يقول: اللَّهُمَّ لا تمقتني^(٤).

وكان ﷺ يحب أبا بكر الصديق ﷺ، ويبالغ في مدحه، ويقول: من لم يقل له: الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا ولا في الآخرة! فبلغه عن جماعة من أهل العراق أنهم يبغضون أبا بكر وعمر، ويزعمون أنهم يحبون آل البيت، فكتب إليهم: إني بريء ممن يبغض أو يكره أبا بكر وعمر، ولو أني وُلِّيتُ لتقربت إلى الله بدم من يكرههما^(٥).

وكان مطرف بن عبد الله الشخير ﷺ يقول: لو أتاني آت من ربي ﷻ، فقال: أنت مخير بين الجنة والنار وأن تصير تراباً لا اخترت أن أصير تراباً^(٦).

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١/٣٨٣).

(٢) رواه الخطيب في الدراية في علم الرواية (١/٧٩)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٢/٨١).

(٣) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٢/١١١).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/١٨٥)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٢/١١٠).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٩٩)، وابن أبي شبة في المصنف (٧/١٧٨)، والبيهقي في الشعب (١/٥٢٠)، وذكره ابن حجر في الإصابة (٦/٢٦١). ولعل هذا خير رد على من يقولون بالبراءة من الشيخين ﷺ.

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/١٩٩)، وابن أبي شبة في المصنف (٧/١٧٨)، والبيهقي في الشعب (١/٥٢٠)، وذكره ابن حجر في الإصابة (٦/٢٦١).

وكان ﷺ يقول: لولا الغفلة في قلوب الصديقين لما توارى من عظيم ما تجلّى لقلوبهم^(١).
وكان صفوان بن محرز المازني ﷺ يقول: ما يغني عني ما أعلم من الخير إذا لم أعمل به؛ فيا ليتني لم أحسن شيئاً^(٢).

وكان ﷺ يقول: إذا وجدت رغيفاً وكوز ماء يوماً بعد يوم فعلى الدنيا العفاء^(٣).
وكان له ﷺ سربٌ يبكي فيه، وكان له بيتٌ، فانكسر من سقفه جزعٌ، فقيل له: ألا تصلحه. فقال: أنا أموت غداً، ولو أن صاحب المنزل يدعني أن أقيم فيه لأصلحته^(٤).
وكان ﷺ لا يخرج من بيته إلا للصلاة، ثم يرجع بسرعة^(٥).

وكان مسعر بن كدام إذا دخل بكى وإذا خرج بكى وإذا جلس بكى وإذا صلى بكى^(٦).

ودخل عليه سفيان الثوري في مرض موته، فقال له: ما هذا الجزع يا مسعر، والله لوددت أني متُّ الساعة. فقال له مسعر: إنك إذن لوائتُ بعملك يا سفيان، ولكني والله كأني على شاهق جبلٍ لا أدري أين أهبط. فبكى سفيان. فقال: أنت أخوف لله ﷻ مني يا أخي^(٧).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٠)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٤)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤٩٦/١).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦١)، وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٠)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٤)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٦٢)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٩).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٥)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ١٤٧)، وابن أبي شيبه في المصنف (٧/ ١٨٢).

(٥) رواه الرافعي في التدوين (٣/ ٣٨٧)، وذكره السلامي في الوفيات (ص ٢٥٦).

(٦) لم أقف عليه.

(٧) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢١٢)، وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١٤٨).

وكان أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي رحمته الله يقول: لو أن رجلا في علم ابن عباس . وهو راغب في الدنيا لنهيت الناس عن مجالسته؛ فإنه لا ينصحك من خان نفسه

وكان أبو علي بن عاصم الأنطاكي رحمه الله تعالى يقول: ما كنت أظن أن أدرك زماناً يعود فيه الإسلام غربياً. فقليل له: هل عاد الإسلام غربياً؟! قال: نعم، أن ترغب فيه إلى عالم تجده مفتوناً بالدنيا، ويحب الرئاسة والتعظيم، ويأكل الدنيا بعلمه، ويقول: أنا أولى بها من غيري، وإن ترغب فيه إلى عابدٍ معتزلٍ في جبل تجده مفتوناً جاهلاً في عبادته مخدوعاً لنفسه ولإبليس، قد صعد إلى العبادة وهو جاهلٌ بأدناها؛ فقد صارت العلماء والعباد سباعاً ضاريةً وذئاباً مختلصة

. فهذا وصف أهل زمانك من أهل العلم والقرآن ورعاة الحكمة؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وكان حمدون بن أحمد القصار النيسابوري رحمته الله يقول: من نظر في سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درجة الرجال.

وقيل له: ما بال كلام السلف أقطع من كلامنا؟! فقال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضاء الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا واعتقاد الخلاق لنا.

وكان رحمته الله يقول للفقهاء: إذا أشكل عليكم علمٌ فاسألوا عنه القوم، لكن بذل النفوس وإظهار الضعف والاعتراف بالجهل يزيل عنكم الإشكال.

ولو تتبعنا ما نقل عن الصحابة أركان الإسلام والتابعين الأئمة الأعلام وغيرهم إلى عصرنا لأدّى إلى الملل والملام؛ فإن محل هذا الكلام الطبقات وتواريخ الأماجد الكرام، والمراد تنبيه الغافل وردُّ الزامل الذي هو عن مواطن اليقظة غافلٌ، وإذا كان هؤلاء السادة الفائزين بكل جمالٍ ومهابةٍ وجلال المستغرقين في الشهود الصادقي للهِجة في الجلالة، العاملين العالمين الكاملين الدلالة، الراقين إلى معالي المقامات في كل حالة، فما الذي يقوله أو

يصف به حال حثالة الحثالة ونخالة النخالة، المشبه في أطعاه بأشعب: لتعلقه بالأمور المحالة، وهل نشأ هذا الجد والكد من هؤلاء السادة إلا من فرط معرفتهم بربهم وبما هو الأمر عليه وبمعرفتهم نفوسهم وقبح ما تدعو إليه؛ فصدموها بالمجاهدة، وقرعوها بمقاريع المكابدة حتى كأنها ازدحم الضدان.

ومن المعلوم أن الخوف على قدر المعرفة؛ ففي الحديث: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية»^(١)، وكان سيد أهل التقدم والإقدام قام من الليل حتى تورمت منه الأقدام، فكيف حال أهل الاقتداء والاتباع من الأصحاب والأتباع؛ ففي الصحيحين في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تورمت قدماه، فقلت له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً. قالت: فلما بدن وكثر لحمه صلى جالساً، وإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع»^(٢).

قال ابن بطال شارح البخاري: في هذا الحديث أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أثر ذلك في بدنه؛ لأن النبي ﷺ إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له فكيف بمن لم يعلم بذلك فضلاً عما لم يأمن أنه استحق النار اهـ.

وقال بعض المفسرين: قام ﷺ طول ليلة على قدميه، فلما تورمت قدماه كان يقف على أطراف أصابعه، فأنزل الله عليه: ﴿طه﴾ (طه: ١): أي طأ الأرض بكل قدمك، واسترح مما أنت فيه؛ فإننا ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. ذكره ابن حجر رحمته الله في شرح الحمزية.

وإذا كان هذا شأن سيد الأنام وسند الخاص والعام وأصحابه الكرام وأتباعه العظام فبمن اقتدى أهل الدعاوى الكاذبة والمساوئ الجاذبة حتى مالوا إلى البطالة والكسل، وهبطوا إلى حضيض الفشل، وقنعوا بسفساف المقال، وحملوا من الأوزار أعظم الأثقال،

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٥٩)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣١٣)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ١٢٠).

(٢) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١١/ ٢٤١)، وذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (١/ ١٩٥).

وسموا أنفسهم بالعشاق والعارفين الحذاق والموحدين الغرباء والفقراء الأدباء، فإننا لله وإنا إليه راجعون من استيلاء الشيطان وإغوائه ووحيه الموحى به إلى قلوب أخصائه، أعوذ بوجه الله الذي من استجار به كُفي ووُقي وشُفي من شرِّ الشيطان ووساوسه والنفس ودسائسها والهوى وحبائله والدنيا وزينتها، ومن جهلنا بتقصيرنا وتفريطنا، ودعوانا: اللَّهُمَّ احفظ علينا ديننا، وسلِّم وقت النزاع إيماننا، وثبِّتنا على منهج الاستقامة، واقطع عنا كل قاطعٍ يقطعنا عنك بجاه من ظللته الغمامة، واجعلنا ممن لنفسه عرف، وبذنبه اعترف، واحترز من شيطانه الرجيم، وتاب إذا هفا واقترف، وجعل التجائه في كل أحواله إليك وتعويله في كل آنٍ عليك، وارزقنا حبَّك وحبَّ من ينفعنا حبُّه عندك، بجاه من اخترته من خلقك ومنحته رفدك، واجعل حبَّ آل بيت نبيك شعارنا، وحبَّ جميع أصحابه دثارنا؛ لنفوز بالسلامة في الدارين، ونحوز وافر الكرامة من غير مين.

من ختام المنن للشعراني:

ولنذكر المنَّة التي ختم الإمام الشعراني (رحمه الله) بها مننه، ونجعلها مسك الختام لمناسبتها ما أسلفناه من الكلام.

قال (رحمه الله): ومما منَّ الله به عليّ وتفضَّل كثرة حلمه عليّ وعدم معاجلتي بالعقوبة على شيءٍ من ذنوبي التي لا تُحصى عددًا، مع أني قد استحققت عند نفسي خسف الأرض بي والمسح لصورتي لولا حلمه تعالى وإمهاله. وهذه النعمة المباركة من أعظم ما منَّ الله تعالى به عليّ بعد نعمة الإسلام والعافية، كما ورد مرفوعاً: «سَلُّوا الله العفو والعافية؛ فإنَّه ما أعطى عبداً في الدنيا بعد الإسلام مثلها»^(١).

وبهذه النعمة يكون ختام الكتاب؛ إذ هي أكبر نعمةٍ يجب على العبد الاعتراف بها؛ لأنها محطُّ رجال الأولين والآخرين، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة أحدٌ بعمله. قالوا: ولا

(١) رواه الحميدي في مسنده (٣/١)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٣٧)، والمحِب الطبري في الرياض النضرة (٢/١٢٩)، والحسيني في البيان والتعريف (٢/٧٠)، والعجلوني في كشف الخفا (١/٥٥٨).

أنت يا رسول الله قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته^(١).

وكان سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمته الله يقول: ينبغي للعبد أن يختم أعماله كل يوم بالاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال ٢٣)

وتقدم قوله أيضًا في مقدمه الكتاب: لا يبلغ العبد كمال الشكر لله حتى يرى نفسه أنها ليست بأهل أن تنالها رحمة الله ﷻ. يعني وإنما رحمة الله لنا من باب المنّة والفضل، وفي القرآن العظيم: إن يوسف عليه السلام قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

فذكر ما أنعم الله به عليه؛ قيامًا بواجب الشكر له تعالى، ثم خاف أن يكون ذلك استدراجًا من حضرة الإطلاق التي يفعل الله منها ما يشاء؛ فسأل ربه أن يتوفاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين، هذا مع كونه معصومًا، ولكن من شأن الخواص أن يهضموا أنفسهم بين يدي الله ﷻ لاسيما عند الانتقال من هذه الدار؛ فإن ذلك متعين، ولكل وقت حال يناسبه. كما أن اللائق بمن وقع في معصيته أن يقول: سبحان الحليم أو لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، أو أستغفر الله العظيم ونحو ذلك، ولا يناسبه قراءة نحو ولا أصول ولا فروع؛ فقه عاطلة، فافهم، ولا تظن يا أخي أن قولي عن نفسي: إني قد استحققت الخسف بي لولا حلم الله تعالى من تواضع وهضم لنفسي وإنما ذلك قول بحق وصدق؛ فإن الله تعالى قد خسف بقوم كانوا أقل منّا ذنوبًا اهـ.

فروى الإمام أحمد والبخاري ومرفوعًا: «بيننا رجلٌ ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٢).

(١) رواه الطبراني في مسند الشاميين (١/٤٠٢)، والخطيب في التاريخ (٧/٨٤)، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/٧٠٥)

وروى البزار ورواته رواية الصحيح مرفوعاً: «أن رجلاً كان في حلة حمراء يتبختر أو يختال فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(١).

وروى الشيخان مرفوعاً: «بينما رجلٌ يمشي في حلةٍ تعجبه نفسه إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٢).

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن ذلك كان في زقاق أبي هب في مكة، ومن رآه حين خُسف به العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه»^(٣).

وروى الترمذي وغيره مرفوعاً: «بيت قومٌ على هوى ولعبٍ إذ خسف الله بأولهم وآخرهم»^{(٤) (٥)}.

فانظر يا أخي إلى هذه الأمور التي خسف الله بأهلها تجدها دون ذنوبنا بيقين؛ فلا يستبعد وقوع الخسف في هذا الزمان المبارك الحال؛ إلا كل غافل عن الله تعالى وعن العمل بأحكامه والأدب معه، والله ثم والله ثم والله لو ذاق أحدنا شيئاً من الأدب والحياء مع الله تعالى لوجد ذنوبه من كثرتها لو أنها قسمت على جميع الأهل لاستحقوا بها الخسف والهلاك، ولكن سبحان من سبقت رحمته غضبه. ويؤيد ما قلناه قوله تعالى في ماعز: «لقد

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٣٩٠)، والبزار في مسنده (٦/ ٣٨٨).

(٢) رواه البزار في مسنده (٤/ ١٢١)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٨٢)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (١١/ ٢١٩)، وأبو عوانة في مسنده (٥/ ٢٤٤)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٣٠).

(٣) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٢)، ومسلم (٣/ ١٦٥٤).

(٤) رواه البزار في مسنده (٤/ ١٢١)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٥٧)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٢٥)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٥٧).

(٥) رواه البخاري (٢/ ٧٤٦)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٤/ ٧٦)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٥/ ٤٤٦)، وابن حبان في الصحيح (١٥/ ١٥٥)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٣٤).

(٦) وفي المخطوطة (أ): «بيت قوم على هوى ولعب فيصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير».

تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوْسَعَتْهُمْ^(١)، فكما كانت التوبة من بعض الناس إذا قُسمت على أهل الأرض لوسعتهم فكذلك القول في الذنب الواحد من بعضٍ لو قُسم على جميع أهل العصر لكفاهم سوءاً ومقْتاً.

وإيضاح ذلك أن من أطاع الله تعالى فقد أحسن إلى جميع الخلق، ومن عصى الله تعالى فقد أساء إلى جميع الخلق، كما يعرف ذلك الكُمَّل من العارفين. فلا يتعقلون قطّ أنه نزل على أحدٍ من أهل إقليمهم بلاءٌ إلا بواسطة ذنوبهم دون ذنوب ذلك الأحد حتى يكاد يذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ومن خلقه لحجابه عن شهود ذنوب الناس، فيرى أنهم أخذوا به فقط، وذنوب غيرهم كلها مغفورةٌ، وقد ذقت هذا المقام والله الحمد، وورثته عن سيدي عليّ الخَوَاصِ رَحِمَهُ اللهُ وَعَنْ سَيِّدِي عَلِيِّ الضَّرِيرِ رَحِمَهُ اللهُ.

وصاحب هذا المشهد لا يصير له رأسٌ تُرفع بين الناس بل يستحي أن يجالس أحدًا من المسلمين لاسيما في المحافل. وقد قدمنا في هذا الكتاب أن مالك بن دينار كان يستحي أن يرفع رأسه عن الأرض، وأنه كانت السحابة تمرُّ به وهو على الحديث فيقطعه، ويقول: اصبروا حتى تمرَّ هذه السحابة؛ فإنِّي أخاف أن يكون فيها حجارةٌ ترجمنا بها. وأنهم طلبوه مرة؛ ليخرج معهم لاستسقاء، فقال لهم: أخاف أن تمطر حجارةٌ بسببي. ولم يخرج رَحِمَهُ اللهُ. وكذا كان السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ في الخوف، وكان إذا استيقظ من نومه يمسح وجهه بيده، فقليل له في ذلك. فقال: أخاف أن يكون الله قد مسح صورتي صورة خنزيرٍ أو كلبٍ وأنا نائم عن حضرته

وكان يقول: أشتي أن أموت في بلدٍ غير بغدادٍ. فقليل له في ذلك. فقال: أخاف ألا يقبلني قبري، فأفتضح، ويسيء الناس ظنهم بأمثالي، وكانت المرأة لا تفارقه، فينظر فيها

(١) رواه مسلم (١٣٠٢٢/٣)، والترمذي (٥٦٠٤/٤)، وأبو داود (١٣٤٠٤/٤)، والنسائي في الكبرى (٢٧٦/٤)، وأحمد (٣٩٩/٦)، والطبراني في الكبير (٣٩٦/١١)، وفي الأوسط (١١٨/٥)، وابن سعد في الطبقات (٣٢٣/٤)، والدارقطني في السنن (٩١/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢١٤/٨).

وجهه، ويقول: أخاف أن يكون وجهي قد اسودَّ من سوء ما أتعاطاه. وكثيرًا ما كان ينظر في طاقة أنفه إذا فقد المرأة ﷺ.

وتقدَّم في هذا الكتاب أيضًا عن سيدي عبد العزيز الديريني ﷺ يقول: إن جماعةً سألوه كرامة تقوِّي اعتقادهم فيه؛ ليأخذوا عنه الطريق. فقال: يا أولادي، وهل ثمَّ كرامةٌ لعبد العزيز في هذا الزمان أعظم من أن الله تعالى يمسك به الأرض إذا مشى عليها ولا يخسفها به وقد استحقَّ الخسف في سنين اهـ.

وهذا الذي ذكرته عن السريِّ السقطيِّ وعن سيدي عبد العزيز ﷺ هو صورة حالي أيضًا بحمد الله تعالى، وما أرى جميع ما اطلَّعت عليه من العلوم والأسرار وعملته من الطاعات والخيرات إلا في كفة السيئات يوم القيامة، وإنما نشكر الله تعالى على ذلك من حيث الاسم فقط، ولو قدر أنني قد رأيت أي ناجٍ في بعض الأوقات؛ فإنما ذلك غرورٌ بنفسي أو استدراجٌ، وقد سبقني إلى نحو ذلك الحسن البصري ﷺ؛ فإنه كان يقول: والله لو حلف حالفٌ أن أعمال الحسن البصري أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له: صدقت يا أخي؛ فلا تكفِّر عن يمينك اهـ.

ومن المشهور عن سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ أنه قال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تعالى من باب التحدث بالنعمة.

ثم لما حضرته الوفاة بكى، وقال: ليت أُمِّي لم تلدني. وكانت رأسه على مخدة، فقال: أنزلوا رأسي من على المخدة. فأنزلوا رأسه عن المخدة وأوضعوها على الأرض. فذلك الحق الذي ينتهي أمر العبيد إليه، فلعل الله يرحم ذلي بين يديه اهـ.

مسك الختام

قال: فكان ختامي لهذا الكتاب بهذه النعمة تأسيًا بسيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ، وكذلك وقع لإمامنا الشافعي ﷺ أنه كان ينشد حال صحته، ويقول:

ولولا الشُّعْرُ بالعلماء يزري لكنك اليوم أشعر من ليدي
وأشجع في الوغى من كل ليث وآل مُهَلَّبٍ وأبي يزيدي
ولولا خَشْيَةُ الرحمن ربي حسبتُ النَّاسَ كلَّهم عبيدي

ثم لما دنت وفاته سئل كيف حالك يا أبا عبد الله؟ فقال: كيف حال من أصبح من الدنيا راحلاً ولأهلها مفارقاً ولسوء عمله ملاقياً، ثم أنشد:

ولما قسا قلبي وضافت مذهبِي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربِّي كان عفوك أعظماً
فذنبي عظيمٌ من قديمٍ وحادثٍ وعفوك يا ذا الجود أعلى وأجسماً^(١)

فعلم مما قررناه أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له عينان؛ لينظر إلى الله تعالى بعين الرجاء والخوف، ولولا أمر الله تعالى عبده بشكره على ما أعطاه لما تجرأ على ذكر شيء من المفاخر والمآثر؛ لعدم الأمان من السلب وسوء الخاتمة، نسأل الله حسن الخاتمة أهـ.

فتأمل رحمك الله ما جلوته عليك في هذه الرسالة التي إن شاء الله لدرن الدسائس النفسية غسالة، وأنا أخشى بل الذي يغلب على الظن أن تكون هذه الرسالة من جملة دسائسها، وأن أكثر ما جلوته من الخبايا من بعض مقصورات عرائسها، لكن لما كانت الحكمة ضالة المؤمن لزم تلقيها من العدو وغيره والتفحص عن مهيديها؛ ليعرف شره من خيره؛ فإن للشيطان علوماً وأساراً حقة يلقيها على القلوب، ويقنع من أهلها بمجرد جهلهم أنها منه، لكن الكَمَل بعد أن يتلقوها منه يُعَلِّمونه أنهم فهموه ولم يأخذوا ما ألقى لهم إلا من الله، فيرجع خاسئاً خاسراً في صفقته يتجرع مرارات ردّه وحزازة غصته. وإذا كان اللعين يطمع في إضلال كَمَل الأولياء فما بالك بالضعفاء الأغبياء! والنفس أقرب منه في إدخال دسائسها على صاحبها، بل أغلب أحيانه لا يتوصل إليه إلا من بابها؛ فهي مثال

(١) بالمخطوطة (ب): «وعفوك يا ذا الجود أعلى وأعظماً» وهو قريب من المعنى المراد، بيد أن هذا عيب من عيوب الغافية وهو ما يعرف بالإبطاء.

الحية التي دخل في فيها وتوصل للدخول على الأب الأول في الجنة، فكانت مطيته هنا كما كانت تلك مطيته هناك، أعاذنا الله منهما بمنه وكرمه^(١).

ونسأل الله تعالى أن يخلصنا من شرور نفوسنا وسيئات أعمالنا، ويلهمنا رشدنا ويصلح منا سائر أحوالنا، [اللَّهُمَّ ارزقنا أنفسنا مطمئنة تؤمن بقلائك وترضى بقضائك وتقع بعطائك، آت نفوسنا تقواها وزكّها فأنت خير من زكّاها]^(٢)، اللَّهُمَّ إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا وإنه لا يَغفر الذنوب إلا أنت؛ فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم، اللَّهُمَّ اغفر لي ذنبي، وطيب لي كسبي، ووسّع لي في خلقي، وقنّني بما قضيت لي، ولا تُذهب نفسي إلى شيء صرفته عني. اللَّهُمَّ أرنا الحقّ حقًا وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، عرّفنا نفوسنا؛ لنعرف قدوسنا. ردنا إليك ردًا جيلًا، ولا تجعل للأعداء علينا سبيلاً، اللَّهُمَّ وفقنا لمراضيك، وجنبنا معاصيك، واجمعنا عليك، وفرقنا عليك، ولا تجعل حوائجنا وأحبّتنا وأصدقائنا^(٣) إلا إليك، ومُنّ علينا بالحضور والوقوف بين يديك، وأزل عن القلب غواشي البعاد، وأرحه من رغب الشاء قبل يوم التناد. اللَّهُمَّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني، اللهم قني شرّ نفسي، واعزم لي على رشدي في أمري، اللَّهُمَّ اغفر لي ما أقاسي من العناء؛ فإني قليل الصبر عند البلية، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أولي التكریم وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله ربّ العالمين.

وقد أنجزت هذه الرسالة جعلها الله خالصةً لديه تجاه صاحب الرسالة ليلة الأحد التاسع أو العاشر من شهر ربيع الأول المبارك عام ألف ومائة وسبعة وثلاثين بعد العشاء،

(١) إشارة إلى ما ذهبت إليه بعض التفاسير من دخول إبليس الجنة عن طريق الحية. ومن ثم وسوسته إلى آدم عليه السلام ليأكل من الشجرة. والقصة معلومة.

(٢) الدعاء ما بين القوسين لم يرد بالمخطوطة (أ) في هذا السياق وإن كان قد ورد بنصه في الصفحة التالية من المخطوطة.

(٣) هناك محذوف جوازاً تقديره «وحوائج أحبّتنا...» وحذف العلوم جائز.

وكان الفراغ من نسخها يوم الخميس المبارك قبيل الظهر ثامن يوم من شهر شوال من شهور سنة ثلاث وستون ومائة وألف من هجرة من له العزُّ والشرف، وصَلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

وكان تمام رقم هذه النسخة المباركة على يد كاتبها الفقير الحقير المعترف بالعجز والتقصير المحتاج إلى مالكة وخالقه ورازقه الراجي عفو ربِّه الهادي أحمد حسن البنهاوي البغدادي غفر الله ذنوبه وستر في الدارين عيوبه، آمين، وذلك في سنة (١٢٩٦) من هجرة المصطفى ﷺ^(١):

مَا جَنَسْتُ فِي خَشِيَّةٍ وَقُرُوبٍ	كُتِبْتُ بِيَدِي هَذَا الْكِتَابَ وَإِنَّهَا
وَالْأَلَّ كَلَّ خَطِيئَتِي وَذُنُوبِي	وَاعْفِرْ إِلَهِي بِالْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ
بِحُلَا الْمَكَارِمِ يَا أَجَلَّ حُسُوبٍ ^(٢)	وَاحْفَظْ بِفَضْلِكَ مَنْ أَعَانَ وَحَلَّهُ

(١) ورد في ختام المخطوطة (أ) أنها تمت عام ١١٦٣ لسبعة عشر خلت من شهر صفر المبارك على يد الحقير الذليل، المعترف بالذنوب والتقصير خويدم خادم الأستاذ الشيخ محمد الحفناوي محمد غفر له المولى العظيم بجاء النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم له ولوالديه ولأقاربه، ولمشايقه، ولإخوانه، وأحبابه ولن دعا له بالمغفرة وحسن الخاتمة.

(٢) لم ترد هذه الأبيات بالمخطوطة (أ). وإنما ختم ناسخها دعاءه بهذا البيت

إِنْ تَلَقَّ عِيَاءً فَلَا تَعْجَلْ بِسَبْكِ لِي إِنْ أَمَرْتُ لَسْتُ مَعْصُومًا مِنَ الزَّلَلِ

مَجْمُوعَاتُ الْكِتَابِ

٥	مقدمة التحقيق
٩	أهمية الكتاب
١٠	وصف النسختين
١٠	ترجمة المصنف
٢٤	تعريفات النفس
٣١	أقسام النفس
٣١	في مجاهدة النفس وكونها أعدى عدو للمرء
٣٨	أنواع من موت النفوس
٤٠	من جوامع الكلم حول النفس
٤٣	في مسميات النفس وأحوال اكتسابها تلك المسميات
٤٤	بين السالك والمتمكن
٤٧	ضرورة الشيخ المري لتعذيب نفس السالك
٤٨	من هو المرشد المتمكن؟
٤٩	من عارف لعارف
٤٩	آداب الطريق ومعاملة الشيخ
٥٢	نصائح للمريد
٥٤	أمثلة النفس
٥٦	عز الدين بذل النفوس
٥٧	التنبيه لمخالفة النفس ومكرها
٥٩	في كون حب الرياسة أشد ما تأبى النفس تركه
٦٢	بين الأقدار والأعمال
٦٧	النفس خد بين الشيطان
٦٧	بين الجوع والصوم
٦٩	جملة صالحة من النقول في جهاد النفس
٧٢	الجهاد الأكبر
٧٤	النفس الأمانة بالسوء

٧٦	إشارات في معنى الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات
٨٦	الحاجة إلى المرشد
٨٩	سمات المرشد
٩١	أحوال الشيوخ
٩٤	شيوخ ليسوا على الجادة
٩٦	من هم الأبدال؟
٩٩	مأرب الإخوة في الله تعالى.
١٠١	في ضرورة التثبت من المرشد
١٠٣	فوائد العزلة
١٠٥	فوائد الصمت
١٠٥	عوائد الجوع والسهر
١٠٧	تجارب الصالحين في خريق رب العالمين
١٢٣	رجال الله تعالى.
١٢٨	أنظار دقيقة لسيدي أبي السعود بن أبي العشائر في فقه النفوس
١٣٢	متى تخالف النفس؟
١٣٦	رسالة اختصرها المصنف لأبي المعالي الهمداني في تشبيه جسم المؤمن بالمدينة الحصينة.
١٤٢	في إقامة الجسم وتفصيله من جهة كونه مسلماً للروح
١٤٤	ونفس وما سواها.
١٤٨	سلوك المريد مع المرشد
١٤٩	جملة من دسائس النفوس ساقها المصنف ﷺ سوق البصير الخبير
١٧٢	مطلب علل الطريق وأمراضها ودواؤها
١٧٢	علل النفوس
١٧٦	مطلب في أمراض الأفعال
١٧٧	مطلب في أمراض الأحوال
١٩٠	عود على بدء.
١٩٩	من وصايا الرسول ﷺ.
٢٠٢	تحقيق ما نسب إلى سيدي الشيخ الأكبر من القول بإيمان فرعون

٢٠٤	عقيدة سيدي محيي الدين بن عربي المطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة
٢٠٩	الشهادة الثانية
٢١٦	وصف سيدي أبي الحسن الشاذلي حال ابن تيمية
٢٢٠	المحبة أصل من أصول الطريق
٢٢٧	مطلب في أن الشيعة ليسوا من شيعة آل البيت بل هم شيعة إبليس
٢٣٩	تنبيه: النجاة لمن حفظ الأمانة
٢٤٩	الرجال ثلاثة
٢٨٩	من مآثر الصالحين
٣٠٥	من ختام المنن للشعراني
٣٠٩	مسك الختام

صدر عن دائرة الكرز والدار الجودية للنشر والتوزيع

من عيون كتب التصوف والعقيدة الإسلامية

شرح عقيدة الإمام الغزالي

لأبي العباس أحمد بن زروق الفاسي

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

مفتاح المعية
في دستور الطريقة النقشبندية

للإمام عبد الغني النابلسي

مُحَقِّق

الأستاذ الدكتور جودة محمد المهدي

نائب رئيس جامعة الأزهر

دكتور محمد عبد القادر نصار

جامعة عين شمس

المطلب التام السوي
شرح حزب الإمام النووي
لسيدي مصطفى البكري
تحقيق

دكتور محمد عبد القادر نصار

القول المبين
في الرد عن الشيخ محيي الدين

سيدي عبد الوهاب الشعراني

تحقيق

د. محمد عبد القادر نصار

